غراهام غرين

القنصل الفخري



ترجمة: أسامة منزلجي

علي مولا

* القنصل الفخري
* غراهام غرين
* ترجمة: أسامة منزلجي
* الطبعة الأولى عام ٢٠٠٢
* دار الجندي - دار الهفاف للطباعة
والنشر والإعلام والتوزيع
سورية - دمشق - ص. ب: ٣٣٤١٨
هاتف: ٥١١٤٨٤٢
فاكس ٣٣١٧٠٠٨

غراهام غرين

القنصل الفخري

ترجمة: أسامة منزلجي

تنبيه

لاتمتُّ أي شخصية من شخصيات هذا الكتاب إلى أي شخصية حية، بدءاً بالسفير البريطاني وانتهاءً بالعجوز خوسيه. المقاطعة والمدينة في الأرجنتين اللتان تقع الأحداث الرئيسية بهما تحملان، طبعاً، أوجه تشابه مع المدينة والمقاطعة الحقيقيتين. وقد تركتهما دون تسمية لأني رغبتُ في أن أتيح لنفسي مزيداً من الحرية ولكي لاأكون مقيَّداً بدقةٍ بمخططِ مدينةٍ بعينها أو بخريطةِ مقاطعةٍ بعينها.

الجزء الأول

الفصل الأول

وقف الدكتور بلار في المرفأ الصغير على نهر البارانا بين الخطوط الحديدية والرافعات الصفراء، يراقب كتلةً أفقيةً من الدخان تمتد فوق سهل التشاكو، بين شُعَب شمسِ الغروبِ الحمراءِ كشريطٍ على علمٍ وطنيّ. ألفى الدكتور بلار نفسه وحيداً في تلك الساعة فيما عدا بحاَّر واحد في وضعِ انتباهٍ خارج المبنى الملاحي. كان مساءً يُعيدُ إلى ذاكرةِ بعضِ الناس، بفعل خليطٍ مُبهم من الضوءِ الباهتِ ورائحة نباتٍ مجهول، إحساساً بالطفولةِ وبأملٍ آتٍ، وإلى أناسٍ آخرين إحساساً بشيءٍ ضاعَ وباتَ منسياً تقريباً.

الخطوطُ الحديديةُ، والرافعات، والمبنى الملاحي ـ كانت أولى الأشياء التي شاهدها الدكتور بلار في بلَدِهِ المُتَبنَّى. إنَّ السنين لم تُغيِّر شيئاً، ماعدا إضافة خط الدخان الذي لم يكن قد تشكل بعدُ على طول الأفق في الطرف القصيّ من البارانا لدى وصوله أول مرة. والمصنع الذي نَفَثَهُ كان مبنيّاً حين قَدِمَ من الجمهورية الشمالية مع أمه قبل أكثر من عشرين عاماً لأداء الخدمة الأسبوعية من باراغواي. تذكَّر أباه عندما وقف على رصيف الرسو في العاصمة أسونسيون بجانب المعبر القصير للقارب النهري الصغير، طويلاً أشيبَ الشعر وغائرَ الصدر، ووعد بتفاؤل آليّ أن يعود اليهم سريعاً. وفي غضون شهر ـ أو لعلها ثلاثة ـ صرَّ الأمل في حنجرته كآلة صدئة.

لم يَبدُ للصبي ذي الأربع عشرة سنة غريباً أبداً أن يُقبِّل والده زوجته على جبينها بنوعٍ من الوقار، وكأنها أمٌّ أكثر منها شريكةُ فراش، وإنْ اتّسم قليلاً

كان يجيبهم مع ابتسامةٍ خالية من المعنى ـ أو زائفة ـ مثل تعبير وجه أبيه عن الأمل، قائلاً: «لعله ليس صحياً بالنسبة إليّ بما يكفي لتكوين مستقبل مهنيّ أفضل».

في بوينس ايريس، خلال سنوات فراقهم الطويلة، لم يتلقيا إلاّ رسالة واحدة من والده. كانت معنونة على الغلاف إليهما معاً، senora e hijo[1] والرسالة لم تأتِ بالبريد، بل وجداها مدسوسة تحت الباب في شقتهما في مساء يوم أحد بعد وصولهما بأربع سنوات، لدى رجوعهما من دار للسينما حيث شاهدا فيها قصة فيلم «ذهب مع الريح» للمرة الثالثة. ولم تكن الأم لتدع فرصة مشاهدة عرضٍ جديد له، ربما لأن الفيلم القديم والنجوم القدامى كانوا يجعلون الحرب الأهلية تبدو خلال بضع ساعات شيئاً جامداً وغير خطير. فكلارك غيبل وفيفيان لي[2] كانا يعودان للنهوض مرة أخرى على مرّ السنين رغم أنف الرصاص كله.

كان المغلف شديد الاتساخ ومجعّداً وكُتب عليه: «يُسلّم باليد»، لكنهما لم يعرفا قط بيدِ مَنْ. لم يكن مكتوباً على ورقهم القديم نفسه، الذي كان مدموغاً بأناقةٍ وبأحرف طباعية غوطية بإسم الـ estancia[3]، بل على صفحات مسطّرة من دفتر رخيص. كانت الرسالة مفعمة، كما كان الصوت هناك على رصيف الميناء، بالأمل المزعوم ـ كَتبَ والده يقول إن ثمة «أموراً» ستسوّى قريباً، ولم تكن مؤرّخة، لذا ربّما كان «الأمل» قد استُنزف قبل وصول الرسالة بوقتٍ طويل لم يسمعا أي شيء منذ ذلك الحين عن والده، لم يصلهما حتى أي تقرير أو إشاعة عن سجنه أو عن موته. وقد أنهى الرسالة بعبارةٍ تقليدية على الطريقة الأسبانية «ومن دواعي ارتياحي العظيم

---

(١) أي السيدة والولد.
(٢) هما بطلا الفيلم المذكور.
(٣) أي المزرعة.

أن يكون أكثر من أُحِبُّهما في هذا العالم سالمين، زوجكِ المُحب ووالدكَ، هنري بلار.

لم يتمكن الدكتور بلار من أن يحدِّد بدقة مدى التأثير الذي تعرَّض له ليعود الى الميناء القائم عند النهر الصغير من قِبَل إحساسه بأنه هنا سيعيش بالقرب من حدود البلد الذي ولد فيه وحيث دفن والده ـ ولعله لن يعرف إن كان ذلك قد حدث في سجن أو في رقعة من الأرض. وليس أمامه إلا أن يقود سيارته بضعة كيلومترات بإتجاه شمال شرق وينظر عبر انعطافة النهر. ليس أمامه وكالمهربين، إلا أن يستقل قارباً صغيراً... أحياناً كان يشعر كأنه خفير ينتظر إشارة. وكان هناك بالطبع دافع أكثر إلحاحاً. وكان قد قال ذات مرة لإحدى الخليلات: «غادرتُ بوينس ايريس لأهرب مبتعداً قدر الإمكان عن أمي». صحيح أنها أضاعت جمالها وأضحت كثيرة الشكوى حول خسارتها المزعومة وهي تتقدم من منتصف العمر، في العاصمة الكبيرة المترامية المشوّشة بناطحاتها ذات fantastica arquite ctura [1]، في شوارع وضيعة تنهض كيفما اتفق، تغطيها حتى الطابق العشرين إعلانات البيبسي كولا.

أعطى الدكتور بلار ظهره للميناء وتابع نزهته المسائية على طول ضفة النهر. عندئذ كانت العتمة قد سادت المساء بحيث لم يعد يميِّز كتلة الدخان أو يرى حدود الضفة المقابلة[2].

كانت مصابيح المعدِّية التي تصل مابين المدينة وسهل التشاكو تقترب وكأنها قلم رصاص مضيء بمسارٍ منحرف متماوج بطيء وهي تصارع التيار المتجه بقوة جنوباً. والمريمِّات الثلاث the three marys معلَّقات في السماء وكأنهنَّ كل ماتبقى من عقد سبحة انفرط ـ والصليب ملقى حيث وقع

(١) أي هندسة معمارية رائعة. المترجم.

(٢) من المفيد منذ البداية أن يعرف القارىء أن نهر البارانا يشكّل الحدود الفاصلة بين الأرجنتين والباراغواي.

لم يحدث قط أن قبض الدكتور بلار على أحد غيره متلبِّساً بالقراءة في المدينة كلها. وحين كان يتناول عشاءه في الخارج لم يكن يرى إلا كتباً مسجونة خلف الزجاج لحفظها من الرطوبة. لم يقابل قط أحداً جالساً يقرأ على حين غرة عند ضفة نهر أو حتى في إحدى ساحات المدينة ـ اللهم إلا قراءة صحيفة الـ EL - Litoral أحياناً، وهي الصحيفة اليومية. كان يجد أحياناً عشاقاً جالسين على مقاعد أو نسوة متُعبات يحملن سلالَ السوق، أو متشردين، ولكن ليس قرَّاءً. والمتشرد يحتلُّ المقعدَ كله باعتزازٍ، ولا يهتمُّ أحدٌ بمشاركته المقعد، لذا فدون كل الناس في إمكانه أن يتمدد على طوله.

لعله اكتسب عادة القراءة في الهواء الطلق من والده الذي كان دائماً يأخذ معه كتاباً عندما يخرج للزراعة، ووسط عبير شجر البرتقال الذي يغمر بلده المنبوذ أتمَّ الدكتور بلار قراءة كل روايات ديكنز، ماعدا «حكايات عيد الميلاد». وعندما رآه الناس لأول مرة جالساً على مقعدٍ مع كتاب مفتوحٍ نظروا إليه بفضولٍ عارم. لعلَّهم اعتقدوا أنها عادة مقتصرةٌ على الأطباء الأجانب. لم تكن بالضبط تدل على صِفةٍ غير رجولية، غير أنها دون شك كانت سِمةً أجنبية. الرجال هنا يفضِّلون أن يقفوا عند زوايا الشارع ويتحدثوا، أو أن يجلسوا ويجرعوا كؤوساً من القهوة ويتبادلوا الحديثَ، وأن يتلامسوا ليشدِّدوا على نقطةٍ في الحديث أو فقط كدلالةٍ على الصداقة. الدكتور بلار لم يكن يلمسُ أحداً علَناً، كان يلمسُ فقط كتابه. وكان ذلك يدل، كما يفعل جوازُ سفرهِ الانكليزي، إلى أنه سيبقى دائماً شخصاً غريباً، وإلى أنه لن يندمج أبداً بشكلٍ كامل.

عاد يقرأ من جديد: «هي نفسُها كانت تعملُ بصمتٍ متواصلٍ، مُتقبِّلةً الكدَّ الشاقَّ، كالفصولِ السيئة، وبوصفهِ أحد قوانين الطبيعة».

حظيَ الدكتور سافيدرا بفترةٍ من النجاح النقديّ والشعبيّ في العاصمة. وعندما شعر بأن النقاد أخذوا يهملونه ـ بل والأسوأ من ذلك المضيفات

ومراسلو الصحف ـ جاء الى الشمال حيث كان جده الأكبر حاكماً، وحيث قوبل بالإحترام الملائم لكونه روائياً من العاصمة، على الرغم من أن كتبه لم تقرأها ربما إلا قلّة من الناس. والغريب أن السمات الفكريّة لرواياته ظلّت كما هي لم تتغير. والآن بات أينما شاء أن يحلّ يعثر على منطقته الأسطورية الأبدية التي عرفها وهو شابٌ صغير، وذلك نتيجة عطلة أمضاها في بلدةٍ صغيرةٍ ساحليةٍ، تقع في أقصى الجنوب بالقرب من تريليو. وهو لم يقابل شخصية شبيهة بشخصية مورينو قط، لكنه تخيلها بوضوحٍ تامٍ ذات مساء في بار فندق صغير، حين شاهد رجلاً جالساً يشرب يخيم عليه صمتٌ كئيب.

اطّلع الدكتور بلار على كل هذا في العاصمة من صديق حميم وعدو حسود للروائي، ووجد أنَّ معرفةَ خلفيةِ سافيدرا لها بعض القيمة حين أتى ليعالج مرضاه، الذين كانوا يعانون من نوبات الإكتئاب المسمّى "الهذياني". وصارت الشخصيةُ نفسُها تظهرُ في كل كتبه مرة بعد أخرى، وبالكاد تغيَّر تاريخ حياتها، أما صمتها القوي الكئيب فلم يتبدل قط. والصديق العدو، الذي صاحبَ الشابَ سافيدرا في رحلة الاستكشاف تلك هتف مزدرياً: «وهل تعلم مَنْ هو الرجل؟ إنه ويلزى، ويلزى. ومَنْ سمع أبداً بويلزى ذى Machismo؟ هناك الكثير من الويلزيين في تلك الأصقاع. لقد كان ثملاً، هذا كل مافي الأمر، فحين جاء من ذاك البلد كان تحت تأثير حفلة سكره الأسبوعية».

غادرت مَعَدِّية تبغي الشاطىء اللامرئي، المؤلَّف من شجيرات ومستنقع، وفيما بعد عادت المعدية نفسها. ووجد الدكتور بلار من الصعب عليه أن يركز على صمت قلب خوليو مورينو.

وأخيراً هجرتْ الزوجةُ زوجَها مورينو ورحلت مع عاملٍ غير منتظم يعملُ في أرضه، وكان شاباً وسيماً وحلو الحديث. لكنَّ التعاسة لازَمَتْها وهي في المدينة بالقرب من البحر حيث ظلَّ عشيقها عاطلاً. وسرعان

أغلق الدكتور بلار الكتاب بخبطةٍ تنمُّ عن سُخط. كان برجُ نجمِ صليبِ الجنوبِ مُثبَّتاً الى خشبته في ليلةٍ مرصعة بالنجوم. لا المدن ولا هوائيات أجهزة التلفزيون ولا النوافذ المضاءة تكسر رتابة الأفق الحالك السواد. وإذا ذهب إلى المنزل فهل سيكون مهدَّداً بخطرِ تَلَقّي مخابرةٍ هاتفية؟.

عندما حان وقت مغادرته لآخر مرضاه، التي كانت زوجة السكرتير المالي وتعاني من حمى خفيفة، كان قد صمَّم على أن يتوجه الى المنزل قبل الصباح الباكر. كان يريد أن يتفادى الهاتف الى أن يصبح الوقتُ متأخراً بالنسبة إلى أي مخابرة غير مهنية. فثمة إمكانية معينة واحدة، في مثل هذه الساعة، لأنْ يتعرَّض للازعاج. كان يعلم أنَّ تشارلي فورتنوم يتناول العشاءَ مع الحاكم، الذي يحتاج الى مترجم مع ضيفِ شرفه، السفير الأميركي. والآن قد تغلبت كلارا على خوفها من استخدام الهاتف، بات في وسعها بسهولة أن تتصل به وتطلب منه أن يوافيها، بما أنَّ زوجها بعيد عن الطريق، وهو لايرغب في رؤيتها في ليلة يوم الثلاثاء هذه بالذات دون غيرها من الليالي، كانت مشاعره الجنسية مخدَّرة بالقلق. كان يعلم أنه من المحتمل جداً أن يعود تشارلي باكراً بصورة غير متوقعة، لأنَّ العشاء سوف يُلغى دون شك، عاجلاً أم آجلاً، لسببٍ لايحقُّ له أن يعرفه مسبقاً.

قرر الدكتور بلار أنه من الأفضل أن يتوارى عن الأنظار حتى منتصف الليل. إذ لاشك أن في حفلة الحاكم قد انفرط عقدُها الآن، وتشارلي فورتنوم في طريقه الى منزله. وفكّر الدكتور بلار بشيءٍ من الأسف «أنا رجلٌ لايتحلى بالـmachismo»، ومع ذلك لم يكن ليتصوَّر تشارلي فورتنوم يهجم عليه وفي يده سكين. نهض واقفاً. لقد تأخر الوقت كثيراً بالنسبة إلى أستاذ اللغة الانكليزية.

لم يجد الدكتور همفريز، كما توقع، في فندق بوليفار. كان الدكتور همفريز يقطن في غرفةٍ صغيرة من الطابق الأرضي، فيها دوش ونافذة تنفتح

على فناءٍ يضمُّ نخلةً واحدةً مُغبَّرةً ونافورةً ميتة، وكان قد ترك بابه دون إغلاق، ولعلّ هذا يبيِّن ثقته بالاستقرار. تذكّر الدكتور بلار كيف كان والده في الباراغواي يوصد ليلاً حتى الأبواب الداخلية لمنزله، وغرفَ النوم، والمراحيض، وغرف الضيوف غير المستعملة، ليس ضد اللصوص بل ضد رجال البوليس، ضد السفاحين من العسكريين والرسميين، على الرغم من أنَّ الأبواب الموصدَةَ ماكانت حتماً لتُعيقهم طويلاً.

في غرفة الدكتور همفريز بالكاد كان يوجد متسعٌ لسريرٍ، وطاولة زينة، وكرسيين، وطست للاغتسال، والدوش. وعليكَ أن تجاهد لتمرَّ بينها وكأنها حشدٌ من المسافرين داخل نفقٍ مزدحم.

ووجد الدكتور بلار أنَّ الدكتور همفريز قد ألصقَ صورةً جديدةً على الجدارِ، انتزعها من النسخة الاسبانيّة لمجلة «لايف»، تُبيِّن الملكة تعتلي صهوةَ جوادٍ خلال «استعراض الراية». ولم يكن الإنتقاء يدل بالضرورة على شعور بالوطنية أو بالحنين، فقد كانت تظهر باستمرارٍ بقعٌ من الرطوبة على جصّ الغرفة وكان الدكتور همفريز يغطيها بأقرب صورةٍ تصل الى يده. ومع ذلك، لعل اختياره يدل بالفعلِ على أنه يفضل بشكلٍ خاص أن يستيقظ على مرأى وجه الملكة على أن يرى وجه السيد نيكسون على الجدار (ولاشك في أن وجه السيد نيكسون كان قد ظهر في مكانٍ ما من العدد نفسه من «لايف»).

كان داخل الغرفة بارداً، ولكن حتى تلك البرودة كانت رطبة. وكان الدوش المستتر خلف ستارةٍ بلاستيكية به عطلٌ ويقطر على الآجر. والسرير الضيِّق كان ملموماً أكثر منه مرتَّباً ـ والملاءةُ المجعّدة كان يمكن أن تكون نُشِرَت على عجلٍ فوق جثة، وقد علّقت فوقه ناموسية حُزِمت على شكلِ صرّةٍ كغيمةٍ رمادية تهدّد بإنزال المطر. وشعر الدكتور بلار بالأسف لأجل المنتحل لقب دكتور في الآداب: ليس هذا هو الجو الذي يختاره صاحب إرادةٍ حُرة ـ إن كان ثمة وجود لمثل هذا الرجل ـ لينتظر فيه الموت. وفكّر وقد انتابه القلق، لابدّ أنَّ أبي الآن في مثل سن همفريز، ولعله يعيش في ظروفٍ أسوأ.

كانت هناك مزقةٌ من الورق أُقحِمَتْ في إطار مرآةِ همفريز ـ كُتب عليها «ذهبتُ الى النادي الإيطالي». ولعله كان ينتظرُ قدومَ أحد التلاميذ ولهذا ترك الباب غير موصد. وكان النادي الإيطالي موجوداً في المبنى الذي كان فيما مضى مبنىً كولونيالياً مهيباً قائماً عبر الشارع. وكان هناك تمثالٌ نصفي لإحدى الشخصيات البارزة، لعلّه كافور أو ماتزيني، لكنَّ الحجر كان محفّراً كالمجدورِ وبات من المتعذّر قراءة الكلمات المنقوشة عليه، كان موضوعاً بين المنزل ، الذي يتوّج كل نافذةٍ طويلة فيه إكليل حجري من الزهر، وبين الشارع وذات يومٍ كان يعيش في المدينة عددٌ كبير من الإيطاليين، أما الآن فلم يبقَ من النادي إلا اسمه، والتمثال النصفي والواجهة المهيبة التي تحمل تأريخاً يعود الى القرن السابع عشر مكتوباً بالأرقام الرومانية. وكان يحتوي على بضعِ طاولاتٍ يمكنك أن تتناول عليها وجباتٍ رخيصة ودون دفع رسمِ اشتراك، ولم يتبقَ هناك إلا إيطاليٌّ واحد، هو النادل المنعزل الذي ولد في نابولي. وكان الطاهي هنغاري الأصل ولايكاد يقدّم شيئاً غير الغولاش، وهو صنفٌ يمكنه بسهولة أن يُخفي فيه نوعية المواد الأساسية وهذا تصرفٌ حكيم بما أنَّ أفضل لحم بقرٍ يرسلُ بطريق النهر الى العاصمة، على بُعدِ أكثر من ثمانمائة كيلومتر.

كان الدكتور همفريز جالساً على طاولة بالقرب من نافذةٍ مفتوحة وثمة فوطة مثبّتةً داخل ياقته البالية. ومهما كان الجو حاراً لاتراه مرتدياً غير البذلةِ وربطة العنق وصدارة وكأنه أديبٌ فكتوري يعيش في فلورنسا. كان يضع نظارة ذات إطارٍ فولاذي، ولعلّه لم يراجع مواصفاتها الطبية منذ سنين عديدة، لأنه ينحني كثيراً فوق صحن الغولاش ليرى ماذا يأكل. وكان النيكوتين قد أدخل خيوطاً بلون الشباب إلى شعره الأبيض، وثمة لطخٌ من اللونِ نفسهِ تقريباً على فوطته من أثرِ الغولاش. قال الدكتور بلار: «مساء الخير، دكتورَ همفريز».

«آه، إذن عثرتَ على الملاحظة؟».

«كنت سأبحثُ عنك هنا على أي حال. كيف عرفتَ أني سآتي إلى غرفتك؟».

«لم أعرف يادكتور بلار. لكني فكّرت أنه ربّما يبحث عني أحدهم، أحد ...»

أردف الدكتور بلار يشرح: «كنت أنوي أن أقترحَ دعوتكَ إلى العشاء في فندق الناسيونال»، ثم أخذ يجول ببصره في أرجاء المطعم بحثاً عن نادي دون أي توقُّع للسرور. لقد كانا الزبونين الوحيدين.

قال الدكتور همفريز: «هذا منتهى اللطف منك. في يوم آخر إن شاء الله، إذا سمحتَ لي وأن أحظى بما أعتقد أن اليانكي[(١)]. يسمّونه بـ«شيك المطر»[(٢)]. الغولاش هنا ليس رديئاً جداً، قد يملّ المرء منه، لكنه على الأقل يُشبع». كان عجوزاً نحيلاً جداً، يوحي بشخصٍ أمضى وقتاً طويلاً وهو يأكل على أملٍ يائسٍ أن يملأ فجوةً لايمكن ملؤها.

وبسبب فقدان ماهو أفضل طلب الدكتور بلار بدوره صحناً من الغولاش. وقال الدكتور همفريز: «لقد فوجئتُ بمرآكَ. ظننتُ أنه ربّما دعاكَ الحاكم... لابد أنه سيحتاج الى من يتكلم الانكليزية لأجلِ حفلِ عشائه هذا المساء».

أدرك الدكتور بلار سبب وضعه للملاحظة في إطار المرآة. فقد كان يمكن أن يقع خطأ في اللحظة الأخيرة في ترتيبات الحاكم. لقد حدث ذلك مرة، واستُدعي الدكتور همفريز... وعلى أية حال ليس هناك إلا ثلاثةٌ من الإنكليز متوفرين. قال: «لقد دعا تشارلي فور تنوم».

قال الدكتور همفريز: «آه، نعم، طبعاً، قنصلنا الفخري»، وشدّد على النعت بنبرةِ الإساءة المريرة، «هو عشاءٌ دبلوماسي إذن. أظنُّ أنَّ زوجة القنصلِ الفخري لن تظهر لأسبابٍ صحية؟».

---

(١) اليانكي، هم الأمريكيون عموماً.

(٢) شيك المطر: بطاقة صالحة للاستعمال في المستقبل، تعطى لمشاهدة مباراة رياضية عادة، حال المطر دون إجرائها.

«السفير الأميركي ليس متزوجاً، يادكتور همفريز. الحفلة ليست رسمية ـ هي حفلةٌ للذكور».

«لعلها فرصة مناسبة جداً لدعوة السيدة فورتنوم لترفّه عن الضيوف. لابد أنها معتادة على حفلات الذكور. ولكن لماذا لم يَدْعُكَ الحاكم أو يَدعُني؟».

«كن منصفاً يادكتور. أنت وأنا لانتبوأ مراكز رسمية هنا».

«لكننا نعرف عن أطلال اليسوعيين أكثر مما يعرفه تشارلي فورتنوم بكثير. وحسب ماجاء في صحيفة الليتورال فإنّ السفير قد جاء الى هنا ليشاهد الأطلال، وليس محصول الشاي أو الماتي، على الرغم من أنّ هذا مستبعد، فالسفراء الأميركيون هم عادة رجال أعمال».

قال الدكتور بلار: «السفير الجديد يريد أن يخلق انطباعاً جيداً، باهتمامه بالفن والتاريخ، ولايمكن أن يكون مضطلعاً في ذاك المجال. إنه يريد أن يُبدي اهتماماً ثقافياً بمقاطعتنا، وليس تجارياً. والسكرتير المالي لم يُدعَ، مع أنه يتكلمُ القليل من الإنكليزية، مخافةَ أن يثورَ شكٌ حولَ وجود قرضٍ في الأمر».

«والسفير ـ ألا يتكلم مايكفي من الإسبانية ليردَّ على نخبٍ مُهذَّبٍ وبعضَ التفاهات؟».

«يقولون أنه يُحرزُ تقدماً سريعاً».

«ماأكثرَ ماتبدي من معرفة في كل شيء يابلار. إنني لاأعرف إلا مانقرأ في الليتورال. إنه متوجه غداً لزيارة الأطلال، أليس كذلك؟».

«لا، لقد ذهب إلى هناك اليوم هذا المساء سيعود الى بوينس أيريس جواً»

«الصحيفة مخطئة إذن؟».

«البرنامج الرسمي لم يكن دقيقاً، وأعتقد أنّ الحاكم لم يكن يريد أن تقع أيّة حوادث».

«حوادث هنا؟ يالها من فكرة! إنني لم أرَ أية حادثة تقع في هذه المقاطعة منذ عشرين عاماً. الحوادث لاتقع إلا في قرطبة[1]»، ثم سأل مستبشراً: «الغولاش ليس سيئاً جداً، أليس كذلك؟».

قال الدكتور بلار: «لقد أكلت ماهو أسوأ منه»، دون أن يحاول أن يتذكر في أية مناسبة.

«أرى أنك كنت تقرأ أحد كتب سافيدرا، مارأيك فيه؟».

قال الدكتور بلار: «موهوب جداً». لقد كان، مثل الحاكم، لايريد أن تقع أية حوادث، ولاحظ الخبثَ الذي ظلَّ حياً نشِطاً في العجوز حتى بعد أن مات التعقل فيه قبل زمن بعيد من طول الإهمال.

«لاأظنكَ حقاً تقرأ تلك التفاهة هل تؤمن بكل تلك الـ machismo ؟».

قال الدكتور بلار بحذر: «حين أقرأه يمكنني أن أعلّق مسألة عدم التصديق».

«هؤلاء الأرجنتينيون ـ كلهم يؤمنون بأن أسلافهم شاركوا الغوشو[2] في رعيهم. إن في سافيدرا من الـ machismo بقدر مافي تشارلي فورتنوم. أصحيح أن زوجة تشارلي حامل؟».

«نعم».

«ومن هو الأب السعيد؟».

«ولِمَ لايكون تشارلي؟».

«هذا السكير العجوز؟ أنت طبيبها يابلار. قُل لي طَرفاً من الحقيقة. إنني لاأطلب الكثير منها».

---

(١) ثمة مدينة أخرى تدعى قرطبة في الأرجنتين، بالإضافة الى المدينة الشهيرة في أسبانيا.

(٢) الغوشو: راعي البقر في أميركا الجنوبية، وهو عادة ينحدر من مزيج اسبانيّ وهنديّ.

«لماذا تطلب دائماً معرفة الحقيقة؟».

«خلافاً للإعتقاد السائد، الحقيقة هي تقريباً دائماً مضحكة، والمأساة هي فقط مايزعج الناس أنفسهم بتخيّله أو اختلاقه. ولو تعرف ماذا يحتويه هذا الغولاش لضحكت».

«هل تعرف أنت؟».

«لا. الناس دائماً يتآمرون لإخفاء الحقيقة عني. حتى أنتَ تكذب عليَّ يابلار».

«أنا».

«أنتَ كذبت عليَّ بشأن رواية سافيدرا وطفل تشارلي فورتنوم. دعنا نأمل، لصالحه، أن تكون فتاة».

«لماذا؟».

«لأنه من الأصعب كثيراً تقصّي مواطن الشبه مع الوالد من قَسمات وجهها»، وبدأ الدكتور همفريز يمسح الصحن بقطعةٍ من الخبز حتى أصبح نظيفاً. «هل تستطيع أن تشرح لي لماذا أنا جائع دائماً يادكتور؟ إنني لا آكل جيداً، ومع ذلك فأنا آكل كميةً هائلةً مما يسمّونه بالطعام المغذّي».

«إذا كنت حقاً تريدُ الحقيقةَ فيجب أن أفحصكَ، أن أصوّرك بالأشعة ...»

«أوه، لا، لا. أنا لاأطلب إلا حقيقةَ بقيّة الناس. والمضحكون هم دائماً الآخرون».

«إذن لماذا تسألني؟».

قال العجوز: «إنها مجرد مناورةٍ لفظيةٍ لأخفي حرجي وأنا أساعدُ نفسي على أكل قطعة الخبز الأخيرة هذه».

«هل يضنُّون علينا بالخبز هنا؟»، وهتف الدكتور بلار عبر صحراءِ الموائد الفارغة مُنادياً: «يانادل، مزيداً من الخبز».

تقدَّم الإيطالي الوحيد منهما يجرُّ قدميه . كان يحمل سلة بها ثلاث قطع من الخبز، وراح يراقب بقلقٍ أسود كيف تُختصرُ الى واحدة. لعلَّه كان عضواً غراً في المافيا خالف أوامرَ رئيسه.

سأل الدكتور همفريز: «أرأيت الإشارة التي قام بها؟».

«لا».

«لقد أبرز إصبعين من أصابعه، دفعاً للعين الحاسدة. إنه يعتقد أن عيني حاسدة».

«لماذا؟».

«ذات مرة أبديت ملاحظة غير محترمة حول سيدة بومباي the mada-ma of pompeii».

سأله الدكتور بلار: «مارأيك في دور شطرنج بعد أن تنتهي؟»، كان يجب أن يمضي الوقت بطريقة ما، بعيداً عن شقته والهاتف الموضوع بالقرب من السرير».

«انتهيت الآن».

وعادا الى الغرفة التي عاش فيها أكثر من اللازم في فندق بوليفار. كان المدير يقرأ El-LitoraL في الفناء وأزرار بنطاله مفتوحة طلباً للبرودة. قال: «سأل عنك أحدهم في الهاتف يادكتور».

هتف همفريز من الإثارة: «عني؟ مَنْ هو؟ ماذا قلت له؟».

«لا، كان ذلك لأجل الدكتور بلار يابروفسور. امرأة. كانت تتساءل إنْ كان الدكتور بصحبتك».

قال بلار: «إذا سألتْ مرة أخرى لاتقُل لها إني هنا».

سأل الدكتور همفريز: «أليس لديكَ أي قدرٍ من الفضول؟».

«أوه، أعرف مَنْ هي».

ليست أحد المرضى، هه؟».

«نعم، مريضة. ليست حالة طارئة. لاشيء يدعو للقلق». وجد الدكتور بلار نفسه وقد مات شاهه بأقل من عشرين نقلة، ثم بدأ يرتب الأحجار من جديد بصبرٍ نافد.

قال العجوز: «مهما تقل لي فأنت قلقٌ بشأن أمرٍ ما».

«إنه بسبب ذاك الدوش اللعين. يقطرُ ويقطرُ ويقطر. لِمَ لاتصلحه؟».

«أيزعجكَ؟ إنه يهدِّئ الأعصاب. إنه يغنّي لي لأنام».

بدأ الدكتور لعبه بافتتاحية بيدق الملك (ب م ٤). قال: «حتى كابابلانكا[1] العظيم كان يبدأ أحياناً بداية بسيطة كهذه»، وأضاف: «تشارلي فورتنوم اشترى سيارة كاديلاك جديدة».

«نعم».

«كيف حال سيارتك الفيات المصنوعة محلياً؟».

«عمرها أربع ـ خمس سنوات».

«ثمة فوائد من كون المرء قنصلاً، أليس كذلك؟ فهم يسمحون له باستيرادِ سيارةٍ جديدة كل سنتين. وأظن أنَّ لديه جنرالاً ينتظر دوره في العاصمة ليشتريها حالما يُنهي ترويضها».

«ربما. إنها نقلتك».

«إذا استطاع أن يجعل زوجته قنصلاً بدورها فسيتمكنان من استيراد سيارةٍ كل سنتين. إنها ثروة. هل هناك تفرقة جنسية في الخدمة القنصلية؟».

«لاأعرفُ ماذا تقول القوانين».

«كم تعتقد أنه دفع ليفوز بالمنصب؟».

«هذه إشاعة مضلِّلة ياهمفريز. إنه لم يدفع شيئاً. ليست هذه طريقة وزارة خارجيتنا في التصرف. كل مافي الأمر أنَّ مجموعةً من الزوار المهمين

---

(١) خوزيه راوول كابابلانكا، أو كابا، أو آلة الشطرنج (١٨٨٨ ـ ١٩٤٢): لاعب شطرنج كوبي، بطل العالم في اللعبة من عام ١٩٢١ وحتى ١٩٢٧. المترجم.

جداً يريدون مشاهدة الأطلال. وهم لايُحسنون الاسبانية، وقد وفّر لهم تشارلي فورتنوم وقتاً ممتعاً. الأمرُ بهذه البساطة. وقد كان محظوظاً. لم يُفلح كثيراً في زراعة محصول الماتيّه، لكن الحصول على سيارة كاديلاك كل ستتين يشكّل فرقاً شاسعاً».

«نعم، يمكنك أن تقول إنه تزوج بفضل سيارته الكاديلاك. ولكن يُدهشني أن يحتاجَ الحصول على امرأةٍ كزوجتهِ سيارةَ كاديلاك. لاشك في أن سيارة «موريس ماينور» كانت ستفي بالغرض».

قال الدكتور بلار: «إنني لم أكن مُنصفاً في قولي، فهو لم يكن يلهث فقط خلف الجُعالة، كان هناك عدد لابأس به من الانكليز في المقاطعة في تلك الأيام ـ أنت تعرف هذا أكثر مني. ومن بينهم واحد وقع في مأزقٍ على الحدود ـ في الوقت الذي عبّر فيه رجالُ العصابات ـ وكان تشارلي فورتنوم يعرفُ كل الأطراف المحلية. وقد وفّر على السفير الكثير من المتاعب. وعلى أية حال كان محظوظاً ـ وبعض السفراء أكثر امتناناً من غيرهم».

«والآن إذا ماوقعنا في مشكلةٍ يجب أن نعتمد على تشارلي فورتنوم. كش».

اضطر الدكتور بلار لمبادلة الملكة بالفيل. قال: «هناك من هم أسوأ من تشارلي فورتنوم».

«أنت في وضعٍ سيء جداً الآن ولايمكنه أن ينقذك».

رفع الدكتور بلار رأسه بسرعة عن رقعة الشطرنج، لكنَّ العجوز كان فقط يشير الى اللعب.

قال: «كش مرة أخرى»، وأضاف: «ومات. ذلك الدوش معطل منذ ستة شهور ليس من عادتك دائماً أن تخسر معي بهذه السهولة».

«لقد تحسّن لعبكَ».

الفصل الثاني

رفض الدكتور بلار أن يلعب دوراً ثالثاً وعاد بسيارته الى المنزل. كان يقطن في الطابق العلوي من بناءٍ ذي شقق مطليَّة بالدهان الأصفر تطل على نهر البارانا، وكان البناء هو أحد الأبنية القبيحة في المدينة ذات الطراز الكولونيالي القديم، لكن اللون الأصفر كان يبهُت بالتدريج سنة بعد سنة، وعلى أية حال لم يكن ليستطيع تحمُّل نفقات الاستقلال بمنزلٍ طالما أمه ماتزال على قيد الحياة، فما أفدح مقدار ماتنفقه المرأة على الكعك المحليّ في العاصمة.

بينما الدكتور بلار يوصد مصراع نافذته كانت آخر معديّة تقترب عابرةً النهر، وبعد أن أوى الى سريرة سمع هديراً ثقيلاً لطائرةٍ تنعطف ببطيء مارةً من فوقه: أحسَّ بها واطئةً جداً وكأنها أقلعت عن الأرض قُبيلَ بضعِ دقائق فقط. من المؤكد أنها ليست طائرة نفاثة مخصصَّة لقطع مسافاتٍ طويلة تعبرُ سماء المدينة في طريقها الى بوينس ايريس أو أسونسيون ـ على أية حال فالساعة متأخرة جداً ليكون هذا طيراناً تجارياً. وفكرَّ بلار أنها ربّما تكون طائرة السفير الأميركي، غير أنه لم يكن يتوقع أن يسمع صوتها. أطفأ النور واستلقى في الظلام، وأخذ يفكرّ بكل الأمور التي يمكن أن تكون وبسهولة قد ساءت، بينما ضجيجُ الطائرة يخفُتُ وهي منطلقة جهة الجنوب، تُرى من تحمل؟ وأراد أن يرفع السماعة ويطلب تشارلي فورتنوم، ولكن لم يخطر على باله أي عذرٍ ينتحله لإزعاجه في مثل تلك الساعة. لايمكن أن يسأله قائلاً: «هل استمتعَ السفير بمشاهدة الآثار؟ هل كانت الخدمة على العشاء جيدة؟ أعتقد أنكَ تناولت في بيت الحاكم وجبةَ لحمٍ مشوي فخمة؟ ليس من عادته أن يثرثر مع تشارلي فورتنوم في مثل تلك الساعة ـ لقد كان تشارلي رجلاً مفتوناً بزوجته.

أدار مفتاح النور من جديد ـ من الأفضل أن يقرأ بدلَ أن يقلق. الآن بعد أن بات يعرف كيف ستكون عليه النهاية دون أدنى مجال للخطأ، أثبت كتاب الدكتور سافيدرا أنه بمثابة مهدِّئ جيد. إن حركة المرور على طول واجهة النهر قليلة، ومرة واحدة مرَّت سيارة بوليس وصافرتها تزعق، ولكن سرعان ماغرق بلار في النومِ والنورُ مايزال ساطعاً.

استيقظ على رنين الهاتف. كانت ساعته قد توقفت بالضبط عند الساعة الثانية صباحاً. إنه لايعرف مريضاً يمكن أن يتصل به في مثل تلك الساعة.

سأل: «نعم، مَنْ يتكلم؟».

أجابه صوت لم يميِّزه، وبحذر محكم «حفلتنا الترفيهيَة أحرزت نجاحها».

قال بلار: «مَنْ أنت؟ لماذا تقول لي هذا؟ عن أي ترفيه تتكلم؟ لايهمني الأمر». تكلم بنوبة من الخوف.

«إننا قلقون على أحد أفراد المجموعة. إنه مريض».

«لاأفهم عمَّا تتحدث».

«نخشى أنَّ الضغط الناتج عن أدائهِ لدورهِ كان فوق طاقته».

لم يسبق لهم أن اتصلوا به هاتفياً بمثل هذه الصراحة وفي مثل هذه الساعة المريبة. لم يكن ثمة مايبررُ الاعتقادَ أن خطَّهُ مُراقب، ولكن لايحق لهم أن يُعرِّضوا أنفسهم لأقلَ قَدْرٍ من المخاطرة. إنَّ اللاجئين القادمين من الشمال غالباً ماكانوا يخضعون لمراقبةٍ خاصةٍ غير دقيقةٍ في منطقةِ الحدود منذ أيام حرب العصابات، بغرض حمايتهم على الأقل: وكانت هناك حالات أُجبِر فيها بعض الرجال على العودة الى وطنهم باراغواي عبْرَ نهر البارانا ليموتوا هناك. وكان ثمة طبيب منفيٌّ في بوزادوس... ولأنه كان يُمارس مهنته نفسها فإنَّ أمثولةَ الطبيبِ كانت غالباً حاضرةً في ذهن بلار منذ أن تكشّفت له مشاريع الترفيه. وهذه المكالمة الهاتفية الآتية الى هذه الشقة لايمكن تبريرها إلا في حالة الطوارىء القصوى. ووقوع ميتةٍ واحدةٍ بين المضيفين ـ

طِبقاً للقوانين التي وضعوها بأنفسهم ـ كان يجب أن تكون متوقَّعة وهي لاتبرر أي شيء.

قال: «لاأعلم عمّا تتكلم. النمرة غلط»، وعَلّق سمّاعة الهاتف واستلقى وهو ينظر الى الهاتف وكأنه شيءٌ أسود حقود سيرنُّ من جديد دون شك. وفعل ذلك بعد دقيقتين، وكان عليه أن يستمع ـ لعلَّها مكالمة عادية من مريض.

«نعم ـ من أنت؟».

قال الصوت نفسه: «يجب أن تأتي. قد يموت».

سأل الدكتور بلار باستسلام: «ما المطلوب مني؟».

«سنقابلك في الشارع وتركب معنا السيارة بعد خمس دقائق بالضبط. إذا لم تجدنا فسيكون ذلك بعد عشر دقائق. بعد ذلك كُنْ مستعداً كل خمس دقائق».

«ماهو الوقت حسب ساعتك؟».

«الثانية وست دقائق».

لبسَ الدكتور بنطالاً وقميصاً، ثم أعدَّ حقيبةً وضع فيها كل مايلزم (المشكلة على الأرجح هي جرحٌ ناتج عن طلقةِ رصاص)، وهرع ينزل الدرج بجوربيه. كان يعلم أنَّ ضجيج المصعد سيكون مسموعاً من خلال الجدران الرقيقة التي تفصل بين الشقق. وعند الساعة الثانية وعشر دقائق كان واقفاً خارج البناية وفي الثانية واثنتي عشرة دقيقة دخل ثانيةً وأغلق الباب. في الثانية وستَ عشرة دقيقة كان في الشارع يراقب للمرة الثانية وفي الثانية وثماني عشرة دقيقة عاد إلى الداخل. وجعله الخوف يتميّزُ غيظاً. بدا له أنَّ حريته، وربّما حياته، ملقاةٌ بين أيدٍ غير مؤهّلةٍ بشكلٍ ميؤوس منه. لم يكن يعرف إلا اثنين من أعضاء المجموعة كانوا معه في المدرسة في أسونسيون ـ وأولئك الذين يشاركون المرء في طفولته يبدو وكأنهم لايكبرون. لم يعد

يؤمن بكفاءتهم أكثر مما كان وهم طلاب، والمنظمة التي كانوا ينتمون إليها ذات يوم في الباراغواي، منظمة الجوفنتود فيبريريستا، لم تكد تُنجز أكثر من قتل معظم الأعضاء الآخرين في عمليةٍ فدائية طائشةٍ وسيئة القيادة.

والحق أنَّ قِلَّة تمرُّسهم هي التي أقنعته بالانضمام إليهم. ولم يؤمن بمشاريعهم، وإنصاته إليهم كان إكراماً للصداقة. وحين كان يسألهم عمّا كانوا سيفعلونه في مواقف معينة محتملة كانت فظاظة إجاباتهم تبدو له أشبه بالأداء المسرحي (وكان ثلاثتهم قد أدّوا أدوار ثانوية في عرضٍ مدرسي لمسرحية «ماكبث» ـ والترجمة النثرية لم تجعل المسرحية أكثر قبولاً).

والآن، بينما هو واقف في القاعة المظلمة، يراقب بتمعُّن القرص المضيء لساعته، أدرك أنه لم يؤمن ولا للحظة في أنهم سيصلون الى مرحلة العمل. حتى عندما أعطاهم المعلومات الدقيقة التي تلزمهم عن تحركات السفير الأميركي (وقد أخذ التفاصيل من تشارلي فورتنوم وهما يشربان كأساً من الويسكي)، وزوّدهم بالدواء الذي يحتاجونه، ظلَّ لا يصدق أنَّ شيئاً سيحدث حقاً. فقط حين استيقظ في ذاك الصباح وسمع صوت ليون يقول «العرض مستمر»، تبدّى له أنه لعلَّ هؤلاء الهواة يكونون بعد كل شيء خطرين. أهو ليون ريفاس مَنْ يلفظ أنفاسه الآن؟ أم أكوينو؟.

كانت الساعة الثانية والدقيقة الثانية والعشرون حين خرج للمرة الثالثة. انحرفت سيارة عند منعطف البناية ووقفت، والمحرك مايزال دائراً. ولوّحت يدٌ له.

وبقدر ماساعده نورُ لوحةِ أجهزة القياس لم يتمكّن من تبيّن الرجل الجالس خلف المقود، لكنه تمكّن من أن يخمّن هويةَ رفيقهِ وسطَ الظلامِ من خطّ لحيته القصيرة التي تحدّد فكّه. لقد ربّى أكوينو لحيته وهو في زنزانة لمركز البوليس وفيها بدأ يكتب قصائده، وفي الزنزانة أيضاً نمّى حباً نهماً للـ Chipa

تلك اللفافات العجينية المعمولة من المانديوكا (*)، والتي لايمكن تقديرها حق قدرها إلا بأكلها بعد فترةٍ من شبهِ معاناةٍ للجوع.

«ماالمشكلة ياأكوينو؟».

«السيارة رفضتْ أن تشتغل. هناك غبارٌ في الكابوراتور. أليس كذلك يادييغو؟. ومن ثم مرّت دورية بوليس».

«أقصد مَنْ الذي يموت؟».

«نأمل أنْ لاأحد».

«أهو ليون؟».

«إنه بخير».

«لماذا اتصلتَ بالهاتف؟ لقد وعدتَني ألاّ تورطني. ليون وعدني».

ماكان ليوافق على مساعدتهم لولا ليون ريفاس. لقد افتقد ليون ربما مثلما افتقد والده عندما غادر مع أمه في قارب نهري. كان ليون إنساناً آمَنَ بأنه يستطيع أن يثق بكلمته دائماً، على الرغم من أن هذه الكلمة بدت فيما بعد وكأنه نُقِضَتْ عندما سمع بلار أن ليون أصبح قَسّاً بدل أن يغدو abogado[1] لايهاب شيئاً ومستعداً للدفاع عن الفقر والبريء، مثل بيري ميسون[2]. وفي أيام المدرسة كان ليون يملك مجموعةً ضخمةً من قصص بيري ميسون تُرجمت بأسلوبٍ جافٍ الى نثرٍ أسبانيٍّ كلاسيكيّ. وكان يُعيرها بحرص، واحدة بعد أخرى، لأصدقاءٍ مختارين. وكانت ديلا سكرتيرة بيري ميسون هي أول امرأة تُثير شهوة بلار الجنسية.

قال الرجل المسمى ديبغو: «الأب ريفاس طلب منّا أن نُحضرك».

(*) المانديوكا: نبات أرضي مغذٍ.

(١) أي: محامي.

(٢) بيري ميسون: بطل مجموعة من القصص البوليسية تحوّلت فيما بعد الى مسلسل تلفزيوني شهير.

لاحظ الدكتور بلار أنه ظل يطلق على ليون لقب أب على الرغم من أنه نَقَضَ قَسَماً آخر حين ترك الكنيسة وتزوج، ولكن لم يكن ذلك الوعد المنقوض بالذات ماأقلق بلار، وهو الذي لم يحضر دهره قداساً إلا حين رافق أمَّهُ في إحدى زياراته النادرة للعاصمة. لقد بدا له أن ليون كان يصارعُ في تراجُعه بعد سلسلةٍ من الإخفاقات نحو وعْدِهِ الأولي الذي قطعهُ للفقراء ولم يقصد أن ينقضه. وماتزال الفرصة متاحة لكي يصبحَ abogado.

مروا خلال حي توكومان ومن ثم خلال حي سان مارتين، لكن الدكتور بلار بعد ذلك حاول أن يتجنَّب النظر الى الخارج. ثم إنَّ هذا لن يجعله يعلم الى أين هم ذاهبون. وإذا وقع الأسوأ فيريد ألاّ يعترف إلا بأقل مايمكن تحت ضغط الاستجواب.

كانوا يسيرون بسرعة كبيرة كافية للفتِ الإنتباه. وسأل: «ألستَ خائفاً من دوريات البوليس؟».

«ليون عملَ على تجنّب المرور بمواقعهم. لقد ظلَّ يدرسُ تحركاتهم طِوال شهر».

«ولكن هذه الليلة بالذات ـ هي بلا شك خاصةٌ قليلاً».

«سيتم العثور على سيارةِ السفيرِ في أعالي نهر البارانا. سيفتشون كل بيت من البيوت الواقعة على الحدود، وسينذرونهم في انكار ناسيون عبر النهر. وستكون هناك حواجز على الطرق المؤدية الى مدينة روزاريو. ولابدّ أنَّ الدوريات قد خُفِّضتْ هنا، فهم بحاجةٍ الى الرجال في مكان آخر. وهذا هو آخر مكان سيبحثون فيه عنه بينما الحاكم ينتظره في بيته لينقله الى المطار».

«آمل أن تكونَ محقاً».

للحظة، ودون قصد، رفع الدكتور بلار ناظريه حين مالت السيارة منعطفة عند زاوية، ورأى على الرصيف كرسي مراكب يحتوي امرأةً عجوزاً سمينة يعرفها، كما يعرف الباب الصغير المفتوح خلفها ـ اسمها سينيورة

سانشيز وهي لاتنام أبداً حتى يرحل آخر زبائنها. إنها أغنى امرأة في البلدة أو هكذا يُعتقد.

قال الدكتور بلار: «ماذا حدث بشأن عشاء الحاكم؟ كم طالَ انتظارهم؟»، وتخيَّل الفوضى التي سادت. لايمكن للمرء أن يتكلم بالهاتف مع مجموعة من الأطلال.

«لاأعلم».

«لابدّ أنك عيَّنت أحداً ليراقب؟».

«لدينا مايكفينا».

هاقدعاد لينضمَّ الى الهو... لقد بدا للدكتور بلار أنَّ الحبكةَ كان يمكن أن تُعدّ بصورةٍ أفضل على يد سافيدرا. كان واضحاً تماماً أنَّ الإبداع، ناهيك عن الـ mochismo مفقود.

«سمعتُ صوت طائرة. أكانت طائرةَ السفير؟».

«إنْ كانت هي فلا بد أنها ذهبتْ خاوية».

قال الدكتور بلار: «يبدو أنَّ معلوماتك قليلة. هل من مصابين؟».

وفجأة انطلق بالسيارة بخشونةٍ على حافة دربٍ قذر. قال أكوينو: «سننزل هنا». بعد نزول الدكتور بلار من السيارة سمعها ترجع بضع ياردات. وقف في مكانه وترك عينيه تتآلفان مع الظلمة، حتى تمكّن من تمييز طبيعة المكان الذي جلبوه إليه على ضوءِ النجوم.

كان يشكل جزءاً من bidon ville[1] التي تقع بين المدينة وانعطافة النهر. كان الدرب عريضاً بعرض شارع في مدينة، ثم استطاع أن يرى كوخاً مبنياً من الطين المجفّف وصفائحَ البترول القديمة مخبأً بين أشجار الأفوكادو. حين انجلى هذا المشهد بدأ يميِّز أكواخاً أخرى قائمةً بشكلٍ مستتر بين الأشجار،

---

(١) مدينة الأكواخ.

كرجالٍ كامنين. وتقدَّمه أكوينو في المسير. غاصت قدما الدكتور عميقاً لِما بعد الكاحلين في الطين. حتى سيارة جيب كان عليها أن تمرَّ ببطء من هنا. سيكون هناك الكثير من المحاذير إذا ماشنَّ البوليس غارة. لعلَّهم قبل أي شيء مجرد هواة يتحلَّون بقدرٍ من الذكاء.

سأل أكوينو: «هل هو هنا؟».

«مَنْ؟».

«أوه، بحق الله لاأظن أنَّ هناك مايكروفونات في الأشجار، أقصد السفير طبعاً».

«نعم، هو هنا كما قلت. لكنه لم يَفِقْ بعد من أثر الإبرة».

خاضوا بأقصى مايستطيعون من سرعة في الدرب الطينية، مارين بعدَّة أكواخ تلفُّها الظلمة. بدا الصمت غير طبيعي - ولاحتى طفل يبكي. توقف الدكتور بلار ليسترد أنفاسه. همس قائلاً: «يالهؤلاء الناس، لابد أن يكونوا قد سمعوا صوت سيارتك».

«إنهم لن يتكلموا. يظنون أننا مهرِّبون. ومهما ذهب خيالك بعيداً - فهم ليسوا أصدقاء للبوليس».

قاد دييغو الطريق في منعطف جانبي حيث الطين أعمق. ولم تكن قد أمطرت منذ يومين ولكن في barrio [1] الفقراء هذا ينتشر الطين على الدوام حتى بعد حلول فصل الجفاف بوقت طويل. فليس هناك مصرف للمياه، ومع ذلك، كما كان الدكتور بلار يعرف جيداً، كان على السكان أن يمشوا مسافةَ ميلٍ ليجدوا صنبوراً يمنحهم ماءً صالحاً للشرب. وكان الأطفال - الذين عالجَ الكثير منهم - منتفخي البطون بسبب نقص البروتين. ولعلّه مشى في هذا الدرب بالذات مرات عديدة - إذ لايمكن تمييزه عن كل الدروب الأخرى،

(١) حي، منطقة صغيرة.

ولطالما احتاجَ الى مَنْ يقوده عندما كان يعودُ مريضاً هنا. ولسببٍ غير واضح تذكّر رواية «القلب الصموت». إنّ الزودَ عن الشرف والتقاتلِ بالسكاكين لأجل امرأة إنما ينتمي الى عالمٍ آخر، لايمتُّ بصلةٍ الى هذا الزمن، ولا وجود له إلا في المخيلة الرومانسية لكتّاب أمثال سافيدرا. الشرف لايعني أي شيء بالنسبة الى مَنْ يموتون جوعاً. هؤلاء يخوضون قتالاً أشدّ ضراوةٍ لأجلِ البقاء.

سأل صوت: «أهذا أنت ياادواردو؟».

«نعم، أهذا أنت ياليون؟».

حمل أحدهم شمعةً ورفعها عالياً ليعينه على الوصول الى العتَبة. ثم أغلق الباب بسرعة خلفهما.

على ضوء الشمعة رأى الرجل الذي كانوا مايزالون يطلقون عليه لقب الأب ريفاس. بدا ليون نحيلاً وغراً بقميصه التي ـ شيرت وبنطاله الجينز كما عهده وهو غلام في الريف في الطرف الآخر من الحدود. عيناه البنيتان الكبيرتان بالنسبة الى وجهه، وأذناه الكبيرتان المثبتتان بزاوية قائمة تقريباً على جمجمته جعلته يشبه أحد الكلاب الهجينة الصغيرة التي تنتشر بكثرة في barrio الفقراء. كان هناك الإخلاص الرقيقُ نفسه في العينين وقابليةٌ للعطب في الأذنين الناتئتين. وكان يمكن الظنّ بأنّه طالب لاهوتٍ خجولٍ على الرغم من سنّه.

اشتكى برقّة: «تأخرت كثيراً يا ادواردو».

«اسألْ سائقكَ ديغو عن ذلك».

«مازال السفير في غيبوبة. اضطررنا لإعطائه جرعةً ثانية. لقد أكثر من التقلّب».

«قلت لك إنّ إبرةً ثانيةً تكون خطرة».

قال الأب برقّة، وكأنه جالس في كوة الإعتراف يُحذّرُ شخصاً من غوايةِ المقاربة: «كل شيء خطير».

وبينما الدكتور بلار يُفرغ حقيبته تابع الأب ريفاس كلامه: «أصبح تنفُّسه ثقيلاً جداً».

«سنضطر لتغيير خطتنا».

«كيف».

«سنضطر إلى أن نعلن أننا أعدمناه»، ثم أضاف مع تكشيرةٍ غير سعيدة: «إنها العدالة الثورية. أرجوك، أتوسل إليك، افعل كل مافي وسعك».

«طبعاً».

قال الأب ريفاس: «لانريد له أن يموت. إنَّ عملنا هو أن ننقذَ حياة الناس».

انتقلوا الى الغرفة الأخرى الوحيدة، التي ارتُجِلَ فيها سرير من صندوق خشبي طويل - لم يُميِّز بوضوح نوع الصندوق - نشرت فوقه بضع بطانيات. سمع الدكتور بلار تنفساً عميقاً غير منتظم لرجل مخَدر، كأنه يكافح للاستيقاظ من كابوس. قال: «قَرِّب الضوء»، وانحنى ونظرَ عن قُرب الى الوجه المتوهج. ظل فترة من الوقت لايصدِّق عينيه. ثم راح يضحكُ من أثرِ صدمةِ مارأى «أخ ياليون، لقد امتهنتَ المهنة الخطأ».

«ماذا تعني؟».

«من الأفضل لك أن تعود الى الكنيسة. أنت لم تُخلق لتكون خاطفاً».

«أنا لاأفهم. هل يلفظُ أنفاسه؟».

قال الدكتور بلار: «لاداعي للقلق ياليون، لن يموت، لكن هذا ليس السفير الأميركي».

«ليس ... ...».

«هذا تشارلي فورتنوم».

«ومن هو تشارلي فورتنوم؟».

قال الدكتور بلار بالنبرة الساخرة نفسها التي كان يستخدمها الدكتور همفريز: «إنه قنصلنا الفخري».

هتف الأب ريفاس: «ولكن هذا مستحيل».

«إن عروق تشارلي فورتنوم يجري فيها الكحول، وليس الدم. والمورفين الذي أعطيتك إياه كان سيؤثر بشكلٍ ألطف على السفير. فالسفير يخاف الكحول. وكان عليهم هذا المساء أن يقدموا كولا كولا مع وجبة العشاء، هكذا أخبرني تشارلي. سيكون على مايرام بعد قليل. دعه ريثما ينتهي من إغفائه»، ولكن قبل أن يتاح له الوقت لمغادرة الغرفة فتح الرجل الممدَّد على الصندوق الخشبي عينيه. حدَّق في الدكتور بلار وبادله الدكتور بلار النظر، وذلك لكي يتأكد مما إذا كان قد تعرَّف عليه.

قال فورتنوم: «خذني الى البيت، البيت»، ومن ثم مال جسده على جنبه وراح في نوم عميق.

سأل الأب ريفاس: «هل تعرَّف عليك؟».

«ماأدراني؟».

«إذا تعرَّف عليك فستتعقَّد الأمور».

***

أشعل أحدهم شمعةً ثانيةً في الغرفة الخارجية، ولكن لم يتكلم أحداً، وكأنَّ كلاً منهم كان ينتظر أن يلتقط من عينيّ الآخر اقتراحاً حول مايجب عمله الآن. أخيراً قال أكوينو: «هذا لن يعجب إل تيغره El Tigre[1]».

قال الدكتور بلار: «إنه في الحقيقة أمرٌ مضحك إذا أمعنَّا التفكير فيه. لابد أن ماسمعته كان طائرة السفير، وكان هو بداخلها، في طريق عودته الى بوينس ايريس. أتساءل كيف انقضت حفلة عشاء الحاكم دون مترجم»، ونقَّل عينيه من وجهٍ الى آخر، لكنه لم يتلقَّ من أحد ابتسامة تجاوب.

---

(١) النمر.

كان في الغرفة رجلان لم يتعرَّف عليهما، ولاحظ لأول مرة وجود امرأةٍ نائمةٍ على الأرض في زاويةٍ مظلمة ـ كان قد اعتقد مخطئاً أنها pancho[1] أوقعه أحدهم. كان أحدهما زنجياً ذا وجهٍ مغطى ببثور الجدري، والآخر هندياً وقد تولّى الآن مهمّة الكلام. لم يتمكن من فَهم الكلمات ـ فهي ليست اسبانية «ماذا يقول ياليون؟».

«يعتقد ميغل أننا يجب أن نُغرقه في النهر».

«وماذا قلت؟».

«قلت إنَّ وجود جثةٍ على بُعد ثلاثمائة كيلومتر من السيارة سيثيرُ اهتمام البوليس».

قال الدكتور بلار: «الفكرة سخيفة، لايمكنك اغتيال تشارلي فورتنوم».

«أحاول ألاّ أفكر بهذه الصيغة يا ادواردو».

«هل أصبح القتل بالنسبة إليك مسألةً لفظيةً الآن ياليون؟ أذكرُ أنك كنتَ دائماً متفوقاً في مادة الدلالات اللفظية. كنتَ تشرحُ لي فكرة الثالوث الأقدس أيام زمان، إلاّ أنَّ شرحك كان أشدَّ تعقيداً من كتاب التعاليم الدينية».

قال الأب ريفاس: «نحن لانريد قتله، ولكن ماحيلتنا؟ لقد رآك».

«لن يتذكّر شيئاً بعد أن يفيق. إنه دائماً ينسى الأشياء تماماً حين يسكر»، ثم أضاف الدكتور بلار: «كيف ارتكبتَ مثل هذا الخطأ بحق الله؟».

أجاب الأب ريفاس «هذا مايجب أن أكتشفه»، وبدأ يتكلم من جديد بلغة الغواراني[2].

أخذ الدكتور بلار إحدى الشمعتين وعاد الى باب خروج الغرفة الأخرى. بدا تشارلي فورتنوم نائماً بسلام على الصندوق، تماماً كما لو أنه نائم على سريره النحاسي الكبير في المنزل، حيث يستلقي دائماً على الجانب الأيمن

---

(١) معطف.

(٢) الغواراني: لغة هنود الغواراني، سكان الباراغواي وجنوب البرازيل. المترجم.

بالقرب من النافذة. وحين نام الدكتور عليه مع كلارا اختار النوم على الجانب الأيسر، قرب الباب، بسبب حساسيته الشديدة.

كان وجه تشارلي دائماً، كما عَرِفَه، متورداً قليلاً. كان ضغطُ دمه عالياً وكان شديدَ الولَعِ بشرب الويسكي. على الرغم من تجاوزه سن الستين احتفظ شعره الخفيف بنعومة ولون وبرِ فأر، كشعر صبيّ، ويعطي لون بشرته للعين غير المتمرّسة انطباعاً خطأً بالصحة. كان يبدو كشخصٍ يعمل في العراء، كمزارع. والحقيقة أنه كان يمتلك مخيماً يقع على بعد نحو خمسين كيلومتراً من المدينة، حيث زرع قليلاً من الحبوب ونبات الماتيه. كان يحبُّ أن يتجول متنقلاً من حقلٍ الى حقل بسيارة لاندروفر عتيقة كان يسمّيها «فخرُ فورتنوم». وكان يقول: «هيا بنا نعدو»، صارخاً عند الإنطلاق «هاي ـ يب».

الآن رفع يده فجأة ولوَّح بها. كانت عيناه مغمضتين. كان يحلم. لعلَّه ظنَّ أنه يلوِّحُ لزوجته وللدكتور حين تركهما في الشرفة وذهب لينخرط في عملٍ طبّي مُمل. وقد قال تشارلي فورتنوم ذات مرة «إنني لم أفهم قط أحشاء النساء. يجب أن ترسم لي ذات يوم مخططاً لها».

خرج الدكتور بلار مسرعاً الى الغرفة الخارجية «إنه على مايرام ياليون. يمكنك رميهُ بسلام الى جانب الطريق في أي مكان حتى يَعثُر عليه البوليس».

«لايمكنني أن أفعل ذلك. لعلَّه تعرّف عليك».

«إنه مستغرق في النوم. وعلى أية حال لن يقول شيئاً من شأنه أن يؤذيني. إننا صديقان قديمان».

قال الأب ريفاس: «أظنني أعرف ماذا حدث. المعلومات التي أعطيتنا إياها كانت صحيحة الى حدٍ معيَّن ـ فقد أتى السفير من بوينس ايريس بالسيارة، وأمضى ثلاث ليالٍ على الطريق لأنه أراد أن يشاهد الريف، والسفارة أرسلت طائرةً من بوينس ايريس لإعادته بعد أن يتناول عشاءه مع الحاكم. كل هذه التفاصيل كانت صحيحة تماماً، لكنك لم تُخبرنا قط بأنَّ قنصلكم كان سيرافقه لزيارة الآثار».

«أنا لم أكن أعرف. لقد أخبرني عن حفلة العشاء ـ فقط».

«إنــه حتى لـم يرافق السـفير فـي سـيارته. على الأقل كـنّا قبضنا عليهما معـاً عنـدئـذ».

«لابد أنّه استقلّ سيارته الخاصة ومن ثم ترك المكان في حين كان السفير مايزال يتجول في الجوار. ورجالنا كانوا يتوقعون أن تمرّ سيارةٌ واحدة فقط. وقد أرسل مخفرنا الأمامي إشارة لدى مرورها. لقد رأى العَلَمْ».

«رأى راية الاتحاد(١) وليس النـجوم والخطوط (٢). إنه حتى لايحقُّ له أن يرفع العلم».

«في الظلام لايرى المرء بوضوحٍ وقد أخبروه عن موضوع لوحة الأرقام الدبلوماسية ...».

«كانت تحمل حرفي CC (٣) وليس CD (٤)».

«في الظلام تتشابه الأحرف على سيارة متحركة. لايمكنك أن تلومه. كان وحده وسط الظلام ــ وربما كان خـائفاً. كان يمكن أن يقعَ هـذا لكَ أو لي. إنها مصـيبة».

«لعلّ البـوليس لم يعلم بعد بما وقع لفـورتنوم. فـإذا أسرعتَ بإطلاق سـراحه».

شعر الدكتور بلار أمام صمتهم المتنبه وكأنَّه يرافع أمام هيئة محكمة. قال: «تشارلي فورتنوم لاينفعك كرهينة».

قال أكوينو: «إنه عضو في الهيئة الدبلوماسية».

«لا، ليس صحيحاً. القنصل الفخري ليس قنصلاً أصيلاً».

---

(١) رمز العلم البريطاني.
(٢) رمز العلم الأميركي.
(٣) اختصار لعبارة «قنصل المدينة، أو المقاطعة.
(٤) اختصار لـ«هيئة دبلوماسية».

«سيضطرُّ السفير البريطاني الى التدخلُّ».

«طبعاً، سوف يرسل تقريراً بالقضية إلى الوطن، تماماً كما قد يفعلُ لصالحِ أيّ مواطنٍ بريطاني. وإذا خطفتَني أو خطفتَ العجوز همفريز فالنتيجة واحدة».

«سوف يطلب البريطانيون من الأميركيين أن يمارسوا ضغطاً على الجنرال في أسونسيون».

«تأكّد من أنّ الأميركيين لن يفعلوا شيئاً من هذا القبيل. ولِمَ يفعلون؟ إنهم لايرغبون في إثارة غضب صديقهم الجنرال إكراماً لتشارلي فورتنوم».

«لكنه قنصل بريطاني».

بدأ اليأس يتسرب الى الدكتور بلار من قُدرته على إقناعهم بعدم أهمية تشارلي فورتنوم. قال: «إنه حتى لايملكُ الحقَّ في وضع لوحة CC على سيارته. وقد سبَّب المتاعب لنفسه لأجل ذلك».

قال ريفاس: «أظنُّكَ تعرفُهُ جيداً؟».

«نعم».

«أكنتَ معجباً به؟».

«نعم، بشكلٍ ما. «لم يكن مما يبشر بالخير أن يتحدثَ ليون عن فورتنوم لتوِّهِ بصيغةِ الماضي.

«أنا أسف. أفهم مشاعرك. من الأسهل كثيراً دائماً مشاركةُ الغرباء مشاعرهم. أحسُّ وكأني جالسٌ في صندوقِ الإعتراف. كنتُ أكره كثيراً أن أميِّز صوت المعترف. إنَّ الإنسانَ يمكن أن يكون خشناً بسهولةٍ أكبر بكثير مع الغرباء».

«ماذا تربح من حجزهِ ياليون؟».

«لقد اجتزنا الحدود وأتينا لننجز عملاً. إنَّ الكثيرين من أبناء شعبنا سوف يشعرون بالإحباط إذا لم يتحقق شيء. في وضعنا الراهن يجب أن يحدث شيءٌ دائماً. حتى اختطاف قنصل يُعتبر عملاً كبيراً».

صحّح الدكتور بلار له كلامه: «قنصل فخري».

«سيكون ذلك بمثابة تحذيرٍ لمن هم أكثر أهمية. لعلّهم يأخذون تهديدنا التالي بمأخذ الجَدْ. هذه نقطة تكتيكية صغيرة ربحناها في مسيرة حربٍ طويلة».

قال الدكتور بلار: «إذن أعتقد أنك مستعدٌ للاستماع الى اعترافِ الغريب ولمنحهِ غفرانك قبل أن تقتله؟ إن تشارلي فورتنوم كاثوليكي، وسيرحِّب بوجودِ قس بالقرب من فراش موته».

قال الأب ريفاس مخاطباً الزنجي: «أعطني سيجارة يابابلو».

قال الدكتور بلار: «بل إنه سيكون سعيداً بوجود قس متزوجٍ مثلك ياليون».

«كنتَ قد أبديتَ رغبةً قويةً بمساعدتنا يا ادوارود».

«في حال كان السفير، نعم. لأنَّ حياته ماكانت لتكون مهدَّدة بأيّ خطر. كانوا سيرضخون. على أية حال الانسان الأميركي... مقاتلٌ بطبعهِ. الأميركيون قتلوا الكثيرَ من الرجالِ في جنوب أميركا».

«والدك واحد من الذين يحاولون أن يقدِّموا يدَ العون — إن كان مايزال حياً».

«لاأدري إن كان سيحب أسلوبكم».

«إننا لم نَخْتَرْ أسلوبنا. هم الذين جرّونا إليه».

«بحق الله ماذا يمكنك أن تطلبَ مقابلَ تشارلي فورتنوم؟ ربما صندوقاً من الويسكي الأصلي؟».

«مقابل السفير الأميركي كنّا سنطلب إطلاقَ سراحِ عشرين من السجناء. أما مقابل قنصل بريطاني فأعتقد أننا سنضطر الى خفضِ قيمةِ الفاتورةِ الى النصفِ. الأمرُ يعود الى إل تيغره».

«وأين هو صاحبكم إل تيغره بحق الجحيم؟».

«فقط الموجودون في روزاريو يتصلون به والى أن يتمَّ إنجازُ العملية».

«أعتقد أن برنامجه لايسمح بإرتكابِ أي خطأ، أو بتدخّلِ الطبيعةِ الإنسانية. إنَّ الجنرالَ يستطيعُ أن يقتلَ الرجالَ الذين ذكرتهم ويقول إنهم ماتوا قبل سنينَ عديدة».

«لقد خُضنا في هذا الجدال مراراً. إذا قتلوهم فإنَّ مطالبنا ستتعاظمُ في المرَّة التالية».

«ليون، أنصِتْ إليّ. إذا بتَّ متأكداً من أنَّ تشارلي فورتنوم لن يتذكر أي شيء، فلا شك ... ...؟».

«كيف لنا أن نتأكد؟ ليس لديك جرعات مخدِّرة تستخدمها لمسح ذاكرتنا. هل يهمُّك أمره الى هذا الحد يا ادواردو؟».

«إنه صوتٌ جالسٌ في صندوق الإعتراف وقد ميَّزته».

«تد»، ناداه صوتٌ من الغرفة الداخلية «تد».

قال الأب ريفاس: «أترى، لقد تعرَّف عليك».

أدار الدكتور بلار ظهره لهيئة المحكمة وولج الباب، قال: «نعم، تشارلي. هاأنا. كيف حالك؟».

«بحالةٍ فظيعة ياتد. ماذا حدث؟ أين أنا؟».

«لقد تعرضْتَ لحادثٍ بسيارتك. لاشيء خطير».

«ألن تأخذني الى البيت؟».

«ليس الآن، يجب أن تركُنَ الى الهدوء لبعض الوقت. ستظل في الظلام. لقد أصبتَ بارتجاجٍ بسيط».

«كلارا ستقلق».

«لاعليكَ. أنا سأعتني بكلارا».

«يجب ألاّ تفزِعها ياتد. الطفل ... ».

«أنا طبيبها ياتشارلي».

«بالطبع ياعزيزي، ماأحمقني. هل سيكون في إمكانها أن تزورني؟».

«ستعود الى المنزل في غضون بضعةِ أيام».

«بضعةِ أيام! هل لديك مشروب ياتد؟».

«لا، سأعطيكَ ماهو أفضل ـ ماسيجعلك تنام».

«أنت صديقٌ مخلصٌ ياتد. مَنْ هؤلاء الذين في الخارج؟ ولماذا نستخدم المشعل؟».

«ثمةَ قطعٌ في الكهرباء. عندما ستستيقظ سيكون النهار قد طلَع».

«وهل ستظلُّ عليّ؟».

«طبعاً».

ظلّ تشارلي فورتنوم مستلقياً دون حِراك ثم سأل بصوتٍ لابدّ أنه سُمِعَ في الغرفة المجاورة «الأمر لايتعلقُ بحادثِ سيارةٍ ياتد، أليس كذلك؟».

«طبعاً السبب هو حادث».

«النظارة الشمسية ... ماذا حدث للنظارة الشمسية؟».

«أية نظارة شمسية؟».

قال تشارلي فورتنوم: كانت تخص كلارا. كانت تحب تلك النظارة الشمسية. ماكان يجب أن أستعيرها. لم أعثُر على خاصتي». رفع ركبتيه وقرّبهما من صدره واستقر على جنبه مع تنهيدة طويلة، وقال: «المعيار هو المهم»، واستلقى دون حراك وكأنّه جنين مسنٌ فشِلَ في أن يولَدْ.

في الغرفة الأخرى جلس الأب ريفاس وذقنه مرتكزة على أصابعه المتشابكة وعيناه مغمضتان. لعلّه يصلي، هكذا فكّر الدكتور بلار وقد دخل عائداً الى الغرفة، أو ربما كان فقط ينصِتُ بإمعانٍ الى كلمات تشارلي فورتنوم كما اعتاد قديماً أن يُنصت في غرفة الإعتراف الى صوتِ أحد الغرباء ليقرِّر نوع الكفّارة ...

قال الدكتور بلار متَّهماً: «ياللخطأ الفاضح الذي ترتكبون، يالكم من أغرار!».

«تقولون عنّا جميعاً إننا أغرار. والبوليس والجنود هم المتمرسون».

«تحتفظون بقنصل فخري، ومدمن على الكحول علاوة على ذلك، بدلَ السفير».

«نعم. وتشى[1] التقط صوراً فوتوغرافية كالسائح ونسيها. على الأقل لاأحد يحمل كاميرا هنا، أو يحتفظ بصحيفة. إننا نتعلم من أخطائنا».

قال الدكتور بلار: «يجب أن تطلبَ من سائقك أن يوصلني الى البيت».

«نعم».

«سأعود غداً».

«لن نحتاج اليك بعد الآن يا ادواردو».

«ربما أنت لن تحتاجني، ولكن ... ».

«من الأفضل لو أنه لايراك ثانية قبل أن نُقرِّر ... ».

قال الدكتور بلار: «ليون، لاأظنك جاداً في هذا. إن صديقي القديم تشارلي فورتنوم ... ».

قال الأب ريفاس: «إن مصيره ليس بين أيدينا يا ادواردو. مصيره بين أيدي الحكومات، وبين يدي الله أيضاً، طبعاً. ها أنا لاأنسى هرائي القديم، كما تلاحظ، لكني لم أرَ حتى الآن أية إشارة تدلُّ على أنه عزَّ وجلّ يتدخل في حروبنا وسياساتنا».

---

(١) الإشارة هنا الى تشي غيفارا.

الجزء الثاني

الفصل الأول

كان من السهل على الدكتور بلار أن يتذكّر أول مرة قابل فيها تشارلي فورتنوم.

حصل اللقاء بعد وصوله الى المدينة من بوينس ايريس ببضعة أسابيع. كان القنصل الفخري ثملاً بشكلٍ مفرط، وقد فقدَ السيطرةَ على ساقيه. وكان الدكتور بلار متوجهاً الى فندق بوليفار حين مال سيدٌ عجوزٌ من نافذة النادي الإيطالي وناداه طالباً العون. وشرح له باللغة الانكليزية «النادل اللعين غادرَ الى بيته».

حين ولجَ الدكتور بلار النادي وجدَ رجلاً ثملاً وقد بدا في منتهى السرور ـ وكانت مشكلته الوحيدة أنه لايتمكن من الوقوف على قدميه، إلا أنَّ هذا لم يكن يسبِّب له أيَّ قلق. قال إن الجلوس على الأرض مريح تماماً، وقال: «لقد جلستُ على أشياءٍ أسوأ، بما فيها الخيول».

قال الرجل العجوز: «إذا أمسكتَهُ من إحدى ذراعيه، سأمسك أنا الأخرى».

«مَنْ هو؟».

«الجنتلمان الذي تراه جالساً هنا على الأرض ويرفض أن ينهض هو السيد تشارلي فورتنوم، قنصلنا الفخري. أعتقد أنَّك الدكتور بلار؟ أنا سعيد بلقائك. أنا الدكتور همفريز، دكتور في الأدب، وليس في الطب. يمكنك القول إننا نحن الثلاثة نُكوِّنُ أعمدة الجالية البريطانية، إلا أنَّ أحد الأعمدة انهار».

قال فورتنوم : «كان المعيارُ مغلوطاً» . ثم أضاف عبارةً ما حول الكأسِ غير المناسبة : «يجب أن تحصل على النوع الصحيح من الكؤوس والاستبلبل» .

سأل الدكتور بلار : «أهو يحتفل بمناسبةٍ ما؟» .

«سيارته الكاديلاك الجديدة وصلت سالمةً في الأسبوع الفائت ، واليوم وجدَ لها مشترياً» .

«أكنتَ تتناول طعامك هنا؟» .

«أراد أن يأخذني الى فندق ناسيونال ، إلا أنه أشدُّ سُكراً من أن يناسبَ جوَّ فندق الناسيونال ـ أو حتى فندقي . والآن يجب أن نوصله الى منزَله بطريقةٍ ما ، لكنَّه يصرُّ على الذهاب . لزيارة سينيورة سانشيز» .

«أهي صديقة له؟» .

«بل صديقة لنصف رجال هذه المدينة . إنها تدير الماخور الوحيد الجيد هنا ـ أو هكذا يقولون . أنا شخصياً لستُ خبيراً لأحكمَ على مثلِ تلكَ الأماكن» .

قال الدكتور بلار : «هي حتماً غير قانونية» .

«ليس في هذه المدينة . نحن هنا مركز قيادة عسكرية ـ لاتنسَ هذا . الجيش لايسمح لأحد في بوينس ايريس أن يُملي عليه أوامره هنا» .

«لماذا لاتتركه يذهب؟» .

«كما ترى إنه غير قادر على الوقوف» .

«لاشكَّ في أنَّ النقطة المهمة في الماخور هي أنَّ المرءَ يستطيعُ أن يستلقي فيه؟» .

«وهناك شيء يجب أن يقف» ، قالها الدكتور همفريز بفظاظةٍ غير متوقعة وتعبيرٍ عن الاشمئزاز .

في نهاية المطاف أقحما تشارلي فورتنوم فيما بينهما وعبرا به الشارع الى الغرفة الصغيرة التي كان الدكتور همفريز يشغلها في فندق بوليفار . في تلك الأيام كان عدد الصور المعلّقة على الجدران أقل لأن عدد بقع الرطوبة كان أقل ، والدوش لم يكن قد بدأ يقطر بعد .

إنّ الأشياء الجامدة تتغير بسرعةٍ أكبر مما يحصل مع المخلوقات الآدمية. ففي تلك الأمسية لم يكن بين الدكتور همفريز وتشارلي فورتنوم اختلافٌ أكبر مما هو عليه الآن، وشرخٌ في جصِ منزلٍ مهجور يزداد بسرعةٍ أكبر مما يحدث لغضنٍ في وجهٍ إنساني، ويتغيَّر لون الدهان بسرعة أكبر مما يحدث للشعر، وتهدُّم غرفة مستمر: إنه لايتوقف ولو مؤقتاً على ذاك المستقَرْ المرتفع من فترة الشيخوخة حيث قد يعيش الانسان فترةً طويلةً دون أن يطرأ عليه تغيُّر يُذكَر. وكان الدكتور همفريز قد حطَّ رحاله فوق المستَقَرْ منذ سنواتٍ عديدة، ووجد تشْارلي فورتنوم، على الرغم من أنه كان لايزال موجوداً على أحد السفوح المنخفضة، سلاحاً موثوقاً في قتاله ضدّ خَرَفِ الشيخوخة ـ فقد خلَّل بعضاً من معنوياته العالية وسذاجة الأيام الأولى في الكحول. ومع تقدُّم السنين لم يكد الدكتور بلار يتبيَّن أيَّ تغييرٍ طرأ على أيّ من صديقيه الأولَين ـ لعلَّ همفريز أصبح تحرُكه أبطأ بين البوليفار والنادي الإيطالي، وأحياناً كان يعتقد أنَّ في إمكانه تقصِّي وجود بقع تتزايد من الكآبة، كالعفنِ، داخلِ وداعته المحفوظةِ جيداً.

ترك الدكتور بلار فورتنوم في رعاية همفريز في فندق بوليفار وذهب ليُحضرِ سيارته. كان يقطن الشقَّة نفسها من المبنى نفسه الذي يقطنه الآن. كانت الأضواء ماتزال منيرةً في المرفأ الذي يشتغل فيه العمال طِوال الليل. وعلى سطحِ سفينةٍ تجاريةٍ منبسطٍ في نهر البارانا رآهم وقد ارتقوا برجاً معدنياً امتدَّ منه قضيبٌ حديدي وأخذَ يدق قاع النهر. وتردَّد الضجيج كقرع طبولٍ قَبَلِيَّة، ثد، ثد، ثد. ومن سفينة أخرى امتدت أنابيبُ طويلةٌ، موصولةٌ بآلةٍ تستخدمُ تحت الماء لشفط الحصى من قاع النهر وإرسالها وهي تهرول وتقرقع الى الشاطىء لتُفَرَّغ في خليجٍ صغيرٍ يقع على بعدِ نصفِ ميل. وكان الحاكم، الذي عيَّنه آخر رئيس جمهورية جديد بعد وقوع انقلاب عسكري ذاك العام، يخطِّط لتعميق المرفأ بحيث يستوعب معدِّيات ذات قُدرات أعظم على الجرّ

من شاطىء تشاكو ويتلقى عدداً أكبر من قوارب المسافرين من العاصمة. وبعد وقوع انقلاب عسكري ثانٍ، هذه المرة في قرطبة، وأُقصيَ هو عن منَصبِهِ، أُسقطَتْ الفكرة، ونام الدكتور بلار قرير العين. وقد قيل أنَّ حاكم منطقة التشاكو لم يكن مستعداً لإنفاق المال المطلوب لتعميق الجانب الخاص به من النهر، وكانت قوارب المسافرين التي تأتي من العاصمة أضخم بكثيرٍ في الموسمِ الجاف من أن تذهب لأبعد من المدينة، حيث كان يجب تحويل المسافرين في كل الأحوال الى قوارب أصغر حجماً لتُناسب القرية للقيام بالرحلة الى جمهورية الباراغي في الشمال. كان من الصعب معرفة مرتكب الخطأ الأول، إنْ كان ماحدث يُعتبر خطأ.

والسؤال Cui bano؟[1] لايشير الى شخصٍ بعينه، بما أن كلَّ المتعهدين انتفعوا وكلهم ولا شك تقاسموا أرباحهم مع آخرين. وقد وفَّرت أعمال الميناء قبل إيقافها الكثير من المنافع، فكانت وراء توفير آلة بيانو فخمة في أحد المنازل، وبرادٍ جديد في مطبخِ أحدهم، وربّما كانت تقبَعُ في قبوِ مساعدِ مقاولٍ صغير لا أهمية له، بالكاد عرفت المُسكرات طريقها اليه من قبل، دزينةً أو اثنتان من صناديق الويسكي الوطني.

حين عاد الدكتور بلار الى فندق بوليفار وجد تشارلي فورتنوم يجرَعُ كؤوس القهوة المُرَّة القوية التي كان يُعِدُّها على موقدٍ كحولي وضع على مغسلة لليدين أعلاها من الرخام، الى جانب صُفحة الصابون وكأس غسل الأسنان الخاص بالدكتور همفريز. كان قد غدا أكثر تماسكاً بكثير، وبات أصعب كثيراً إقناعه بالعدول عن زيارة السينيورة سانشيز. قال: «ثمة فتاة هناك، فتاة بكل معنى الكلمة، وليس كما تظنان أبداً. يجب أن أراها مرة أخرى. في آخر مرة لم أكن في أحسن حالاتي ... ».

قال همفريز: «ولستَ في أحسن حالاتك الآن».

---

(١) الأصل باللاتينية، ويعني: لمنفعة من؟ أو من المستفيد؟.

«إذن فأنت لم تفهمني أبداً؟ أنا أريد فقط أن أتحدَّث معها. لسنا كلنا داعرين ملاعين ياهمفريز. إنَّ في ماريا سمةً رفيعة. إنَّها لاتنتمي الى الـ... ».

قال الدكتور همفريز بعد أن تجشَّأ قليلاً: «هي، كما أفهم، عاهرة كالأخريات جميعاً».

أصبح الدكتور بلار يلاحظ أنه حين لايستحسن الدكتور همفريز الموضوع المطروح يتجمَّع البلغم في حنجرته.

قال تشارلي فورتنوم، على الرغم من أنَّ الدكتور بلار لم يعبِّر عن رأيه، «وهنا بالذات تخطئان أنتما الاثنان خطأ فادحاً، هي بالفعل مختلفة عن كل الأخريات، فهي تتحلى بنوعٍ من الدماثة. عائلتها أتت من مدينة قرطبة. وإذا لم تكن تجري في عروقها دماءٌ كريمة لايكون اسمي تشارلي فورتنوم. أعلمُ أنَّكما تظنانني أبله، ولكن هناك شيءٌ حسن... يكاد يكون عذرياً في تلك الفتاة».

«ثم إنَّكَ قنصل هنا، فخري أو غير فخري لايهم، ولايحقُّ لك أن تُشاهَد في بؤرةٍ منحطَّةٍ كتلك».

قال تشارلي فورتنوم: «أنا أحترمُ الفتاة، أحترمها حتى وأنا أضاجعها».

«وهذا كل مافي استطاعتك أن تفعله هذا المساء».

بعد محاولةِ إقناعٍ أشدَّ خشونةٍ سمح فورتنوم لها بمساعدته للوصول الى سيارة الدكتور بلار.

هناك وقف يتفكَّر بصمتٍ لبعض الوقت، بينما كانت ذقنه تهتزَّ مع اهتزازةِ المحرك، وفجأة قال: «أعتقد أنَّ الانسان يتقدَّم في العمر. أنت شاب، ولاتعاني من أوجاع الذكريات والندامات... هل أنت متزوج؟»، سأله بسرعة وهما متجهان بالسيارة الى سان مارتين.

«لا».

قال فورتنوم: «كنت متزوجاً ذات يوم، قبل خمس وعشرين سنة مضت ـ تبدو الآن وكأنها قرن من الزمان. لم ينجح الزواج. كانت مثقفة، إذا فهمتَ

ماأعني. لم تكن تفهم الطبيعة الانسانية»، ثم انتقل ـ بتداعي مجموعة من الأفكار عجزَ الدكتور بلار عن متابعتها ـ الى وضعه الراهن. قال: «دائماً أشعر أني أكثر إنسانية بكثير بعد أن أشرب مافوق نصف قنينة. ولافائدة ترجى إذا قلّت الكمية عن النصف قليلاً، يجب أن تزيد قليلاً... طبعاً الأثر لايدوم، لكن نصف ساعة من الشعور اللذيذ يستحق أن يتلوه بعض الحزن».

سأله الدكتور بلار غير مصدّق: «هل تقصد بكلامك النبيذ؟». لم يستطع أن يصدق أن فورتنوم معتدل الى ذلك الحد.

«نبيذ، ويسكي، جِنْ، لافرق. المعيار هو المهم. وهناك ناحية نفسية في المعيار. يكفي أن تقلّ الكمية عن نصف قنينة ويصبح تشارلي فورتنوم ابن حرام وحيداً بائساً ولايجد له رفيقاً إلا «فخر فورتنوم».

«فخر فورتنوم؟».

«جوادي المفخرة الحَسَن الإعداد. لكنّ كأساً واحدة فوق النصف قنينة ـ أي كأس، حتى كأس المشروب الصغيرة، المعيار هو المهم ـ ويعود تشارلي فورتنوم مالكاً لنفسه، ويليق بالعائلة المالكة. أنت تعلم أني ذهبت ذات مرة في نزهة مع بعض الشخصيات الملكية الى منطقة الآثار. كان معنا قنينتان وزّعناهما بين ثلاثتنا، وياله من يوم قضيناه، يمكنني أن أحكي لك، ولكن هذه قصة أخرى. كما حدث للقبطان إزكويردو. ذكّرني ذات يوم كي أحكي لك قصة القبطان ازكويردو».

كان من الشاق جداً على شخص غريب أن يتابع تداعيات أفكار تشارلي فورتنوم.

«أين تقع القنصلية؟ هل هي بعد الإنعطافة التالية على اليسار؟».

«نعم، ولكن كان يمكن أن نسلك المنعطف الثاني أو الثالث أيضاً ومن ثم نقوم بإنعطافة صغيرة. إنني أستمتع في صحبتك يادكتور. ماذا قلت لي اسمك؟».

«بلار».

«أتعرف ماهو اسمي؟».

«نعم».

«ميسون».

«اعتقدتُ... ».

«هكذا كانوا يسمونني في المدرسة. ميسون. فورتنوم وميسون، التوأم الذي لاينفصم. كانت أفضل مدرسة انكليزية في بوينس ايريس، ومع ذلك لم تكن مسيرة حياتي متميِّزة. أمر طيب أن يتخرَّج المرء وهو بارز... بأحسن حال. المعيار الصحيح يعني لاكثيراً جداً ولاقليلاً جداً. إنني لم أكن قط مثالياً، وفريق لعبة البلي كان الوحيد الذي شكَّلته. لم أبرز على المستوى الرسمي. لقد كنا مدرسة نفَّاجة. ومع ذلك فالمدير، ليس الذي كنت أعرفه، فهذا كان اسمه آردن ـ وكنّا نلقِّبه بـ «ذي الروائح» ـ هذا الجديد بعث لي برسالة تهنئة عندما أصبحت قنصلاً فخرياً. أنا كتبت له أولاً، طبعاً، وأفضيتُ اليه بالأخبار السارة، لذا أعتقد أنه لم يستطع أن يتجاهلني تماماً».

«هل ستخبرني متى سنصل الى القنصلية؟».

«لقد تجاوزناها، ياعزيزي، ولكن لاعليك. إنَّ ذهني صاح. انعطف فقط مرة أخرى. أولاً الى اليمين ثم الى اليسار ثانية. حين أكون في مزاجي الحسن يمكنني أن أقود السيارة هكذا طوال الليل. في صحبة وديِّة. ولاحاجة للإنتباه لإشارات الإتجاه الواحد. إنه الإمتياز الدبلوماسي. ورمز CC على السيارة، أستطيع أن أتكلم معك يادكتور كما لاأتكلم مع أي شخص آخر في هذه المدينة. كلهم اسبان، أناسٌ مملؤون كبرياء ولكن بلا عاطفة. ليس كما نعرفها نحن الانكليز. ليس لديهم حس بالوطن. وهناك الشبشب الناعم، والقدمان على الطاولة، والكأس الودود، والباب المشرَّع دائماً. همفريز رجل لابأس به ـ إنه إنكليزي بقدر ماأنت أو أنا كذلك، أم هل هو اسكتلندي؟ ـ ولكن لديه روح المُعلِّم. هاك كلمة جيدة أخرى. دائماً

يحاول أن يقوِّم أخلاقياتي، إلا أني لاأرتكب الكثير من الأخطاء، وهي ليست أخطاءً تماماً. إن كنتُ هذه الليلة قد سكرت قليلاً فالحق يقع على الكؤوس. ماذا قلتَ لي اسمك الآخر يادكتور؟».

«إدواردو».

«لكنني ظننت أنك انكليزي؟».

«أمي من باراغواي».

«نادني تشارلي. هل تمانع إذا ناديتك بـ«تد»؟».

«نادني بما تشاء، ولكن حباً بالله قل لي أين القنصلية».

«عند الزاوية التالية، ولكن لاتتوقع الكثير. ليس هناك قاعات رخامية، ولاشمعدانات ولاأصص للنخيل. إنه وكرٌ لعازب ـ مكتب، وغرفة نوم ـ ككل المكاتب الرسمية طبعاً. وهذا أقصى ماكان اللواطون في الوطن على استعداد لتوفيره. ليس لديهم حسٌّ بالعزةِ الوطنية. مقتصدون في التوافه مسرفون في الكبائر. يجب أن تأتي الى مخيمي[1] ـ هناك يكمن بيتي الحقيقي. حوالي الألف إكر. ثمانمائة دون كذب. تنتج أفضل محصول ماتيه في البلد. يمكننا أن نتوجه الى هناك الآن ـ إنها على بعد ثلاثة أرباع الساعة من المسير. وبعدها نمضي ليلة من النوم الهانىء ـ جرعة شافية. يمكنني أن أقدم لك ويسكي حقيقياً».

«ليس هذا المساء. لديّ مرضى أعودهم في الصباح».

توقفا خارج مبنى كولونيالي قديم ذي أعمدة كورينثية، والجير الأبيض يومض في ضوء القمر. في الطابق الأول نُصبت سارية علم بشكل ناتىء مع ترسٍ يحمل رسمَ السلاح الملكي. ترنّح تشارلي فورتنوم قليلاً على الرصيف، محدقاً الى أعلى، وسأل: «ألا توافق؟».

«حول ماذا؟».

---

(١) المقصود بالمخيم هنا مزرعة صغيرة خاصة.

«سارية العلم. أليست درجة ميلانها كبيرة قليلاً؟».

«تبدو لي في أحسن وضع».

«أتمنى لو كان لنا علم أبسط من راية الاتحاد. ذات مرة قلبته رأساً على عقب في يوم عيد ميلاد الملكة. لم أرَ مايعيب في ذاك الشيء الملعون، لكن همفريز غضب ـ قال: «سيبلغ السفير. اصعد لنشرب كأساً».

«يجب أن أصل الى المنزل ـ إذا كنت تستطيع أن تمشي وحدك».

«أعد بأنك ستحظى بويسكي حقيقي. عندي «الونغ جون» من السفارة. كلهم هناك يفضلون «هيغ». لكن «الونغ جون» يمنحك كأساً مجانيَّة مع كل قنينة. وهي كؤوس جميلة جداً أيضاً يرسمون عليها المقادير، مقدارٌ للنساء، وآخر للرجال، وثالثٌ للربابنه. أنا أعتبر نفسي، طبعاً، ربَّاناً. لدي عدد كبير من كؤوس «الونغ جون» هناك في المخيم: أحب اسم ربان، أكثر من قبطان الذي ليس أكثر من مصطلح عسكري.

مرَّ بالصعوبات المعتادة مع مفتاحه، غير أنه نجح في استخدامه في المحاولة الثالثة. ومن تحت الأعمدة الكورينثية راح يترنح أمام عتبة الباب وأخذ يلقي خطاباً في الدكتور بلار الذي وقف ينتظره على الرصيف بصبر نافد حتى ينتهي.

«كانت أمسية جميلة جداً ياتد، على الرغم من شناعة الغولاش. جميل أن يتحدث المرء بين الحين والآخر بلغته الأصلية ـ لغة شيكسبير التي تصدأ من قلة الاستعمال. يجب ألا تظن أنّي أكون سعيداً بصحبة صديق. في أي وقت تحتاج الى قنصل تذكَّر أن تشارلي فورتنوم سيكون في منتهى السعادة ليخدمك، أو ليخدم أي انكليزي، أو اسكتلندي، أو ويلزي لأجل ذلك. إننا جميعاً نشترك في سمة واحدة، كلنا ننتمي الى ماكان ذات يوم مملكة متحدة لعينة. الشعور الوطني أكثف من الماء، على الرغم من قذارة هذه العبارة حين تفكر في كلمة أكثف. إنها تذكِّرنا بأشياء من الأفضل نسيانها وغفرانها. هل

سقوك شراب التين حين كنتَ طفلاً؟ تابع طريقك مباشرة. الباب الأوسط في الطابق الأول، لكن المرء لايمكن أن يخطىء اللوحة النحاسية الكبيرة. إنها تحتاج الى الكثير من التلميع ولن تصدق كم من الساعات تتطلّب لوحة نحاسية من جهد. وإعداد «فخر فورتنوم» لاشيء بالنسبة لجهد تلميعها»، وانساب عائداً الى الصالة المظلمة الخلفية، ثم اختفى عن الأنظار.

عاد الدكتور بلار بسيارته الى مسكنه في المبنى الأصفر الجديد، بينما تناهى الى سمعه ضجيج الحصى الصارّ في الأنابيب وعويل الرافعات الصدئة. بدا له، وهو راقد في السرير يحاول أن ينام، إنه في السنوات القادمة ليس من المتوقع أن يجد الكثير مما يشترك به مع القنصل الفخري.

على الرغم من أن الدكتور بلار لم يكن في عجلة من أمره لاستئناف تعرُّفه على تشارلي فورتنوم، فبعد شهر أو شهرين من لقائهما الأول تلقّى وثائق معينة كان يجب أن يطّلع عليها قنصل بريطاني.

محاولته الأولى لمقابلة القنصل لم تكن ناجحة. وصل الى القنصلية في نحو الحادية عشرة صباحاً. كانت راية الاتحاد ترفرف على السارية المريبة في وجه الريح الجافة الحارة الهابّة من سهوب التشاكو. وتساءل لماذا هي منشورة، الى أن تذكّر أن ذاك اليوم كان الذكرى السنوية لوقف إطلاق النار في الحرب العالمية قبل الأخيرة. رنَّ الجرس وسرعان ماتيقّن من أن عيناً تراقبه من خلال عين الباب السحرية، فتراجع مسافةً نحو ضوء الشمس ليتيح فرصة تفحُّصه، وعلى الفور فتحت امرأة سمراء ضئيلة ذات أنف كبير الباب بحركة خاطفة. حدّقت اليه بتركيز شديد وكأنها طائر مفترس معتاد على مراقبة نقطة من علو شاهق بحثاً عن جيفة، لعلها دُهشت لأنها عثرت على جيفة بهذا القرب وماتزال حية. قالت لا، القنصل غير موجود. لا، هي لاتتوقع حضوره. غداً؟ ... ربما. إنها غير متأكدة من ذلك. ولم يكد الدكتور بلار يصدق أن هذه هي الطريقة المُثلى لإدارة شؤون قنصلية.

ركن الدكتـور بلار الى ساعـة من القيلولة بعد الغـداء، وعـاد من ثم الى القنصلية في طريقه لعيادة بعض طريحي الفراش من المرضى في الـ barrio popular[1] ـ إذا كان يمكن أن نطلق على ماينطرحون عليهـا أسرةً. دُهش بسرور عندما فتح البـاب تشـارلي فورتنوم نفسـه. لقد تحدث القنصل في لقائهما الأول عن لحظات الكآبة التي تنتابه. ولعلَّه الآن يعاني من مثل تلك اللحظات. نظر الى الدكتور بعبوسٍ ينمُّ عن موقف الدفاع والارتباك وكأنَّ ذكرى غير سعيدة تململت في إحدى زوايا لا وعيه.

«نعم».

«أنا الدكتور بلار».

«بلار».

«تقابلنا ذات مساء بحضور همفريز».

«آه نعم، حقاً؟ طبعاً، أدخل».

فتحت ثلاثة أبواب على طول الممر المظلم. من وراء أحدها تسربت رائحة صحون غير مغسولة. وربما كان الثاني يؤدي الى غرفة نوم. وظلَّ الثالث مفتوحاً وقاده فورتنوم الى داخله. ثمة طاولة مكتب، كرسيان، خزانة للملفات، خزنة، نسخة من لوحة لأنيغوني Annigomi تمثّل رسماً للملكة مع شرخ في الزجاج ـ وهذا كل شيء. وطاولة المكتب تكاد تكون عارية إلا من روزنامة قائمة تعلن عن شاي أرجنتيني.

قال الدكتور بلار: «يؤسفني أن أزعجك، لقد مررت هذا الصباح ... ».

«لاأستطيع أن أتواجد هنا دائماً. ليس لدي مساعد. وهناك الكثير من الواجبات الرسمية. هذا الصباح ... نعم، كنت مع الحاكم. ماذا يمكنني أن أؤدي لأجلك؟».

«أحضرت بعض الوثائق وأريد لها أن تُشَاهد».

---

(١) الحي الشعبي.

«أرني إياها».

جلس فورتنوم بتثاقل وراح يفتح عدة أدراج. سحب من أحدها مَخْتَمة، ومن آخر ورقة ومغلفات، ومن ثالث ختماً وقلم حبر ناشف. وبدأ يرتبها على طاولة المكتب وكأنها أحجار شطرنج. ثم عكس موضعيّ الختم والقلم - لعلّه أهمل فوضع الملكة في الجهة الخطأ بالنسبة الى الملك. قرأ الوثائق بعناية ظاهرة، لكن عينيه خانتاه - فالكلمات لم تعنِ له أي شيء - ثم انتظر توقيع الدكتور بلار. بعد ذلك وضع الختم على الأوراق وأضاف عليها توقيعه. تشارلز ك فورتنوم. قال: «ألف بيزو، ولا تسأل عن الحرف ك، هذا سر»، ولم يقدِّم له إيصالاً، لكن الدكتور بلار دفع دون مجادلة.

قال القنصل: «إنني أعاني من صداع عنيف. أنت تعلم كيف هو - الحرارة، الرطوبة. المناخ هنا لعين. يعلم الله لماذا اختار والدي أن يعيش فيه ويموت فيه. لماذا لم يستقر في الجنوب؟ في أي مكان غير هنا».

«إذا كان هذا هو شعورك، فلماذا لاتبيع كل شيء وترحل؟».

قال القنصل «فات الأوان. سأبلغ الحادية والستين في العام القادم. مافائدة القيام بأي عمل في سن الحادية والستين؟ هل لديك أسبرين في حقيبتك الخاصة يابلار؟».

«نعم. هل لديك بعض الماء؟».

«فقط أعطني إياها كما هي. أنا آكل هذه الأشياء. تكون فعالة أكثر هكذا»، وأخذ يمضع الأسبرين ثم طلب قرصاً آخر.

«ألا تجد طعمه ممجوجاً».

«الإنسان يعتاد. إنني لاأحب طعم الماء هنا حتى في هذه الحالة. ياإلهي، أشعر اليوم وكأني في الجحيم».

«ربما يجب أن أقيس ضغط دمك».

«لماذا؟ أتعتقد أنَّ بي شيئاً؟».

«لا ، لكن الفحص دائماً ينفع في مثل سنك» .

«إنَّ الإضطراب ليس في ضغط دمي . إنَّه في حياتي» .

«إرهاق العمل» .

«لاأظن الوضع هكذا بالضبط . ولكن ثمة السفير الجديد ـ إنه يزعجني» .

«فيمَ؟» .

«إنه يريد تقريراً حول صناعة الماتيه في هذه المقاطعة . لماذا؟ لاأحد يشرب الماتي في بلدنا العزيز . ولعلَّهم لم يسمعوا بها مطلقاً . لكني مضطر للعمل مدة أسبوع ، متنقلاً في المنطقة على دروب سيئة ، وبعد ذلك يتعجَّب الناس في السفارة لماذا يجب أن أستورد سيارة جديدة كل سنتين . إنَّ من حقي أن أملك واحدة . إنه حقي الدبلوماسي . إنني أدفع ثمنها من جيبي وإذا أردت أن أبيعها مرة أخرى فهذا شأني وليس شأن السفير . يمكنني أن أعتمد على «فخر فورتنوم» أكثر على هذه الدروب . إنني لاأطلب لأجلها أي مبلغ ، ومع ذلك فأنا أبليها في خدمتكم . كم في هذه السفارة من أولاد حرام سَفَلَة ، يابلار . إنهم حتى يتحرُّون حول الإيجار الذي أدفعه لهذا المكتب» .

وفتح الدكتور بلار حقيبته .

«ماكل هذا الهراء؟» .

«أظننا اتفقنا على أن أقيس ضغط دمك» .

قال القنصل : «إذن من الأفضل أن نذهب الى غرفة النوم . لن يكون أمراً حسناً إذا دخلت علينا الخادم . وإلا انتشرت الأخبار في كل أنحاء البلد فوراً تفيد بأني ألفظ آخر أنفاسي . وعندئذ سوف تنهمر عليَّ الفواتير» .

كانت غرفة النوم عارية مثل غرفة المكتب ، وكان السرير مشوَّشاً من أثر ساعة القيلولة ، وثمة وسادة مرمية على الأرض بالقرب من كأس فارغة . وعُلِّقت فوق السرير صورة فوتوغرافية لرجل ذي شارب ضخم بطقم الركوب الكامل كبديل لصورة الملكة . جلس القنصل على الملاءة المجعَّدة وشمَّر عن ساعده ، وبدأ الدكتور بلار ينفخ الرباط المطاطي .

«أتظن حقاً أنَّ ثمَّة خطراً من نوبات الصراع هذه؟».

راقب الدكتور بلار العدَّاد. قال: «أعتقد أن الخطر يكمن في الإفراط في الشرب في مثل سنك»، وترك الهواء يخرج.

«إن الصداع ينتشر بين أفراد العائلة. كانت تصيب والدي نوبات رهيبة من الصداع. وكان موته فجائياً. من السكتة. هذا هو فوق. كان فارساً عظيماً. حاول أن يجعلني كذلك، لكني لم أكن أتحمل تلك الوحوش البلهاء».

«أظنك قلت لي أن لديك حصاناً. «فخر فورتنوم»، أليس هذا هو اسمه؟».

«أوه، ذاك ليس حصاناً، إنه سيارتي اللاند روفر. لايمكن أن تراني راكباً ظهر حصان. أسْمِعني أسوأ الأنباء يابلار».

«هذه البِدَع لاتخبرنا بالأسوأ - أو بالأفضل. وعلى أية حال فضغطك مرتفع قليلاً. سأعطيك بعض الحبوب، ولكن ألا يمكنك أن تخفِّف من الشرب قليلاً؟».

«هذا ماكان الأطباء يقولونه لأبي دائماً. قال لي ذات مرة إنه كان يمكن أن يدفع نقوداً لجمعٍ من الببغاوات ليُسْمِعوه مثل هذا النعيب. وأعتقد أني سأحذو حذو ابن الحرام العجوز - إلا فيما يخص الخيول. إنها تخيفني حتى الجمود. وكان يغضب لهذا. كان يقول: «يجب أن تتغلب على الخوف، ياتشارلي، وإلا تغلَّب عليك». ما اسمك الآخر يابلار؟».

«ادواردو».

«وأنا يناديني أصدقائي بتشارلي. هل تمانع في أن أناديك «تد»؟».

«إذا شئت».

كان تشارلي فورتنوم وهو صاحٍ قد وصل الى المرحلة نفسها من الود التي كان قد وصل إليها في المناسبة الأخيرة، وإن كان بطريق أطول. وتساءل الدكتور بلار تُرى كم مرة سوف يضطران لسلوك الدرب نفسه، إذا ما استمر تعارفهما، قبل أن يصلا الى بيتِ القصيد وهو التخاطب بتشارلي وتد.

«أنت تعلم أنه لايوجد في هذه المدينة إلا إنكليزي واحد آخر. شخص يدعى همفريز، أستاذ لغة انكليزية. هل قابلته؟».

«كنّا كلنّا معاً ذات مساء. ألا تذكرُ؟ وأوصلتك الى البيت».

نظر القنصل الفخري إليه مع تعبير عن شبه خوف «لا، لاأذكر. لاأذكر شيئاً. هل هذه دلالة سيئة».

«أوه، هذا شيء يحدث أحياناً معنا جميعاً إذا أكثرنا من الشرب».

«حين رأيتك واقفاً أمام الباب لم أعتقد للحظة أني أتذكر وجهك. لذا سألتك عن اسمك. حسبتُ أنّي قد أكون اشتريت منك شيئاً ونسيت أن أدفع ثمنه. يجب أن أكون أكثر تماسكاً، ألا ترى ذلك؟ أقصد لفترة من الوقت».

«لاضرر في ذلك».

«بعض الأشياء أذكرها جيداً، لكني أشبه والدي العجوز ـ هو أيضاً كان ينسى كثيراً. أتدري، مرة وقعتُ عن حصاني، فقد وقف فجأة على قائمتيه الخلفيّتين ـ فقط ليختبرني، أقصد الحيوان. كنت في السادسة فقط، وكان الحصان يدرك أني مجرد ولد، حدث ذلك بالقرب من المنزل، وكان والدي جالساً في الفيراندا. كنت خائفاً لئلا يثور غضبه، ولكن أكثر ماأرعبني هو أنه عندما نظر إليّ من أعلى، حيث أنا على الأرض، لم يتذكر من أنا. لم يكن غاضباً مطلقاً، بل محتاراً وقلقاً، ثم عاد الى كرسيه ليمسك بكأسه من جديد. فدرتُ حول المنزل ودخلت المطبخ من الخلف (وكانت الطبّاخة صديقة دائمة لي)، وتركت الحصان اللعين. طبعاً بتُّ أفهم الآن. لقد كنا نشترك في صفات كثيرة. كان ينسى الأشياء وهو سكران. هل أنت متزوج ياتد؟».

«لا».

«أنا كنت متزوجاً».

«نعم قلتَ لي».

«كنت سعيداً لأننا انفصلنا، ولكن مع ذلك كنت أود لو انجبنا طفلاً أولاً. حين لايكون هناك أطفال يقع اللوم عموماً على الرجل، أليس كذلك؟».

«لا. أعتقد أن الفرص متساوية لدى الطرفين».

«على أية حال، لقد أصبحت عقيماً الآن، أليس كذلك؟».

«طبعاً لا. إن تقدمك في العمر لايجعل منك عقيماً».

«لو كان لي طفل لما حاولت أن أجعله يتغلب على الخوف كما فعل والدي. إنه جزء من الطبيعة الإنسانية، أليس الخوف كذلك؟ إذا تغلّبت على الخوف فإنك تتغلب أيضاً على طبيعتك الإنسانية. إنه أمرٌ أشبه بتوازن الطبيعة. قرأت في أحد الكتب مرة أنه إذا قتلنا كل العناكب التي في العالم فإننا جميعاً سوف نختنق تحت ثقل الذباب. هل لك طفلٌ ياتد؟».

كان لإسم تد تأثيرٌ مغيظ على الدكتور بلار. قال: «لا. إذا كنتَ ترغب في أن تناديني بإسمي الأول فأرجو أن تناديني ادواردو».

«لكنك إنكليزي مثلي».

«إني فقط نصف إنكليزي وهذا النصف هو في السجن وربما مات».

«والدك؟».

«نعم».

«وأمك؟».

«تعيش في بوينس ايريس».

«أنت محظوظ. لديك من تعيش لأجله. أمي ماتت وهي تلدني».

«ليس هذا سبباً وجيهاً لتقتل نفسك بالإفراط في الشراب».

«ليس هذا هو السبب ياتد. لقد ذَكَرْتُ أمي عَرَضاً، هذا كل شيء. مافائدة الصديق إذا كنتُ لاأستطيع أن أحدثّه؟».

«الصديق ليس محللاً نفسياً جيداً».

«تبدو رجلاً صعب المراس ياتد. أمَا أحببتَ أحداً قط؟».

«هذا يتوقف على ماتسميّه حباً».

«قال تشارلي فورتنوم: «أنت تلجأ الى التحليل كثيراً، وهذا خطأ يرتكبه الشباب. إنَّ شعاري الدائم هو لاترفع الكثير من الحجارة. فأنت لاتعرف ماذا ستجد تحتها».

قال الدكتور بلار: «إن عملي هو أن أرفع الحجارة. التخمين لايفيد كثيراً في عمل التشخيص».

«وماهو تخمينك».

«سأعطيك وصفة، لكنها لن تفيد أبداً مالم تُخفف من الشرب».

عاد مرة أخرى الى غرفة مكتب القنصل. كان ساخطاً من إحساسه بأن الوقت يُهدر. كان يمكن أن يعود ثلاثة أو أربعة مرضى في الحي الفقر من المدينة خلال الوقت الذي أمضاه وهو يستمع الى الرثاء للذات من القنصل الفخري. خرج من غرفة النوم وجلس على المكتب وحرَّر الوصفة. لقد شعر بشعور الوقت المهدور نفسه حين زار أمه وراحت تشتكي من نوبات صداع والوحشة وهي جالسة أمام صينية مملوءة حتى أعلاها بالحلوى الإصبعية في أفضل مطعم في بوينس ايريس. وكانت دائماً تلمِّح الى أن زوجها تخلَّى عنها ـ لأن الواجب الأول للزوج هو مايؤديه لصالح زوجته وطفله وأنه كان عليه أن يهرب معهما.

ارتدى تشارلي فورتنوم سترته في الغرفة المجاورة، وهتف: «لاأظنك ذاهباً؟».

«نعم تركت لك الوصفة على المكتب».

«ولِمَ العجلة؟ إبقَ وتناول مشروباً».

«لديَّ مرضى أعودهم».

«حسن، أنا أيضاً مريضك، أليس كذلك؟».

قال الدكتور بلار: «لستَ أهَمَّهم. الوصفة غير قابلة للتجديد. لديك من الحبوب مايكفي لمدة شهر، وسنرى بعدها».

أغلق الدكتور بلار باب القنصلية مع إحساس بالإرتياح، الارتياح الذي طالما شعر به حين كان يغادر منزل والدته أخيراً بعد زيارة للعاصمة. فليس لديه مايكفي من الوقت ليسفح أي جزء منه على مَنْ لاأمل في شفائهم.

«أتمنى أن يكون لأقراصي دور في تحسّن صحتك».

«نعم، نعم، إنها تعينني حتماً، ولكن أحياناً أعتقد أن انضباطي اليومي هو ماينقذني من الإقدام على الإنتحار»، وكرَّر الدكتور سافيدرا، والشوكة معلَّقة في منتصف الطريق الى فمه «الإنتحار».

«أوه كفاك، لاشك في أنَّ إيمانك لن يسمح لك أن ... ؟».

في تلك اللحظات السوداء يادكتور لايعود عندي إيمان، لاإيمان على الإطلاق. EN[1] una no che oscura . هل نفتح زجاجة أخرى؟ هذا النبيذ من ميندوزا ليس سيئاً تماماً».

بعد شرب الزجاجة الثانية كشف الروائي عن قاعدة أخرى من قواعد انضباطه الذاتي، وهي زيارته الأسبوعية الى بيت السنيورة سانشيز. وقال إنها ليست مجرد مسألة تهدئة لواعج جسده ليمنع الرغبات الملحفة من أن تحول بينه وبين إنجاز عمله، ومن تلك الزيارة الأسبوعية تعلَّم الكثير عن الطبيعة الإنسانية. ففي الحياة الإجتماعية في المدينة لايوجد اتصال بين الطبقات. كيف يمكن لعشاء مع السينيورة اسكوبار أو السينيورة فاليخو أن يبصِّره بأي قدر من حياة الفقراء؟ وشخصية كارلوتا، ابنة كاستيلو، الصياد البطل، أساسها فتاة قابلها في مؤسسة السينيورة سانشيز. وطبعاً كانت لها عينان اثنتان. بل إنها كانت بحق ذات جمال باهر، لكنه حين باشر بكتابة روايته وَجَد أنَّ جمالها يضفي على حكايتها طابعاً زائفاً وتافهاً، ولم تتساوى والقساوة المتجهمة لحياة الصياد. حتى المغتصب أصبح شخصية تقليدية.

---

(١) أي: في ليل دامس.

فالفتيات الجميلات يُغتَصبن دائماً وفي كل مكان، خاصة في كتب معاصريه، أولئك الكتّاب السطحيون ذوو المواهب المؤكَّدة.

بعد انتهاء العشاء وافق الدكتور بلار بسهولة على مصاحبة الروائي في زيارته المنتظمة، على الرغم من أنَّ ماأغواه كان الفضول وليس الرغبة الجنسية. فغادرا مائدتهما عند منتصف الليل وذهبا سيراً على الأقدام. ومع أنَّ السلطات تحمي السينيورة سانشيز غير أنَّه كان من الأفضل عدم ترك السيارة في الخارج مخافة أن يلاحظ رجل بوليسي فضولي رقمها. مثل هذه الإضافة الى ملف المرء في قسم البوليس قد يتّضح فيما بعد أنها شيء غير مرغوب فيه. وكان سافيدرا ينتعل حذاءً مدبباً وملمَّعاً بشكلٍ ممتاز ويلوح للناظر إليه أنه يقفز وهو يمشي لأنَّ أصابع قدميه كانت تشبه قليلاً مخالب الحَمَام، ويكاد المرء يتوقع أن يرى آثار مخالب طائر مرتسمة على الرصيف المغبّر من خلفه.

كانت السينيورة سانشيز جالسة على كرسي المراكب خارج بيتها وهي تَحْبُك. كانت سيدة بدينة جداً وذات وجه بغمازات وابتسامة مرحِّبة تفتقر بشكل غريب للود، وكأنَّما وُضِعت في غير مكانها مصادفةً قبل برهة كزوج من النظارات. وقدَّم الروائي الدكتور بلار.

قالت السينيورة سانشيز: «أنا دائماً أسعد باستقبال سيد يعمل في الطب. سوف تُعجَبُ بالطريقة الحسنة التي نعامل بها فتياتنا. أنا أستخدم زميلك الدكتور بينيفنتو، وهو رجل متعاطف حقاً».

الفصل الثاني

مرت قرابة السنتين قبل أن زار الدكتور بلار وللمرة الأولى المؤسسة التي كانت السينيورة سانشيز تديرها بكفاءة عالية، ولم يكن ذلك بصحبة القنصل الفخري. ذهب الى هناك مع صديقه ومريضه، الروائي، الدكتور خُرخِه خوليو سافيدرا. وسافيدرا، كما شرح هو نفسه أثناء تناول صحن من لحم الخنزير العسير الهضم في فندق ناسيونال، رجل يؤمن بابتهاجٍ نظامٍ صارمٍ جداً. وكان يمكن للمراقب أن يستشفَّ الكثيرمن هذا من مظهره، المتأنق، ذي المنظومة الرمادية، شعر رمادي، بذلة رمادية، ربطة عنق رمادية. وكان حتى في جو الشمال الحار يرتدي الصدرية نفسها ذات الصدر المزدوج الجيدة الخياطة التي اعتاد أن يظهر بها في مقاهي العاصمة. وخيَّاطه هناك، كما أخبر الدكتور بلار، إنكليزي. قال: «قد لاتصدقني، لكني لم أشترِ بذلة جديدة منذ عشر سنوات»، وعن الإنضباط في العمل قال، وليس للمرة الأولى: «أنا أكتب خمسمائة كلمة كل يوم بعد الإفطار، لاأكثر ولاأقل».

كان الدكتور بلار مستمعاً جيداً، تعلَّم أن ينصت. وأغلب مرضاه من المنتمين الى الطبقة المتوسطة كانوا معتادين على أن يقضوا على الأقل عشر دقائق في شرح أعراض إصابة بسيطة بالبرد. أما المعاناة الصامتة، المعاناة التي ليس لديها مفردات تشرح بها مبلغ تألمها، وموضعه وطبيعته، فلم يكن يقابلها إلا في الحي الفقير. في تلك الأكواخ المبنية من الطين أو التنك، حيث غالباً مايستلقي المريض على الأرض القذرة لايدثره غطاء، كان عليه أن يستنبط تأويله الخاص من قشعريرة الجلد أو من حركة العينين العصبية.

كان خُرخِه خوليو سافيدرا يردد القول «الانضباط أكثر أهمية بالنسبة إليَّ مما هو بالنسبة الى كتَّاب آخرين أسلوبهم أسهل. إنَّ لديَّ شيطاني بينما لدى

الآخرين موهبة. أصارحك القول إني أحسدهم على موهبتهم. الموهبة ودود. والشيطان مدمرٌ. أنت لاتستطيع أن تفهم كم أعاني وأنا أكتب. إنَّ عليَّ أن أجبرَ نفسي يوماً بعد يوم على الجلوس والقلم بيدي وأصارع لأحظى بالتعبير المطلوب... سوف تتذكر في كتابي الأخير، تلك الشخصية، كاستيلو، الصياد، الذي يشن حرباً لاهوادة فيها على البحر مقابل نيل مكافأة صغيرة. يمكنك أن تقول تقريباً إنَّ كاستيلو هو صورة للفنان. كل ذلك الكد اليومي والنتيجة ـ خمسمائة كلمة. صيد ضئيل جداً».

«يُخيَّل إلي أني أذكر أنَّ كاستيلو مات من طلقة مسدس في بار وهو يحمي ابنته العوراء من محاولة اغتصاب».

قال الدكتور سافيدرا: «آه نعم، أنا سعيد لأنك لاحظت رمز السيكلوب[1]. رمز فن الروائي. فن ذو عين واحدة لأنَّ عيناً واحدة تكثِّف الرؤيا. الكاتب المُسهب دائماً مزدوج العينين. إنه يسرف في التفصيل ـ مثل شاشة السينما. والمُقْتَصب؟ ربما يمثل كآبتي هذه التي تدوم أسابيع أحياناً، وأنا أكافح لساعات لأنجز عملي اليومي».

قال الدكتور بلار: «هكذا سمعت أنا لم أقابله».

«إنه يأتي الى هنا بعد ظهيرة أيام الخميس وفتياتي كلهن مولعات به».

مرّوا خلال المدخل الضيق المضاء. وفيما عدا السينيورة سانشيز الجالسة على كرسي المراكب لم تكن هناك دلالات خارجية تميِّز مؤسستها عن باقي المنازل في الشارع المحترم. فالنبيذ الجيد لايحتاج الى الإعلان عنه، كما قال الدكتور بلار لنفسه.

كان منزلاً يختلف كثيراً في خصيصته عن المواخير السرية التي كان يزورها أحياناً في العاصمة التي تُعتِّم غرف صغيرة بمصاريع خشبية موصدة، تزدحم بالأثاث البورجوازي. فثمة جو ريفي محبب يشمل المنزل، وفناء مهوًّى

(١) السيكلوب: في الأساطير اليونانية، عملاق ذو عين واحدة في جبينه.

مساحته تقارب مساحة ملعب للتنس محاط بصوامع صغيرة. وحين جلس كان في مواجهته بابان مفتوحان، ورأى أنَّ الصوامع تبدو أبهج وأنظف، وتنمُّ عن ذوقٍ حسنٍ أكثر من غرفة نوم الدكتور همفريز في فندق بوليفار. وكان كل منها يحوي مقاماً صغيراً به شمعة مُقادة مما أضفى على الدواخل الأنيقة جواً بيتياً أكثر منه جوَّ عمل. وجلست مجموعة من الفتيات على مائدة منفردة، بينما أخذت اثنتان تتحدثان مع بعض الشبان وهما تميلان على أعمدة الشرفة التي تحيط بالفناء المرصوف. لم يكن هناك مايدل على المجون ـ كان واضحاً أن السينيورة سانشيز كانت صارمة بهذا الشأن، فهنا يمكن للرجل أن يتأنَّى. وجلس أحد الرجال وحده يشرب كأساً، وآخر بلباس Peon [1] كان واقفاً بجانب عمود، يراقب الفتيات مع تعبير غير سعيد، حاسد (لعلَّه لايملك مايكفي لشراء كأسٍ من المشروب).

أتت فتاة تدعى تيريزا على الفور لتتلقى أوامر الروائي (نصح بـ ويسكي، فالبراندي غير مضمون»)، وبعد ذلك انضم إليهنَّ دون أن يطلبن منه. وشرح الدكتور سافيدرا قائلاً: «تيريزا من سالتا»، تاركاً يده تحت رعايتها كقفاز متروك في غرفة الملابس. وراحت هي تقلِّبها هكذا وهكذا وتتفحص الأصابع وكأنها تفتّش فيها عن ثقوب. «أفكر في أن أجعل أحداث روايتي التالية تدور في سالتا».

قال الدكتور بلار: «آمل ألاّ يلح شيطانك على أن يجعل لها عيناً واحدة».

قال الروائي: «أنت تضحك مني، لأنك لاتعرف شيئاً عن طريقة عمل مخيلة الكاتب. إن عليه أن يحوِّر الواقع. انظر إليها ـ الى تينك العينين البنّيتين الكبيرتين، وهذين الثديين الصغيرين الممتلئين، إنها جميلة كما ترى» ـ ابتسمت الفتاة ابتسامة امتنان وراحت تحكُّ كفَّه بظفرها ـ «ولكن ماذا تمثِّل؟

---

(١) البيون: عامل بسيط في المزارع في بلدان أميركا الاسبانية.

إنني لاأنوي أن أكتب قصة حب لتنشر في مجلة نسائية. على شخصياتي أن ترمز الى مايتجاوز نفسها. والآن لقد تبيّن لي فعلاً أنه ربما لو كانت بساق واحدة ... ».

«إن فتاةً بساق واحدة يمكن اغتصابها بسهولة أكبر».

«ليس في قصتي اغتصاب، بل فتاة جميلة بساق واحدة ـ ألا ترى مغزى ذلك؟ فكِّر في مشيتها العرجاء، في لحظات يأسها، والعشاق الذين يشعرون أنهم أسدوا لها معروفاً إذا بقوا معها ليلة. وإيمانها العنيد بالمستقبل الذي سيكون بشكل ما أفضل من الحاضر»، وأردف الدكتور سافيدرا: «لأول مرة أنوي أن أكتب رواية سياسية».

«سياسية؟» سأل الدكتور بلار بشيء من الدهشة.

فُتح بابُ صومعةٍ وخرج منه رجل. أشعل سيجارة، وتوجه الى إحدى الموائد وراح يشرب من كأس لم يَفْرَغ. وعلى وهج الضوء، تحت مقام القديس رأى الدكتور بلار فتاة نحيلة كانت تسوّي السرير. رتّبت الغطاء بعناية قبل أن تخرج وتنضم الى رفيقاتها على مادة تجمعهن. وكان في انتظارها كأس لم يفرغ من عصير البرتقال. وراح الـ Peon الواقف بالقرب من العمود يراقبها بحسدٍ نَهِمْ.

سأل الدكتور بلار تيريزا: «ألا تنفرين من ذاك الرجل؟».

«أي رجل؟».

«هناك، الذي يقف محملقاً، لايفعل شيئاً».

«دعه يحملق، إنه لايؤذي، مسكين. ثم إنه لايملك نقوداً».

تكلم الدكتور سافيدرا بحنق: «كنت أتكلم عن روايتي السياسية»، وأبْعَد يده عن قبضة تيريزا.

«لكني لاأفهم مغزى الساق الواحدة».

قال الدكتور سافيدرا: «إنها رمزٌ لهذا البلدُ المعاق الفقير، حيث مانزال نأمل ... ».

«هل سيفهم قراؤك هذا؟ لو كنتُ مكانك لفكَّرت في شيءٍ أكثر مباشرة. أولئك الطلاب الذين رأيناهم في العام الفائت في روزاريو ...».

«إذا أراد المرء أن يكتب رواية سياسية تحمل قيمة باقية فيجب أن تكون متحرِّرة من كل التفاصيل الحقيرة التي تحدِّد تاريخها. فالاغتيالات، والخطف، وتعذيب السجناء - هذه الأشياء تميِّز حقبتنا. لكني لاأريد أن أكتب فقط عن السبعينات».

غمغم الدكتور بلار: «الأسبان عذّبوا سجناءهم قبل ثلاثمائة سنة»، وعاد ينظر مرة أخرى ولسببٍ ما الى الفتاة الجالسة على مائدة الإجتماع.

سألت تيريزا الدكتور سافيدرا: «ألن تأتي معي هذا المساء؟».

«نعم، نعم، كل شيء في وقته. أنا أتحدث مع صديقي هنا حول موضوع في غاية الأهمية».

لاحظ الدكتور بلار على جبين الفتاة الأخرى، تحت مستوى الشعر بقليل، وجود وَحْمَة صغيرة غبراء، في البقعة التي تضع فيها الفتاة الهندوسية العلامة القرمزية الخاصة بعشيرتها.

قال خُرخيه خوليو سافيدرا: «الشاعر - والروائي الحقيقي يجب أن يكون دائماً شاعراً على طريقته الخاصة - الشاعر يتعامل مع المُطْلَقَات. شيكسبير تجنب الخوض في سياسات زمنه، في تفصيلات السياسة. لم يكن مهتماً بفيليب ملك أسبانيا، أو بقراصنة من أمثال دريك. لقد استخدم تاريخ الماضي ليعبِّر به عما أسمِّيه أنا تجريد السياسة. واليوم الروائي الذي يريد أن يجسِّد الاستبداد يجب ألا يصف نشاطات الجنرال ستروسنر[1] في باراغواي - هذا صحافة وليس أدباً. تيبيريوس[2] هو مثال أفضل على الشاعر.

---

(١) Stroessner: دكتاتور حكم باراغواي.

(٢) هو الامبراطور الطاغية نيرون، واسمه بالكامل: تيبيريوس كلوديوس نيرو سيزار أوغستوس (٤٢ ق. م - ٣٧م)، وحادثة إلقائه الشعر أثناء احتراق روما معروفة.

وفكّر الدكتور بلار كم سيكون ممتعاً لو رافق الفتاة الى غرفتها. إنه لم يضاجع امرأة منذ أكثر من شهر، ثم ماأسهل أن يُثار المرء جنسياً لسببٍ سطحي، كوجود وحمةٍ في موضعٍ غير مألوف.

سأله الروائي بقسوةٍ: «لاشك في أنك تفهم ماأعني؟».

«نعم، نعم، طبعاً».

منعت الحساسية الشديدة الدكتور بلار من أن يسرع في أعقاب رجل آخر. وتساءل، كم من الوقت يلزمه ليقبل؟ نصف ساعة، ساعة ـ أم مجرد الغياب الجسدي لسَلَفِه، الذي كان في ذلك الوقت يطلب مشروباً آخر؟.

قال الدكتور سافيدرا بخيبة: «أرى أنّ الموضوع لايجد أي قبول لديك».

«الموضوع... سامحني... لقد أثقلتُ في الشراب هذا المساء».

«كنتُ أتكلم عن السياسة».

«لاشك في أن السياسة تهمني. أنا نفسي شبه لاجىء سياسي. وأبي... إنني حتى لاأعرف إن كان أبي مازال حياً. لعلّه مات. لعلّه اغتيل. لعلّه قتل رمياً بالرصاص في أحد مراكز البوليس في مكان ما وراء الحدود. الجنرال لايؤمن بزج المزعجين السياسيين في السجن ـ إنه يتركهم ليتعفّنوا وحدهم في مراكز البوليس في كل أرجاء البلاد».

«هذا بالضبط ماأعنيه يادكتور. طبعاً أنا متعاطف معك، ولكن كيف أجعل من حالة رجل محتَجَز في مركز للبوليس فناً؟».

«ولِمَ لا؟».

«لأنها حالةٌ خاصة. إنه وضعٌ ينتمي الى القرن التاسع عشر. إنني أصبوا الى أن تُقرأ كتبي، حتى وإن كان فقط بين أوساط القراء المميَّزين، في القرن الحادي والعشرين. لقد حاولت أن أجعل بطلي الصياد كاستيلو لازمنياً».

تذكَّر الدكتور بلار أنه نادراً مايفكر في والده، أو ربما هو إحساسٌ بالذنب بسبب حياته الآمنة والمريحة، م جعله الآن يشعر بشيء من الغضب. قال: «بطلك الصياد لازمني لأنه غير موجود». وسرعان ماندم على كلماته، قال: «أنا أسف، ألا ترى أننا يجب أن نطلب مشروباً آخر؟ ورفيقتك الفاتنة ـ إننا نهملها».

قال سافيدرا: «هناك مواضيع أهم من تيريزا»، لكنه أسلَمَ يده من جديد لرعايتها، «ألا توجد هنا فتاة تعجبك؟».

«نعم، تلك واحدة. لكنها وجدت زبوناً آخر».

كانت الفتاة ذات الوحمة قد انضمت الى من كان يشرب وحده وأخذا يسيران بإتجاه صومعتها. مرت برفيقها السابق دون أن تلقي إليه نظرة، ولم يكن هو يتحلى بما يكفي من الفضول لينظر الى خلفه. كان يسود الماخور الذي أعجب الدكتور بلار جو سريريّ، وكأنه يرى جراحاً يرافق مريضاً جديداً الى مسرح العملية الجراحية ـ العملية السابقة كانت ناجحة وقد نُسيت الآن. في مسلسلات التلفزيون فقط تتسرب لواعج الحب، والقلق والخوف الى الأجنحة. وسنواته الأولى في بوينس ايريس، بينما أمه تشتكي وتقوم بفصولها الدرامية وتبكي على مصير والده المفقود، ثم السنوات الأخيرة حين أصبحت راضية بشكل مهذار بالكعك المحلّي والشوكولاة المثلجة، نمّت لدى الدكتور بلار ارتياحاً في إمكانيةِ شفاء حالةٍ شعورية بوسيلةٍ بسيطةٍ بساطة الرعشة الجنسية أو الحلوى الاصبعية. وعادت الى ذهنه ذكرى محادثة ـ إذا أمكن تسميتها هكذا ـ مع تشارلي فورتنوم. وسأل تيريزا: «هل تعرفين فتاة اسمها ماريا؟».

قالت تيريزا: «هناك العديد من الماريات».

«أصلها من قرطبة».

«آه. تلك. لقد ماتت قبل سنة. كانت سيئة حقاً، تلك الماريا. قتلها أحدهم بسكين، وزجُّوه في السجن، المسكين».

قال سافيدرا: «أعتقد أنه ينبغي عليّ أن أذهب مع الفتاة، أنا آسف. لاتتاح لي كثيراً فرصةٌ لمناقشةِ مشاكلِ الأدب مع رجلٍ مثقف. كنت بشكلٍ ما أفضّل كثيراً أن أطلب مشروباً آخر، وأواصل حديثنا»، ونظر الى يده الأسيرة وكأنها تخصُّ شخصاً آخر ولا يحق له أن يأخذها.

شجّعه الدكتور بلار قائلاً: «ستتوفر فرص أخرى»، واستسلم الروائي، ثم قال وهو ينهض واقفاً: «هيا ياصغيرة، ألن تنتظرني يادكتور؟ لن أغيب طويلاً هذا المساء».

«ربما ستعرف الكثير عن سالتا».

«نعم، ولكن هناك دائماً لحظة يتوجب فيها على الكاتب أن يقول «كفى». على المرء أن لايتمادى في المعرفة». وخيِّل للدكتور بلار أنّ خُرخه خوليو سافيدرا قد بدأ تحت تأثير الشراب يعيد محاضرة كان قد ألقاها ذات مرة في أحد النوادي النسائية في العاصمة.

جرّته تيريزا من يده، فنهض واقفاً على مضض وتبعها الى حيث تشتعل شمعة تحت تمثال قديس مدينة أفيلا. وانغلق الباب عليهما. وكان قد قال ذات مرة بحزن للدكتور بلار إن عمل الروائي لاينتهي أبداً.

كانت أمسية هادئة في مؤسسة السينيورة سانشيز. كل الأبواب مفتوحة ماعدا الاثنين اللذين يخفيان تيريزا والفتاة ذات الوحمة. أنهى الدكتور بلار مشروبه وغادر الفناء. كان متأكداً من أنّ الروائي، على الرغم من وعده، سيتأنّى. على أية حال أمامه قرارٌ يجب أن يتّخذه ـ ماإذا كان يجب أن تفقد الفتاة ساقها عند عظم الفخذ أم من الركبة.

كانت السنيورة سانشيز ماتزال تجتهد في حبكها، وقد انضمت اليها صديقة، جلست تحبُكُ بدورها على كرسي مراكب آخر. سألته السينيورة سانشيز: «ألم تجد فتاة؟».

«صديقي وجد».

«ألم تعجبك ولا واحدة؟».

«أوه، الأمر ليس هكذا، لكني أثقلت في الشراب على العشاء».

«يمكنك أن تسأل زميلك الدكتور بينيغنتو عن فتياتي. إنهنَّ في منتهى النظافة».

«أنا واثق من هذا. سأعود حتماً، سينيورة سانشيز».

لكن في الحقيقة لم يعد إلا بعد انصرام أكثر من سنة. عندئذ بحثَ عبثاً عن الفتاة ذات الوحمة على جبينها. لم يُدهش ولا شعر بالخيبة. لعلها في دورتها الشهرية، ولكن على أية حال الفتيات في مثل هذه المؤسسات يتغيَّرن باستمرار. وكانت تيريزا هي الوحيدة التي تعرَّف عليها. بقي معها مدة ساعة، وتحدثا عن سالتا.

الفصل الثالث

ازدهر عمل الدكتور بلار. ولم يندم أبداً على تركه جو التنافس الفظ السائد في العاصمة، حيث عددٌ غفيرٌ من الأطباء يحملون شهادات ألمانية، وفرنسية وإنكليزية، وازداد ولعه بالمدينة الصغيرة القائمة على نهر بارانا العظيم. تقول أسطورة محلية إنَّ من يزور المدينة لابد وأن يعود اليها، وقد أثبتت صحتها بحقٍ في حالته. لقد أعادته إليها نظرة واحدة ألقاها على المرفأ الصغير بخلفيته من المنازل الكولونيالية الطراز، نظرةٌ دامت ساعة في ليلة ظلماء. حتى المناخ لم يزعجه ـ فالحرارة أقل تشبُّعاً بالرطوبة مما كانت عليه أرض الطفولة حسب ماتذكَّر، وحين كان عقد الصيف ينفرطُ بقصفٍ من الرعد الهادر كان يحبُّ أن يراقب من نافذة شقَّته البروق المدببة تضرب شاطىء تشاكو. كان كل شهر تقريباً يدعو الدكتور همفريز على العشاء، والآن أصبح أحياناً يتناول إحدى الوجبات مع تشارلي فوروتنوم الذي يكون دائماً إما صاحياً ومقتضباً في كلامه وكئيباً، أو ثملاً، ومهذاراً، وكما يحب هو أن يصف نفسه «محلِّقاً». وذات مرة ذهب لزيارة مخيم تشارلي فورتنوم، لكنه لم يكن خبيراً في الحكم على محصول الماتيه، ووجد الحركة المتماوجة لـ«فخر فورتنوم» وهو يشاهد المنطقة هكتاراً بعد هكتار ـ وكان تشارلي يسمي ذلك «زراعة» ـ مقيتةً حتى أنه رفض تلبية الدعوة التالية، ففضَّل عليها قضاء أمسية في فندق الناسيونال وتشارلي يتكلم دون إقناع عن فتاة قابلها.

كان الدكتور بلار يطير كل ثلاثة أشهر إلى بوينس ايريس ويقضي العطلة الأسبوعية مع أمه التي كانت تزداد سمنةً بإطراد بفضل حِميتها اليومية المؤلفة من كعك الكريما وحلوى الـalfajores المحشوة بالـDulce de Leche[1].

---

(١) حلو ى قوامها الحليب، تشبه الكريما.

ولم يستطع أن يتذكر قسمات وجه المرأة الجميلة وهي في أوائل ثلاثينات عمرها، التي قالت وداعاً لوالده عند ضفة النهر وبكت طويلاً على حبٍ ضاع على مدى رحلة الثلاثة أيام إلى العاصمة. ولما لم تكن لديه صورة فوتوغرافية قديمة لها لتُذكِّره بالماضي، كان دائماً يتصورها بالشكل الذي أضحت عليه مع ثلاثة ذقون ولَغَد [1] كثيف وبطن، وتبدو بثوبها الحريري الأسود، أشبه بالحبلى. وعلى رفوف شقته كانت مؤلفات الدكتور خرخيه خوليو سافيدرا تزداد بواقع مجلد كل عام، ومن بين كل كتبه رأى الدكتور بلار أنَّ أفضل قصة هي قصة فتاة سالتا ذات الساق الواحدة.

بعد تلك الزيارة الأولى ضاجع تيريزا عدة مرات في منزل سانشيز وتسلى بملاحظة مدى اختلاف الأدب عن الواقع. كان تقريباً بمثابة درسٍ في النقد الممتاز بالنسبة إليه. لم يكن لديه أصدقاء مقرَّبون، على الرغم من أنه ظلَّ على علاقة طيبةٍ مع عشيقتين سابقتين تعرَّف عليهما أولاً كمريضتين، وكان أيضاً على علاقةٍ وديِّة مع آخر حاكم، وكان يستمتع بزياراته لمزرعة الماتيه الكبيرة الخاصة بالحاكم في الشرق، حيث يطير الى هناك بطائرة الحاكم الخاصة ويهبط على مرج بين مسكبين للزهور في الوقت المحدد لتناول غداءٍ فَارِه. وكان أحياناً ينزل ضيفاً على مصنع بيرغمان لتعليب البرتقال، القريب من المدينة، وفي بعض الأحيان كان يذهب لصيد السمك في رافد للبارانا مع مدير المطار.

قامت محاولتان للثورة في العاصمة سبَّبت ظهور عناوين كبيرة في EL Litoral، ولكن في المناسبتين حين كان يتصل بأمه تلفونياً يجد أنها لاتعرف أي شيء عن الاضطرابات الجارية، فهي لاتقرأ أية صحيفة ولاتستمع الى الراديو، ومحلات هارود ومطاعمها المفضلة ظلت مفتوحة طوال فترة الاضطرابات. قالت له ذات مرة أنها أصيبت بتخمة دائمة من السياسة خلال

(١) كتلة اللحم التي تتكوَّن تحت الذقن.

حياتهم في باراغواي. «لم يكن والدكَ يتحدث في أي شيء آخر. وكان يأتي الى المنزل أناسٌ غير مرغوب فيها مطلقاً، أحياناً في منتصف الليل، يرتدون أية ملابس عتيقة. وأنت تعلم ماذا حلَّ بوالدك». العبارة الأخيرة كانت غريبة الصياغة لأنَّ أياً منهما لم يكن يعلم أيَّ شيء - حول ماإذا كان قد قُتل في الحرب الأهلية أو مات إثر مرضٍ أو أصبح سجيناً سياسياً تحت حكم الجنرال الدكتاتوري. ولم يتعرَّف أحد على جثته بين الجثث التي كانت تُرمى أحياناً على الجانب الأرجنتيني للنهر وأيديها وأرجلها موثقة بأسلاك، ولكن ربما كانت جثته هي إحدى تلك الهياكل العظمية التي تبقى لسنوات لاتُكتَشَف بعد أن تُرمى من الطائرات في فيافي التشاكو.

بعد مرور مايقرب من ثلاث سنوات على مقابلته الأولى لتشارلي فورتنوم وجد الدكتور بلار نفسه منخرطاً في حديثٍ عنه مع السير هنري بلفريج، السفير البريطاني - خليفة الرجل الذي سبَّب للقنصل الفخري الكثير من الإنزعاج بتقريره عن الماتيه. حدث ذلك في إحدى حفلات الكوكتيل الدورية التي تقام للجالية البريطانية، والدكتور بلار، الذي تصادف أن كان في العاصمة في زيارة لأمه، حضرها معها. لم يكن يعرف أحداً هناك بأكثر من النظر - وفي أحسن الأحوال بانحناءة تعارف. كان هناك بولر، مدير بنك لندن وأميركا الجنوبية، وفيشر، سكرتير الجمعية الأنكلو - أرجنتينية، ورجلٌ عجوز يدعى فوريج كان يقضي أيامه كلها في نادي هرلنغهام. وممثل القنصل البريطاني كان، طبعاً، موجوداً - كان الدكتور بلار دائماً ينسى اسمه لسببٍ فرويديٍّ ما - كان ضئيلاً برأسٍ أصلع أتى الى الحفلة كمسؤول عن شاعر زائر. وكان للشاعر صوت ذو نبرة عالية وبدا عليه أنه يشعر بارتباك وسط ضياء الثريا بغربته في المكان. وسُمِعَ وهو يزعق «متى نستطيع أن نرحل؟»، وعاد يقول «الويسكي ممزوج بكثير من الماء». كان الصوت الوحيد في الغرفة الذي ارتفع فوق مستوى الضجيج المنخفض المتواصل الشبيه بهدير محرك طائرة،

ويتوقع منه المرء بشكلٍ طبيعي أن يهتف بشيءٍ له علاقة أوثق بذلك، مثل «شدّوا أحزمة مقاعدكم».

رأى الدكتور بلار أن بلفريج لم يهتم بإثارة حديث مهذّب إلا حين وجد أنهما وحيدان بين صوفا مذهّبة الحواف وكرسي من طراز لوي كانز. وكانا بعيدين عن الضجيج بما يكفي بالقرب من البوفيه ليسمع كل منهما الآخر. ورأى أمه محشورة بشدة وهي تومىء إلى القس بشطيرة. كانت دائماً تَسْعَدُ بصحبة القس، وهكذا شعر بارتياح التملّص من المسؤولية.

قال السير هنري بلفريج: «أظنك تعرف قنصلنا هناك؟». كان دائماً يشير الى المقاطعة الشمالية بـ«هناك» وكأنه يريد أن يشدّد على الطول العظيم لنهر بارانا وهو يشق طريقه البطيئة متعرجاً منحدراً من تلك المناطق النائية البعيدة جداً عن الحضارة الجنوبية لنهر ريو ديلا بلاتا.

«تقصد تشارلي فورتنوم؟ آه نعم، أراه أحياناً. لكني لم أره منذ بضعة أشهر. كنت منشغلاً ـ الأمراض متفشية».

«أتدري ـ في عمل كهذا ـ يرثُ المرءُ دائماً بعض «الصعوبات» مع المنصب الجديد. بيني وبينك القنصل هو فقط إحداها».

قال الدكتور بلار بحذر: «حقاً؟ كنت أظن ... »، مع أنه لم تكن لديه أية فكرة عن كيف كان سينهي جملته لو طُلب منه ذلك.

«ليس لديه أي عمل يقوم به هناك. أقصد ضمن نطاق مايخصنا. بين الحين والآخر أطلب منه أن يقدم تقريراً حول موضوع ما ـ حفاظاً على الشكليات. لاأريده أن يعتقد أنه منسيّ. لقد كان حقاً ذا فائدة لأحد أسلافي: شاب أحمق تورّط مع رجال العصابات وحاول أن يمثل دور كاسترو في مواجهة الجنرال القابع في باراغاي. وحسب ماأرى من الملفّات فنحن ندفع نصف تكاليف فواتير الهاتف وأغلب تكاليف القرطاسية منذ ذلك الحين».

«ألم يكن ذا عونٍ مرةً مع بعض الشخصيات الملكيّة أيضاً؟ كدليل لهم في مشاهدة الأطلال الأثرية؟».

قال السير هنري بلفريج: «حدث شيء من هذا القبيل. شخصيات ملكية صغيرة جداً حسب ماأتذكر. ماكان يجب أن أبوح بذلك، طبعاً، لكن العائلة المالكة يمكن أن تسبب لنا الكثير من المتاعب. ذات مرة كان علينا أن نشحن فرساً للعبة البولو... لن يخطر على بالك أبداً مقدار التعقيدات التي أثارها هذا الأمر، وحدث ذلك أثناء فترة حظر استيراد اللحم أيضاً»، وتأمّل برهة ثم قال: «على الأقل يستطيع فورتنوم أن يبذلَ مجهوداً أكبر لتحسين علاقته بالجالية الإنكليزية هناك».

«هناك، حسب معرفتي، فقط ثلاثة منا في مساحة مقدارها خمسون ميلاً. والذين يملكون مخيمات نادراً مايحضرون الى المدينة».

«إذن يجب ألا يكون الوضع صعباً عليه. أتعرف هذا الرجل جيفريز؟».

«هل تقصد همفريز؟ إذا كنتَ تفكر بحادثة راية الإتحاد وقلبِه لها رأساً على عقب ـ فهل تعرف أنت الطريقة الصحيحة لتعليقها؟».

«لا، ولكن أحمد الله على أنَّ معي أناساً يعرفون ذلك. أنا لم أكن أفكر في هذا ـ هذا حدث في عهد كالو. المشكلة الآن هي أن فورتنوم تزوج زيجة غير مناسبة أبداً ـ حسب ماأخبرني به هذا الرجل همفريز. ليته يكف عن تزويدنا بالأخبار. مَنْ يكون؟».

«لم أسمع بزواج فورتنوم. لقد كبِرَ على ذلك. ومن هي المرأة؟».

«لم يقل همفريز. في الحقيقة كان غامضاً قليلاً في كل ماقاله. يبدو أن فورتنوم أبقى الأمر في طي الكتمان الشديد. إنني طبعاً لاأحمل القصة على محمل الجد. ولاعلاقة للقضية بشؤون الأمن. وهو مجرد قنصل فخري. ولسنا مضطرّين «للتقصّي» عن المرأة. إنني فقط أرى ـ أنه إذا صادف وسمعتَ أي شيء... إذ إنَّ التخلص من قنصلٍ فخري أصعب بكثير من التخلص من صاحب مهنة عادية. فلا يمكننا نقله. هذه الكلمة «فخري»... فيها شيء من الزيف عندما نمعن التفكير فيها. إن فورتنوم يستورد سيارة جديدة كل سنتين ومن ثم يبيعها. إنه غير مُخول لذلك ـ إنه ليس في القوات المسلحة ـ لكنني

أعتقد أنه يلعب على السلطات المحلية خدعة قذرة. ولن أدهَش إذا لم يكسب أكثر مما كسبه قنصلي هنا. مسكين مارتن، إنه مضطر لإلتزام بالقوانين. لايستطيع أن يشتري سيارات براتبه، ولاأنا أستطيع. على عكس سفير باناما. ياإلهي، إن زوجتي مربوطة بذاك الشاعر. ماأسمه؟»

«لا أعلم».

«أردت فقط أن أقول يا ـ بلار، أليس كذلك؟ ... بما أنك تقطن هناك ... أنا لم أقابل ذلك الرجل همفريز ... آه حسن، إنهم يرسلونهم الى هنا جماعات».

«تقصد همفريز؟».

«لا، لا. الشعراء. إن كانوا شعراءً. القنصل البريطاني دائماً يقول إنهم كذلك، لكني لم أسمع بأي منهم. حين تعود الى هناك يابلار، إفعل مافي وسعك. أنت شخص أستطيع أن أثق بأنه ينطق بالكلمة الصحيحة ... لاداعي للفضيحة، أنت تفهم ماأرمي إليه ... هذا المدعو همفريز، يصدمني بأنه من النوع الذي يرسل بتقاريره إلى الوطن، إلى وزارة الخارجية. وعلى أية حال ليس من شأننا من يتزوج فورتنوم. ليتك تستطيع بطريقة ما لبقة أن تُخبر هذا الرجل همفريز أن يلتفت الى شؤونهِ ويكفَّ عن إزعاجنا. حمداً لله لأنه يتقدم في العمر. أقصد فورتنوم. سوف نُحيله إلى التقاعد في أول فرصة تسنح لنا. ياإلهي، انظر إلى زوجتي المسكينة. إنها واقعة في شرك».

«سأذهب وأنقذها إذا شئت».

«ياصديقي العزيز، هل تفعل؟ أنا لاأجرؤ. هؤلاء الشعراء وحوش سريعي الغضب. ودائماً أخلط بين أسمائهم. إنهم يشبهون هذا الرجل همفريز ـ يقدمون تقارير الى الوطن ـ الى مجلس الفنون. لن أنسى لك هذا يابلار. سأفعل مافي وسعي لأجلك ... وأنت هناك ... ».

حين عاد إلى الشمال وجد الدكتور بلار في انتظاره عملاً أكثر من المعتاد. لم يكن لديه وقت يخصصه لهمفريز، مثير المشاكل العجوز ذاك، ولم يهتم

بزواج تشارلي فورتنوم ـ سواء أكان سعيداً أم تعيساً. وخطر له لبرهة، عندما أعادت ملاحظةٌ ما كلمات السفير اليه، أن تشارلي قد يكون تزوج مدبرة منزله، تلك المرأة الشبيهة بالصقر التي فتحت له الباب حين زار القنصلية للمرة الأولى، زواجاً كذاك لم يبدُ مُستَبعداً فالرجال العجائز، أمثال الكهنة المنشقّين، معروف عنهم أنهم يتزوجون مدبرات منازلهم، أحياناً على سبيل الاقتصاد الزائف، وأحياناً أخرى خوفاً من الموت وحيدين. الموت بالنسبة إلى الدكتور بلار، الذي مايزال في أوائل ثلاثينياته، كان يتبدى على هيئة حادثة عارضة تقع في الطريق أو إصابة غير متوقعة بالسرطان، لكنه في عقلِ رجلٍ عجوزٍ هو النهاية المحتومة لمرضٍ مزمن عضال. ولعلَّ إدمان تشارلي فورتنوم على شرب الكحول هو دلالة على خوفه.

وفي ظهيرة أحد الأيام، بينما الطبيب يأخذ ساعة من القيلولة، رنَّ جرس باب بيته. فتح الباب وإذا به أمام المرأة الشبيهة بالصقر، ومرة أخرى كانت توثب على أمل أن تعثر على جيفة. وكاد ينتهز الفرصة ويخاطبها بسينيورة فورتنوم.

لو فعل لاتَّضح له أنَّ تخمينه كان خاطئاً. فالسينيور فورتنوم، كما قالت، اتصل بها من المخيم. إن زوجته مريضة، ويريد من الطبيب أن يوافيه في المخيم ويعودها.

«ألم يقلْ ماذا بها؟».

أجابت المرأة بازدراء: «السينيورة فورتنوم تعاني من ألمٍ في بطنها». واضح أنها لم ترضَ عن الزواج ولا رضيَ عنه الدكتور همفريز.

قاد الدكتور بلار سيارته إلى المخيم في برودة الليل. بَدتْ البرك الصغيرة على جانبي الطريق العامة كبقعٍ من الرصاص المُذاب وسط آخر خيوط النور. كان تشارلي فورتنوم واقفاً عند نهاية درب طيني تحت أيكةٍ من أشجار الأفوكاتو، وثمار الإجاص البنية الثقيلة بحجمٍ وشكل قذائف المدفع. جلس

تشارلي فورتنوم في شرفة بيت البنغالو غير المترابط أمام زجاجة من الويسكي، وسيفون وأيضاً، باللدهشة، كأسين نظيفين. قال مؤنباً: «لقد انتظرتك».

«لم أستطع أن آتي قبل هذا. ما المشكلة؟».

«لقد عانت كلارا من ألمٍ مبرّح».

«سأذهب لأراها».

«إشرب كأس ويسكي أولاً. أطللْتُ عليها الآن فقط وكانت نائمة».

«شكراً لك إذن، سأشرب. أنا ظمآن. هناك الكثير من الغبار على الطريق».

«صودا؟ قل لي المقدار».

«حتى أعلى الشفة».

«أردت أن أقول لك كلمة على أية حال ـ قبل أن تدخل. أعتقد أنك سمعت بخبر زواجي؟».

«أخبرني السفير».

«هل علّق بشيء؟».

«لا، لماذا؟».

«لقد دار الكثير من الكلام. وهمفريز ينتقدني بشدة».

«هذا من حُسنِ حظك».

تردّد تشارلي فورتنوم وهو يقول: «في الحقيقة ـ يعني، إنها صغيرة جداً». لم يكن واضحاً إن كان بهذا يعذر نقّاده أم يعتذر عما فعل.

قال الدكتور بلار: «مرة أخرى أنت محظوظ».

«في الواقع، إنها لم تبلغ العشرين بعد، وأنا تعديت سن الستين».

تساءل الدكتور بلار إن كان قد استُدعي ليقدِّم نصيحته للقنصل حول مشكلة أكثر استعصاءً على الحل من آلام بطن زوجته. وأخذ يشرب ليملأ ماظنَّ أنه ربما صمتٌ مُربك.

قال تشارلي فورتنوم: «ليست هذه هي المشكلة» (دُهش الدكتور بلار لنفاذ بصيرته)

«إنني أستطيع معالجة الأمور بقدرة تامة حتى الآن... وبعد ذلك... يمكن اللجوء دائماً إلى القنينة، أليس كذلك؟ صديقةُ العائلة القديمة. أقصد القنينة. ساعدتْ والدي أيضاً، ابن الحرام العجوز. أردت فقط أن أشرح موضوعها. وإلا ستدهش قليلاً حيث تراها. إنها صغيرة جداً جداً. وخجول أيضاً. إنها غير معتادة على هذا النمط من الحياة. بيتٌ كهذا وخدمٌ. ثم الريف. الريف يصبح هادئاً بشكل مزعج بعد حلول الظلام».

«من أين هي؟».

«من توكومان. دماؤها هندية صرف. هي متخلفة كثيراً طبعاً. يجب أن أحذِّرك ـ إنها لاتأبه كثيراً بالأطباء. فقد مرَّت بتجربةٍ مريرةٍ معهم».

قال الدكتور بلار: «سأحاول أن أكسب ثقتها».

قال تشارلي فورتنوم: «هذا الألم، يخيَّل إليَّ أنه ربما يكون، يعني، طفل، أو ماشابه».

«ألا تتناول الحبوب؟».

«أنت تعلم كيف هي معتقدات الأسبان الكاثوليك. خزعبلات، طبعاً. كالمشي تحت سلَّم. إن كلارا لاتعرف من هو شيكسبير، لكنها سمعت بكل ما لا يخطر على البال من شؤون البابا. على أية حال يجب أن أحصلَ على الحبوب عن طريق السفارة. هل تتخيل ماذا يمكن أن يقولوا؟ إنك لاتستطيع أن تشتريها صراحة من البائع هنا. طبعاً أنا دائماً أرتدي شيئاً إلى أن نصبح في خلوة تامة».

قال الدكتور بلار على سبيل المضايقة: «إذن فأنت تحمل الذنب عنها؟».

«آه، حسن، لقد أصبح ضميري صلباً تماماً مع تقدمي في العمر. ومجيء مخلوق صغير آخر لايضير. وإذا كان هذا يسعدها... عندما تنهي شرب كأس الويسكي...».

قادَ الدكتور بلار خلال رواق مزيّن برسوم رياضية فيكتورية: راكبو خيل يقعون في جدول، أو يعيقهم سياج مرتفع، أو سيدهم يوبخهم. ومشى على رؤوس أصابعه. وفي نهاية الرواق فتح باباً مقدار شُقَّة فقط ونظر الى الداخل. قال: «أظنها استيقظت. ستجدني في الشرفة ياتد، مع الويسكي.. لاتتأخر».

كانت هناك شمعة كهربائية واحدة مضاءة تحت تمثال صغير لقديس، قديس لم يتعرَّف الدكتور بلار عليه، وذكَّره لبرهة بالصوامع الصغيرة المقامة حول الفناء في منزل السنيورة سانشيز، وفي كل واحدة منها شمعة نذر، قال للرأس المستند إلى الوسادة: «مساء الخير».

كان الوجه مغطًى بشعرٍ أسود كثيف حتى لم يظهر منه إلا العينان، بادلتاه النظر كعيني قطة تطل من بين أغصان شجيرة.

قالت له الفتاة: «لاأريد أن أُفحَص، لاأريد أن أُفحَص».

«لاأريدُ أن أفحصكِ. أريد أن أسمع عن آلام بطنكِ، وهذا كل شيء».

«أنا أفضَلُ الآن».

«عظيم. إذن لن أبقى طويلاً. هل تسمحينَ لي أن أدير مفتاح النور؟».

قالت الفتاة: «إنْ كان لابد»، وأزاحت الشعرَ عن وجهها. وتحت مستوى الشعر رأى الدكتور وحمةً صغيرةً غبراء مكان البقعة التي تضع عليها الفتاة الهندوسية...

قال: «أين موضع الألم؟ أريني».

أنزلتْ الغطاء وأشارت إلى المكان على جسمها العاري. مدَّ يده ليلمسها، فأبعدت جسدها عنه. قال: «لاتخافي. لن أقوم بفحصك على طريقة الدكتور بينيغنتو». وسمعها تحبس أنفاسها. مع ذلك سمحتْ له أن يضغط بأصابعه على بطنها.

«هنا؟».

«نعم».

قال: «لاشيء يدعو للقلق. التهابٌ بسيطٌ في المعي، لاأكثر».

«المعي؟»، وأدركَ أن الكلمةَ غريبةٌ عليها ومخيفة.

«سأترك لكِ بعضاً من مسحوق البزموث مع زوجك. تناوليه في الماء. إذا أذبت بعض السكر معه فلن يكون طعمه سيئاً جداً. ولو كنتُ مكانك لامتنعتُ عن شربِ الويسكي. أظنكِ معتادة أكثر على عصير البرتقال، أليس كذلك؟».

نظرت اليه بسيماء الذهول وهمست: «ماسمكَ؟».

قال «بلار»، ثم أضاف «إدواردو بلار». وشكٌ في أنها تعرف كنية اسم أي رجل غير تشارلي فورتنوم.

ردَّدت «إدواردو»، وهذه المرة ألقت نظرة أكثر جرأة عليه، وسألت: «أنا لاأعرفكَ، هل أعرفكَ؟».

«لا».

«لكنك تعرف الدكتور بينيغنتو؟».

نهض واقفاً «قابلته مرة أو مرتين»، وأضاف قبل أن تسنح لها فرصة الكلام: «لاأظن أن زيارات أيام الخميس تلك كانت ممتعة جداً. أنتِ لستِ مريضة. ولاداعي لبقائك في السرير».

«تشارلي» (ولفظت الاسم مع مطّ وتشديد آخر الكلمة)، قال: «إني يجب أن ألزم السرير حتى يأتي الطبيب».

«حسن، وهاقد أتى الطبيب، ألم يأتِ؟ إذن لم يعُدْ ثمة من داعٍ...».

حين التفت إلى الخلف بعد أن وصل الى الباب رآها تراقبه. كانت قد نسيت أن ترفع الغطاء. قال: «أنا لم أسألكِ عن اسمكِ».

«كلارا».

قال: «تيريزا هي الفتاة الوحيدة التي عرفتها هناك».

أثناء عودته خلال الرواق راح يفكر في التمثال الصغير للقديسة تيريزا من أفيلا الذي أشرف على ممارساته الخاصة وعلى ممارسات الدكتور سافيدرا ذات الطابع الأدبي الغالب. ولعلّه صديق للقديس فرانسيس الذي يطلُّ الآن على سرير تشارلي فورتنوم. وتذكّر كيف رأى الفتاة في المرة الأولى وهي تسوّي الأغطية في صومعتها، تنحني مباشرة من الخصر كزنجية.

أصبح الآن معتاداً على التعامل مع عدد كبير جداً من أجساد النساء. وحين أصبح عشيقاً لأول مرة لإحدى مريضاته لم يكن ماأثاره جسدها بل تلعثمٌ بسيطٌ ورائحةٌ لم يميِّزها. لم يكن في جسد كلارا شيءٌ مميّز غير نحافتها التي لاتناسب الموضة، وصغر ثدييها، والفخذين غير الناضجين، وهضبة فينوس[1] التي لاتكاد تلاحظ. لعلها كانت في العشرين، لكن مظهرها لايعطيها أكثر من ست عشرة سنة - إن الأم سانشيز تجنِّدهن في سن مبكرة.

وقف أمام رسم لرجلٍ بمعطفٍ قرمزيّ يمتطي حصاناً منطلقاً بسرعة خاطفة وقد تجاوز كلاب الصيد، والسيد، ذو الوجه الأرجواني، يهزّ قبضته في وجه المذنب، وخلف كلاب الصيد يمتد مشهد لحقول وأسيجة وجدول صغير تحدّه أشجار خمَّن أنها صفصاف، يمثل ريفاً أجنبياً غير مألوف. وراح يفكر مندهشاً: لم أرَ في حياتي جدولاً صغيراً مثل هذا. في هذه القارة حتى

---

(١) هضبة فينوس: في الجسد الأنثوي هي وسادة اللحم السميكة الموجودة عند ملتقى عظام العانة.

أصغر روافد الأنهار العظيمة أعرض من نهر التيمس في كتاب الصور الذي أهداه إياه والده. عاد يكرر لفظ كلمة «جدول» على لسانه: لابدّ أن للجدول سحراً شعرياً غريباً. لايمكن إطلاق إسم جدول على الخليج الصغير الضحل حيث كان يذهب أحياناً ليصطاد السمك وحيث لايمكن السباحة خوفاً من السمك اللسّاع. الجدول يجب أن يكون هادئاً، يجري برفقٍ، تظلله أشجار الصفصاف، ولاتحفُّ به أخطار. وفكّر أنَّ هذه الأرض مترامية الأطراف لاتلائم المخلوقات البشرية.

كان تشارلي فورتنوم بانتظاره وقد ملأ الكأسين من جديد. وسأله بمزاح قلق «حسن، ماهو تشخيصك؟».

«لاشيء، التهاب بسيط. لاداعي لبقائها في السرير. سأعطيك شيئاً تستطيع أن تتناوله مُذاباً في الماء. قبل الوجبات. لن أسمح لها بشرب الويسكي».

«لم أردْ أن أقوم بأية مجازفة ياتد. أنا لاأعرف الكثيرَ عن النساء. عن مشاكلهنّ الباطنية وماإلى ذلك. زوجتي الأولى لم تَمْرَضْ قط. كانت عالمة مسيحية»[1].

«قبل أن تجرنّي للحضور الى هنا مرة أخرى، تنازل وتبادل معي كلمة على الهاتف. أكون مشغولاً جداً في مثل هذا الوقت من السنة».

«أظنك تعتقدني مجنوناً، لكنها بحاجةٍ الى قدرٍ كبيرٍ من الحماية».

قال بلار: «كان يجب أن أعلم أنها ـ في مثل تلك الحياة التي عاشتها ـ تعلمت كيف تُعنى بنفسها».

«ماذا تقصد؟».

«أظنها عملت مع الأم سانشيز، ألم تفعل؟».

---

(١) من العلم المسيحي: مذهب مسيحي يعتقد أصحابه بأنه يمكن القضاء على الخطيئة والمرض والموت بفهم تعاليم المسيح فهماً كاملاً.

شدّ تشارلي فورتنوم على قبضته. وعلقت فقاعة من الويسكي على زاوية شفته وظن الدكتور بلار أنه يكاد يرى ضغط دمه يرتفع. «ماذا تعرف عنها؟».

«أنا لم أضاجعها قط إذا كان هذا ماتخشاه».

«حسبتُ أنك أحد أولئك الأوباش...».

«لاشك في أنك أنت نفسك كنتَ «أحد أولئك»، وأظنني أذكر أنك أخبرتني عن فتاةٍ تُدعى ماريا من قرطبة».

«ذاك أمر مختلف. كانت علاقة جسدية. أتعلم أني لم ألمس كلارا طوال شهور؟ ليس قبل أن تأكدت من أنها تكنُّ لي بعض الحب. كنّا نكتفي بالتحدث، فقط، كنت أدخل الى غرفتها، طبعاً، وإلا لوقعتُ في مشاكل مع السينيورة سانشيز. أعرف أنك لن تصدقني ياتد، ولكني لم أتحدث في حياتي حول عدد كبير جداً من المسائل كما فعلت مع تلك الفتاة.

لقد اهتمت بكل ماقلته لها، بفخر فورتنوم، بمحصول الماتيه، بالأفلام. إنها تعرف الكثير عن الأفلام. أنا نفسي لم أكن أهتمُّ بها كثيراً، أما هي فتعرف دائماً آخر أخبار امرأة تدعى اليزابيت تيلر. هل سمعت بها - وبشخص يدعى بيرتون؟ كنت دائماً أعتقد أنَّ بيرتون هو نوع من البيرة. وتحدثنا عن ايفلين - زوجتي الأولى. وأعترف لك إنني كنت وحيداً قبل أن أقابل كلارا. ستقول إنَّ كلامي فارغ حين أقول لك أني أحببتها منذ أن وقع بصري عليها. وبشكلٍ ما منذ البداية لم أكن أريد أن أفعل معها أي شيء، الى أن ترغب هي بذلك أيضاً. هي لم تفهم ذلك. ظنَّت أن بي عجزاً. لكني كنت أريد حباً حقيقياً وليس حب مواخير. لاأظنك تفهم هذا أيضاً».

«لست متأكداً مما تعنيه كلمة حب حقاً. أمي تحب الـ dulce de leche. هذا ماتقوله لي».

وسأل فورتنوم: «كيف حدث ولم تقع أي امرأة في حبك ياتد؟». كان في صوته نبرة قلق أبوي أثارت الحنق في الدكتور بلار.

«اثنتان أو ثلاثة منهن قُلن لي هذا، لكنهنّ لم يكنّ يجدن أية صعوبة في العثور على شخص آخر بعد أن أودّعهن. حب أمي للكعك المحلّى وحده من غير المتوقع أن يتبدّل. إنها تحبه في المرض وفي الصحة والى أن يفرق بينهما الموت. لعلّ هذا هو الحب الصادق بحق».

«إنك ماتزال صغيراً على السخرية».

«لستُ ساخراً. أنا فضولي، هذا كل مافي الأمر. أود أن أعرف المعنى الذي يحمّله الناس على الكلمات التي يستخدمونها. والأمر يتعلق الى حدٍ بعيد بدلالة الألفاظ. لذا ترانا غالباً مانفضّل أن نستخدم في عالم الطبَ لغةً ميتة. لَامجالَ لسوءِ الفهم مع اللغةِ الميتة. قُل لي، كيف استطعتَ إن تُبعدَ الفتاةَ عن الأم سانشيز؟».

«دفعتُ».

«وهل كانت سعيدة بالرحيل؟».

«كانت مرتبكة قليلاً في أول الأمر وخائفة أيضاً. وغضبت السينيورة سانشيز. لم تكن ترغب بفقدانها. وقالت لها إنها لن تعيدها بعد أن أملُّ منها. وكأنّ هذا سيحدث».

«الحياة طويلة».

«حياتي ليست كذلك. كُن صريحاً ياتد، أعتقد أنك لاتتوقع لي أن أعيش أكثر من عشر سنين؟ على الرغم من أني خفّفت من الشرب قليلاً منذ أن عرفتُ كلارا».

«ماذا سيحلُّ بها بعد ذلك؟».

«هذا العقار لابأس به. يمكنها أن تبيعه ومن ثم تذهب بعدها الى بوينس ايريس. يمكنها الحصول على فائدةٍ تبلغ خمسة عشرة بالمائة الآن دون مجازفة. بل حتى ثماني عشرة بالمائة إذا أتيحت لها الفرصة. وأنت تعلم أن بمقدوري أن أستورد سيارةً كلَّ سنتين... ربّما سأنتظر حتى أبيع خمس

سيارات أخرى وبعدها سأتخلى عن كل شيء، وهذا يعني في حساباتي خمس مائة جنيه إضافية في العام».

«ومن ثم يمكنها أن تأكل الكعك المحلّى مع أمي في مطعم ريتشموند».

«بلا مزاح، وهل توافق أمك على مقابلة كلارا ذات يوم؟».

«ولِمَ لا؟».

«أنت لاتعرف التغيير الذي أحدثته كلارا في حياتي».

«قال الدكتور بلار: «ولاشك في أنك أنت أيضاً أحدثتَ تغييراً شاملاً في حياتها».

«حين ستصل الى مثل سني ستكون قد كدّست أكواماً من الندامات. ليس شيئاً سيئاً أن تشعر بأنك جعلت شخصاً واحداً على الأقل أكثر سعادة بقليل».

وجد الدكتور بلار التصريح البسيط، العاطفي، الدّال على الثقة بالنفس، مُربِكاً. وكان إعطاء جواب أمراً مستحيلاً، كان تصريحاً من الفظاظة مناقشته ومن المستحيل تعزيزه. فقدَّم أعذاره وانصرفَ بسيارتهِ الى المنزل.

كان طوال مسيره على الطريق الريفية المظلمة يفكر في المرأة الصغيرة المستلقية على السرير الفيكتوري الذي كان يخصُّ، مع رسومهِ الرياضية، والد القنصل الفخري. كانت مثل عصفور ابتيعَ من السوق في قفص مؤقت ونُقل الى آخر موجود في المنزل أوسع وأكثر رفاهية، ومزوَّد بمجاثم وأوعية للأكل وأرجوحة للتأرجح عليها.

دُهِشَ لمقدار الإهتمام الذي يوليه للفتاة التي لم تكن سوى عاهرة صغيرة لاحظها مرة في مؤسسة السينيورة سانشيز بسبب وحمتها الغريبة. هل تزوجها تشارلي حقاً؟ لعلَّ الدكتور همفريز ضَلَّلَ السفير فيما يخص الزواج. ربّما اتخذها تشارلي فورتنوم مدبِّرة منزل جديدة ـ وهذا كل مافي الأمر. إذا

كان الأمر كذلك فسيطمئن السفير. إن الزوجة مؤهلة أكثر من العشيقة لإعطاء أسباب أسوأ لإثارة فضيحة.

لكنَّ أفكاره كانت كالكلمات المبتذلة عن عمد في رسالة سرية حيث العبارات المهمة أُضيفتْ بين الأسطر بحبرٍ سرّي ليُصار الى إظهارها في الخفاء. تلك الكلمات الخفية تصفِ فتاةً في صومعة تنحني لتسوّي سريرها، فتاةً عادت إلى مائدتها وأمسكت بكأسها من عصير البرتقال، وكأنَّ بائعاً جوالاً استوقفها برهةً عند الباب، جسداً نحيلاً تمدّد على طوله على سرير تشارلي فورتنوم، بثديين غير ناضجين لم يُرضِعا طفلاً. إنَّ خليلات الدكتور بلار الثلاث كنَّ جميعاً متزوجات، نساءً ناضجات فخورات بأجسادهنّ المُترفة الشهية التي يفوح منها عبقُ زيوت الإستحمام الغالية. وفكر أنها لابدّ كانت عاهرة جيدة حتى يختارها رجلان على التوالي وهي بقوامها ذاك، إلاّ أنَّ ذلك لم يكن مبرراً لتفكيره فيها طوال الطريق الى المنزل. وحاول أن يغيِّر منحى أفكاره. هناك حالتان ميؤوس منهما لسوء التغذية في حي الفقراء، وثمة ضابط بوليس كان يعوده سيموت قريباً بسبب إصابته بسرطان الحنجرة، وهناك كآبة سافيدرا ودوش الدكتور همفريز الذي يقطر، وعلى الرغم من محاولته كان عقله يعود باستمرار الى هضبة فينوس الصغيرة تلك - كان وصفها بـ«جبل»[1] مغلوطاً.

وتساءل عن عدد الرجال الذينَ عَرَفتهم. وكانت آخر عشيقات الدكتور بلار، التي كانت متزوجة من مصرفيّ يدعى لوبيز، لقد أخبرته بشيءٍ من الفخر عن أسلافه الأربعة - لعلّها كانت تحاول أن تثير َفيه حسَّ التنافس (وعلم من مصدر آخر أنَّ أحد عشاقها كان سائقها الخاص). لاشكَّ في أنَّ الجسدَ الهشَّ المستلقي على سرير تشارلي فورتنوم قد عرف المئات منهم. كانت بطنها أشبه بموقعِ ساحةِ وغى في بلدٍ قديمٍ حيث نما عشب مصفرّ محا آثار

(١) لأنها تسمى أحياناً «جبل فينوس» أيضاً.

الحرب، وجرى جدول صغير بسلام بين أشجار الصفصاف : هاقد عاد من جديد إلى الممر، خارج غرفة النوم، يحدِّق إلى الرسوم الرياضية ويقاوم الرغبة في العودة.

ضغط على المكبح بحدَّة لدى اقترابه من الطريق المؤدية الى مصنع بيرغمان لتعليب البرتقال، وظلَّ برهة يفكِّر في أن يعكس اتجاه السيارة ويعود إلى المخيَّم. وبدل ذلك أشعل سيجارة. وفكّر قائلاً، لن أكون ضحية هاجس. إن مايجذبني إلى الماخور أجده أحياناً في المشتريات التافهة ـ قد أرى ربطة عنق تجذبني إليها لبرهة، فأضعها مرة أو مرتين، ثم أتركها في الدرج ومن ثم تتكدَّس فوقها ربطات جديدة أخرى. لماذا لم أحاول أن أضاجعها حين أتيحت لي الفرصة؟ لو أني دفعت ثمنها في تلك الليلة في منزل السينيورة سانشيز لكانت الآن ملقاة بأمان منسيَّة في قعر الدرج. وتساءل، أيعقل أنه، إذا كان المرء رجلاً شديد العقلانية فلا يقع في الحب، سينتظره مصير أسود، هو أن يكون نهباً للهواجس؟ .

توجه بسيارته غاضباً جهة المدينة حيث يمتد انعكاس الضوء على طول الأفق والمريميات الثلاث معلَّقات بسلسلتهن المكسورة عالياً في السماء.

***

بعد ذلك ببضعة أسابيع استيقظ الدكتور بلار باكراً، وكان ذلك في يوم سبت ولديه بضع ساعات حرَة، فقرَّر أن يقضيها في الهواء الطلق مع كتابٍ مادام الصباح مايزال منعشاً، والأفضل أن يكون ذلك في مكانٍ بعيدٍ عن أنظار سكرتيرته التي لاتقرأ إلا ماتسمّيها كُتُباً جادَّة ـ والتي من بينها كتب الدكتور سافيدرا.

اختار مجموعة من قصص خورجه لويس بورغيس. وكان بورغيس يشاركه في أذواقه التي ورثها هو عن والده ـ كونان دويل، ستيفنس،

تشترتن. واللجوء إلى الـ Ficciones[1] سوف يكون ابتعاداً محبَّباً عن آخر رواية للدكتور سافيدرا التي ما استطاع أن ينهيها. لقد ملَّ أبطال أميركا اللاتينية. الآن جلس الدكتور بلار تحت تمثال بطل حربي - machismo مرة أخرى - أنقذ حياة سان مارتين - أكان ذلك قبل مائة وخمسين سنة؟ - وأخذ يقرأ مع شعورٍ بالإرتياح العميق عن كونتيسة دي بانيو ريجيو، وعن بيتسبرغ وموناكو. وبعد مضي بعض الوقت أحسَّ بالعطش. ولكي يقدِّر بورغيس حقَّ قدرِه يجب تناوله، كما الجبن والبسكويت، مع بعض المشهيات، ولكن في هذا الحَرّ أراد الدكتور بلار شراباً يستغرق وقتاً أطول. فقرّر أن يتصل بصديقه غروبر ويطلب منه بيرة ألمانية.

كان غروبر أحد أصدقاء الدكتور بلار المبكرين في المدينة. حين كان صبياً هرب من ألمانيا في عام ١٩٣٦ وكانت تصفية اليهود على أشُدِّها. كان وحيد والديه لكنهما أصرا على أن يهرب الى الخارج، على الأقل لينقذ اسم غروبر من الفناء، وقد صنعت له أمه كعكة خاصة من أجل رحلته أخفى فيها بضع نفائس مما استطاعا أن يرسلاها معه - عبارة عن مجموعة من خاتم خطوبة أمه مع بعض المجوهرات البسيطة وخاتم زواج أبيه الذهبي. وقالا له إنهما كَبِرا على البدء بحياة جديدة في قارةٍ غريبةٍ وتظاهرا باعتقادهما أنهما أكبر سناً من أن تعتبرهما دولة النازيين مصدراً للخطر. وطبعاً لم يسمع عنهما أي شيء بعد ذلك: لقد جعلا مخزونهما الضئيل يشير الى تلك المعادلة الرياضية - الحل النهائي. لذا كان غروبر مثل الدكتور بلار رجلاً فقدَ أباه. لم يكن لديه حتى مقبرة للعائلة. الآن هو يدير محلاً للتصوير الفوتوغرافي في الشارع التجاري الرئيسي من المدينة وهو بطريقة بروزه على جانب الطريق، بما عليه من إشاراتٍ وإعلاناتٍ، أشبه بمحلٍ صيني. وهو أيضاً أخصائي نظارات. وقد قال مرة للدكتور بلار: «الألمان دائماً يوحون بالثقة في مجالات الصيادلة،

(١) أدب الحكايات الخرافية وقصص الجنّيات.

وأخصائيي النظارات وأخصائيي التصوير الفوتوغرافي. إن عدد الذين سمعوا بزايس[1] وباير[2] أكثر ممن سمعوا بغوبلز[3] وغورينغ[4] وهنا عدد أكبر من الناس سمعوا بغروبر».

ترك غروبر زبونه واقفاً في الجزء المنعزل من دكانه، حيث يعمل بعدساته. هناك كان الدكتور بلار يستطيع أن يرى كل مايجري دون أن ينتبه أحد لوجوده، لأنّ غروبر (وكان لديه ولَعٌ بأجزاء الآلات) كان قد ركّب شاشة تلفزيون داخلية صغيرة يستطيع من خلالها أن يراقب بدقة، كما في برنامج الكاميرا النزيهة، الزبائن خارج المحل. ولسببٍ ما، لم يستطع غروبر أن يفهم كنهه، كان دكانه يجذب أجمل فتيات المدينة (ولم يكن في مقدور أي بوتيك أن ينافس غروبر ذلك)، وكأنّ هناك صلةً بين الجمال ومهنة التصوير الفوتوغرافي. كُنّ يأتين أسراباً ليستلمن صورهنّ الملونة ويتفحّصنها مع شهقات الإثارة، ويشقشقنَ كالعصافير. راح الدكتور بلار يراقبهن وهو يشرب البيرة وينصت إلى ثرثرة غروبر باللهجة المحلية.

سأله الدكتور بلار: «هل قابلت امرأة تشارلي فورتنوم؟».

«تقصد زوجته؟».

«لايمكن أن تكون زوجته، عن حق؟ تشارلي فورتنوم رجل مطلّق. وليس في هذه الحالة إعادة زواج ـ هذا الوضع يناسب العزاب أمثالي».

«ألم تسمع بأن زوجته قد توفيت؟».

«لا. كنت خارج المدينة. وحين رأيتُه قبل أيام لم يذكر الموضوع».

---

(١) كارل زايس (١٨١٦ ـ ١٨٨٨): صناعي ألماني. طوّر صناعة العدسات.

(٢) أدولف ڤون باير (١٨٣٥ ـ ١٩١٧): كيميائي ألماني ـ اشتهر باكتشاف تركيبة النيلة. جائزة نوبل للكيمياء عام ١٩٠٥.

(٣) بول جوزيف غوبلز (١٨٩٧ ـ ١٩٤٥): سياسي ألماني نازي.

(٤) هرمان فيلهلم غورينغ (١٨٩٣ ـ ١٩٤٦): سياسي ألماني نازي.

«لقد ذهب مع زوجته الجديدة الى روزاريو وتزوج هناك. هذا مايقوله الناس. طبعاً لاأحد يعرف الحقيقة».

«هذا تصرفٌ غريبٌ منه. لم يكن ضرورياً. أتعلم أين عثَرَ عليها؟».

قال غروبر: «نعم، لكنها فتاةٌ جميلة جداً».

«آه، نعم، واحدة من أفضل من تضمَّهُنَّ مجموعة الأم سانشيز. ولكن ليس من الضروري أن يتزوج الرجل فتاة جميلة».

«الفتيات من ذاك الصنف غالباً مايصبحن زوجات صالحات، خاصة للرجال الـــهرمين».

«ولماذا الهَرِمون بالذات؟».

«الكبار في السن مطالبهم ليست كثيرة، وفتياتٍ كتلك يسعدن بالركون إلى الراحة».

عبارة «كتلك» أثارت سخط الدكتور بلار. مرت سبعة أيام ومايزال ممسوساً بمرأى الجسد اللاامتميِّز الذي صنَّفه غروبر بمنتهى السهولة. الآن شاهد على شاشة التلفزيون فتاة تميل على المنبر تريدُ شراءَ فيلمٍ للتصوير بالطريقةِ نفسها التي مالت بها كلارا على سريرها في منزل السينيورة سانشيز. كانت أجمل من زوجة تشارلي فورتنوم، ولم يشعر بأية رغبة فيها.

كرّر غروبر قائلاً: «فتيات كهذه يرضين كل الرضى إذا تُرِكنَ وشأنهن. إنهن يعتبرن أنَّ حسن الحظ هو أن يطلبهنَّ رجلٌ عنين أو يكون من شدَّة السكر بحيث يعجز عن الفعل. هنا يطلقون على هذا الوضع صِفَةً محليَّةً ـ نسيت الكلمة الأسبانية، لكنها تعني زائراً صائماً».

«ألا تتردّد على منزل سانشيز؟».

«ولِمَ أفعل؟ أنظر الى الإغواءات المتوفرة لدي وتجعلني أقاوم أقربَ منزلٍ إليَّ مع وجود كل زبوناتي الفاتنات. بعض الأفلام التي يحضرنها للتحميض تكون حميمة جداً، وحين أسلِّم الصور إلى إحداهنَّ أرى ابتسامةً عابثة في

عينيها. كأنَّها تقول في نفسها، لقد لاحظ اللحظة التي انزلق فيها البيكيني ـ وهذا مايحصل بالفعل. بالمناسبة، جاء رجلان إليّ هنا قبل أيام وسألا عنك. أرادا أن يعرفا إذا كنتُ فعلاً ادواردو بلار نفسه الذي تعرَّفا عليه قبل سنين مضت في أسونسيون. شاهدا اسمك على الصور التي أرسلتها إليك يوم الخميس. طبعاً قلت لهما إني لاأعلم».

«هل كانا من رجال البوليس؟».

«لم يبدُ عليهما أنهما من رجال البوليس، ولكن طبعاً لايجوز المجازفة. سمعتُ أحدهما يُخاطبُ الآخر بأبتِ. لم يبدُ عليه أنه كبير كفاية ليكون والده ولم يكن يرتدي لباس كاهن، مما أثار ريبتي».

«إن صلتي طيبة مع رئيس قسم البوليس هنا. أحياناً يستدعيني حين يكون الدكتور بينيفنتو في إجازة. أتعتقد بأن هذين الرجلين جاءا من الطرف الآخر للحدود؟ لعلهما من عملاء الجنرال؟ ولكن لماذا يهتم بي؟ لم أكن سوى صبي حين غادرت ...».

قال غروبر: «اذكرْ الديب».

نظر الدكتور بلار بسرعة الى شاشة التلفزيون متوقعاً أن يرى عليها صورة رجلين غريبين، ولكن كل مارآه كان فتاةً نحيلة تضع نظارات شمسية بحجمٍ مبالغٍ فيه ـ لعلها صنُعت للإستعانة بها في الغطس العميق. قال غروبر: «إنها تشتري النظارات الشمسية كما تشتري بقية النساء الحلي المزيفة. لقد بعتُها ما لا يقل عن أربعةِ أزواجٍ منها».

«مَنْ تكون؟».

«كان يجب أن تعرف. كنتَ تتحدثُ عنها قبل لحظات. إنها زوجة تشارلي فورتنوم أو امرأته إذا شئت».

وضع الدكتور بلار كأس البيرة ودخل إلى المحل. كانت الفتاة تتفحص زوجاً من النظارات الشمسية وكانت من الاستغراق بحيث لم تلاحظه. كانت

العدستان ملونتان بلونٍ بنفسجيّ زاهٍ، وكانت الحواف بلونٍ أصفر ساطع، والقطعتان الجانبيتان كانتا مكسوتّين برقائق أرجوانية بلون حجر الجمشت. خلعت نظارتها وجربّت الجديدة، وعلى الفور أضافت عشر سنين الى عمرها. واختفت خلفها عيناها تماماً: كل مارأى كان وجهه هو بلون بنفسجي زاهٍ منعكساً عليها.

قال المساعد: «لقد تلقّينا لتونّا هذه من مار ديل بلاتا، وكلها على الموضة هناك».

خمّن الدكتور بلار أنه ربّما كان غروبر يراقبه على شاشة التلفزيون. ولكن لماذا يهتم بالأمر؟ وسألها: «أتعجبكِ، سينيورة فورتنوم؟».

قالت: «مَنْ... ؟ أوه، أهذا أنت، دكتور، دكتور ... ؟».

«بلار. إنها تجعلكِ تبدين أكبر كثيراً. ولكن يمكنكِ طبعاً أن تضيفي بضع سنين».

«إنها غالية جداً. كنت فقط أجربّها على سبيل التسلية».

قال للمساعد: «غلّفها، مع علبة ... ».

قالت: «لها علبة خاصة بها يادكتور»، وبدأتْ تُلمِّعُ الزجاج.

ثم أردفتْ: «لا، لاأستطيع ...».

«بل تستطيعين معي. أنا صديق زوجك».

«أهذا يجعل الأمر ممكناً؟».

«نعم».

ثم قامت بقفزةٍ وعَلِم فيما بعد أن تلك هي طريقتها للتعبير عن البهجة لدى تلقّيها أية هدية، حتى لو كانت كعكة محلاةً. لم يقابل في حياته امرأة تقبل هدية بمثل تلك الصراحة، والقليل من الضجيج. قالت للمساعد: «من فضلك، أريد أن أضعها. ضع القديمة في العلبة». وقال في نفسه، وهما

يغادران محل غروبر معاً، إنها تبدو في هذه النظارة أقرب إلى أن تكون عشيقتي وأبعد من أن تكون أختي الصغرى.

قالت بلسان بنت مدارس حسنة التربية: «هذا لطف منك».

«تعالي نجلس على ضفة النهر لكي نتحدث، وحين تردّدت أضاف: «لن يتعرّف عليكِ أحد وأنت بهذه النظارة. ولاحتى زوجك».

«ألا تعجبكَ؟».

«لا، لاتعجبني مطلقاً».

قالت، وقد خاب أملها: «ظننتُها تدل على الثراء وأنيقة جداً».

«إنها تنفع قناعاً جيداً. لهذا أردتك أن تأخذيها. لن يلاحظ أحد الآن أن برفقتي السينيورة فورتنوم الشابة».

قالت: «ومن الذي سيلاحظني؟ إنني لاأعرف أحداً، وتشارلي في المنزل. لقد أرسلني مع كبير العمال. قلت له إني أريد أن أشتري شيئاً».

«ماهو؟».

«أوه، أي شيء. لم أكن أعرف ماذا».

مشت راضية الى جانبه، تتبعه كيفما اتجه. شعر بالاضطراب من الطريقة السهلة التي كانت تحدث بها الأمور. وتذكّر الصراع الأبله الذي احتدم في عقله حين أراد أن يرجع بسيارته إلى المخيم، وعدد المناسبات التي استلقى فيها، خلال الأسبوع الفائت، يقظاً يتساءل ماهو التحرك الصحيح الذي يجب أن يقوم به ليراها مرة أخرى، كان يجب أن يعلم أنّ المسألة لن تكون أصعب من جرِّها إلى صومعتها التي في منزل سينيورة سانشيز.

قالت: «أنا لست خائفة منك اليوم».

«ربما لأنني قدّمتُ لكِ هدية».

قالت: «نعم، كلام معقول. إنّ الرجلَ لايزعج نفسه بتقديم هدية الى شخصٍ لايحبه، أليس كذلك؟ قبل بضعة أيام فقط كنتُ أظنُّ أنك لاتحبني.

حسبتُ أنك عدوٌّ لي».

وصلا إلى ضفة البارانا. كان هناك تحصين صغير يتنأ بإتجاه النهر، مهدَّب بأعمدة بيضاء، مشكّلاً معبداً منمنماً لتمثالٍ عارٍ ذي براءة كلاسيكية يواجه الماء. كانت مجموعة الشُقَق القبيحة التي يسكن بينها مختفيةً وراء الأشجار. والأوراق أشبه بأخفّ أنواع الريش، تعطي إيحاءً بالرطوبة لأنها تبدو دائماً في حالةِ حركةٍ - نفحة من هواءٍ لايكادُ يستشعرها الجلد كانت كافية لبثّ الحركة فيها. عبرت سفينة ضخمة من أمامهما إلى أعلى النهر، مندفعة في وجه التيار، والكتلة السوداء المعتادة تخيِّم فوق سهل التشاكو.

جلستْ وأخذتْ تحدّق في البارانا، وحين نظر اليها لم يرَ إلا وجهه هو منعكساً على زجاج النظارة. قال: «إكراماً لله اخلعي هذه النظارة. لاأريد أن أحلق».

«تحلق؟».

«إنني أنظر إلى نفسي هكذا مرتين في اليوم - وهذا كافٍ تماماً».

خلَعَتها طائعة ورأى عينيها، كانتا بنِّيتين وخاليتين من التعبير ولاشيء يميِّزهما عن عيون كل النساء الأسبانيات اللواتي عرفهن. قالت: «أنا لاأفهم».

«أوه، لاتأبهي لكلامي. أصحيح أنك متزوجة؟».

«نعم».

«وماهو شعورك بِذلك؟».

قالت: «أظن أنه أشبه بارتداء ثوب فتاة أخرى، لايليق عليّ».

«ولماذا قبلتِ؟».

«هو أراد أنَ يتزوج. لسببٍ يتعلق بنقوده بعد أن يموت. وكأنَّ هناك طفلاً...».

«هل حبلتِ؟».

«لا».

«لابد أن هذا الوضع أفضل من الحياة في بيت الأم سانشيز؟».

قالت: «الأمر مختلف. إنني أشتاق الى الفتيات».

«والرجال؟».

«أوه، أنا لستُ مهتمة بأمرهم».

كانا وحدهما على المتنزه الطويل المحاذي للبارانا: فبالنسبة الى الرجال كانت تلك ساعة العمل، وبالنسبة الى النساء كانت ساعة التبضُّع. لكل شيء هنا وقته المناسب ـ ساعة التنزُّه على ضفاف البارانا كانت في المساء، وعندئذ يحين وقت العشاق الحقيقيين الشبّان، حين يمسك بعضهم بأيدي بعض ولايتكلمون. قال: «متى يجب أن تكوني في المنزل؟».

«سيقلُّني الـ Captaz [1] من مكتب تشارلي في الحادية عشرة».

«إنها التاسعة الآن. كيف تملئين وقتك؟».

«سأتفرَّجُ على المحلات ومن ثم سأشربُ فنجاناً من القهوة».

«ألا تزورين أياً من صديقاتك القدامى؟».

«الفتيات كلهنّ نائمات الآن».

سألها الدكتور بلار: «أترين تلك المجموعة من الشقق خلف الأشجار؟ أنا أسكن هناك».

«ثم؟».

«إذا كنتِ ترغبين في شرب القهوة سأعزمك على القهوة».

«ثم».

قال: «أو على عصير البرتقال».

«أوه، إنني لاأحب عصير البرتقال حقاً. السينيورة سانشيز كانت تقول إنَّ علينا أن نبقى صاحيات، هذا هو السبب».

---

(١) الريِّس: الرئيس (العمال، أو الطباخين أو الخدم ...).

سألها: «ألا تأتين معي؟».

سألتْ: «هل سيكون هذا تصرفاً سليماً؟»، وكأنَّها تجمع معلومات من شخصٍ تعرفه وتثق فيه.

«كان تصرفاً سليماً عند الأم سانشيز ... ».

«ولكن كان عليّ أن أكسب لقمة عيشي هناك. وكنتُ أرسل نقوداً الى بيتنا في توكومان».

«وماذا يحدث الآن؟».

«أوه، ماأزال أرسلْ النقود إلى توكومان كالسابق وتشارلي يعطيني».

نهضَ واقفاً ومدّ لها يده «هيا». وكان على استعداد ليغضب إذا ماتردَّدت، لكنها أمسكت بيده بامتثالها الباهت المعهود وتبعته عبر الطريق، وكأنَّ المسافة لاتتعدّى مساحة الفناء الصغير في منزل الأم سانشيز. لكنَّ المصعد جعلها تتردَّد. قالت له إنها لم تستقل مصعداً من قبل ـ فالأبنية المؤلفة من أكثر من طابقين كانت قليلة في المدينة. شدَّت على يدها بفعل الإثارة أو الخوف، وعندما وصلا إلى الطابق العلوي سألته: «هل تسمح أن نفعل ذلك ثانية من فضلك؟».

«عندما تذهبين».

قادها مباشرة الى غرفة نومه وبدأ بنزع ثيابها. علِقتْ إحدى مسَّاكات الثوب فتولّت الأمر نيابة عنه. وكل ماقالته وهي مستلقية عارية على السرير بانتظار أن ينضم إليها كان «تلك النظارة كلفَتكَ أكثر مما تكلّفك زيارة للسينيورة سانشيز»، وتساءل إن كانت قد اعتبرتها بمثابة دفعة على الحساب. وتذكّر كيف كانت تيريزا تعدُّ أوراق النقد وبعد ذلك تضعها على رف تحت تمثال القديس وكأنها حصيلة تبرُّع في كنيسة. وبعد ذلك تُقسّمها بشكلٍ صحيح مع السينيورة سانشيز: أما الهدية الشخصية فدائماً تأتي فيما بعد.

لمّا انضمّ إليها راح يفكّر بإرتياح: هذه نهاية هاجسي، وعندما صرخت فكّر قائلاً: «عدتُ حراً من جديد، أستطيع أن أقول وداعاً للسينيورة سانشيز

وهي تحبك على كرسي المراكب ويمكنني أن أعود لأتمشَّى على طول ضفة النهر مع إحساسٍ بالخفَّة لم يكن معي حين غادرت المنزل. كان آخر عدد من «الصحيفة الطبية البريطانية» مُلقى على مكتبه ـ لقد ظلّ في مكانه طوال أسبوع ومايزال في مُغلّفه، وكان مزاجه راغباً في قراءة شيء مكتوب بأسلوب حتى أكثر دقة من قصة لبورغيس، وذات قيمة عملية أعظم من رواية بقلم خورجه خوليو سافيدرا. وبدأ يقرأ مقالاً يتَّسم بأصالةٍ مذهلة ـ أو هكذا خيِّل إليه ـ حول معالجة نقص الكالسيوم كتبه طبيب يدعى سيزار بورجيا.

سألت الفتاة: «أنت نائم؟».

«لا». لكنه دُهشَ مع ذلك عندما فتح عينيه ورأى نورَ الشمس يتسلل من بين قماشتي الستارة. كان يظنُّ أنَّ الوقتَ ليلٌ وأنّه وحده.

داعبتْ الفتاةُ فخذَه من الداخل ومرَّرت شفتيها على طول جسمه. ولم يشعر إلا باهتمام معتدل، بفضولٍ لمعرفة ما إذا كانت قادرة على إثارته مرة ثانية. لعلَّ هذا هو سرُّ نجاحها عند الأم سانشيز ـ إنها تمنحُ الرجلَ ضعفَ مايعادلُ قيمةَ نقوده. اعتلتْ جسده وهتفتْ بعبارة فاحشة، وهي تقضم أذنه بأسنانها، لكن الهاجس خمد مع انطفاء شهوته، وأحسَّ بالإنقباض للفجوة التي خلَّفها وراءه. لقد عاش أسبوعاً تسيطر عليه فكرة واحدة وهاهو الآن يفتقد الفكرة كما تفتقد أمٌ صراخ طفلٍ غير مرغوب فيه. وفكر قائلاً، أنا لم أرغب بها فعلاً، بل رغبتُ فقط بفكرتي عنها. كان يودُّ لو ينهض ويرحل، ويتركها وحدها لترتِّب السرير وبعد ذلك لتبحث لها عن زبون آخر.

سألتْ: «أين الحمَّام؟». لم يكن هناك مايميِّزها عن الأخريات اللواتي عرفهن فيما عدا أنها تؤدي ملهاتها بمزيدٍ من الحيويةِ والإبتكار.

عندما عادت كان قد ارتدى ملابسه، وراح يراقبها بصبرٍ نافد وهي تضع عليها ثيابها. كان يخشى أن تطلب منه أن يقدِّم لها فنجان القهوة الذي وعدها به وألحَّ طويلاً بشأنه. لقد حان الوقت الآن لزيارة الـbarrio Popular وستكون النسوة الآن قد أنهت النوبة الأولى من عملها الطويل

الممل وسيكون الأولاد قد عادوا من حمل الماء. وسأل: «أتريدين أن أوصلك إلى القنصلية؟». .

قالت: «لا، أفضّل أن أمضي. قد يكون الـ Capitaz في انتظاري».

«لم تشترِ أشياء كثيرة».

«سأري تشارلي النظارة. لن يحزر كم كلّفتني».

أخرج ورقة بعشرةِ آلاف بيزو من جيبه وناولها إياها. قلّبتها كأنما لتتأكد من قيمتها. قالت: «لم يعطني أحدٌ قط أكثر من خمسة آلاف بعدالإنتهاء. وعادة تكون ألفين. إذا لم تكن الأم سانشيز تريدنا أن نأخذ أكثر من ذلك. كانت تخشى أن هذا يعني أننا كنّا ننشط لنكسب. لكنها كانت مخطئة. فالرجال غريبو الأطوار من هذه الناحية. فإذا وفّرت عليهم عمل أي شيء يسخون في العطاء».

قال: «وكأنّ أياً منكنّ تأبه لذلك».

«وكأننا نأبه».

«مجرد زائر صائم».

ضحكتْ الفتاة. قالت: «يريحني أن أعود فأتحدث بحرية من جديد. لاأستطيع أن أتكلم بحريةٍ مع تشارلي. أعتقد أنه يريد أن ينسى كل مايتعلق بسينيورة سانشيز»، وأعادت اليه الورقة النقدية. قالت: «لن يكون تصرفاً سليماً، فأنا متزوجة الآن، ولاأحتاجها. تشارلي كريم. ثمّ إنّ النظارة كلّفت الكثير»، ووضعتها على عينيها، وهكذا عاد يرى من جديد وجهه هو يحدّق به، مُصغَّراً، وكأنّ دمية تنظر إليه من نافذة بيت دمية. وسألته: «هل سأراك ثانية؟».

أراد أن يقول «لا. انتهى كل شيء الآن»، لكن السلوك العام المهذّب ـ والإرتياح الذي شعر به لأنها نسيت أمر القهوة ـ جعلاه ينطق بجوابٍ تقليدي، كمضيفٍ يقول لضيفه الذي لايرغب حقاً في تشجيعه على

الإتصال به ثانية «طبعاً. ذات يوم عندما تنزلين الى البلدة... سأعطيك رقم هاتفي».

أكّدتْ له قائلة: «لستُ بحاجة لأن تقدّم لي هدية في كل مرة».

قال: «وأنت لم تكوني مضطرة لتمثيل ملهاتك».

«ملهاة؟».

قال: «أعرف أنّ هناك دائماً رجالاً يريدون أن يعتقدوا أنك تستمتعين بقدر استمتاعهم هم. من الطبيعي أنكِ عند الأم سانشيز كنتِ تضطرين للتمثيل لتحظي بهديتك أما هنا فيجب أن تفهمي ـ لاداعي لأن تمثلي. لعلك مضطرة للتمثيل مع تشارلي، ولكن ليس معي. لستِ مضطرة لإدعاء أي شيء معي».

قالت: «أنا أسفة. أكان تصرفي خطأ؟».

تابع الدكتور بلار كلامه: «كان ذلك دائماً يزعجني في منزل ذاك. إن الرجل ليس غبياً بالقدر الذي تظنين. إنه يعرف أنه يأتي ليحصل على المتعة لا ليمنحها».

قالت: «في كل الأحوال أعتقد أني كنت أدَّعي بطريقة جيدة جداً لأنني كنت أحصل على هدايا أكبر مما تحصل عليه بقية الفتيات»، ولم تنزعج وفَهِمَ أنها كانت معتادة على هذا الحزن الذي يتبع الجماع. ولم يكن هو يختلف، حتى في ذلك، عن بقية الرجال الذين عَرفَتهم. وفكَّر، ولكن ذاك الفراغ ـ أهي على حق؟ أصحيح أنه ليس أكثر من فترةِ Tristitia [1] مؤقت، يشعر به أغلب الرجال بعد أن يخلّفوا الماخور وراءهم؟

«كم بقيتِ هناك؟».

قالت: «سنتين. كنتُ في نحو السادسة عشرة حين وصلت، وقدَّمتْ لي الفتيات كعكة عليها شموع في عيد ميلادي. لم أكن قد رأيت واحدة من قبل. وكانت جميلة جداً».

---

(١) أي: الحزن.

«هل أرادكِ تشارلي فورتنوم أن تدَّعي مثلما فعلتِ معي؟».

قالت: «أرادني أن أكون هادئة جداً، ورقيقة جداً. أهذا أيضاً ماكنتَ تريده؟ أنا آسفة... ظننتُ... أنت أصغر سناً بكثيرمن تشارلي، فحسبتُ...».

قال: «أريدكِ أن تكوني نفسكِ. كوني لامبالية كما تريدين. كم رجلاً عرفتِ؟».

«كيف يمكنني أن أتذكّر؟».

بيَّن لها كيف يعمل المصعد، وطلبتْ منه أن يهبط معها ـ كانت ماتزال خائفة منه قليلاً، مع أنه أفرحها. عندما ضغطت على الزر وبدأ بالهبوط قفزت مثلما فعلتْ وهي في محل غروبر. وعند الباب اعترفت له بأنها تخاف الهاتف أيضاً «واسمكَ ـ نسيتُ اسمكَ».

«بلار. إدواردو بلار»، ولفظ اسمها للمرة الأولى بصوت عال «وأنت كلارا، أليس كذلك؟»، ثم أضاف: «إذا كنتِ تخافين استخدام الهاتف، سأتّصل أنا بك. ولكن ربّما ردّ عليّ تشارلي».

«إنه في العادة يقوم بجولة في أنحاء المخيم قبل التاسعة. وفي أيام الأربعاء يكون طوال الوقت تقريباً في البلدة ـ مع أنه يرغب في أن أرافقه».

قال الدكتور بلار: «آه حسن، سوف نجد طريقة». ولم يزعج نفسه بتوصيلها إلى الشارع أو بمرافقتها وهي تبتعد. لقد كان رجلاً حراً.

مع ذلك، راح يفكّر آسفاً، في الليلة نفسها، وهو يحاول أن ينام، وبلا سببٍ مفهوم، كيف أنه يتذكّرها متمدِّدةً على سرير تشارلي فورتنوم بوضوحٍ أشد مما تذكّرها وهي في سريره هو. قد يهجع هاجسٌ ما لفترةٍ وجيزةٍ من الزمن، لكنه لايموت بالضرورة، وفي أقل من أسبوع رغبَ في رؤيتها ثانية، أحبَّ أن يسمع صوتها، حتى وإن بدا له لامبالياً عبر الهاتف، لكن الهاتف لم يرنّ لينقل له أية رسالة ذات أهمية.

الجزء الثالث

الفصل الأول

لم يصل الدكتور بلار الى منزله قادماً من الكوخ إلا قرابة الثالثة صباحاً. فلكي يتجنَّب دوريات البوليس سلك دييغو طريقاً غير مباشرة وأنزله بالقرب من منزل سينيورة سانشيز، وقد منحه بذلك حجَّةً، فيما لو احتاجها، لكونه يتوجه الى منزله في الصباح الباكر سيراً على الأقدام. ومرَّ بلحظة مربكة وهو يرتقي الدرج حين فُتح باب في الطابق الذي يقع تُحته وسأل صوت: «مَنْ هناك؟». ، فردَّ قائلاً: «أنا الدكتور بلار. لماذا يولد الأطفال في ساعات غير معقولة؟».

ومع أنه أوى الى سريره إلا أنه لم يَكدْ يحظى بأي قدرٍ من النوم. ومع ذلك مارس عمله الصباحيَّ بنشاطٍ أكثر من عاديّ، ومن ثم اتجه بسيارته الى مخيم تشارلي فورتنوم.

لم تكن لديه أيه فكرة عن الوضع الذي سيواجهه، وكان مزاجه تَعِباً، وعصبياً، وغاضباً، وتوقع أن يجد بإنتظاره امرأة مُهَسْتِرة. وحين كان مستلقياً في سريره يجافيه النوم فكَّر في أنْ يكشف الأمر برمَّته للبوليس، لكن ذلك كان يعني الحكم على ليون وأكوينو بالموت المحتم، وربما على فورتنوم أيضاً.

كانت الظهيرة ثقيلة بالشمس التي تغمرها عندما وصل الى المخيم، ووجد سيارة جيبٍ خاصة بالبوليس تقف بجانب «فخر فورتنوم» تحت ظلال شجر الأفوكاتو. دخل المنزل دون أن يرن الجرس، وهناك في غرفة المعيشة وجد رئيس قسم البوليس يتحدث الى كلارا. لم تبدو عليها الهستريا كما

توقع، بل وجدَ فتاةً صغيرةً جالسةً جلسةً رسمية على الصوفا وكأنما تتلقى أوامر من شخصٍ أرفعَ منها مقاماً «... كل مانستطيع»، هذا ماسمع الكولونيل بيريز يقوله.

سأله الدكتور بلار: «ماذا تفعل هنا؟».

«جئتُ لأقابل سينيورة فورتنوم يادكتور، وأنت؟».

«أنا جئتُ لأقابل القنصل في عمل».

قال الكولونيل بيريز: «القنصل ليس هنا».

لم ترحِّب كلارا به. بدتْ وكأنها تنتظرُ بغير إرادتها، كما كانت تنتظر غالباً في فناء المؤسسة، لكي يأتي رجل من كثيرين ويأخذها معه ـ لقد كانت الأم سانشيز تُحرِّم عليهنّ الإلحاح على الزبائن.

قال الدكتور بلار: «إنه ليس في البلدة».

«هل ذهبتَ الى مكتبه؟».

«لا. اتصلت هاتفياً».

وندمَ من فوره على ماقاله، لأنَّ الكولونيل بيريز لم يكن مغفلاً. على المرء ألا يتطوَّع بإعطاء معلومات لرجل بوليس. وقد راقب الدكتور بلار أكثر من مرة الأسلوب الهادىء والفعّال في أداء بيريز لعمله. وفي إحدى المناسبات عثُر على رجلٍ مطعون على طوفٍ خشبي كان عائماً فوق مياه البارانا على بعد ألفي كيلومتر. ولمّا كان الدكتور بينيفنتو غائباً استُدعي الدكتور بلار الى إحدى منعطفات النهر بالقرب من المطار حيث كانت جذوع الأخشاب تنتظر لتُشحن على متنِ سفينة. وعند أسفل درب ريفي زلأق حيث تُسمع الأفاعي تتحرك بين المزروعات، وصل الى فُرضة خشبية صغيرة ـ أو مايسمّونه ميناء نقل الأخشاب.

على ذاك الطوف عاشت عائلةٌ كاملةٌ مدةَ شهر. وأُعجب الدكتور بلار، وهو يتعثر عبر جذوع الأخشاب خلف بيريز، بالطريقة التي يوازن بها ضابط

البوليس نفسه: أما هو فكان يشعر باستمرار بخطرِ الإنزلاق حين تغوص الجذوع تحت قدميه وتقفز ثانية. وفكَّر بأنَّ ذلك لابد يشبه الوقوف على ظهر حصان يخبُّ حول حلقة سيرك.

سأله الكولونيل بيريز: «إذن فقد تحدَّثت مع مدبرة المنزل؟».

مرة أخرى انزعج من نفسه بسبب أكاذيبه المتهورة. إنه طبيب كلارا. لماذا لم يقل ببساطة إن هذه زيارة طبية روتينية إلى زوجةٍ حامل؟ إن كذبة واحدة في حضورِ رجلِ بوليس تتكاثر كتكاثر العصيَّات. قال: «لا. لم يردّ أحد».

وتفكَّر الكولونيل في جوابه عبْرَ صمتٍ طويل.

تذكَّر مدى السرعة والسهولة اللتين سارا بهما بيريز فوق الجذوع المتمايلة وكأنه يسيرُ على أرضٍ رصيفٍ ثابتةٍ في المدينة. كانت الجذوع تغطّي نصف عرض النهر، وكانت هناك مجموعة من الناس تقف في مركز الغابةِ الشاسعة التي تحجب الأفق، وقد ظهروا أقل عدداً عن بُعد. واضطرَّ مع بيريز للقفز من طوفٍ إلى آخر ليصلا إليهم، وفي كل مرة كان يقفز فيها الطبيب كان يخشى من الوقوع في المسافة بين الطوافات، مع أنَّ اتِّساع الفجوة كان عادة أقل من متر. وأثناء فترة غوص الجذوع تحت وطأة ثقله وارتفاعها مرة أخرى كان حذاؤه يتشبَّع بالماء. فقال له بيريز: «لقد حذَّرتك، قلت لك إن المسألة لن تكون سارةً جداً. كانت العائلة مسافرةً على متنِ طوافةٍ منذ أسابيع بصحبةِ الجثة، وكان من الأفضل لو أنهم دفعوا بها ببساطة الى الماء، وما كنّا عرفنا شيئاً».

سأله الدكتور بلار، وذراعاه، ممدودتان على طولهما، وكأنه يمشي على حبلٍ مشدود «ولماذا لم يفعلوا؟».

قال بيريز: «لقد أراد القاتل أن يقيمَ له شعائرَ دفنٍ مسيحية».

سأله الدكتور: «إذن فقد اعترفَ بقتله؟».

أجاب بيريز: «أوه، لقد اعترفَ بذلـك لي. في الواقع - إنهـم جميعاً من أبناء عشـيرتي».

عندمـا وصلا إلى المجموعة - وكانت مؤلّفة من رجلين، وامرأة وطفل ومعهم ضابطان - لاحظ الدكتور بلار أن رجال البوليس لم يزعجوا أنفسهم حتى بأخذِ السكين من القاتل، الذي جلسَ يضع ساقاً فوق ساق بجوارِ الجثةِ الشنيعة وكأنه مكلّف بحراستها. وكانت على وجهه إمارةُ حزنٍ أكثر منه تعبيراً عن الإحساس بالذنب.

قال كولونيل بيريز: «أتيتُ لأخبر السينيورة أن سيارة زوجها قد وُجِدتْ في نهر البارانا ليس بعيداً عن بوساداس. لاأثرَ لجثة، لذا نأمـل في أن يكون قد هرب».

«حادث، طبعاً أنت تعلم - السينيورة لن تمانع في أن أكون صريحاً - إن فورتنوم يثقل في الشراب».

قال الكولونيل بيريز: «نعم. ولكن هناك احتمالات أخرى».

كان سيكون من الأسهل على الطبيب لو أنه يقوم بدورهِ إمّا أمام ضابط البوليس وحده أو أمام كلارا وحدها. كان يخشى إذا تكلّم أن يلاحظ أحدهما نبرةً مزيّفةً في صوته. سأل: «ماذا تظن أنه حدث؟».

«إنّ أية حادثةٍ تقعُ بالقرب من الحدود تكون ذات صبغة سياسية. علينا دائماً أن نتذكّر هذا. أتذكرُ الطبيب الذي خُطفَ في بوساداس؟».

«طبعاً. ولكن لماذا بحق الأرض يخطفون فورتنوم؟ ليس هناك أي شيء سياسي بشأنه».

«إنه قنصل».

«مجرد قنصل فخري». حتى رئيس قسم البوليس بدا غير قادر على فهم هذا التمييز.

وخاطب الكولونيل بيريز كلارا: «سوف نُعلِمكِ، سينيورة، حالما تصلنا أية أخبار».

ووضعَ يده على مرفق الطبيب «هناك شيء أريد أن أسألك حوله يادكتور»، وقاد الكولونيل الطبيب بلار عبر الفيراندا، حيث الطاولة الصغيرة بما عليها من كؤوس «الونغ جون» أكدت على الغياب الملحوظ لتشارلي فورتنوم (كان حتماً سيعزمهما لشرب «نقطة» قبل أن يغادرا)، ومشيا عميقاً داخل ظلال أشجار الأفوكاتو. التقط إحدى الثمار التي سقطت، وتفحَّص مدى نضجها بعينِ خبيرٍ ثم وضعها في خلفية سيارة البوليس، عاملها بحرصٍ منتقياً زاويةً لاتضربها الشمس. قال: «جميلة. أحبُّ أن آكلها مسحوقةً في قليلٍ من الويسكي».

سأل الدكتور بلار: «ماالذي تريده؟».

«ثمة أمر واحد يقلقني قليلاً».

«لاأظنك تعتقد حقاً أن فورتنوم قد خُطف؟».

«هذا أحد الإحتمالات. بل لقد خطر لي أنه قد يكون ضحية خطأ سخيف. لقد كان بصحبة السفير الأميركي، كما تعلم، في منطقة الآثار. والواضح أن الإحتمال الأرجح أن السفير الأميركي هو المُستهدف. فإذا كان الأمر كذلك فلا بدّ أن الرجال غرباء ـ لعلهم من باراغواي. أنت وأنا لانقترف مثل هذا الخطأ يادكتور. أنا أتجاوز وأقول «أنت» فقط لأنك أصبحت واحداً منّا تقريباً. طبعاً هناك دائماً إمكانية أن تكون لك علاقة غير مباشرة».

«إنني لستُ تماماً من النوع الذي يَخطِف ياكولونيل».

كنتُ أفكر في ماحدث لوالدك في الطرف الآخر للحدود. لقد قلت لي ذات مرة إنه إمّا مات أو في السجن. يمكن القول إنَّ لديك دافعاً. إغفر لي أسلوبي في التفكير بصوت عالٍ يادكتور، لكني دائماً أحتارُ قليلاً فيما يتعلق بالجريمة السياسية. ففي الأجواء السياسية غالباً ماينفذُّ الجريمة Cabellero [1]

---

(١) سيد محترم، جنتلمان.

إنني معتاد أكثر على الجرائم التي ينفّذها مجرمون ـ أو على الأقل رجال عنيفون أو فقراء. بدافع المال أو الشهوة.

وغامرَ الدكتور بإغاظته قائلاً: «أو الـ machismo».

قال بيريز: «أوه، كل شيء هنا «machismo»، وابتسم على ملاحظة الطبيب بطريقة وديّة حتى أن بلار شعر بإطمئنانٍ أكثر هنا الـmachismo هو مرادف آخر للحياة. كلمة ترادف الهواء الذي نتنفسه. حين لايكون هناك machismo يكون الرجل ميتاً. هل ستعود إلى المدينة يادكتور؟».

«لا. مادمت هنا فسوف ألقي نظره على السينيورة فورتنوم. إنها تتوقع طفلاً».

«نعم أخبَرتني»، ووضع رئيس قسم البوليس يده على باب السيارة، ولكن في اللحظة الأخيرة استدار وقال بصوتٍ منخفض وكأنهما يتبادلان ثقة مشتركة «دكتور، لماذا قلتَ لي أنك اتصلت بمكتب القنصلية بالهاتف وإنه لم يردّ عليك أحد؟ لقد وضعتُ رجلاً هناك طوال فترة الصباح لتلقّي أية مخابرة تصل».

«أنت تعرف كيف هي خدمة الهاتف في هذه المدينة».

«حين يكون الهاتفُ معطلاً يسمعُ المرء إشارة مشغول، وليس رنيناً».

«ليس دائماً، ياكولونيل. على أية حال لعلها كانت إشارة مشغول. أنا لم أنصت جيداً».

«وهكذا أتيتَ قاطعاً كل تلك المسافة حتى المخيم».

«على كل حال كان قد حان وقت زيارة السينيورة فورتنوم. لماذا أكذب عليك؟».

«يجب أن أفكّر في كل الإحتمالات يادكتور. من الممكن حتى أن تكون جريمة عاطفية».

ابتسمَ الطبيب: «عاطفية؟ أنا رجل انكليزي».

«نعم، الأمر مُستبعد ـ أعلم ذلك. وفي حال السينيورة فورتنوم... لن يخطر ببال أحد أن رجلاً مثلك بكل ماتحظى به يجد من الضروري... ومع ذلك مرّت عليّ جرائم عاطفية حدثت حتى في ماخور».

«إن تشارلي صديقي».

«أوه، صديق... الإنسان عادةً يخدَعُ صديقه، أليس كذلك، في مثل هذه الحالات؟». ووضع الكولونيل يداً على كتف الطبيب. «يجب أن تسامحني. إنني أعرفك حق المعرفة يادكتور، ولايمكن أن أسمحَ لنفسي بالشكّ ولو قليلاً حين تنتابني الحيرة، كما أنا الآن. لقد سمعتُ أن صلاتك بالسينيورة فورتنوم حميمة جداً. ولكن سيان ـ أنا أوافق ـ ولم أكن لأظن أنهم بحاجةٍ للتخلص من زوجها. ومع ذلك لاأزال أتساءل لماذا كذبْتَ عليّ».

ارتقى سيارته. وصرّ قراب مسدسه حين جلس بارتياح في مقعده. ومال إلى الخلف ليتأكد من أنّ ثمرة الأفوكاتو في مكانها الذي من الممكن أن تقفز منه وتُرَضّ.

قال الكتور بلار: «لم أكن أفكّر، ياكولونيل، وأنا أتكلم، هذا كل شيء. إنّ الكذب على البوليس يكاد يكون ردّ فعلٍ آلي. وأنا لم أكن أدرك أنك تعرف كل ذاك القدر عني».

قال الكولونيل بيريز: «هذه مدينةٌ صغيرة، ومن الأسلم دائماً أن تتزود بمعلومات عامة عندما تضاجع امرأة متزوجة».

راقب الدكتور بلار سيارة البوليس وهي تغيبُ عن بصره ومن ثم عاد كارهاً الى المنزل. وفكّر قائلاً، إنّ السّرية هي جزء من جاذبية العلاقة الجنسية. وللعلاقة الصريحة دائماً لمسة من سخف.

كانت كلارا جالسة بالضبط حيث تركها. وفكّر: هذه أول مرة ننفرد بها معاً دون إحساسٍ بالعجلة، وليس لديها موعد تلتزم به في القنصلية، ولاخوف من عودة تشارلي من المزرعة دون سابق إنذار. سألتْ: «أتظن أنه مات».

«لا».

«لعله من الأفضل للجميع لو أنه مات».

«ليس لتشارلي».

قالت: «نعم. حتى لتشارلي. إنه شديد الخوف من الشيخوخة».

«ومع ذلك لاأظن أنه يتمنى الموت بعد».

«الطفل كان يرفس هذا الصباح».

«صحيح؟».

«أتريد أن نذهب الى غرفة النوم؟».

«طبعاً» وانتظرها لتنهض وتسبقه.

إنهما لم يتبادلا القُبل قط (وذلك جزء من السلوك في الماخور)، وتبعها مع إثارة متجدِّدة ببطء. في علاقة الحب الحقيقية يهتم الرجل بالمرأة لأنها شخص مختلف عنه، ثم شيئاً فشيئاً تُطابق نفسها معه، تحفظُ عاداته، وأفكاره، حتى طريقة صياغة كلامه، تصبح جزءاً منه، وبعد ذلك ماذا يبقى من الاهتمام؟ إنَّ الإنسان لايستطيع أن يعشق ذاته، لايستطيع أن يعيش طويلاً ملازماً لذاته ـ كل إنسان يحتاج إلى شخصٍ غريب في السرير، والعاهرة تبقى دائماً غريبة. جسمها يخربش عليه رجال كثيرون جداً بحيث لاتستطيع أبداً أن تميِّز عليه توقيعك.

بعد أن هدءا وأراحت رأسها على كتفه بنفس الوضعية التي تحدث في علاقة الحب الهادئة، قالت جملةً أخطأ ففهِمَها على أنها مثل جملةٍ طالما سمعها «إدواردو، هل صحيح؟ أحقاً ...».

قال بحزمٍ: «لا».

ظنَّ أنها تطلب الجواب نفسه على سؤالٍ مبتذلٍ طالما انتزعته منه أمه بعد أن افترقا عن والده، الجواب الذي كانت كلٌّ من خليلاته تلحُّ على طرحه دائماً في وقتٍ من الأوقات «أحقاً تحبني، ياإدواردو؟» وإحدى مزايا الماخور هي أن كلمة حب نادراً ماتُستعمل. وكرّر «لا».

سألتْ: «كيف تستطيع أن تتأكد؟ قبل قليل بدا أنك متيقّن من أنه حي، لكن حتى رجل البوليس ذاك يظن أنه مات».

أدرك الدكتور بلار أنه كان مخطئاً وفي غمرةِ ارتياحه قبّلها في مكانٍ قريبٍ من الفم.

أتته الأخبار عبر الراديو من محطة بثٍ محليّةٍ وهما يتناولان طعام الإفطار. كانت الوجبة الأولى التي يتناولانها معاً، وكان كلاهما مضطرباً. تناول الطعام وهما جالسان جنباً الى جنب كان الى الدكتور بلار أشدُّ حميمية من ممارسة الجنس. وكانت الخادم تظهر وتختفي بعد تقديم الأصناف داخل الأرجاء الشاسعة المشوشة للمنزل الوشيك السقوط، أرجاء لم يلجها قط، في أول الأمر قدّمت لهما عجة، ثم قطعة لحمٍ مشوي ممتازة (كانت أفضل بكثير من الغولاش الذي يُقدم في النادي الإيطالي أو من لحم البقر القاسي الذي يُقدّم في فندق الناسيونال). كانت هناك زجاجة من نبيذ تشارلي فورتنوم التشيلي الذي كثافته أعلى من كثافة النبيذ التعاوني من ميندوزا. من الغرابة بمكان أن يتناول الطعام بمراسيم رسمية متقنة مع إحدى فتيات السينيورة سانشيز، فذلك يفتح مجالاً واسعاً غير متوقع لنوع آخر مختلف تماماً من الحياة، حياةٌ بيتيةٌ غريبةٌ على كلٍ منهما، وكأنّه استقلَّ قارباً في أحد روافدِ نهر البارانا الصغيرة وفجأة وجد نفسه في دلتا عظيمة كدلتا نهر الأمازون. حيث يضيع كلُّ حسٍ بالإتجاه. وأحسَّ بحنانٍ غير معهود نحو كلارا التي جعلت من تلك الرحلة البحرية أمراً ممكناً. كانا ينتقيان كلماتهما بحذرٍ، وكانت تلك هي المرة الأولى التي تتواجد فيها كلمات يتقونها، لقد أصبح بينهما موضوع للمحادثة ـ هو اختفاء تشارلي فورتنوم.

بدأ الدكتور بلار يتحدث عنه وكأنه قد مات فعلاً ـ بدا ذلك آأمن، وإلاّ لبدأت تتساءل عن مصدر أمله. فقط عندما تكلّمت كلارا عن المستقبل غيَّر هو منحاه ليتهرب من الخوض في موضوع مريب. وأكّد لها أنه قد يتّضح أن تشارلي مايزال حياً. لقد بدا من الصعب الخوض في هذه الفيافي من الأعماق

والمجاهيل الغامضة الأمازونية الجديدة ـ فهي تؤدي الى فوضى صيغ الأفعال. «من المحتمل تماماً أنه هرب من السيارة، ومن ثم أصيب بالإنهاك وربما حمله التيار مسافة طويلة ... لعلّه رسا بعيداً عن أية قرية ... ؟.

«ولكن ما الذي أوصل سيارته الى النهر؟»، ثم أضافت بنبرة أسف: «كانت تلك سيارته الكاديلاك الجديدة. كان ينوي أن يبيعها في الأسبوع القادم في بوينس ايريس».

«ربما كانت لديه مهمة في بوزاداس. لقد كان رجلاً يمكنه أيضاً ...».

«آه، لا، أعلم أنه لم يكن متوجهاً الى بوزاداس. كان قادماً ليراني. لم يكن يريد أن يذهب الى تلك الآثار. بل لم يكن يريد حتى أن يذهب الى حفلة عشاء الحاكم. كان قلقاً عليّ وعلى طفلي».

«ولماذا؟ لم يكن لديه سبب لذلك. أنت فتاة قوية ياكلارا».

«أحياناً كنتُ أتظاهر بالمرض ليطلبَ منكَ أن تأتي وتراني. تلك الطريقة كانت أسهل عليك».

هتف مسروراً: «يالكِ من بنت حرام صغيرة».

«وأخذ معه أفضل نظارة شمسية لديّ، تلك التي أهديتني إياها. وهاأنا لن أراها بعد الآن. كانت نظارتي المفضّلة. كانت أنيقة جداً. مستوردة من مار ديل بلاتا».

قال: «سأذهب غداً الى محل غروبر وأحضر لك واحدة أخرى».

«كانت الوحيدة لديهم».

«يمكنهم أن يطلبوا واحدة أخرى».

«لقد استعارها مني مرة من قبل وكادَ أن يكسرها».

قال الدكتور بلار: «لابد أنّه بدا بها غريب الشكل».

«إنه لم يأبه قط بمظهره. وكان بصره يسوء جداً بعد أن يشرب»، وتأرجحت صيغ الماضي والمضارع جيئةً وذهاباً كمؤشرِ مقياس الضغط الجوي الذي يتحرك بلا انتظام بين وضعيّ الجو المستقر واللامستقر.

«أكان يحبك ياكلارا؟». هذا السؤال لم يكن يسبب له أي اضطراب. لم يكن تشارلي فورتنوم، كزوجٍ لكلارا، يعني له أكثر من مصدرِ إزعاجٍ بسيطٍ حين يشعر بحاجةٍ ملحةٍ لمضاجعتها، أما تشارلي فورتنوم، الملقى مُخدّراً على صندوقٍ في غرفةٍ خلفيةٍ قذرةٍ، فكان يتّخذُ مظهر المنافس الحقيقي.

«كان دائماً لطيفاً معي».

بعد أن تناول الأفوكادو المثلجة شعر برغبته بها تتجدّد. لم يكن لديه مرضى يعودهم قبل المساء، ويستطيع أن يقضي قيلولته في المخيم دون أن يرهف سمعه ليلتقط صوتَ قرقعة «فخر فورتنوم» وهي تقترب. وبعد ذروة فترة الصباح سيكون في وسعه أن يطيل من أمد متعته لتستغرق فترة بعد الظهر بكاملها. ولم تعد تحاول أبداً، منذ تلك المناسبة في شقته، أن تؤدي ملهاة الانفعال تلك، وكانت لامبالاتها قد بدأت تشكل تحدياً. وأحياناً حين يكون وحده يحلم بمباغتتها بصرخةِ إثارةٍ حقيقية.

سألها: «هل قال تشارلي مرة لماذا تزوجك؟».

«لقد قلتُ لكَ. كانت مسألة تتعلق بمصير نقوده بعد أن يموت. وهاهو قد مات».

«ربما».

«هل ترغب في مزيد من المثلجات؟ يمكنني أن أدعو ماريا. هناك جرس، لكن تشارلي كان دائماً هو الذي يرنّه».

«لماذا؟».

«إنني لستُ معتادةً على الأجراس. كل تلك الأدوات الكهربائية ـ تخيفني».

كان يتسلّى بمراقبتها جالسةً باعتدالٍ عند طرف المائدة كأنّها مضيفة. وفكّر في أمه في الأيام الخوالي في الـ estancia [1] حين أدخلته مربيته ليتناول

---

(١) المزرعة.

حلوى بعد الطعام ـ هي أيضاً قدّمت له الأفوكادو المثلجة. كانت أجمل من كلارا بكثير ـ ولا مجال للمقارنة ـ لكنه تذكّر كلّ المواد المساعدة التي كانت تشتريها لتدعم بها جمالها في تلك الأيام، كانت تصطف بعمق إنشين على طاولة الزينة الطويلة التي تمتد من الجدار الى الجدار. وكان يتساءل أحياناً إنْ كان والده في تلك الأيام أصبح من مرتبة شركة غيرلين أو اليزابث آردن نفسها.

«ماهي صفات تشارلي كعاشق؟».

لم تزعج كلارا نفسها بالإجابة. قالت: «الراديو... يجب أن نستمع. قد تكون هناك أخبار».

«أخبار؟».

«أخبار عن تشارلي طبعاً. بماذا تفكر؟».

«كنت أفكر في فترة بعد الظهر الطويلة التي يمكننا أن نقضيها معاً».

«قد يعود».

وبعد أن رفع حراسة الحذر قال «لن يعود».

«ولماذا أنت واثق جداً من أنه ميت».

«لست واثقاً، ولكن إذا كان حياً سيتوجه الى جهاز هاتف قبل أن يفعل أي شيء آخر. لن يرغب في أن يفاجئك ـ ويفاجىء الطفل».

«ومع ذلك علينا أن نستمع».

بعد أن مرّ أولاً على محطة أسونسيون عثر على محطة محلية. لم يكن فيها أخبار. سمع فقط أغنية حزينة باللغة الغوارانية تصدح عبر الأثير يصحبها عزف على الهارب. قالت: «هل تحب الشمبانيا؟».

«نعم».

«تشارلي يحتفظ ببعض الشمبانيا. حصل عليها ذات مرة بمبادلتها بويسكي «لونغ جون» ـ كان يقول إنها شمبانيا فرنسية حقيقية».

سكتت الموسيقى. وأعلن صوت عن إسم المحطة وموعد نشرة الأخبار، واحتلّ نبأ تشارلي فورتنوم المرتبة الأولى. قنصل انكليزي ـ وأسقط المذيع الصفة المميزة والتي تحط من القَدْر ـ اختُطِف. لم يأتِ ذكر السفير الأميركي. لابد أن ليون قام بإتصالات مباشرة. هذا الحذف أضفى على تشارلي أهمية خاصة. جعله يستحق الخطف. قال المذيع إن السلطات تعتقد أن الخاطفين من باراغواي. ويُعْتَقد أن القنصل قد يكون نُقل عبر النهر، وأن الخاطفين يقدمون مطالبهم من خلال الحكومة الأرجنتينية لكي يضيعوا أثرهم. والواضح أنهم يطلبون إطلاق سراح عشرة سجناء سياسيين موجودين في باراغواي. وأي تحركٌ من البوليس في باراغواي أو الأرجنتين سوف يعرِّض حياة القنصل للخطر. ويجب أن تُعدُّ طائرة لحمل السجناء إلى هافانا أو مكسيكو سيتي... وكانت هناك الشروط المفصّلة المعتادة. هذا الإعلان كان قد وُجِّهَ قبل ساعة فقط عن طريق الهاتف من روزاريو إلى الصحيفة الرسمية Nacion في بوينس ايريس. قال المتحدث إنه لايمكن أن يكون القنصل محجوزاً في العاصمة، لأن سيارته وجدت بالقرب من بوزاداس في مكان يبعد أكثر من ألف كيلومتر.

قالت كلارا: «أنا لاأفهم».

«اصمتي وانصتي» وتابع المعلن شارحاً أن المختطفين قد اختاروا وقتهم بشيءٍ من المهارة، لأن الجنرال ستروسنر كان في تلك اللحظة يقضي عطلته الرسمية في جنوب الأرجنتين. وقد أُبلغَ بنبأ الخطف ونُقل عنه أنه قال: «هذا ليس شأني. أنا هنا لأصطاد السمك»، وقد أمهل المختطفون حكومة باراغواي حتى منتصف ليل يوم الأحد للموافقة على شروطهم وذلك بواسطة إعلان في الراديو. وبعد انتهاء تلك المهلة سوف يضطرون إلى إعدام السجين». .

«ولكن لماذا تشارلي؟».

«لابدَّأن في الأمـر خطأ. لاتبرير آخر. يجب أن لاتقلقي. سـوف يعود إلى المنزل في غضون بضعة أيام. أخبري خادمتك أنكِ لاترغبين برؤية أحد ـ أتوقع أن يأتي الصحفيون الى هنا».

«ألن تبقى؟».

«سأبقى بعض الوقت».

«لاأظنني أريد أن أمارس الحب».

«لا. طبعاً. أنا أفهم».

تمشيـا معاً على الممر الطويل المزيَّن بالرسوم الرياضيـة المعلقـة، وتوقف الدكتور بلار ليُلقي نظرةً ثانية إلى الجدول الضيق المظلل بأشجار الصفصاف الموضوع في تلك الجزيرة الشمالية الصغيرة التي ولد فيها والده. لاجنرال يصحب كولونيلاته ويذهبون للصيد في مثل تلك الجداول. وحمل معه تفكيره في وطن والده المهجور الى غرفة النوم. سألها ألا تحنِّين الى العودة الى توكومان؟».

«قالت: «لا. طبعاً لا. لماذا تسألني هذا؟».

استلقتْ على السرير دون أن تخلع ملابسها. كان داخل الغرفة المكيفة الهواء المغلقة المصاريع بارداً ككهفٍ بحريّ.

«ماذا يعمل والدك؟».

قالت: «يحصد القصب في موسمه، لكنه يتقدم في العمر».

«وفي غير الموسم؟».

«يعيشون على النقود التي أرسلها إليهم. سوف يموتون جوعاً إذا متُّ. أنا لن أموت، هل سأموت؟ وأنا حامل؟».

«لا، طبعاً لا. أليس لكِ أخ أو أخت؟».

«كـان لي أخ، لكنه رحل ـ لاأحـد يعلم الى أين». جلس على طرف السرير ولمستْ يدها يده برهة ثم انسحبت. لعلها كانت تخشى أن يفهم من

حركتها أنها تمثل عليه مهزلة الرقّة وينفر منها. قالت: «لقد رحل في الساعة الرابعة من صباح أحد الأيام ليحصد القصب لكنه لم يعد. لعله مات. وربما رحل فقط».

ذكّره هذا باختفاء والده. هنا يعيشون في قارةٍ، وليس في جزيرة. هنا أرضٌ شاسعةٌ مترامية، تَحدُّها حدودٌ سيئة التوزيع من جبلٍ، ونهرٍ، وغاب ومستنقع، يفقد فيها المرء ذاته ـ كل تلك المنطقة الواقعة بين باناما وتييرا ديل فيوغو. «ألم يراسلكم أخوكِ أبداً؟».

«وكيف يفعل ذلك؟ إنه لم يكن يعرف القراءة ولا الكتابة».

«ولكن أنت تعرفين».

«قليلاً. السينيورة سانشيز علّمتني. كانت تحبُّ أن تكون فتياتها متعلمات. وتشارلي ساعدني أيضاً».

سأل: «ألم تكن لك أخت؟».

«نعم. حبلتْ وهي تعمل في الحقول فخنقتْ الطفل ومن ثم ماتت».

لم يكن قد سألها عن عائلتها من قبل. وليس لديه أي سبب لاستجوابها الآن، اللهم إلا إذا كان ذلك بقصدِ البحثِ لاكتشاف الدافع وراء هاجسه. هل هناك صفة معينة تميِّزها عن بقية الفتيات اللواتي رآهن في منزل السينيورة سانشيز؟ لعله إذا اكتشف طبيعة الإختلاف فسيقتُلُ الهاجس كزوال الصدمة النفسية مع انتهاء التحليل. كان يودُّ لو يخنق هاجسه كما خنقت أختها طفلها. قال: «أنا مُتعب. دعيني أستلقي الى جانبكِ قليلاً. أنا بحاجة الى النوم. ظللتُ يقظاً حتى الساعة الثالثة من هذا الصباح».

«وماذا كنتَ تفعل؟».

قال: «كنتُ أعودُ مريضاً. هل توقظينني حين يبدأ يحلُّ الظلام؟».

كان صوت هدير المكيِّف الآتي من جانب النافذة أشبه بصوتٍ صيفي عادي، وحين بدأ يغفو خيِّلَ اليه أنه سمع جرساً يرنُّ ـ جرسُ سفينةٍ كبيرةٍ

معلّقٍ من حبلٍ على إفريز الفيراندا. وكان شبه واعٍ حين نهضت وغادرته. سمع أصواتاً عن بُعدٍ، صوتُ سيارةٍ توشك أن تنطلق، ثم عادتْ، وتمدَّدت الى جانبه، ونام من جديد. حلم، كما لم يحلم منذ بضع سنين، بالـ estancia في باراغواي. كان مستلقياً في سرير طفولته الجداريّ أعلى سلمٍ خشبي، يُنصِتُ إلى قرقعةِ مفاتيحٍ تُدار ورتاجات تُدفع ـ كان والده يضمن أمان المنزل، لكنه كان خائفاً طوال الوقت. لعلَّ شخصاً حُبِس في الداخل وكان يجب أن يُمنع من الدخول.

فتح الطبيب عينيه. أصبح الحرف المرتفع للسرير الجداريّ هو جسد كلارا الملتصق بجسده. كان ظلاماً. لم يستطع رؤية شيء. مدَّ يده ولمسها وشعر بالطفل يتحرك. حرّك أصابعه لتلمس وجهها. كانت عيناها مفتوحتين. قال: «أنت مستيقظة؟» لكنها لم تُجبْ. سألها: «أبكِ شيء؟».

قالت: «لاأريد لتشارلي أن يعود، ولكن لاأريد له أن يموت أيضاً».

دُهِشَ لهذه الطريقة في التعبير عن المشاعر. لم تكن قد أبدت مثيلاً لها من قبل، فحين جلست تنصتُ إلى كلام الكولونيل بيريز، وحين جلست تحدثه بعد ذهاب بيريز، كان حديثها يدور حول الكاديلاك، والنظارة الشمسية الضائعة من محل غروبر.

قالت: «كان طيباً معي. إنه رجل رقيق. لاأريده أن يتعرَّض للأذى. أريده فقط أن يكون هنا».

بدأ يهدِّئ من روعها بيده كما لو أنه يهدِّئ من روع كلب. وبرفقٍ، ودون قصد، تقاربا. لم تكن شهوته قوية، وعندما أخذت تتأوه وتشد، لم يشعر بحس الإنتصار.

وتساءل في حزن، لماذا أردتُ لكل هذا أن يحدث؟ لماذا ظننتُ أني سأحرز انتصاراً؟ وبدا أنَّ لامعنى لممارسة اللعبة بما أنه الآن بات يعرف التحركات التي عليه أن يقوم بها ليكسب. التحركات هي لامبالاتها،

والرقة، والهدوء، وتزييف الحب. لقد جذبته إليها لامبالاتها، بل حتى عداوتها. قالت: «إبقَ معي هذه الليلة».

«كيف أبقى؟ سوف تعرف خادمتك. لايمكنكِ أن تثقي في كتمانها الأمر عن تشارلي».

«يمكنني أن أترك تشارلي».

«الوقت مبكرٍ جداً للتفكير في هذا. علينا أولاً أن نُنقِذَهُ ـ بطريقةٍ ما».

«نعم، طبعاً، ولكن بعد ذلك ...».

«قبل قليل كنتِ قلقة عليه».

قالت: «ليس عليه، بل على نفسي. حين يكون هنا لاأستطيع أن أتحدث عن أي شيء ـ إلا عن الطفل. إنه يريد أن ينسى وجود السينيورة سانشيز، لذا لاأستطيع أن أرى صديقاتي لأنهنَّ جميعاً يعملن هناك. فما نفعي له؟ إنه لم يعد يرغب بممارسة الحب معي لأنه يخشى أن يؤذي بفعله الطفل. كيف يؤذيه؟ أحياناً أتمنى لو أقول له ـ إنه ليس طفلك على أية حال، فلماذا تنزعج بشأنه؟».

«أنتِ متأكدة من أنه ليس منه؟».

«نعم. متأكدة. ربّما لو علم بعلاقتكَ بي لتركني أرحل».

«مَنْ هذان اللذان دخلا الى المنزل الآن؟».

«صحافيان».

«هل تحدثتِ إليهما؟».

«أرادا أن أوجّه التماساً الى الخاطفين ـ من أجل تشارلي. لم أعرف ماذا أقول. عرفت أحدهما ـ كان يضاجعني أحياناً حين كنت عند السينيورة سانشيز. أعتقد أنه غضب عندما سمع بأمر الطفل. لابدَّ أن الكولونيل بيريز أخبره عن الطفل. وقال إنَّ الطفل يشكّل نبأ. كان دائماً يظن أنني كنت أفضّله على بقية الرجال. لذا أعتقدُ أن الـ machismo فيه قد جُرحت.

هؤلاء الرجال دائماً يصدقونك عندما تتظاهر. إنه يناسب كبرياءهم. لقد أراد أن يبرهن لصديقه، المصورّ، أن هناك علاقةً مميَّزةً بيننا، ولكن لم يكن هناك شيء. لاشيء. وقد غضبتُ وأخذتُ أبكي، ثمَّ صورّاني. وقال: «عظيم. أوكيه. عظيم. هذا ماأردناه. الزوجة وأم المستقبل الحزينة»، قال هذا ثم رحلا.

لم يكن سهلاً تأويلُ سبب دموعها الحقيقي. هل كانت دموعاً لأجل تشارلي، أم دموع الغضب، أم دموعاً على نفسها؟.

قال: «يالكِ من بهيمة مضحكة، ياكلارا».

«أبيَّ خطأ؟».

«ها أنتِ تعودين الآن الى التمثيل، ألا ترين؟».

«ماذا تقصد؟ أنا أمثل؟».

«عندما مارسنا الحب».

قالت: «نعم، طبعاً كنت أمثل. إنني دائماً أفعل مايعجبكَ. دائماً أحاول أن أقول مايعجبكَ. نعم. تماماً كما لو كنت عند سينيورة سانشيز. ولِمَ لا؟ أنتَ أيضاً لديكَ machismo خاصة بك».

كاد يصدقُها. أراد أن يصدقُها. ولو كانت تقول الحقيقة لبقيَ شيءٌ ليكتشفه، إنَّ اللعبة لم تنتهِ بعد.

سألتْ: «الى أين أنت ذاهب؟».

«لقد ضيَّعت الكثير من الوقت هنا ياكلارا. لابد أن يكون هناك مايمكنني أن أفعله لأجل تشارلي».

«وأنا؟ ماذا سأفعل؟».

قال: «أفضلُ لكِ أن تأخذي حماماً، وإلا اشتمَّتْ خادمتك رائحة الجنس».

الفصل الثاني

قاد الدكتور بلار سيارته عائداً إلى المدينة. قال لنفسه إنه من الضروري عمل شيءٍ بشأن تشارلي فورتنوم وفوراً، ولكن لم تكن لديه أية فكرة عمّا يجب أن يفعل. ربما لو ركن الى الهدوء فإنَّ كلَّ شيءٍ قد يعود الى نظامه المعتاد - سوف يمارس السفيران البريطاني والأميركي الضغط الدبلوماسي اللازم، وسوف يُعثر على تشارلي فورتنوم ذات صباح باكر في إحدى الكنائس ويذهب الى بيته - بيت؟ - وسوف تُمنح الحرية لعشرةٍ من السجناء السياسيين الموجودين في باراغواي - بل من الممكن أيضاً حتى أن يكون أبوه بينهم. ماذا في وسعه أن يفعل غير أن يترك الأمور لتسير في مجراها؟ لقد كذب لتوه على الكولونيل بيريز، وتورط.

طبعاً يمكنه أن يتوجه بالتماسٍ عاطفي، ليُرضي ضميره، إلى ليون ريفاس ليُخلي سبيلَ تشارلي فورتنوم - باسم صداقتنا القديمة. لكنَّ ليون كان خاضعاً للأوامر وعلى أية حال لم يكن الدكتور بلار يعرف مكانه. في borrio الفقراء كل الدروب المستنقعية تتشابه، وأشجار الأفوكادو نفسها موجودة في كل مكان، وثمة أكواخ الطين أو التنك نفسها والأطفال ذوو البطون المنتفخة أنفسهم يحملون تنكات البترول المملوءة ماءً، ينظرون اليه بعيونهم الخاوية المُصابة بالتراخوما ولا يجيبون عن أي سؤال. وقد يستغرق منه العثور على الكوخ المَخفي فيه تشارلي فورتنوم ساعات، وربما أيام، وفي كل الأحوال ماذا سينفع إلتماسه؟ وحاول دون نجاح أن يؤكد لنفسه أنَّ ليون ليس من النوع الذي يرتكب جريمة قتل ولا أكوينو، وإنما هما مجرَّد أداتين - بقي هناك إل تيغره، كائناً من يكون.

سمع بإل تيغره لأول مرة ذات مساء حين مرَّ بليون وأكوينو وهما جالسان جنباً الى جنب في غرفة انتظار عيادته. كانا مجرد غريبين موجودين بين مرضى آخرين ولم يُلقِ عليهما نظرة ثانية. فكلٌّ من كان ينتظر هناك كان أمره من اختصاص سكرتيرته.

كانت سكرتيرته شابة جميلة تدعى آنا، كفيئةً بشكل يثبط الهمَّة وابنةَ موظف رسميّ ذي نفوذ في دائرة الصحة العامة. وكان الدكتور بلار يتساءل أحياناً لماذا لم يشعر قط بالرغبة بممارسة الجنس معها. لعلَّه تردَّد بسبب زيها الرسمي الأبيض المنشّى الذي اختارته طوعاً ـ وكان يطقطقُ ويصرُّ كلما لمسها أحد: لعلها كانت موصولة بمنبِّه ضد اللصوص. أو لعلَّ ماأثناه عن فعل ذلك هو أهمية مركز أبيها، أو مايبدو عليها من تقوى، حقيقية كانت أم ظاهرية. كانت دائماً تحيط عنقها بصليب ذهبي صغير، وذات مرة، حين كان يقود سيارته في الساحة العامة بالقرب من الكاتدرائية، رآها تظهر خارجة مع أفراد عائلتها من قداس يوم الأحد وتحمل كتاب قداس مغلّف بالجلد الأبيض ـ ربما كان هدية تلقّتها من اجتماع العشاء الرباني الأول، لأنه يشبه كثيراً الملبَّس الذي يوزَّع في مثل تلك المناسبات.

مساء اليوم الذي جاء فيه ليون وأكوينو لرؤيته عالج كل المرضى الآخرين قبل أن يحين دور الغريبين. لم يتذكرهما لأنه كانت هناك دائماً وجوهٌ جديدةٌ ليوليها انتباهه. فكلمتا الصبر والمرضى[1] كلمتان متلازمتان. دخلت عليه سكرتيرته وهي تطقطق بثوبها ووقفت الى جانبه ووضعتْ ورقةً صغيرةً على مكتبه. قالت: «يريدان معاً أن يقابلاك».

أعاد الى الرف كتاباً طبياً كان يستشيره أمام أحد المرضى ـ فلسبب ما كان المرضى يكتسبون الثقة حين يرون صورة ملونة، وهذه سمة في النفس البشرية

---

(١) في اللغة الإنكليزية كلمة Patiens (مرضى، صابرون) مشتقة من Patience وتعني الصبر. والصلة وثيقة بين الإنتظار والصبر.

يعرفها الناشرون الأميركيون حق المعرفة. وعندما التفتَ الى الخلف رأى الغريبين يقفان جنباً الى جنب أمام مكتبه. الأضأل بينهما، ذو الأذنين الناتئتين، قال: «أنت إدواردو حتماً؟».

هتف بلار: «ليون، أنت ليون، ليون ريفاس؟» وتعانقا بشيءٍ من الخجل. سأله بلار: «كم سنة مرت ... ؟ لم أسمع أخبارك منذ أن أرسلت لي بطاقة لحضور رَسَامتك كاهناً. آسف لأنني لم أستطع حضور المراسيم ـ لو فعلت لكان وجودي غير آمن».

«كل ذلك انتهى على كل حال».

«لماذا؟ هل طردوك؟».

«أولاً تزوجت. وهذا لم يعجب رئيس الأساقفة».

وتردد الدكتور بلار.

قال ليون ريفاس: «إنني محظوظ جداً. إنها امرأة رائعة».

«تهانيَّ. مَنْ قَبِلَ في باراغواي أن يحتفل بزواجك؟».

«نحن تبادلنا التعاهد بأنفسنا. أنت تعلم أنَّ القسَّ في مراسم الزواج ليس أكثر من شاهد. وفي الحالة الطارئة ... حالتنا كانت طارئة».

«نسيتُ أن الأمورَ كانت سهلة جداً».

«أوه، أؤكد لك أنها لم تكن بتلك السهولة. إنها تحتاج الى الكثير من التفكير. هذا النوع من إجراء الزواج يُشعركَ بأنه رباطٌ أبديٌّ أكثر من ذاك الذي يحدث في الكنيسة. ألم تتعرَّف على زميلي؟».

«لا ... لاأظن ذلك ... لا ... » حاول الدكتور بلار أن يجرِّد الوجه الماثل أمامه من اللحية الخفيفة وطابَقَهُ مع وجهِ طفلٍ من أيام الدراسة ربما كان قد عرفه منذ سنين عديدة في أسونسيون.

«أكوينو».

«أكوينو؟ طبعاً أنت أكوينو» وعناق آخر: كان الأمر أشبه بمراسيم عسكرية، قبلة على الخد ووسام يُمنح إكراماً للماضي المندثر في أرض مخربّة. سأله: «ماذا تعمل الآن؟ كنتَ تنوي أن تصبح كاتباً، أليس كذلك؟ هل أنت كاتب؟».

«لم يبقَ في باراغواي أي كاتب».

قال ليون: «رأينا اسمك على لفافة في محل غروبر».

«هذا ماقاله لي، لكني حسبتكما عميلين للبوليس مِنْ هناك».

«لماذا؟ هل أنت مُراقب؟».

«لاأظن».

«لقد أتينا من هناك».

«هل أنتما متورطان في مشاكل؟».

قال ليون: «أكوينو كان في السجن».

«وأخلوا سبيلك؟».

قال أكوينو: «السلطات لم تَدْعُني بالضبط للخروج».

شرح له ليون: «لقد كنا محظوظين. كانوا ينقلونه من أحد مراكز البوليس إلى آخر، وحدث بعض إطلاق للرصاص، لكنَّ الرجل الوحيد الذي قُتل كان رجل البوليس الذي كنّا ننوي أن نَرشوه. قتله أحد زملائه، خطأً. وكنّا قط أعطيناه فقط نصف المبلغ مقدّماً، وهكذا حصلنا على أكوينو رخيصاً».

«وهل تنويان أن تستقرا هنا؟».

قال ليون: «ليس استقراراً. نحن هنا للقيام بعمل. بعد ذلك سنعود».

«لستما مريضين إذن؟».

«لا، لسنا مريضين».

أدرك الدكتور بلار مخاطر العيش في منطقة حدودية. نهض واقفاً وفتح الباب. كانت سكرتيرته واقفة بالقرب من خزانة الملفات في المكتب الخارجي، تضع بطاقة هنا وأخرى هناك. كان صليبها يتأرجح جيئةً وذهاباً كمبخرة القس أثناء تنقُّلها. فأغلق الباب، قال: «في الحقيقة ياليون، أنا لستُ مهتماً بالسياسة. اهتمامي منصبٌ فقط على الطب. إنني لستُ كأبي».

«لماذا أنتَ هنا وليس في بوينس ايريس؟».

«عملي في بوينس ايريس لم يكن على مايرام».

«حَسِبْنا أنَّك ربَّما تريد أن تعرف ماذا حدث لأبيك».

«وهل تعرفان أنتما؟».

«أعتقد أننا قريباً سنكون في وضعٍ يؤهلنا لاكتشاف ذلك».

قال الدكتور بلار: «ينبغي أن أكتب مذكرة عن حالتكما الصحية. سأكتب أن لديك ضغطاً منخفضاً في الدم ياليون. وشكٌّ بإصابتكَ بالأنيميا ... وأكوينو - فلنقل أنها مرارتك ... سأوصي بتصويرك على الأشعة. أنتما تفهمان ماأفعل، فمن المتوقع أن تُلقي سكرتيرتي نظرة على تشخيصي لكما».

قال ليون: «نعتقد أن والدك مايزال حياً، لذا فمن الطبيعي أن نفكر فيك ...».

سُمِعَ قرع على الباب ثم دخلت السكرتيرة. قالت: «لقد أنهيتُ كل البطاقات. فهل تسمح لي بالمغادرة الآن ... ».

«عاشق ينتظر؟».

قالت: «اليوم السبت» وكأنَّ هذا يجب أن يفسّر كل شيء.

«أعلم هذا».

«أريد أن أذهب للإعتراف».

قال الدكتور بلار: «آه، طبعاً. أنا آسف ياآنا. نسيت. طبعاً يجب أن تذهبي» وأغضبه فقدانه الرغبة فيها، لذا تعمَّد خلق فرصة لإغاظتها، فقال: «صلِّي لأجلي».

تجاهلت وقاحته: «أرجو أن تترك هاتين البطاقتين على مكتبي عندما تنتهي منهما ... وطقطقَ ثوبها وهي خارجة كصوتِ حشرة ليلية».

قال الدكتور بلار: «أشكُّ في أن يستغرق اعترافها وقتاً طويلاً».

قال ليون ريفاس: «الذين ليس لديهم مايعترفون به يستغرقون الوقت الأطول. إنهم يحبون أن يُرضوا القس ويوفروا له عملاً يقوم به. القاتل لايحمل في رأسه إلا فكرة واحدة لذا تراه ينسى كل ماعداها ــ وقد تكون أشياء أسوأ. ويتم التعامل معه بسرعة أكبر».

«مازلت تتكلم ككاهن ياليون. ما الذي دفعكَ إلى الزواج؟».

«تزوجتُ عندما فقدت الإيمان. على الرجل أن يكون بين يديه مايسبغ عليه حمايته».

«لاأتصوركَ تعيش دون إيمانك».

«أنا أقصد فقط إيماني بالكنيسة. أو بما فعلوه بها. أنا أعلم طبعاً أن الأحوال ستصبح أفضل ذات يوم. لكني وُسمتُ كاهناً عندما كان يوحنا هو البابا. ولاطاقة لي على الصبر حتى يأتي يوحناً آخر».

«كنتَ ستصبح abogado [1] قبل أن تغدو كاهناً. ماذا أصبحتَ الآن؟».

قال ليون: «مجرماً».

«أنت تمزح».

«لا. لهذا جئت إليك. إننا بحاجة الى مساعدتك».

سأل الدكتور بلار: «لتسرقوا بنكاً؟» لم يستطع أن يتعامل مع ليون بجديَّة وهو يرى تينك الأذنين الناتئتين وتذكَّر أموراً كثيرة ...

---

(١) محامي.

«بل لنسرق سفارة ـ إن صحَّ التعبير».

«أضاف بترو: «لكني لستُ مجرماً ياليون، إذا استثنينا عملية إجهاض أو اثنتين». قالها ليرى إن كانت عيناه الكهنوتيتان ستجفلان قليلاً، لكنهما بادلتاه التحديق بلا مبالاة.

قال ليون ريفاس: «في مجتمع خاطىءٍ يكون المجرمون رجالاً أشرافاً» خرجت العبارة مغالية في الفصاحة قليلاً. ربما كانت قولاً مأثوراً. وتذكَّر الدكتور بلار كيف أن ليون كان في أول الأمر يدرس في كتب القانون ـ وقد شرح له مرة معنى مفهوم «الضرر» ثم راح يهتم بكل ماكتب في اللاهوت ـ وكان في استطاعة ليون أن يجعل حتى الثالوث المقدس يبدو مقبولاً باستخدام مايشبه الرياضيات العالية. كان يؤمن بوجوب إحداث مقرراتٍ مدرسية أولية أخرى لتُقرأ في الحياة الجديدة. لعله كان يقتطف من ماركس.

قال ليون: «السفير الأميركي الجديد يعدُّ للقيام بزيارة للشمال في شهر تشرين الثاني. وأنت لك اتصالات هنا ياإدواردو، وكل مانحتاجه هو تزويدنا بالتفاصيل الدقيقة لبرنامجه».

«لن أكون شريكاً في جريمة قتل ياليون».

«لن تكون هناك أية جريمة قتل. القتل لن يفيدنا أبداً. أخبره ياأكوينو كيف عاملوك».

قال أكوينو: «كان شيئاً بسيطاً، وليس حديثاً أبداً. لم يستخدموا الكهرباء. إنهم مثل الـConquistadores [1] استعملوا سكيناً...».

أنصت الدكتور بلار مع شعور بالتقزّز. لقد حضر ميتات كثيرة بشعة لكن تأثيرها عليه كان أخف. في تلك الحالات كان هناك شيء يعمله، وسيلة لتقديم يد العون وإنْ بقدرٍ ضئيل. لقد انتابه الإشمئزاز لدى سماعه تلك

---

(١) الكونكويستادور: هم الفاتحون الأسبان لبلاد المكسيك والبيرو في القرن السادس عشر.

الحادثة تُلقى بصيغة الماضي، كما حدث له قبل سنين، عندما كان طالباً يافعاً، فقد اضطربت نفسه لدى تشريح جثة لأغراض تعليمية. فعندما يتعلق الأمر بجسدٍ حي ثمة دائماً الفضول والأمل. وسأل: «ولَمْ تعترف؟».

قال أكوينو: «طبعاً اعترفت. وهم يحتفظون الآن بكل الكلام في الملفات. وقد كان قسم مكافحة العصيان في وكالة الاستخبارات الأميركية سعيداً مُنِّي. كان هناك إثنان من عملائهم، وأعطياني ثلاث علب «لاكي سترايك»، علبة عن كل رجل أفشيت أمره».

قال ليون: «أره يدك يأكوينو».

مدَّ أكوينو يده اليمنى على المكتب كمريض يتوخى النصيحة. ثلاثة من الأصابع كانت مفقودة: بدت اليد بدونها أشبه بشيءٍ أخرجته شبكة لصيد السمك من منطقة في النهر تنشط فيها أسماك الانكليس. وقال أكوينو: «لهذا بدأت بكتابة الشعر. فكتابة الشعر أقل إرهاقاً من النثر بوجود يد يسرى فقط. كان باستطاعتي أن أحفظه غيباً. كان يُسمَحُ لي باستقبال زائرة واحدة كل ثلاثة أشهر (وهذه مكافأة أخرى خصصوها لي) وكنتُ أُلقي عليها الأبيات التي أَلَّفتها».

قال ليون: «كانت أحياناً جيدة بالنسبة لمبتدىء. كنوعٍ من المَطْهَر في شكل villancico[1]».

سأل الدكتور بلار: «كم عددكم هناك؟».

«دزينة منّا عبرت الحدود، هذا خلاف إل تيغره الذي كان في ذلك الحين في الأرجنتين».

«ومن هو إل تيغره؟».

«الشخص الذي يصدر الأوامر. نحن نسميه هكذا، لكنه في الواقع تعبير عن الحب. إنه يحب ارتداء القمصان المخططة[2]».

---

(١) أغنية دينية (عن ميلاد المسيح).

(٢) إل تيغره: تعني بالأسبانية النمر.

«المُخطط يبدو جنونياً ياليون».

«لقد نفذناه من قبل».

«لماذا تخطفون السفير الأميركي الذي هنا بدل ذاك الموجود في أسونسيون؟».

«كان ذلك مخططنا الأول. لكنّ الجنرال اتّخذ احتياطات عظيمة. هنا، وهذا مايجب أن تعرفه بنفسك، خوفهم من رجال العصابات بات أقل منذ الفشل الذي مُنوا به في سالتا».

«ومع ذلك أنت في أرضٍ أجنبية».

«أميركا الجنوبية هي بلدنا ياإدواردو، ليس الباراغواي، ولا الأرجنتين. وأنت تعرف ماذا قال تشي[1]: «وطني هو القارة بأكملها». من أنتَ؟ إنكليزي أم أميركي جنوبي؟».

تذكَّر الدكتور بلار السؤال، لكنه مايزال عاجزاً حتى الآن عن الإجابة عنه وهو يقود سيارته داخل المدينة ماراً بمبنى السجن الغوطي الطراز الأبيض الذي كان دائماً يذكِّره بسُكَّر الزينة على كعكة عرس. وقال في نفسه إن ليون ريفاس كاهن، وليس قاتلاً. وأكوينو؟ أكوينو شاعر. كان من الأسهل أن يعتبر الخطر على تشارلي فورتنوم أقل مما هو لو لم يره ملقى فاقد الوعي على صندوق، صندوق شكله من الغرابة بحيث يصلح تابوتاً..

(١) تشي غيفارا.

الفصل الثالث

أفاق تشارلي فورتنوم وهو يحمل أسوأ رأس يتذكر أنه حمله مرة في حياته. كانت عيناه تؤلمانه وبصره عليه غشاوة. وهمس: «كلارا» وهو يمد يده ليلمس وسطها، ولكن كل ماطالته يده كان جداراً من الطين. ثم تمثَّلت في ذهنه صورة الدكتور بلار منحنياً فوقه خلال الليل وهو يحمل مشعلاً كهربائياً. وكان الدكتور قد أخبره بقصة لاتصدق عن حادثة وقعت له.

ضوء النهار انتشر الآن. وتسرَّب نور الشمس عبر الأرضية من تحت باب الغرفة المجاورة، وعرف حتى بمعيّة عينيه المعطوبتين، أنه ليس في مستشفى. ولا كان الصندوق الذي يستلقي عليه سريراً في مستشفى. دلّى قدميه من الحافة وحاول أن ينهض واقفاً. كان مصاباً بدوار وكاد يقع. وحين تشبثت يده بحافة الصندوق أدرك أنه كان طوال الليل مستلقياً على تابوت. مما جعله يُصاب، حسب صياغته، بصدمة قذرة.

وهتف: «تد؟» لم يعهد من الدكتور بلار حبُّه للنكات السخيفة، ولكن لابدَّ من تفسير، ثم إنه مشتاق للعودة إلى كلارا. ستكون كلارا خائفة، ولن تعرف كيف تتصرف. إنها حتى تخاف استخدام الهاتف. هتف مرة أخرى بنعيقٍ جاف: «تد؟». لم يؤثر به الويسكي هكذا من قبل، ولا حتى البراندي المحلي. من هو الشخص اللعين الذي كان يشاطره الشراب وأين؟ قال لنفسه، عليك أن تلملم نفسك ياميسون. كان دائماً يعزو أخطاءه الجسيمة وأشد مشروعاته فشلاً الى ميسون. في طفولته و حين كان مايزال يقوم باعترافاته كان ميسون هو الذي يركع في الحجيرة ويتمتم بعبارات مجرَّدة حول آثامه في حق النقاء، على الرغم من أن تشارلي فورتنوم هو الذي كان يغادر الحجيرة، وقد شعَّ وجهه بالنعمة بعد أن ينال ميسون الغفران. والآن هاهو يهمس: «ميسون، ميسون، أيها الوحش اللعين الحقير، ميسون، أين

كنت حتى الليلة الماضية؟». كان يعلم أنه حين يتجاوز المعيار اللائق يبدأ بنسيان الأشياء، لكنه لم ينسَ قط من قبل الى هذا الحد ... تقدم بخطوة متعثرة نحو الباب ونادى للمرة الثالثة الدكتور بلار.

فُتحَ الباب بقوة وإذا برجلٍ غريب يقف أمامه ويلوِّح بمدفعٍ رشاش في وجهه. كانت له عينان ضيقتان وشعرٌ كهرماني أسود جدير بهندي وصرخ في وجه فورتنوم باللغة الغوارانية. وفورتنوم لم يتعلم أكثر من بضع كلمات بالغوارانية، على الرغم من إلحاح والده الغاضب، إلا أنه كان واضحاً أن الرجل يأمره بالعودة الى ماسمَّاه سريراً. قال فورتنوم: «حسن، حسن» متكلماً بالإنكليزية بحيث لايفهم منه الرجل إلا بقدر مافهم هو من الغوارانية «طولّ بالك، ياصاحِ» ثم جلس على التابوت وقال: «فارِقْنا»، مع شعور بالإرتياح.

ثم جاء غريب آخر يرتدي بلو جينز، عاري حتى الخصر، وأمر الهندي بالذهاب. كان يمسك بفنجان قهوة. وعبقت رائحة القهوة البيتية، وشاع بعض الإرتياح في نفس تشارلي فورتنوم. كانت أذنا الرجل ناتئتين وتذكر تشارلي برهة من الزمن صبياً في المدرسة كان ميسون يزعجه دون رحمة، على الرغم من أن فورتنوم ندم فيما بعد واقتسم قالباً من الشوكولاة مع الضحية. وزوَّدته الذكرى بثقة أكبر. فسأله: «أين أنا؟».

أجاب الرجل: «لاداعي للقلق» ومدَّ يده ليناوله القهوة.

«يجب أن أذهب الى البيت. سوف تقلق زوجتي».

«غداً. آمل آن تستطيع الذهاب غداً»

«مَنْ كان ذاك الرجل حامل البندقية؟».

«ميغيل. إنه رجل طيب. اشرب قهوتك أرجوك. بعدها ستشعر أنك أفضل».

سأل تشارلي فورتنوم: «ماسمكَ؟».

قال الرجل: «ليون».

«أقصد كنيتك».

قال الرجل: «لاأحد هنا يستخدم كنيته، لذا فنحن بلا أسماء».

قلّب تشارلي فورتنوم هذا التصريح في ذهنه كأنه عبارة صعبة في كتاب، وبعد أن قلّبها مرة أخرى ظلّت بالنسبة اليه بلا معنى.

قال: «الدكتور بلار كان هنا مساء أمس».

«بلار؟ بلار؟ لاأعتقد أني أعرف أحداً يدعى بلار».

«لقد أخبرني بأنّ حادثةً وقعت لي».

قال الرجل: «أنا هو الرجل الذي أخبرك بهذا».

«لم يكن أنت. لقد رأيته. كان يحمل مشعلاً كهربائياً».

«كنتَ تحلم. لقد أصبتَ بصدمةٍ... وسيارتك تحطمت تماماً. أرجوك اشرب قهوتك. ربما تتذكر الأشياء بصورة أفضل بعدها».

أطاع تشارلي فورتنوم. كانت قهوة قوية جداً، وبدأ رأسه يصفو حقاً كما قال. سأله: «أين السفير؟».

«لاعلم لي بوجود أيّ سفير».

«لقد تركته بين الأطلال. أردت أن أرى زوجتي قبل تناول العشاء. أردت أن أطمئن على صحتها. لاأحب أن أتركها مدة طويلة. إنها حُبلى».

«صحيح؟ لابد أنكَ في منتهى السعادة. شيء رائع أن يكون المرء والداً لطفل».

«الآن تذكرت. كانت هناك سيارة اعترضت الطريق. اضطررتُ للتوقف. لم تقع حادثة. أنا متأكد من أنه لم تقع أية حادثة. ثم لماذا البندقية؟» اهتزّت يده قليلاً وهو يشرب قهوته. قال: «أريد أن أذهب الى بيتي الآن».

قال الرجل: «إنه أبعد من أن تصله مشياً. لستَ مُهيّأً لذلك بعد. والطريق ـ أنت لاتعرف الطريق».

«سأجد وسيلةً. يمكنني أن أستوقف سيارة».

«الأفضل أن تستريح اليوم. بعد تلك الصدمة. ربما غداً نجد لك وسيلة للنقل. أما اليوم فمستحيل».

رمى فورتنوم ماتبقى من قهوته في وجه الرجل واندفع الى الغرفة الخارجية. ثم توقف، كان الهنديُّ يقف على بعد إثنى عشر قدماً أمام الباب الخارجي، وهو يوجِّه فوهة بندقيته الى بطن تشارلي فورتنوم، وعيناه السوداوان تبرقان من المتعة، وهو يحرك البندقية تارةً الى هذه الجهة قليلاً، وطوراً الى تلك، وكأنه يُحدِّدُ هدفه بدقة بين السرة والزائدة الدودية. وقال شيئاً بالغوارانية أضحكه.

أتى الرجل المدعو ليون من الغرفة الداخلية. قال: «أرأيت، لقد أخبرتكَ. لاتستطيع الذهاب اليوم». كان أحد خديه متورداً من أثر القهوة الساخنة. لكنه تكلم برفق، ودون غضب. كان يتحلّى بصبرِ شخصٍ أكثر اعتياداً على تحمُّل الألم من تسبيبه. قال: «لابد أنك جائع، سينيور فورتنوم. ربما ترغب ببعض البيض... ».

«أتعرف من أنا؟».

«نعم، نعم، طبعاً. أنت القنصل البريطاني».

«ماذا تنوي أن تفعل بي؟».

«ستضطر للبقاء معنا لفترة من الوقت. صدقني، لسنا أعداء لك، سينيور فورتنوم. ستكون عوناً لنا في إنقاذ رجال أبرياء من السجن والتعذيب. في هذه الأثناء سيتّصل معلّمنا في روزاريو هاتفياً بصحيفة ناسيون ويخبرهم بأنك تحت رعايتنا».

بدأ تشارلي فورتنوم يفهم «إذن قبضتم على الرجل الخطأ؟ كنتم بصدد الحصول على السفير الأميركي؟».

«نعم، كانت غلطةً مشؤومة».

«غلطة فادحة جداً. لن يهتم أحد بتشارلي فورتنوم. فماذا ستفعلون عندئذ؟». .

قال الرجل: «أنا متأكد من أنكَ على خطأ. وسترى. سيتم تنفيذ كل شيء. السفير البريطاني سيتحدث الى رئيس الجمهورية. والرئيس سيتحدث الى الجنرال. إنه هنا في الأرجنتين يقضي إجازته. وسيتدخل السفير الأميركي أيضاً. إننا لانطلب غير إطلاق سراح بضعة رجال. كل شيء كان سيتم بسهولة بالغة لو لم يرتكب أحد رجالنا خطأ».

«يبدو أن المعلومات التي وصلتك لم تكن دقيقة؟ إنَّ السفير الأميركي يصحب معه دائماً ضابطين من البوليس. بالإضافة الى سكرتيرته. لهذا لم يبق لي متسع في سيارته».

«كان في إمكاننا أن نتولى أمرهم».

قال تشارلي فورتنوم: «حسن. قدِّم لي بيضك. ولكن قل لذاك الرجل ميغيل أن يبعد بندقيته. إنها تفسد شهيتي».

ركع الرجل المدعو ليون أمام موقد كحولي صغير على الأرض الترابية وانشغل بأعواد الثقاب، والمقلاة، وقليل من شحم الخنزير.

«سأستطيع بلعه مع قليل من الويسكي إذا كان لديك».

«آسف. لانحتفظ بمشروبات كحولية».

بدأ الشحم يبقبق في المقلاة.

«قلتَ لي أن إسمك ليون، هه؟».

«نعم». ضرب الرجل البيضتين واحدة بعد أخرى على حافة المقلاة. وحين كان يحمل نصفيّ القشرة فوق المقلاة كان في وضعية الأصابع شيء ذكَّر فورتنوم بتلك الوقفة على مذبح الكنيسة حين يكسر الكاهن خبز القربان المقدس فوق كأس القربان.

«ماذا ستفعلون إذا رفضوا؟».

قال الرجل الراكع : «أدعُ الله أن يقبلوا . أنا متأكد من أنهم سيقبلون» .

قال تشارلي فورتنوم: «إذن أتمنى من الله أن يسمع دعاك . لاتقلِ البيض كثيراً» .

لم يسمع تشارلي فورتنوم أخباراً رسمية عنه إلا في فترة بعد الظهر . فعند الظهيرة فتح المدعو ليون راديو صغير ، لكن البطارية انتهت أثناء عزف موسيقى غوارانية ولم يكن لديه غيرها . فذهب الشاب الملتحي الذي أطلق عليه ليون اسم أكوينو الى البلدة ليشتري بطاريات أخرى . وغاب طويلاً . وعادت امرأة من السوق بالطعام وأعدّت لهم غداءهم ، وهو عبارة عن حساء خضار مع بعض القطع الصغيرة من اللحم . وقد قامت بحركات كثيرة وهي تنظف الكوخ ، فكانت ترفع الغبار من مكان لتضعه في آخر . وكان لها شعر كثيف مشوَّش وثؤلولٌ على وجهها وكانت تعامل ليون بمزيج من التملُّك والخنوع . وناداها بإسم مارتا .

ذات مرة قال تشارلي فورتنوم بإرتباك بسبب حضور المرأة ، إنه يريد أن يذهب إلى المرحاض . أعطى ليون أمراً للهندي فقاده الى كابين في الفناء يقع خلف الكوخ . وكان الباب قد فقدَ أحد مفصلاته ولم ينغلق ، وفي الداخل لم يكن هناك إلا حفرة عميقة في الأرض لايوجد فوقها إلا لوحان من الخشب . حين خرج كان الغواريني يجلس على بعد بضعة أقدام يعبث ببندقيته ، ويسدد الى شجرة ، فعصفور طائر عابر ، فكلب هجين ضال . ورأى تشارلي فورتنوم من خلال الأشجار كوخاً آخر ، أشد رثاثة من الذي كان عائداً إليه . وفكَّر في أن يركض اليه طالباً النجدة ، لكنه كان واثقاً من أن الهندي سوف يرحب بالفكرة ليجرِّب بندقيته . عندما عاد قال لليون : «إذا أحضرت لي زجاجتين من الويسكي فسوف أدفع لك ثمنهما» . ولاحظ أنه لاأحد سرق محفظته ، وأخرج الأوراق المالية اللازمة .

أعطى ليون النقود لمارتا، وقال: «يجب أن تكون صبوراً، سينيور فورتنوم. أكوينو لم يعد. لايستطيع أحد الذهاب حتى يعود والمسير الى البلدة طويل جداً».

«سوف أدفع أجرة التاكسي».

«أخشى أن هذا غير ممكن. إنه لاتوجد سيارات تاكسي هنا».

عاد الهندي يجلس القرفصاء بجانب الباب. وقال تشارلي فورتنوم: «أشعر بالنوم يغالبني قليلاً. الجرعة التي أعطيتني إياها كانت قوية جداً»، وعاد مرة أخرى الى الغرفة الداخلية وتمدد على التابوت. وحاول أن ينام، لكن أفكاره لم تدعه. راح يتساءل كيف تتصرف كلارا في غيابه. فهو لم يتركها قط وحدها من قبل ليلة كاملة. لم يكن يعرف الكثير عن الولادة، لكن لديه فكرة أن الصدمة أو القلق يمكن أن يؤثرا على الجنين. بل لقد حاول أن يخفف من شربه الخمر بعد زواجه من كلارا ـ ماعدا الويسكي والشمبانيا اللذين شربهما في ليلة زواجه الأولى حين مارس الحب بشكل جيد للمرة الأولى، دون إعاقة، في فندق إيتاليا في روزاريو ـ وكان فندقاً عتيق الطراز تفوح منه رائحة غبار لم يقم أحدٌ بإزعاجه وكأنه مكتبة عتيقة.

ذهبا الى هناك لأنه ظنَّ أنها ستخاف قليلاً من فندق ريفييرا الذي كان جديداً، وغالياً ومكيَّف الهواء. وكان عليه أن يجمع بعض الأوراق في القنصلية في سانتا فه ٩٣٩ (تذكَّر الرقم لأنه يمثل شهر وسنة زواجه الأول)، والأوراق تبيِّن، إذا ماقامت التحريات، أنه لامانع من عقد زواجه الثاني ـ وقد استغرق الحصول على نسخة من شهادة وفاة ايفلين من بلدة صغيرة في ايداهو أسابيع عديدة. وكان في مقدوره في الوقت نفسه أن يترك وصيته في ظرفٍ مختوم في خزانة القنصلية. كان القنصل رجلاً متوسط العمر لطيفاً، وقد تفاهما هو وتشارلي على الفور حين طُرح موضوع الخيول لسبب ما. وقد عزمهما بدوره بعد إتمام المراسم المدنية والدينية، وفتح زجاجة شمبانيا من

الصنف الفرنسي الأصيل. ومراسم شرب الأنخاب تلك التي جرت بين صناديق الملفات كانت تشبه بشكلٍ مُحبَّب جداً الاستقبالَ الذي جرى له في ايداهو بعد زواجه الأول. تذكَّر برعبٍ الكعكة البيضاء وأقرباءه من الأصهار الذين كانوا يرتدون البذلات السوداء، بل ويضعون ياقات قاسية، مع أنه كان زواجاً مدنياً غير مقبول في الأرجنتين. وقد تصرَّفا بتعقُّل فلم يتحدثا في الأمر لدى عودتهما. وكانت زوجته قد رفضت عقد زواج كاثوليكي ـ فقد كان ذلك يتعارض مع مايمليه عليها ضميرها بما أنها تؤمن بالمسيحية العلمانية. وطبعاً شكَّل الزواج المدني تهديداً لميراثها ـ الى جانب أنه كان بمثابة الوصمة. لقد رغب رغبة قوية في أن يرتب الأمور بطريقة أكثر أمناً لكلارا، في أن يتأكد من أنه لاوجود لأي شرخ في جدران هذا الزواج الثاني. وكان يعمل على أن يضمن لها، بعد موته، أماناً منيعاً.

بعد فترة قصيرة استغرق في نوم عميق خالٍ من الأحلام، ولم يستيقظ إلا عندما بدأ صوت راديو موجود في الغرفة المجاورة يردِّد اسمه ـ سينيور كارلوس فورتنوم. إنَّ البوليس ـ كما قال المُعلن ـ يعتقد أنه يمكن أن يكون قد أحضِرَ الى روزاريو لأنه تمَّ اقتفاء أثر المكالمة الهاتفية التي وردت الى صحيفة ناسيون حتى تلك المدينة، ومدينة تعداد سكانها يفوق النصف مليون نسمة لايمكن تفتيشها بكاملها، والسلطات لم تُمنَح إلا أربعة أيام لتوافق خلالها على شروط الخاطفين. وقد مرَّ يوم من هذه الأيام الأربعة. وفكَّر تشارلي فورتنوم: ستكون كلارا مُنصتة الى الراديو، وشكر ربه لأنَّ تد سيكون موجوداً معها ليطمئنها. سيعرف تد ماذا حدث. وسيذهب تد ليراها. وتد سيفعل شيئاً ليهدِّئ من روعها. وسيقول لها تد، حتى وإن قتلوه، إنها ستكون على مايرام. إنها تنطوي على الكثير من الخوف من الماضي ـ وقد أدرك ذلك لأنها لم تتكلم عنه قط وهذا أحد الأسباب لزواجه منها، ليبرهن على أنها لن تكون مضطرة تحت أي ظرف للعودة الى الأم سانشيز. وراح

يغالي بتوفير السعادة لها، كرجلٍ غليظ أؤتمن على شيء شديد الهشاشة ولايخصه. كان دائماً يخاف من نسيان أمر سعادتها. الآن هناك شخص يتكلم عن فريق الأرجنتين لكرة القدم الذي يقوم بجولة في أوروبا. ونادى: «ليون!».

ومن الباب أطلّ الرأس الصغير ذو الأذنين الوطواتيتين والعينين اليقظتين لخادمٍ مخلص. قال ليون: «لقد تمتَ فترة طويلة، سينيور فورتنوم. هذا حسن».

«لقد سمعتُ مايقوله الراديو ياليون».

«آه، نعم». كان ليون يمسك في إحدى يديه كأساً وثمة زجاجة ويسكي مقحمة تحت كل ذراع. قال: «أحضرت زوجتي زجاجتين من المدينة»، وعرَضَ الويسكي بفخر (من الصنف الأرجنتيني)، وراح يعدُّ بقية النقود بتأنٍ. يجب ألاّ تقلق. سينتهي كل شيء في غضون بضعة أيام».

«تقصد أن أمري سينتهي؟ أعطني ذاك الويسكي»، وصبَّ مقدارَ ثلثِ كأسٍ وجرعه.

«أنا متأكد من أننا سنسمعهم هذا المساء يُعلنون أنهم قبلوا بشروطنا. ولن يحل مساء الغد حتى تكون قد عدتَ الى بيتك».

وصبّ تشارلي فورتنوم جرعة أخرى.

قال المدعو ليون بقلق ودود: «أنت تسرف في الشرب».

«لا. لا. أنا أعرف المعيار المعقول. وهو المعيار المعوّل عليه. مااسمكَ الثاني ياليون؟».

«قلتُ لك لااسم آخرَ لي».

«ولكن لابد أن تكون لكَ كنية، أليس كذلك؟ قل لي، ماذا تفعل في هذا الوسط ياأب ليون؟».

كاد يؤمن بأن الأذنتين اهزّتا، كأذني كلب، لدى سماعهما نبرةَ صوتٍ مألوفة ـ وقد حلّت كلمة «أب» مكان كلمة «نزهة» أو «قطة».

«أنت مخطىء. لقد رأيت زوجتي لتوك. مارتا. وهي التي جلبت لك الويسكي».

«ولكن من كان مرةً كاهناً يظلُّ كاهناً أبداً ياأبتِ. لقد راقبتكَ وأنتَ تكسر تينكِ البيضتين فوق الصحن. كأني أراك واقفاً عند المذبح ياأبتِ».

«أنتَ تتخيَّلُ أشياء، سينيور فورتنوم».

«وأنت، ماذا تتخيَّل؟ كان يمكن أن تعقد صفقةً مربحة جداً مقابل السفير، لكنك لاتستطيع الحصول على أي شيء مقابلي. إنني لاأساوي بيزو بالنسبة لأي كائن بشري ـ ماعدا زوجتي. يبدو غريباً على كاهنٍ أن يغدو قاتلاً، لكني أعتقد أنك ستوكل الأمر الى شخصٍ آخر لينفّذه».

قال الآخر بجدية عظيمة: «لا، ماوصلَ الأمر الى هذا الحد، لاسمح الله، فأنا مَنْ سينفّذه. لاأريد أن أتملَّص من الذنب».

«إذن من الأفضل أن أترك لك بعض الويسكي: ستحتاج الى القليل منه ـ كم يوماً قالوا ـ ثلاثة؟».

تحولّتْ عينا الرجل الآخر الى جهة أخرى. كان الخوف يمسّه. مشى خطوتين بإتجاه الباب كأنه يغادر المذبح ويخشى أن يطأ على ذيل الثوب الكهنوتي المفرط الطول عليه.

قال تشارلي فورتنوم: «لو تبقى لنتحدث قليلاً، أخاف أكثر وأنا وحدي. لاأمانع في أن أصارحك أنت بهذا. فإذا لم يصارحُ المرءُ كاهناً فَمنْ يصارح؟ الآن ذاك الهندي ... إنه يجلس هناك ويحدق إليّ ويبتسم. أراه مشتاقاً للقتل».

«أنت مخطىء، سينيور فورتنوم. ميغيل رجل طيب. إنه لايتكلم الأسبانية، هذا كل مافي الأمر، لذا تراه يبتسم فقط ليبيِّن أنه صديق. حاول أن تعاود النوم».

«لقد تمت كفايتي. أريد أن أحدثك».

قام الرجل بإشارة بيديه، وتخيّله تشارلي فورتنوم في كنيسة يقوم بحركاته الشكلية، «لدي أعمال كثيرة أقوم بها».

«يمكنني دائماً أن أجعلك تبقى هنا لو أردت».

«لا، لا. بل يجب أن أذهب».

«يمكنني أن أبقيك هنا بسهولة. أعرف السبيل الى ذلك».

«سأعود سريعاً. أعدك».

«كل ماسأقوله لأبقيك هو - أبتِ، أرجوك استمع إلى اعترافي».

بقي الرجل ملتصقاً بممر الباب وظهره الى الداخل. وبرزت أذناه الناتئتان كيدين صغيرتين ترتفعان فوق قربان.

«منذ أن أدليت بآخر اعتراف لي ياأبتِ ...».

راح الرجل يتنقل مترنحاً وقال غاضباً: «لايجب أن تمزح في مثل هذه الأمور. لن أستمع إليك إذا كنت تمزح ...».

«لكني لاأمزح ياأبتِ. لستُ في موقف يسمح لي بالمزاح حول أي شيء. لاشك في أنّ كل إنسان لديه الكثير ليعترف به عندما يتعلق الأمر بالموت».

قال الآخر بصوت عنيد: «لقد نُزِعتُ عن صلاحياتي. يجب أن تعرف هذا إذا كنت كاثوليكياً حقاً».

«يبدو لي أني أعرف الأصول أفضل منك ياأبتِ. أنت لستَ بحاجة إلى صلاحيات، ليس في حالة طارئة - إذا لم يتوفر كاهن آخر ... ولايوجد غيرك، هل يوجد؟ ورجالك لن يسمحوا لك بإحضار كاهن الى هنا ...».

«ليست هناك حالة طارئة - ليس بعد».

«في كل الأحوال الوقت ضيق ... فإذا طلبتُ ...».

ذكّره الرجل مرة أخرى بكلبٍ، كلب وبّخَ بسبب خطأ لايدرك بالضبط ماهو ... ويدأ يبرر موقفه: «سينيور فورتنوم أؤكد لك لن تكون هناك حالة طارئة ... لن يكون ضرورياً مطلقاً ... ».

« أنا آسف وسامحني» ـ هذا مايجب أن أقوله، أليس كذلك؟ لقد مرَّ وقتٌ جحيميٌ طويل ... خلال الأربعين سنة الماضية لم أذهب الى الكنيسة إلا مرة واحدة ... منذ زمن طويل عندما تزوجت. ومع ذلك فلعنني الله إنْ كنتُ ذهبت للإعتراف عندئذ. كان ذلك سيستغرق وقتاً طويلاً وماكان في إمكاني أن أدعَ السيدة تنتظر».

«أرجوك سينيور فورتنوم، لاتسخر مني».

«إنني لاأسخر منك أنتَ ياأبتِ. لعلّني أسخر من نفسي قليلاً»، وأضاف: «أستطيع أن أستمر هكذا مادام هناك ويسكي. إنه لأمر مضحك حقاً لو تُمْعن التفكير فيه. «إنني أطلب المغفرة من الله من خلالك ياأبت». هذه هي الصيغة الصحيحة. أليست هي ـ وطوال هذا الوقت ستضع يدَك على زناد البندقية استعداداً للتنفيذ. ألا تعتقد أننا يجب أن نبدأ الآن؟ قبل أن تملأ البندقية. في ذهني أشياء كثيرة».

«لن أنصت إليك»، وقام بإيماءةِ وضْع يديه على أذنيه البارزتين. فتسطحتا ثم قفزتا الى وضعهما ثانية.

قال تشارلي فورتنوم: «أوه، لاتقلق، وانسَ الأمر. لم أكن جاداً تماماً. ماذا سيتغير من الوضع على أية حال؟».

«ماذا تقصد؟».

«لاأقصد أي شيء ياأبتِ. ماكنت لأزعج نفسي بالزواج في كنيسة لو لَمْ يجبرني القانون. وكانت هناك مشكلة النقود. أقصد لزوجتي. ماذا كان غرضك؟» ياأبتِ، عندما تزوجت أنت؟»، ثم أضاف بسرعة: «إغفر لي. لايحق لي أن أسألك».

لكن الرجل الضئيل، كما بدا، لم يغضب. بل لقد بدا أنّ السؤال كانت له جاذبية خاصة لديه. فقطع أرض الغرفة ببطء وفمه نصف مفتوح، وكأنه رجل يكاد يموت جوعاً وقد انجذب دون مقاومة لإغواء عرض قطعة خبز. وتدلّى قليلٌ من اللعاب من زاوية فمه. تقدَّمَ وجثم على الأرض بجانب التابوت. وقال بصوت خفيض (وكان يمكن تخيله هو نفسه راكعاً في حجيرة الإعتراف)، «أظن أنّه الغضب والوحشة، سينيور فورتنوم. إنني لم أقصد أن أسبب لها أي أذى، المسكينة».

قال تشارلي فورتنوم: «أفهم ماذا تعني بالوحشة، لقد عانيتُ منها بدوري. ولكن مادخل الغضب؟ ممَّن غضبتَ؟».

«من الكنيسة»، قال الرجل، ثم أضاف ساخراً: «أمي الكنيسة».

«أنا كنت أغضب من والدي. كنت أظن أنه لايفهمني، أو أنه لايهتم بي على الإطلاق. فكرهته. ومع ذلك شعرت بوحشة قاتلة بعد موته. والآن ـ» رفع كأسه ـ «إنني حتى أقلّده. على الرغم من أنه كان يشرب أقل مما أفعل. ومع ذلك فالأب هو أب ـ إنني لاأفهم كيف يمكنك أن تغضب من أمنا الكنيسة. أنا لم يخطر ببالي مرة أن أغضب من أية مؤسسة لعينة.

قال الرجل: «هي أيضاً أشبه بشخص. ويدَّعون أنها تجسيد للمسيح على الأرض ـ إنني حتى الآن لاأكاد أصدّق هذا. إنَّ شخصاً مثلك ـ un Ingles [1] ـ لايستطيع أن يفهم الى أي مدى أحسستُ بالخجل من الأشياء التي جعلوني أقرأها على الناس. كنت كاهناً في حي فقير في أسونسيون يقع بالقرب من النهر. هل لاحظت كيف يتشبثُ الفقير دائماً بضفة النهر؟ هنا أيضاً يفعلون ذلك، وكأنهم يخططون للرحيل سباحة ذات يوم، ولكن لايعرفون شيئاً عن السباحة ولاأحد منهم يعرف الى أين سيذهب. في أيام الآحاد كنت ملزماً بأن أقرأ عليهم مقاطع من المزامير».

---

(١) إنكليزي.

أنصت تشارلي فورتنوم بشيء من التعاطف وبقدرٍ كبيرٍ من المكر. فحياته تعتمد على هذا الرجل، ومن الأهمية بمكان أن يعرف ماذا يؤثّر به. لابدَّ أنَّ ثمَّة وتراً حساساً فيه يمكنه أن ينقر عليه. لقد كان الرجل يتحدث بتطرف كما يشرب الظمآن. ربَّما ظلَّ ردحاً طويلاً من الزمن لايستطيع أن يتكلم بحرية: لعلَّ هذه هي الطريقة الوحيدة التي تمكِّن بها من أن يفضي بهمومه لإنسان يموت بسلام ولن يتذكَّر أبداً ماقاله إلا بقدر مايتذكَّر كاهن مايتلقى من اعترافات.

وسأل تشارلي فورتنوم: «ما الذي لايعجبكَ في المزامير ياأبتِ؟».

قال الكاهن السابق: «لامعنى لها، ليس في الباراغواي على أية حال. (بعْ أملاكك وأعطِ الفقراء) - كان عليَّ أن أرتِّل عليهم هذا بينما الأسقف العجوز الذي كان موجوداً حينئذٍ يأكل سمكة رائعة من إغوازو ويشرب خمراً فرنسياً مع الجنرال. وطبعاً لم يكن الناس يموتون جوعاً - إذ يمكنكَ أن تدفع عنهم الموت جوعاً بإعطائهم المانديوكا، وسوء التغذية أضمن بكثير للأغنياء من الموت جوعاً. الجوع الشديد يجعل الإنسان يائساً، سوء التغذية يجعله تعباً لايقوى على رفع قبضته مطالباً. الأميركيون يفهمون هذا جيداً - والمعونة التي يقدمونها لنا تحقق هذا الاختلاف المطلوب. إن شعبنا لايموت جوعاً - إنه يذوي. كانت الكلمات تلتصق بشفتيّ - (تألَّموا ياأولادي الصغار)، وهناك في الصفوف الأمامية يجلس الأطفال وبطونهم منتفخة وسُرَرِهم تبرز كمقابض الأبواب. (كان من الأفضل له لو أن حجراً مُعلَّقاً حول عنقه). (هو من يعطي أفقر هؤلاء). يعطيهم ماذا؟ يعطيهم مانديوكا؟ ثمَّ وزَّعت خبز القربان - إنه ليس مغذياً مثل التشيبا Chipa الجيدة - ثم شربت الخمر. الخمر! مَنْ مِنْ هذه الأرواح المسكينة ذاق في حياته الخمر؟ لماذا لم نستطع أن نستخدم الماء في القربان المقدس؟ عليه السلام استخدمه في قانا[1]. أليس محتملاً أنه

(١) قانا: بلدة في الخليل في فلسطين، الى الشمال من الناصرة، قام فيها السيد المسيح بأول معجزاته وهي تحويل الماء الى خمر.

عليه السلام قد استخدم كأساً كبيرة من الماء في العشاء الأخير بدلاً منه؟»، وأمام دهشة تشارلي فورتنوم انتفخت العينان الشبيهتان بعينَي كلب بدموع محبوسة.

قال الرجل: «أوه، يجب ألا تظن أننا جميعاً مسيحيون سيؤون مثلي أنا. اليسوعيون يفعلون مافي وسعهم. لكن البوليس يراقبهم. هواتفهم مراقبة. وإذا مابدا أنَّ أحدهم بات مصدراً للخطر يسرعون الى إرساله للضفة الأخرى من النهر. إنهم لايقتلونه، فالأميركيون لايريدون لكاهنٍ أن يُقتل، وعلى أية حال فنحن لسنا خطرين بما فيه الكفاية. وقد تحدثتُ ذات مرة في موعظةٍ عن الأب توريس الذي قُتل مع رجال العصابات في كولومبيا. قلتُ فقط إنه خِلافاً لمَا وقعَ في سدوم فإنَّ الكنيسة تُخرج أحياناً رجلاً عادلاً، لذا فمن المحتَمل أنَ لاتُدمَّر كما حدث لسَدوم. وقد بعث البوليس بتقرير عني الى الأسقف فمنعني من إلقاء الموعظة. آه المسكين، كان عجوزاً جداً وكان الجنرال يحبه، وظنَّ أنه يقوم بعمل حسن، يُعطي لقيصر ...».

قال تشارلي فورتنوم: «هذه الأمور أعلى من مستواي ياأبت»، وهو متمدد ويعتمد بمرفقه على التابوت وينظر أسفلاً إلى الرأس الداكن الذي مايزال يظهر خلال شعره أثر باهت للحلاقة الرهبانية. كان أشبه بمخيمٍ وسط حقل من ماقبل التاريخ ينظر اليه من طائرةٍ مُحلِّقة. وأخذ يُقحِم كلمة «أبت» كلَّما أتيحت له الفرصة لذلك: كانت بشكلٍ ما تُثبِّتُ هذه الصفة. فالأبَ لايقتل ابنه عادة، على الرغم من أن هذا الخطأ كاد يقع في قصة سيدنا ابراهيم. «إنَّ الذنب ليس ذنبي ياأبتِ».

«إنني لاأضع اللوم عليك، سينيور فورتنوم لاسمحَ الله».

«أستطيع أن أتصوَّر السفير الأميركي من وجهة نظرك ـ لقد كان هدفاً شرعياً. أما أنا ـ فلستُ حتى قنصلاً أصيلاً، والإنكليز لادخلَ لهم في هذا الصراع بالذات ياأبتِ».

غمغم الكاهن بشعار وهو شارد الذهن: «يقال إنَّ رجلاً واحداً يجب أن يموت من أجل الشعب».

«ولكن هذا ماقاله الصالبون، لا المسيحيون».

رفع الكاهن بصره، ثم قال: «نعم، معك حق. لم أكن أفكر وأنا أتكلم. إنك على دراية بكتابك المقدس».

«إنني لم أقرأه منذ كنت طفلاً. ولكن هذه المشاهد من النوع الذي يَعْلق في الذهن، مثل ستروبلبيتر».

«ستروبلبيتر؟».

«الذي قُطِعَ إبهاماه».

«لم أسمع به قط. أهو أحد شهدائكم؟».

«لا، لا، إنها في قصة للأطفال ياأبتِ».

سأله الكاهن بحدَّة: «هل لديك أطفال؟».

«لا. ولكن كما قلت لك، بعد بضعة أشهر سيأتيني واحد. إنه يرفس بقوة منذ الآن».

فقال مضيفاً: «نعم، أتذكر الآن. لاتقلق، ستعود إلى بيتك قريباً»، وكأن الجملة مُصاغة على شكلِ سؤالٍ، وأراد من السجين أن يؤكِّد كلامه موافقاً بالقول: «نعم، طبعاً. بلا جدال». ولكن تشارلي فورتنوم رفض أن يشترك في تلك اللعبة.

«لِمَ هذا التابوت ياأبتِ؟ إنه يرعبني قليلاً».

«الأرض رطبة جداً لايمكن النوم عليها، حتى وإن فُرشت بطانية تحتك. نحن لانريدك أن تصاب بالروماتيزم».

«حسن، هذا لطف منك ياأبتِ».

«نحن لسنا همجيين. هناك رجلٌ يسكن جوارنا في الحي يصنع توابيت، وقد اشترينا واحداً منه. كان ذلك آمن من شراء سرير... هناك إقبال

أعظم في الحي على شراء التوابيت أكثر من الأسرةّ. إذ لاأحدَ يطرح أسئلة لدى شراء تابوت».

«وأعتقد أنه خطر في بالك أن تستفيد منه فيما بعد لإخفاء جثة».

«لم يخطر هذا في بالنا، أقسم لك. لو طلبنا سريراً لكان ذلك مصدر خطر».

«آه حسن، أظنني يجب أن أتناول كأساً أخرى من الويسكي ياأبتِ. تناول واحدة معي».

«لا، كما تعلم ــ أنا أثناء الخدمة، ويجب أن أحرسك»، وابتسم ابتسامة خائفة.

«لاأعتقد أنه من الصعب إخضاعك؟ حتى بالنسبة لرجل عجوز مثلي».

قال الكاهن: «ثمة دائماً إثنان منّا يقومان بالخدمة. ميغيل قاعد هناك مع بندقيته. هذه هي أوامر إل تيغره. وثمة سبب آخر لذلك أيضاً. إن رجلاً واحداً يمكن التأثير عليه بالكلام، أو حتى رشوته. فنحن جميعاً بشر، وهذه الطريقة في الحياة ليست التي يقبل المرء منّا أن يختارها لنفسه».

«ألا يتكلم الهندي الأسبانية؟».

«نعم، هذه أيضاً ناحية جيدة».

«هل تمانع في أن أمدّد ساقي قليلاً؟».

«يمكنكَ طبعاً».

توجّه تشارلي فورتنوم إلى باب الخروج وتأكد من صحة ماقاله الكاهن. كان الهندي قاعداً القرفصاء بقرب الباب والبندقية في حجره. ابتسم لفورتنوم بثقةٍ، وكأنهما يتشاركان في الحفاظ على نكتة سرية. وانتقل عائداً إلى موضعه بشكل لاإرادي تقريباً.

«أتتكلم الغوارانية ياأبتِ؟».

«نعم. كنت في وقت من الأوقات أعظ بالغوارانية».

قبل بضع دقائق سادت برهة تقارب، أو تعاطف، أو حتى صداقة بينهما، لكن تلك البرهة مضت. فبعد إنتهاء الاعتراف يعود كل من الكاهن والتائب الى وحدته. ويتظاهران إذا ماتصادفا في الكنيسة بأنه لم يلاحظ أحدهما الآخر. وبدا الآن أن التائب هو الذي يقف بالقرب من التابوت وينظر إلى ساعة يده. وفكَّر تشارلي فورتنوم قائلاً: «إنه يتبيَّن كم بقي من الوقت».

«إسمع كلامي وتعال إشرب معي ويسكي ياأبتِ».

«لا. شكراً. ربما ذات يوم بعد أن ينتهي كل هذا»، ثم أضاف: «لقد تأخر. كان يجب أن أكون قد ذهبت قبل وقت طويل».

«من الذي تأخّر؟».

أجاب الكاهن بغضب: «قلتُ لك من قبل أن أناساً مثلنا ليست لهم أسماء».

***

كان الظلام يهبط وفي الغرفة الخارجية الموصدة المصاريع أضاء أحدهم شمعة. كانوا قد تركوا باب غرفته مفتوحاً واستطاع أن يرى الهندي جالساً قريباً من الباب يرعى بندقيته. وتساءل تشارلي فورتنوم متى سيحين دوره في النوم. لقد ذهب المدعو ليون منذ وقت طويل. وكان هناك زنجي لم يكن قد رآه من قبل ... وتساءل، لو كان معي سكين فهل كنت سأتمكن من حفر فجوة لأهرب منها؟.

أحضر المدعو أكوينو شمعة، كان يحملها بيده اليسرى. ولاحظ تشارلي فورتنوم أنه كان دائماً يخفي يده اليمنى في سترة الجينز. لعلّه يمسك بمسدس-

أو سكين ـ وعادت به أفكاره إلى تلك الفكرة اليائسة في حفرِ فجوةٍ خلال الطين الجاف للجدار. ففي الوضع المستحيل على المرء أن يقوم بمحاولة مستحيلة. وسأل: «أين أبونا؟».

«لديه أعمال يقوم بها في البلدة، سينيور فورتنوم».

كانوا دائماً يعاملونه بلطفٍ صافٍ، كما لاحظ، وكأنهم يحاولون أن يأكِدوا له أنه «لا وجود لضغائن شخصية في هذه القضية. وحين ينتهي كل شيء نتقابل كأصدقاء». أم هو اللطف المعتاد الذي يقال إن حارس السجين يبديه حتى مع أشد القتلة وحشية قبل إعدامه؟ والناس يكنُّون للموت الإحترام المهيب نفسه الذي يضمرونه نحو شخصٍ غريبٍ بارزٍ يزور مدينتهم، حتى وإن لم يشعروا نحوه بالود.

قال: «أنا جائع. يمكنني أن ألتهم ثوراً»، ولم يكن ذلك صحيحاً ولكن سيكون من الغباء حقاً لو تركوا بين يديه سكيناً ليأكل بها. لقد انتابه شعورٌ بأنه بين أيدي مجموعةٍ من الهواة وليس المحترفين. .

قال أكوينو: «حالاً. اصبر قليلاً، سينيور فورتنوم. إننا بانتظار مارتا. لقد وعدتْ أن تطبخ لنا يخنة. إنها ليست طباخة ماهرة جداً، ولكن لو كنتَ لبثتَ في السجن مثلي ... ».

وفكر: يخنة. هذا يعني أنهم لن يعطوني أكثر من مقدارِ ملعقةٍ واحدة. قال: «مايزال هناك بعض الويسكي، هل تشرب معي؟».

«قال أكوينو: «لايجوز لأي منا أن يشرب».

«جرعةً صغيرة ـ على سبيل الصُحبة».

«جرعة صغيرة جداً إذن. وسآكل بصلة من التي أحضَرتها مارتا لإعداد اليخنة. سوف تطغى على الرائحة. لاأريد أن أخيِّب أمل ليون. بالنسبة له التشدد هو السلوك الطبيعي، ولكن لسنا جميعاً رهباناً، والحمد لله» واحتج قائلاً: «هذه جرعة كبيرة جداً».

«كبيرة؟ لا أبداً، إنها لاتبلغ نصف معياري Salud (في صحتك)».

« Salud ».

ولاحظ أن أكوينو مازال يخفي يده اليمنى داخل سترته.

«أنتَ ماذا ياأكوينو؟».

«ماذا تعني بماذا أنت؟».

«هل أنت عامل؟».

قال بفخر: «أنا مجرمٌ، نحن جميعاً مجرمون».

قال فورتنوم وقد رفع كأسه وتبعه أكوينو في ذلك: «وهل هذا كل مايشغلك طوال الوقت؟ لابد أنك بدأت في وقتٍ ما».

«أوه، لقد دخلت المدرسة مثل كل العالم. كان يديرها الرهبان. كانوا رجالاً طيبين، وكانت مدرسةً جيدة. ليون كان هناك أيضاً ـ أراد أن يصبح abogado. أما أنا فأردتُ أن أصبح مؤلفاً، ولكن حتى المؤلف يجب أن يكسب لقمة عيشه، لذا عملت في مجال التبغِ، صرتُ أربح نقوداً من بيعِ السجائر الأميركية في الشارع. وهرّبتُ سجائر من هافانا. وهذه أيضاً جلبت نقوداً طيبة... أقصد أنني تمكّنتُ من مشاركةِ غرفةٍ مع ثلاث آخرين وكان معنا مايكفي لشراء Chipas. والمرء يسمن من أكل Chipas. إنها أفضل من المانديوكا.

قال تشارلي فورتنوم: «لديَّ مخيمٌ خارج المدينة، وأستطيع أن أضمَّ إليَّ capatas آخر. أنت رجل مثقف. ويمكنك أن تتعلم أسلوب العمل بسهولة».

قال أكوينو بفخر: «أوه، لدي عملي الآن. كما قلت لك ـ أنا مجرم. وأنا شاعر أيضاً».

«شاعر؟».

في المدرسة ساعدني ليون في الكتابة. قال إني موهوب، لكني ذات مرة بعثت بمقالٍ الى صحيفة في أسونسيون أنتقدُ فيه الأميركيين. في بلدنا ممنوعٌ

بأمر من الجنرال نشر أي شيء يُكتب ضد الأميركيين. وبعد ذلك امتنعوا حتى عن قراءة أي مقال أرسله. صاروا يعتقدون أني أكتب شيئاً بين السطور سيورِّطهم في متاعب. اعتقدوا أني Politico [1] وطبعاً ـ ماذا كان في وسعي أن أفعل؟ أصبحتُ Politico. وهكذا زَجُّوا بي في السجن. دائماً يحدث الشيء نفسه. إذا كنت Politico فأنت لست كولورادو، أي عضواً في حزب الجنرال.

«أكان وضعك سيئاً في السجن؟».

قال أكوينو: «كل السوء»، وأخرج يده اليمنى وعَرَضَها على تشارلي فورتنوم. «وذلك حين بدأت أكتب الشعر. واستغرق مني زمناً طويلاً تعلُّم كتابة أي شيء بيدي اليسرى، وببطءٍ شديد. أنا أكره الأمور البطيئة. أفضِّل أن أكون فأراً على أن أكون سلحفاة، حتى وإن كانت السلحفاة تعمِّر أطول».

كان قد أصبح مهذاراً بعد جرعة الويسكي الثانية «إني أُعجب بالصقر الذي ينقضُّ على ضحاياه كالصخرة من كَبِدِ السماء، ولايعجبني النسرُ الذي يهبطُ مُرفرفاً، وكأنه آت ليرى إن كانتْ الجيفة تتحرك. لهذا تراني شُغفت بالشعر. النثر يتهادى بطيئاً جداً، أما الشِعر فينقضُّ كالصقر ويطعنك قبل أن تنتبه. طبعاً في السجن لم يعطوني ورقة وقلماً، لكني لم أكن مضطراً لكتابة الشعر. كنت أحفظه غيباً».

سأل تشارلي فورتنوم: «أكانَ شعراً جيداً؟.. هذا لايعني أني أعرف الفرق».

قال أكوينو: «أعتقد أنّ بعضهُ كان جيداً»، وأنهى جرعته من الويسكي «ليون قال إنَّ بعضَهُ كان جيداً. قال لي إنه يشبه شِعرَ رجلٍ يُدعى ڤيون Villon [2]، وكان مجرماً مثلي».

---

(١) سياسي، مهتم بالسياسة.

(٢) فرانسوا ڤيون (١٤٣١ ـ بعد ١٤٦٣): شاعر فرنسي، عاش حياة متمردة إجرامية عكَسَها في شعره.

قال تشارلي فورتنوم: «لم أسمع به».

قال أكوينو: «القصيدة الأولى التي كتبتُها في السجن كانت عن أول سجن أنشىء في العالم ـ السجن الذي نعرفه جميعاً. أتعلم ماذا قال تروتسكي عندما عَرَضوا عليه منزله الجديد في مكسيكو؟ فقد جعلوه آمناً ضد القتلة، أو هكذا ظنوا. قال: «هذا يذكرني بسجني الأول. فالأبواب تُصدِرُ الصوت نفسه»، وكان في قصيدتي لازمة تقول «لاأرى والدي إلا من خلال القضبان» وكنتُ أفكر حينئذٍ في الزرائب التي يسجنون فيها الأطفال في البيوتات البورجوازية. في قصيدتي يتابع الوالد تطوُّر ابنه طِوال حياته ـ فيصبح مدرساً، ثم كاهناً، وضابطَ بوليس، وحارساً في سجن، وأخيراً يصبح الجنرال ستروسنر نفسه. لقد رأيتُ الجنرال مرةً عندما كان يتجول في الريف. وجاء إلى محطةِ البوليس التي كنتُ موجوداً فيها ورأيته من خلال القضبان».

قال تشارلي فورتنوم: «سيولد لي طفلٌ قريباً، وأريدُ أن أريكَ ابن الحرام الصغير ولو برهة قصيرة. ولكن ليس من خلال القضبان، طبعاً. أريد أن أعيش طويلاً بما يكفي لأعرف إن كان ولداً أم بنتاً».

«متى سيولد؟».

«بعد خمسة أشهر تقريباً أو نحو ذلك. لست متأكداً تماماً. إنني لاأفهم كثيراً في مثل هذه الأمور».

«لاتقلق. ستعود الى بيتك، وقبل ذلك بكثير».

أجاب تشارلي فورتنوم: «هذا إذا لم تقتلوني»، آملاً بيأس أن يتلقّى الإجابة المتفائلة المعتادة، وإن كانت زائفة. ولم يُدهش حين لم يتلقَّ شيئاً. لقد بدأ يعيش في منطقة الحقيقة.

قال أكوينو مرحاً: «لقد كتبت عدداً كبيراً من القصائد عن الموت «يملؤه الرضا، وهو يرفع آخر قطرة من كأس الويسكي عالياً أمام نور الشمعة»

والقصيدة التي أحبها أكثر من غيرها تقول لازمتها «الموت عُشبة معروفة: لاتحتاج الى المطر» وليون لايوافقني - يقول إنني أبدو من خلالها كمزارع - وقد أردت أن أكون مزارعاً ذات يوم. وتعجبه أكثر تلك التي تقول «مهما كانت الجريمة، فالجميع يتلقون الوجبة نفسها». وهناك أخرى تعجبني، مع أني لاأدري ماذا أعني بها بالضبط، لكنها تبدو جميلة، حين تُلقى كما يجب، تقول: «حين يغدو الموت على طرف اللسان، ينطق الرجل الحي».

«يبدو أنك كتبتَ الشيء الكثير جداً عن الموت».

قال أكوينو: «نعم. أعتقد أنَّ نصف قصائدي تدور حول الموت. إنه أحد موضوعَيْنِ أساسيين بالنسبة للانسان - الحب والموت».

«لاأريد أن أموت قبل أن يولد طفلي».

«أتمنى لكَ كل الحظ الذي في العالم، سينيور فورتنوم. ولكن لاخيار لأي منا. قد أُقتل غداً بحادث سيارة أو بإصابةٍ بالحمّى. والموت بطلقة رصاص هو أحد أسرع وأكثر الميتات تشريفاً».

«وأظن أنَّ هذه هي الطريقة التي ستقتلني بها».

«طبعاً... وهل هناك طريقة أخرى؟ إننا لسنا قساة القلوب، سينيور فورتنوم. ونحن لن نقطع لك أصابع يديك».

«ومع ذلك يستطيع الانسان أن يعيش دون بضعة أصابع. لاأظنك تجدها على قدر كبير من الأهمية، أليس كذلك؟».

«أوه، أفهم خوفك من الألم - أنا أعرف ماذا يمكن أن يفعله الألم بالإنسان - ومافعلوه بي - لكني لاأفهم لماذا أنت شديد الخوف من الموت. الموت آتٍ في كل الأحوال، وهناك آخرة طويلة الأمد إذا كان الكهّان على صواب ولاشيء يخيف إذا كانوا على خطأ».

«هل كنتَ تؤمن بتلك: «الآخرة» وهم يعذبونك؟».

اعترف أكوينو: «لا، لكني لم أفكر حتى بالموت. لم يكن هناك غير الألم»

«لدينا في اللغة الإنكليزية تعبير يقول ـ عصفور في اليد خير من اثنين في الشجرة. إنني لاأعرف أي شيء عن تلك «الآخرة». كل ماأعرفه أني أريد أن أعيش عشرسنين أخرى، في مخيمي، أراقب ابن الحرام الصغير يكبر».

«ولكن، سينيور فورتنوم، فكّر بما قد يحدث في تلك السنين العشر. قد يموت طفلك، الأطفال يموتون بسهولة هنا، وقد تخونك زوجتك، قد تصاب بالسرطان وتتعذب طويلاً. الرصاصة أبسط وأسرع».

«هل أنت واثق من ذلك؟».

قال أكوينو: «ربما لاضير في أن أتناول مقداراً آخرصغيراً من الويسكي».

«أنا أيضاً عطشان. وأنت تعلم ماذا يقول المثل القديم ـ صحة الإنكليزي دائماً دون المعدَّل بكأسي ّويسكي».

وصبَّ كأساً بمنتهى الحرص: بالكاد تبقَّى ربع مقدار زجاجة، وفكَّر بحزن بمخيَّمه، بالساقي الأبكم الموضوع في الفيراندا وبزجاجة المرطبات التي ظلت دائماً تقف هناك استعداداً له. وسأل: «أنت متزوج؟».

أجاب أكوينو: «ليس بالضبط».

«أنا تزوجت مرتين. في المرة الأولى لم ينجح. في الثانية ـ لاأدري لماذا ـ شعرتُ أني رجل مختلف. هل تريد أن أريك صورة؟».

عثر على واحدة في دفتر مفكرته ـ صورة كوداكروم مربعة. ظهرت فيها كلارا جالسة على دولاب فخر فورتنوم، تحدق شذراً في الكاميرا وعلى وجهها تعبير خوف وكأنها تخشى أن تطلق رصاصاً كالمسدس.

علَّقَ أكوينو بأدب: «فتاة جميلة».

قال فورتنوم: «طبعاً في الحقيقة هي لاتُحسن القيادة، واللون الأزرق يغلب على الصورة. تلاحظ هذا من لون الأفوكادو. ليس هذه أفضل مايمكن لغروبر أن يفعله». ونظر الى الصورة نظرة ندم وقال: «ثم أن تعديل العدسة

ليس جيداً. إنها لاتظهرها كما يجب، لكني كنت قد شربت فوق المعيار اللازم، وأعتقد أنَّ يدي اهتزت قليلاً»، ونظر بقلقٍ الى ماتبقى في الزجاجة.

قال: «خذها قاعدة، ليس هناك ماهو أفضل لتثبيت اليد. مارأيك في أن ننهي الزجاجة؟».

قال أكوينو: «مقدراً قليلاً جداً لي».

«لكل رجل معياره الخاص به. لم أنتقد أحداً قط لأنه لايوافقني في معياري. والمعيار يكون موجوداً داخل جسم كل إنسان. مثل المصعد في بناية مؤلفة من عدة طوابق».

كان يراقب أكوينو عن كثب. وقدَّر بالضبط أن معياريهما متباينان جداً. قال: «أحب قصيدتك تلك التي تحكي عن الموت».

«أية واحدة؟».

«ياالذاكرتي الصاعقة. ماذا ستفعل بالجثة؟».

«جثة؟».

«جثتي؟».

«سينيور فورتنوم، لماذا تأتي على ذكر مواضيع مقيتة؟ لقد كتبتُ عن الموت، نعم، ولكن فقط عن الموت العظيم المجرَّد. إنني لاأكتب عن موت الأصدقاء».

«في الواقع، أولئك الناس في لندن ـ إنهم لم يسمعوا بي قط. ماذا يهمهم؟ إنني لاأنتمي الى النادي الملائم».

«الموت عشبةٌ بريةٌ معروفة: لاتحتاج الى المطر». أليست هذه هي القصيدة التي عنيتها؟».

«نعم، طبعاً، هذه هي. تذكرت الآن. الأمر سيان ياأكوينو. حتى وإن كانت معروفة الى ذاك الحد، على المرء أن يموت مع شيء من الكرامة. ألا توافقني؟ Salud».

«Salud، سينيور فورتنوم».

«نادني تشارلي ياأكوينو».

«Salud، تشارلي».

«لاأحب أن يراني الناس وأنا على هذه الحال ـ قذر، وغير حليق ... ».

«يمكنك أن تحصل على وعاء من الماء إذا أردت ياتشارلي».

«وموس؟».

«لا».

«فقط شفرة جيليت. لايمكنني أن أؤذي نفسي كثيراً بجيليت».

المعيار المناسب هو المهم كما قال. أصبح كل شيء ممكناً بالنسبة له الآن. مثلاً، حتى بمقص ـ يمكنه أن يبلل تراب الجدار المحمَّص أولاً.

«إذن مارأيك بمقص لأشذِّب شعري قليلاً؟».

«يجب أن أسأل ليون أولاً ياتشارلي».

بعصا مدببة؟ وبحث عن تعبير ملطَّف مناسب. صار متأكداً، بعد أن شرب المقدار المناسب وأصبح متوازناً، أن الهروب بات ممكناً. قال: «أريد أن أكتبَ الى كلارا ـ إنها زوجتي. الفتاة التي في الصورة. تستطيع أن تحتفظ بالرسالة حتى ينتهي كل شيء وتخرج سالماً. أريدها فقط أن تعلم أني فكَّرت فيها حتى النهاية» وأضاف بحذر: «أريد قلم رصاص ـ قلماً مبرياً»، ونظر الى الجدار وتساءل إن لم يكن قد غالى قليلاً في التفاؤل. هناك في الجدار بقعة مهترئة قليلاً: استطاع أن يرى عيدان التبن الممزوجة بالطين.

قال أكوينو: «لديَّ قلم برأس زلاق، ولكن من الأفضل أن أسأل ليون ياتشارلي» وأخرجه من جيبه ونظر إليه بحرص.

«أي أذى يمكن أن يسببه هذا ياأكوينو؟.. كان يمكن أن أطلبه من صديقك مباشرة، ولكنك تعلم كيف يكون الأمر، إنني لاأشعر أبداً بارتياح مع الكهنة».

قـال أكوينو: «يجـب أن تسلـمنا أي شيء تكتبه، وسوف نضطر إلـى أن نقـرأه».

«طبعاً. هل نفتح زجاجة أخرى؟».

«لاأظنك تحاول أن تُسكِرني؟ أستطيع أن أتحدى أي شارب يقارعني».

«لا، لا. كل مافي الأمر أنني لم أتوصل إلى شرب المقدار المناسب لي. المعيـار الذي يـؤثر بـي هـو الذي يزيد عن النصف، وأنت نفسك شـربت نصـف معـياري».

«قد يمر وقت طويل قبل أن نتمكّن من أن نشتري لك مزيداً منه».

«حتى يأتي الغد يفرجها الله. كأني أقتطف قولاً من الإنجيل. أنا أيضاً أصبحت أقول أدباً. البَركة في الويسكي. في الحقيقة لست معتاداً على كتابة الرسائل. هذه أول مرة أفترق عن كلارا ـ منذ أن أصبحنا معاً بحق».

«ستحتاج الى ورقة ياتشارلي».

«نعم، لقد نسيت».

أحضر له أكوينو خمس صحف من الورق منزوعة من إضْمامة.

قـال: «لـقـد عـددتُهـا، ويجـب أن تُعـيـد إليَّ كل الأوراق، سـواء استعملتها أو لم تستـعملها».

«وبعض المـاء لأغتسل. لاأريـد أن أتـرك علامات قذرة في كل أنحاء رسـالتي».

أطاع أكوينو، لكنه هذه المرة دمدم متذمراً قليلاً، وقال: «هذا ليس فندقاً ياتشارلي، ثم خبط الوعاء على الأرض مسبباً رش الماء على الأرض الترابية.

«لو كان فندقاً لعلَّقتُ يافطة على الباب تقول (لاتزعجوني). خذ معك بعض الويسكي ياأكوينو».

«لا. شربتُ مايكفي».

«كن صديقاً وأغلق الباب. لاأطيق أن أرى الهندي يحدّق إلي».

حين بات وحيداً انتقى تشارلي فورتنوم البقعة المهترئة في الجدار، وراح يفركها بالماء، ثم أخذ يضربها برأس القلم. بعد ربع ساعة تجمّع قليلٌ مما يشبه مخلفات الديدان على الأرض، وحدثت فجوة في الجدار. ولولا الويسكي لغلبه اليأس. وراح يضغط بثقله على الأرض ليُخفي الأثر، وغسل رأس القلم، وبدأ بكتابة رسالة. وكان عليه أن يبرِّر طول الوقت الذي استغرقه. بدأها بعبارة «عزيزتي وصغيرتي كلارا»، ثم تردد مطولاً. لقد كان في تقاريره الرسمية يستخدم ضاربة على الآلة الكاتبة كانت تعثر دائماً على عباراتها البيروقراطية المناسبة: «جواباً على رسالتكم المؤرخة في ١٠، آب»، «تلقينا رسالتكم في ٢٢، كانون أول»، أما الآن فكتب «كم أشتاقُ إليكِ». كان أهم مايمكن أن يكتبه، وأي شيء آخر سيضيفه سيكون تكراراً وإعادة صياغة لتلك. «كأنما مرت سنون منذ أن غادرتُ المخيم. كنتِ تعانين من صداع في ذاك الصباح. هل تحسنتِ الآن؟ أرجوك لاتفرطي في تناول الأسبرين. إنه يؤذي المعدة ولابد أنه يؤذي الطفل أيضاً. أرجو أن تُبقي قماش المشمَّع فوق فخر فورتنوم في حال نزل المطر».

وفكَّر، لن تسلَّم الرسالة إلا بعد أن يكون قد عاد الى المنزل أو مات، وثما لديه إحساسٌ بترامي المسافة مابين الكوخ الطيني والمخيم، بين التابوت وسيارة الجيب المنتظرة تحت أشجار الأفوكادو، وكلارا المستلقية في وقت متأخر على السرير المزدوج، والساقي الأبكم الواقف بلا حراك على الشرفة. وطفرت الدموع من عينيه، وتذكر كيف كان يمكن لوالده أن يؤنبه: «كُنْ رجلاً ياتشارلي، وليس جباناً. أنت تبكي بسهولة كبيرة. إنني لاأحتمل الشفقة على الذات. يجب أن تخجل. تخجل. تخجل». قَرَعَتْ الكلمة كناقوسٍ لموت كلّ أمل. أحياناً، وليس غالباً، كان يدافع عن نفسه ـ «إنني لاأبكي من أجل

نفسي. لقد دُهستُ سحلية هذا الصباح، بمصراعي النافذة لم أقصد، كنت أحاول أن أخرجها، إنني أبكي من أجل السحلية، وليس على نفسي».

والآن هو لايبكي من أجل نفسه، كانت الدموع تنهمر من أجل كلارا، وقليل منها لأجل «فخر فورتنوم»، كلاهما تُرك وحيداً وبلا سند. إن كل ماكان يعانيه هو قليلٌ من الخوف وقليلٌ من الإنزعاج. وقد تعلَّم من التجربة أنَّ الوحشة هي أسوأ مايمكن معاناته.

تخلى عن الرسالة، وتناول جرعة أخرى من الويسكي، وعاودَ الحتَّ برأس القلم. امتصَّ الجدارُ الماء وسرعان ماعاد جافاً كعظمة. بعدها بعشر دقائق استسلم. كان قد أحدث ثقباً بوسع جُحر فأر، ولكن لاأكثر من ذلك. رجع الى رسالته ثانية وكتب بجراءة: «أستطيع أن أقول لك إن تشارلي فورتنوم يتحمَّل الكثير، إنني لست ذاك المسكين الذي يظنون. أنا زوجك، وحبي لك أكبر بكثير من أن يسمح لمثل أولاد الحرام هؤلاء أن يقفوا حائلاً بيني وبينك. إنني أعمل على القيام بشيء وسأضع هذه الرسالة بين يديك بنفسي، وسنضحك على كل ماحصل وسنشرب من تلك الشمبانيا الفرنسية الجيدة التي حرصت على الإحتفاظ بها لمناسبة خاصة. الشمبانيا لاتسبب أي أذى للطفل أو هكذا قيل لي»، وكفَّ عن الكتابة ووضع الرسالة جانباً لأن فكرة كانت قد بدأت تتكوَّن فعلاً وإنْ بطريقة غامضة. مسحَ العرقَ عن جبينه وخطرَ له برهة من الزمن أن يمسح الويسكي أيضاً، مخلفاً وراءه ذهناً صافياً.

ونادى: «أكوينو، أوينو».

ودخل أكوينو كارهاً ومرتاباً. قال: «لم أعدْ أريدُ ويسكي».

«أريد أن أستخدم المرحاض ياأكوينو».

«سأخبر ميغيل كي يرافقك».

«لا، أرجوك ياأكوينو ... لن أتبرّز جيداً بوجود ذاك الهندي جالساً في الخارج يلوِّحُ لي ببندقيته. إنه يشتاق لاستخدامها ياأكوينو».

«ميغيل لايضمر أي أذى. إنه مهتم بالبندقية ـ هذا كل شيء. فهو لم يمتلك واحدة من قبل».

«في كل الأحوال هو يخيفني. لماذا لاتأخذ البندقية أنت وتحرسني ياأكوينو؟ أنا أعرف أنك لن تطلق الرصاص إلا إذا اضطررت».

«لن يرغب بترك شخص آخر يحمل بندقيته».

«إذن اللعنة إذا لم أتبرز هنا».

قال أكوينو: «سأكلّمه».

من الصعب على معظم الرجال أن يطلقوا الرصاص على رجلٍ ودودٍ بدمٍ باردـ بهذه البساطة كانت خطة تشارلي فورتنوم.

حين عاد أكوينو كان يحمل البندقية نصف الآلية. قال: «حسن، هيا بنا. أعرف أنه ليس لديّ إلا يدي اليسرى، ولكن تذكّر أنه لاأحد يحتاج أن يكون رامياً بواحدة من هذه. طلقة واحدة دائماً تستقر في بيتها».

قال تشارلي فورتنوم وهو يجتهد ليرسم ابتسامة على وجهه: «حتى وإن كانت طلقة شاعر. أتمنى لو تعطيني نسخة من تلك القصيدة. أريد أن أحتفظ بها كتذكار».

«أية قصيدة؟».

«أنت تعرف القصيدة التي أعني. تلك التي تحكي عن الموت».

مشى خارجاً من الباب الخارجي. لم ينظر الهندي إليه. كان يراقب البندقية بقلق وكأن شخصاً عزيزاً عليه جداً قد وُضع بين أيدٍ غير أمينة.

تكلم تشارلي فورتنوم طوال الطريق إلى السقيفة الكائنة بين أشجار الأفوكادو. كانت ساعةُ يده قد توقفت أثناء غيابه عن الوعي ولم تكن لديه

فكرة عن الوقت، لكنه استطاع أن يرى طول الظلال. وتحت الأشجار المُثقلة بالثمار البنية القاتمة كان المساء قد حلّ. قال: «كدتُ أنهي تلك الرسالة. إنها صعبة التأليف بشكل لعين». حين وصل الى باب السقيفة التفتَ وحاول أن يبتسم لأكوينو. ولو أن أكوينو بادله الإبتسام لكانت علامةً حسنةً، لكن أكوينو لم يبتسم. لعلّه منشغلٌ فقط. ربما كان يؤلف قصيدة عن الموت. أو لعله شرب أكثر من معدّله.

انتظر تشارلي فورتنوم في الكوخ طويلاً، يستجمع شجاعته. ومن ثمّ خرج مسرعاً والتفّ بحدّة يميناً ليكون الكوخ بينهما. كان الأمر كله مسألة ياردات وتحت الأشجار كان الظلام ينتظر. سَمع صوت طلق ناري، وصراخاً، وصراخاً مجيباً، ولم يشعر بشيء. وهتف عالياً: «لاتطلق النار، أكوينو» وبعد الطلقة الثانية سقطَ على حافة الظلام.

الجزء الرابع

الفصل الأول

بدأ نهار السير بلفريج سيئاً على مائدة الإفطار. فللمرة الثالثة على التوالي قلى الطبَّاخ البيضة من الوجهين. قال: «هل نسيتي أن تقولي لبيدرو ياعزيزتي؟».

قالت الليدي بلفريج: «لا، أقسم أني لم أنسَ. أذكر بوضوح ...»

«لابدّ أنه التقط هذه العادة من الأميركيين. إنها عادة أميركية. ألا تذكرين المتاعب التي عانيناها مرةً في مطعم البلازا في نيويورك؟ لديهم تسمية للـ«قلي من جانب واحد». أتذكرينها؟ لعلَّ بيدرو يفهمنا».

«لا، ياعزيزي... لاأظنني سمعت بها قط».

«أحياناً أتعاطف مع أولئك الذين يكتبون عن الامبريالية الأميركية. ما الذي يجبرنا على أكل بيضُنا المقلي هكذا؟ وقريباً سيقدم لنا عصير القبقب مع السجق. وذاك النبيذ الذي شربناه مساء أمس في السفارة الأميركية ياعزيزتي كان رهيباً، أعتقد أنه من إنتاج كاليفورنيا».

«لا ياعزيزي، كان أرجنتينياً».

«آه، كان يحاول أن يجرب نكهة الكَرِي مع وزير الداخلية. لكن الوزير كان يفضل نبيذ مائدة فرنسية جيد كما نقدم نحن هنا».

«إنه ليس نبيذاً جيداً كثيراً على أي حال».

«هذا أفضل مايمكننا الإنفاق عليه من مخصصاتنا البائسة. هل لاحظتِ أنه قدم لنا ويسكي أرجنتينية؟».

«المشكلة ياعزيزي هي أنه هو نفسه لايشرب أي شيء. أتدري أنه صُعِقَ تماماً لأنَّ السيد... السيد المسكين... أنت تعرف قنصلنا، اسمه ميسون، أظن؟».

«لا، لا. إنه الآخر، فورتنوم».

«حسن، يبدو أن السيد فورتنوم المسكين أحضر معه زجاجتي ويسكي عندما ذهبنا الى الأطلال».

«لاألومه على ذلك. أتعلمين أنَّ السفير يسافر وهو يحمل معه صندوق كوكا كولا مثلج؟ وماكنت لأشرب كل ذاك القدر من ذاك النبيذ اللعين لو لم يحرص على مراقبتي بعينيه اللتين تدلان على مجيئه من نيو انغلاند. شعرت مثل تلك الفتاة في القصة[1] التي تحمل حرف (A) على صدرها. والحرف يدل على (الإدمان على الخمر)».

«أظن أنه يعني (الزنا)، ياعزيزي».

«أعتقد ذلك، أنا شاهدتُ الفيلم فقط. من سنين عديدة. ولم يوضّحوا هذه النقطة».

النهار الذي بدأ بداية بائسة مع البيض المقلي بشكلٍ سيء ازداد سوءاً. فقد جاء كريتشتون، ملحق الصحافة، ليقابله ويحتجّ لأنّه يكادُ يُجنُّ من المكالمات الهاتفية التي يتلقاها من الصحافة، واشتكى للسير هنري قائلاً: «وأظل أقول لهم إنَّ فورتنوم لم يكن سوى قنصل فخري. لكن مراسل صحيفة لابرينسا لايفهم الفرق بين صفة الشرفي (الفخري)، والمشرّف. ولن أُدهش إذا جعلوا منه ابن شخصية نبيلة».

---

(١) القصة المشار اليها هي «الحرف القرمزي» لناثانيل هوثورن. حيث تُتهم البطلة بالزنا، وعقاباً لها تُلزم بوضع حرف (A) على صدرها، وهو أول حرف من كلمة «Adulteress» أو زانية. وفي اللغة الإنكليزية كلمتا «Adulteress» زانية، و«Alcoholism» «الإدمان على الخمر»، تبدآن بالحرف نفسه.

قال السير هنري مهدئاً: «هذا يجعلني أشك في أنهم يعرفون أي شيء عن ألقابنا».

«يبدو أنهم يظنون أن القضية برمّتها على قدرٍ عظيم من الأهمية».

«كل مافي الأمر ياكريتشتون أنها فترة أحداث ساخنة. ليس لديهم هنا وحش مثل الذي في بحيرة لوك نس[1] Lock Ness، والصحون الطائرة تُشاهد على مدار السنة».

«أتمنى، ياسيدي، لو تُدلي بتصريح يهدّئ من الوضع».

«وأنا أيضاً ياكريتشتون، وأنا أيضاً. طبعاً يمكنك أن تصرّح بأنني قضيت عدة ساعات ليلة أمس مع السفير الأميركي ـ ولاداعي لأن تقول إني أصبت بالنتيجة بصداع شديد لعين».

«لقد تلقّت صحيفة الناسيون مكالمةً هاتفيةً مجهولةً ـ من قرطبة هذه المرة. ولم يبق إلا أربعة أيام».

قال السفير: «حمداً لله أنه لاأكثر. في الأسبوع القادم سيكون كل شيء قد انتهى. فإما أن يموت أو يُطلق سراحه».

«البوليس يعتقد أن قرطبة ماهي إلا ستار ولعله موجود في روزاريو ـ أو لعله صار هنا الآن».

«كان يجب أن نُحيله إلى التقاعد منذ ستة أشهر مضت وحينئذٍ ماكان كل هذا قد وقع».

«يقول البوليس إن عملية الإختطاف حدثت خطأ ياسيدي. كانوا يريدون السفير الأميركي، فإذا كان هذا صحيحاً فلا شك أنه جدير بالأميركيين أن يشعروا بالإمتنان لنا وأن يفعلوا شيئاً».

---

(١) تقع في شمال غرب اسكتلندا، ويقال إنه يسكنها وحش مائي أسطوري.

قال السير هنري بلفريج: «إن ويلبور ـ السفير يصرُّ على أن أناديه بويلبور ـ يرفض الإعتراف أنه كان الضحية المستهدفة. ويقول إنَّ الولايات المتحدة الأميركية تتمتع بشعبية واسعة في باراغواي ـ وجولة نلسون روكفلر [(١)] أثبتت ذلك. لاأحد يرمي أحجاراً في باراغواي أو يضرم ناراً في أي مكتب رسمي. لقد كان الوضع هادئاً كما هو الحال في هاييتي. إنه يتصل بروكفلر نلسون ـ وقد شوّشني هذا الأمر قليلاً. أتدري أنني اعتقدت بحق برهة من الزمن أنه سيدعوني للإتصال بروكفلر نلسون أيضاً؟».

«لاأستطيع إلا أن أشعر بالأسف لأجل ذاك المسكين».

«لاأقصده هو ـ أقصد ـ».

«أوه، ميسون، اللعنة، زوجتي هي التي بدأت بتسميته ميسون وهاأنا أفعل مثلها. إذا وردَ إسم ميسون في برقية رسمية، فيعلم الله كيف سينتهي الأمر في لندن. سيظنون أنَّ للأمر علاقة بخط ميسون ـ ديكسون [(٢)]. ويجب أن أظل أردّد لنفسي فورتنوم، فورتنوم، فورتنوم، كذاك الغراب [(٣)] الذي كان يقول: «لاشيء بعد الآن».

«أتظن أنهم سيقتلونه حقاً، ياسيدي؟».

«طبعاً لاأظن ياكريتشتون. إنهم حتى لم يقتلوا ذاك القنصل الباراغوائي الذي اختطفوه قبل بضع سنوات. الجنرال قال إنه غير مهتم به، فأخلوا سبيله»، ثم أضاف بإدراكٍ قلق لمّا ضاق مجال الأمل: «ولكن هذه

---

(١) ن. روكفلر (١٩٠٨ ـ ١٩٧٩): سياسي أميركي. وقت كتابة الرواية كان حاكماً لولاية نيويورك.

(٢) خط ميسون ـ ديكسون: في الولايات المتحدة، هو الخط الذي يعتبر الفاصل بين الشمال والجنوب، خاصة أثناء الحرب الأهلية، في القرن الماضي. يقع بين ميريلاند وبنسلفانيا.

(٣) الإشارة هنا هي إلى قصيدة الشاعر الأميركي ادغار آلن بو «الغراب».

ليست الأوروغواي أو كولومبيا ـ أو البرازيل، بالنسبة لهذه القضية. أو بوليفيا. أو فينيزويلا. أو حتى البيـــرو».

قال كريتشتون في منطق لايقبل الجدل: «لكننا مع ذلك مانزال في أميركا الجنوبية، أليس كذلك؟».

وَرَدَهْ بضعُ برقياتٍ مملّة خلال فترة الصباح. إحدى الجهات أثارت الرعب مرة أخرى حول جزر الفوكلاند: فالإهتمام بالجزر يبرز فجأة، كما في حالة جبل طارق، في كل مرة تخلو الساحة من أي اهتمام آخر. ووزير الخارجية يريد أن يعرف كنتيجةٍ كيف ستصوِّت الأرجنتين في آخر قضايا افريقيا المطروحة أمام الأمم المتحدة. وأصدر كبير الموظفين تعليمات جديدة حول نفقات الترفيه، وأدرك السير هنري بلفريج أنه سرعان ماسيحين الوقت الذي سيضطر فيه هو أيضاً الى تقديم النبيذ الأرجنتيني. وكان هناك أيضاً تساؤل حول اشتراك بريطانيا في مهرجان مار ديل بلاتا السينمائي ـ وقد وصف عضو محافظ في البرلمان اشتراك بريطانيا على لسانِ شخصٍ يُدعى رَسِل بأنه إباحي. ولم ترد أية تعليمات بشأن فورتنوم منذ اليوم السابق حين صدرت أوامر لبلفريج بمقابلة وزير الخارجية، وبعد ذلك بأن يعمل بالإتفاق مع السفير الأميركي ـ وقد تلقى السفير البريطاني في أسونسيون توجيهات مماثلة، وتمنّى السير هنري أن يجد الأميركي الذي سيتعامل معه أكثر ديناميكية بقليل من ويلبور.

بعد الغداء أخبرتْهُ سكرتيرته أنَّ شخصاً يدعى الدكتور بلار يطلب مقابلته.

«ومن هو هذا البلار؟».

«إنه قادم من الشمال. أعتقد أنه يريد أن يقابلك بشأن قضية فورتنوم».

قال السير هنري بلفريج: «أوه، أدخليه، أدخليه، دعيهم يدخلون جميعاً»، كان غاضباً لأنه خسر قيلولته ـ إنها الوقت الوحيد من النهار الذي

يستطيع أن يشعر خلاله بخصوصيته. ثمة رواية لأغاثا كريستي جديدة تنتظر بالقرب من سريره، خرجت طازجة من عند بائع الكتب الذي في شارع كرزون.

قال للدكتور بلار: «لقد تقابلنا في مكان ما من قبل»، ونظر بارتياب الى بلار - يبدو أنَّ كلَّ شخصٍ في بوينس أيريس ماعدا أفراد الجيش الشعبي يحمل لقب دكتور. وفكر في نفسه قائلاً: «إنَّ له وجه محامٍ نحيل، وهو لايشعر بارتياحٍ أبداً مع المحامين، كانت تصدمه فظاظة النكات القانونية - إن المجرم المحكوم لم يكن يعني بالنسبة إليهم أكثر مما يعنيه المريض المصاب بالسرطان العضال بالنسبة الى الجرّاح.

ذكّره الدكتور بلار قائلاً: «نعم - هنا في السفارة. في حفل كوكتيل. لقد أنقذتُ زوجتك من بين يدي شاعر».

«طبعاً، طبعاً، تذكّرت الآن، ياصديقي العزيز. أنت تعيش هناك. وتحدّثنا عن فورتنوم، ألم نفعل؟».

«هذا صحيح، إنني أعتني بزوجته، فهي تنتظر مولوداً في الحقيقة».

«أوه، أنت طبيب من ذاك النوع إذن؟».

«نعم».

«حمداً لله! مَنْ يدري ماذا قد يحدث هنا، أليس كذلك؟ ثم إنك بريطاني حقّاً أيضاً، وليس مثل آل أوبراين أو هيغينز. حسن، حسن، لابد أنَّ السيدة فورتنوم المسكينة في حالةِ قلقٍ رهيب. يجب أن تخبرها أننا نقوم بعملِ كلّ مافي طاقتنا...».

قال الدكتور بلار: «نعم، طبعاً، هي تدرك ذلك، لكني أعتقد أني أريدُ أن أعرف شيئاً عن كيفية سير الأمور. لقد طرت الى بوينس أيريس هذا الصباح، لأني شعرت أني يجب أن أقابلك لأزيد معلوماتي قليلاً، وأنا عائد هذا المساء. فإذا كانت هناك أخبار محددة يمكنني أن أعود بها... لمواساة السيدة فورتنوم...».

«إنه لوضع رهيب يابلار. كما تعلم، إنَّ كل ماهو من مسؤولية كل شخص دائماً لايتحمل أحد مسؤوليته. الجنرال موجود هنا في الجنوب يصطاد السمك ويرفض أن يناقش المسألة بينما يقضي إجازته، ووزير الخارجية يقول إن القضية هي شأن باراغوائي بحت، ولايمكن التوقّع مِنْ رئيس الجمهورية أنْ يمارسَ ضغطاً على الجنرال، الذي ينزل ضيفاً على البلد. وطبعاً رجال البوليس يقدمون أقصى مابجهدهم، ولكن ربما لديهم أوامر أنْ يكون تحرّكهم سرياً قَدْرَ الإمكان، لصالح فورتنوم».

«لكنَّ الأميركيين... لاشك أنه يمكنهم أن يمارسوا ضغطاً على الجنرال. إنه ماكان ليبقى أربعاً وعشرينَ ساعة في باراغواي لولا مساعدتهم».

«أعرف كل هذا، لكنَّ ذلك يجعل الأمر أكثر صعوبة يابلار. كما تعلم الأميركيون يتبنّون وجهة نظر معقولة تقول إنه يجب تثبيط هِمَّة هؤلاء الخاطفين ـ حتى وإنْ كان هذا يشكّل، يعني، كيف أعبِّر عنه؟ خطراً معيناً على الحياة. مثلما حدث مع ذلك السفير الألماني الذي قتلوه ـ أين كان ذلك؟ في غواتيمالا؟ في هذه الحالة، ولنكن صريحينَ جداً... يعني، القنصل الفخري ليس سفيراً. إنهم يشعرون أنهم إذا تدخّلوا فسيكون ذلك بمثابة قدوةٍ سيئة. الإنكليز لايتمتعون بحظوة لدى الجنرال. وطبعاً لو كان فورتنوم أميركياً فلعله كان اتخذ موقِفاً مختلفاً».

«وهكذا ظَنَّه الخاطفون، كما قال البوليس. إنهم يظنّون أنَّ الخاطفين كانوا يبحثون عن سيارةٍ دبلوماسية في الظلام وحرفا CC يشبهان كثيراً حرفيّ CD».

«نعم، كم مرة قلنا لذاك الأبله الملعون ألاّ ينشر علماً أو يضع لوحة CC. إذ لايحق لقنصل فخري أن يستخدمها».

«ومع ذلك فما يزال الحكم بإعدامهِ قاسياً قليلاً».

«ماذا يسعني أن أفعل أكثر من ذلك يابلار؟ لقد توجهتُ إلى وزارة الخارجية مرتين. مساء أمس تحدثت بصفة غير رسمية إلى وزير الداخلية. كان

يتناول العشاء مع ويلبور ـ أقصد مع السفير الأميركي. لاأستطيع أن أفعل أي شيء آخر دون توجيهات تأتيني من لندن، ولندن لديها حس عجيب بـ ـ يعني ـ اللاعجلة. بالمناسبة كيف حال والدتك؟ إني أتذكر كل شيء الآن. أنت ذاك البلار. كانت والدتك غالباً ماتتناول الشاي مع زوجتي. كلتاهما تحبان الكعك والحلوى التي تحتوي «dulce de leche».

«Alfajores» (نوع من الكعك).

«هذا هو إسمها. شخصياً لاأطيقها».

قال الدكتور بلار: «أنا أدرك أني لابد أسبِّب لكَ إزعاجاً كبيراً، سير هنري، ولكن والدي موجود في أحد سجون الجنرال إن كان مايزال حياً. ولعلَّ عملية الإختطاف هذه هي آخر فرصة مُتاحة لإطلاق سراحه. وهذا يجعلني موضع شبهة البوليس، لذا تراني أشعر أنه شأني الخاص. ثم إنَ هناك فورتنوم. لايمكنني إلا أني أشعر بأني مسؤول عنه قليلاً. هو ليس أحد مرضاي، وإنما السيدة فورتنوم هي المريضة».

«ألم يكن هناك شيء غريب يحيط بذاك الزواج؟ لقد تلقيتُ رسالةً من هناك، من شخصٍ فضولي يدعى جيفريز».

«بل همفريز».

«نعم. هذا هو الإسم. كتبَ إليَّ يقول إنَّ فورتنوم قد تزوج من امرأةٍ «غير مرغوبة». ياله من محظوظ! لقد وصلت إلى السن الذي لم أعد أقابل أحداً من هذا النوع».

قال الدكتور بلار: «يبدو لي أني أستطيع أن أتصل بالخاطفين. فقد يتصلون بالسيدة فورتنوم بالهاتف إذا وجدوا أنهم لن يصلوا إلى نتيجةٍ مع السلطات».

«أمرٌ غير محتمل ياصديقي العزيز».

«لكنه ليس مستحيلاً، ياسيدي. إذا حدث شيء من هذا القبيل واستطعت أن أهبهم الأمل ... فلعلني أستطيع أن أقنعهم بتمديد المدة المحدَّدة ـ فلنقل أسبوعاً. في تلك الحالة لاشك أنه ستتوفر لنا فرصة للتفاوض؟».

«إذا أردتَ رأيي الخاص أقول إنكَ لن تنجح إلا في إطالة أمد الألم ـ بالنسبة إلى فورتنوم وللسيدة فورتنوم. ولوكنت مكان فورتنوم لتمنيتُ ميتةً سريعة».

«ولكن لاشك أنَّ ثمة مايمكن عمله».

«أنا واثق من هذا يابلار. لقد قابلت ويلبور مرتين والأميركيون لاينوون أن يتزحزحوا. ولو كان في استطاعتهم أن يُنهوا عملية الإختطاف بإطلاق سراح قنصل فخري بريطاني موجود في منطقة مجهولة، يتحمل ألوان العذاب، لسعدوا بذلك. يقول ويلبور أن فورتنوم مدمن كحول ـ فقد أخذ معه زجاجتي ويسكي في نزهتهم إلى الآثار واكتفى السفير بشرب الكوكا كولا. وقد تقصَّيت عن الأمر في ملفاتنا عنه، لكني لم أعثر على أي شيء محدَّد بخصوص إدمانه على الكحول، إلا أنَّ واحداً أو اثنين من تقاريره ... في الواقع، تبدو مضطربة. وهناك أيضاً رسالة وصلت من ذاك الرجل ـ اسمه همفريز؟ ـ يقول فيها إنه رفع العلم البريطاني بالمقلوب. ولكن لاضرورة لأن يكون مُدمن كحول ليفعل ذلك».

«في كل الأحوال، سير هنري، إذا أمكن إقناع الخاطفين بالتروي ولو قليلاً ...».

أدرك السير هنري بلفريج أن وقت قيلولته قد ضاع دون أدنى شك ـ وسيكون على رواية أغاثا كريستي الجديدة أن تنتظر ـ كان رجلاً دمثاً وحيَّ الضمير، متواضعاً بخصوص الصفقة. قال في نفسه إنه في وضعٍ كوضع الدكتور بلار لم يكن معقولاً أن يطيرَ في حرّ شهر تشرين ثاني الى بوينس

أيريس ليساعد زوج مريضة له. قال: «هناك شيء قد ترغب في محاولة عمله، وأنا أشكُّ كثيراً في إمكانية نجاحك فيه، ولكن مع ذلك ... ».

وتردد. إنه حين يمسك بقلمه يصبح سيد من يمارس الضغط: كانت تقاريره قصيرة وواضحة بشكل يثيرُ الإعجاب، وكتابة البرقية لاتجد أقل صعوبة في تقديمه على هذه الصورة. كان يشعر بألفة وهو في السفارة كما الألفة التي كان يشعر بها وهو في غرفة الحضانة، والشمعدان يتلألأ مثل الثمار الزجاجية على شجرة عيد الميلاد. في غرفة الحضانة تذكَّر كيف كان يكوِّن الأشكال بأناقةٍ وسرعةٍ بالعصي الملونة. وكانت الممرضة دائماً تقول: «سيدي هنري ولدٌ شاطر»، ولكن أحياناً حين كان يُترك ليسرحَ على المساحات الخضراء المترامية لحدائق كينغستون كان ينطلق بجموح. كانت تمر عليه لحظات مع الغرباء ـ مثل الذين كان مايزال يقابلهم في حفلة الكوكتيل السنوية ـ يكاد يُصاب فيها بالذعر.

«نعم، سير هنري؟».

«إنني آسف جداً ياصديقي العزيز. لقد شرد ذهني. رأسي فظيع هذا الصباح. ذاك النبيذ من ميندوزا ... ياللجمعيات التعاونية! ماذا تعرف الجمعيات التعاونية عن النبيذ؟».

«كنتَ تقول ... »

«نعم، نعم» ووضع يده في جيب صدره وتلمَّس قلمه ذا الرأس الدوَّار. كان كالطلسم. قال: «لن يفيد التأخير إلا إذا استطعنا أن نثير اهتمام الناس بما يكفي ... كنت أقوم بكل مافي وسعي، ولكن لاأحد في الوطن يعرف فورتنوم. لاأحد يأبه بأمر قنصل فخري. إنه لاينتمي إلى هيئة السلك. وأقول لك الحق قبل ستة أشهر مضت نصحوني بالتخلص منه. وتلك الرسالة ستُضَم إلى الملفات. وهكذا سيرتاح بل كل شخص في الوطن بعد اجتياز المدة المحدَّدة ولايعود هناك مذكرات تُكتب ـ ويكون قد أُطلقَ سراحه كما أظن».

«وإذا قُتِل؟».

«أخشى أن هذا أيضاً سينال استحسان وزارة الخارجية. فهو يدلُّ على الحزم، سيبرهن على أنهم لايتعاملون مع المبتزِّين. أنت تعرف نوع الكلمات التي يستخدمونها في مجلس العموم. القانون والنظام. لاضريبة تاج. وسيقتطفون قولاً من كيلينغ. حتى المعارضة ستُهلِّل».

«الأمر لايتعلق فقط بتشارلي فورتنوم... ثمة زوجته... إنها تنتظر مولوداً. ماذا لو اعتبرتْ الصحافة ذلك...».

«نعم. أفهم ماتقصد. المرأة التي تنتظر... الخ. ولكن من مضمون ماكتبه ذاك الرجل همفريز لاأعتقدُ أن الزوجة التي اقترن بها فورتنوم من النوع الذي يثيرُ النوعية الصحيحة من العواطف في الصحافة البريطانية. لن تكون مادةً تصلح لتقرأها العائلة. إنَّ صحيفة «صَنْ» أو أنباء العالم»، قد تستخدم طبعاً القصة الحقيقية، ولكن لن يكون لها الصدى الذي نبغي».

«وماذا تقترح، سير هنري؟».

«يجب ألاَّ تنقل كلامي أبداً، أبداً، يابلار. ستستغني وزارة الخارجية عني إذا علموا أني اقترحت شيئاً من هذا القبيل. ولاأعتقد أبداً أنه ستكون لفكرتي أية فائدة. إن ميسون ليس هو المادة المناسبة». «ميسون؟».

«آسف. أقصد فورتنوم».

«إنك لم تقترح أي شيء بعد، سير هنري».

«حسن، ماكنت أرمي إليه... ليس هناك ماهو أكثر إثارةِ لحقد موظف حكومي من النباح في صحف «محترمه». أحياناً تكون الطريقة الوحيدة للحصول على رد فعل عملي هي بث الدعاية المناسبة. إذا استطعتَ أن تنظِّمَ إحداث رد فعل في مدينتك... ولو حتى برقية مباشرة يرسلها النادي الإنكليزي الى صحيفة «التايمز»، تقديراً له على...» وتلمَّسَ قلمه مرة أخرى وكأنه يستلهم منه الرطانة الرسمية الصحيحة «... على مثابرته التي لاتعرف الكلل للحفاظ على المصالح البريطانية».

«ولكن لايوجد مايسمى بالنادي البريطاني، ياسيدي. ولاأعتقد أنه يوجد أحد من الإنكليز في المدينة فيما عدا همفريز وأنا».

ألقى السير هنري بلفريج نظرة سريعة على أظافر أصابعه (لقد أضاع فرشاة أظافره) وقال شيئاً بسرعة كبيرة حتى أن الدكتور بلار لم يستطع التقاط كلمة واحدة منه.

«آسف، لم أسمع ...».

«صديقي العزيز، لستُ مضطراً لأن أتهجَّا كل شيء لك. شكِّل نادياً إنكليزياً فوراً وأرسل برقية تقدير إلى «التايمز» و «التلغراف».

«وهل تظن أنَّ هذا سيفيد بشيء؟».

«لا، لاأظن، ولكن لاضرر في المحاولة. ثمة في صفوف المعارضة في البرلمان واحد يؤيد القضية بالرغم مما يقوله قادته. إنَّ هذا قد يسبِّب لسكرتير البرلمان un mouvois quart d,heure[1]. ثم هناك الصحف الأميركية. من الممكن أن تناقش الموضوع. يمكن للـ «نيويورك تايمز» أن تكون خبيثة تماماً. «حاربوا استقلال أميركا اللاتينية حتى آخر رجل انكليزي». أنت تعرف نوع الخط الذي قد ينتهجه المناهضون للحرب. إنه طبعاً مجرد أمل للمواساة. ولو كان رجلَ أعمالٍ جبار لأثارَ اهتماماً أعظم بكثير. والمشكلة هي، يابلار، أنَّ فورتنوم شخص تافه يثير الشفقة».

***

لم تكن هناك طائرة يعود بواسطتها الى الشمال قبل حلول المساء، ولم يعثر الدكتور بلار على عذرٍ يهدِّئ به ضميره إذا لم يزر أمه. كان يعرف

(١) أي: مدة ربع ساعة سيئة.

بالضبط أكثر شيء يسعدها، فحدَّد معها عبر الهاتف موعداً للقاء ولتناول الشاي في محل ريتشموند بشارع فلوريدا ـ فهي لم تكن تحب الأحاديث العائلية التي لامفر من أن تدور إذا بقيا في شقتها التي تبقيها خالية من الهواء، مثل القبة التي تغطي بها الأزهار الشمعية والتي اشترتها من دكان للأنتيكات يقع بالقرب من محلات هارود. كان دائماً ينتابه انطباعٌ وهو في شقتها بأن هناك أسراراً مخفيّة عنه في مكانٍ ما، على الرفوف والطاولات، بل حتى مخبّأة تحت الصوفا، أسرارٌ لاتريده أن يطّلع عليها ـ لعلّها مجرد تبذيرات صغيرة أنفقت عليها المال الذي يرسله إليها. إنَّ كعك الكريما هو طعام، لكن ببغاءً صينياً هو من فئة التبذيرات.

اضطر للتحرك بخطى حلزون خلال الحشد الذي يملأ الشارع الضيق بعد ظهر كل يوم حين يُغلق لصالح الحركة التجارية. ولم يكن منزعجاً، لأنَّ كل دقيقة يضيِّعها قبل أن يقابل أمّه كانت ربحاً صافياً له.

رآها جالسة في الطرف البعيد من قاعة الشاي المزدحمة، ترتدي ثوباً أسود غير مريحٍ أمام صحنٍ من الكعك المحلّي. قالت: «تأخرتَ عشر دقائق، يا إدواردو». منذ طفولته وهما يتحادثان دائماً باللغة الأسبانية. مع والده فقط كان يتحدث بالإنكليزية، وكان والده رجلاً لايُكثر من الكلام.

«أنا آسف ياأمي. كان يجب أن تباشري». حين انحنى ليقبِّل وجنتها شمَّ عبق شراب الشوكولاة المنبعث من فنجانها كأنفاسٍ حلوة تنبعث من ضريح.

«نادي على الخادم ياعزيزي، إذا لم يكن أمامكَ كعك من النوعِ الذي يعجبكَ».

«إنني حقاً لاأريد أن آكلَ أي شيء ياأمي. سأكتفي بفنجان من القهوة».

كان تحت عينيها كيسان ثقيلان، لكنَّ الدكتور بلار كان يعلم أنهما ليسا نتيجة للحزن، بل بسبب الإمساك. كان يعتقد أنه لو ضغطهما فسينبجس منهما كريماً أشبه بحلوى الإصبعية. فظيعٌ مايمكن للزمن أن يفعله بإمرأة

جميلة. الرجل غالباً يتحسَّن مظهره مع تقدمه في العمر، ونادراً مايحدث هذا للمرأة. وفكَّر: على الرجل ألا يعشق امرأة تصغره بأقل من عشرين عاماً. بهذه الطريقة يمكنه أن يموت قبل أن يذوي جمالها. فهل أمَّن فورتنوم نفسه ضد الخيبة حين تزوج كلارا، التي كانت تصغره بأكثر من أربعين عاماً؟ وفكَّر الدكتور بلار، لستُ حكيماً إلى هذا الحد، وسوف أعاصر جاذبيتها سنين طويلة.

سأل: «لِمَ الحِداد ياأمي؟ لم أركِ أبداً تلبسينَ الأسود من قبل».

«إنني حزينة على والدك»، قالت السينيورة بلار هذا ومسحتْ الشوكولاة عن أصابعها بفوطةٍ ورقية.

«إذن فقد تلقيتِ أخباراً؟».

«لا، لكن الأب غالفاو كان يتحدث إليَّ بجديةٍ شديدة. إنه يقول أنه يجب أن أكف عن التعلُّق بآمالٍ وهميةٍ حفاظاً على صحتي. في أي يوم نحن ياإدواردو؟».

بحثَ في ذهنه عن الجواب دون نجاح ـ بل كان غير متأكد في أي يوم من الشهر. وسأل: «أهو الرابع عشر؟».

«إنه اليوم الذي ودَّعنا فيه والدك في مرفأ أسونسيون».

وتساءل هل كان والده، لو دخل قاعة الشاي الآن، سيتعرَّف على المرأة الضخمة المنتفخة التي تلطخ زاويتا فمها بالكريما. إن الناس الذين لم نعد نراهم يتقدمون في العمر بجمالٍ في ذاكرتنا. قالت السينيورة بلار: «الأب غالفاو يقيم قداساً هذا الصباح لراحة روحه». تفحَّصتْ صحن الكعك واختارتْ منه قطعةً معينة، لاتختلف كثيراً عن الأخريات. ومع ذلك فحين بحث في ذاكرته كان مايزال يتذكَّر صورة امرأة جميلة تجلس في غرفتها تبكي. والدموع في عمرها عندئذ كانت تزيد في تألق عينيها. ولم تكن ثمة أكياس تشوههما.

قال: «مازال لديّ أمل ياأمي... أتعلمين أن الخاطفين قد وضعوا اسمه في قائمة السجناء الذين يطلبون تحريرهم؟».

«أيُّ خاطفين؟» لقد نسيَ أنها لاتقرأ الصحف أبداً.

قال: «أه حسن، إنها قصة طويلة جداً ولايمكن أن أحكيها لك الآن»، ثم أضاف بأدبٍ: «ثوبٌ أسود جميل جداً».

«يسعدني أنه يعجبك. لقد صنعته خصيصاً لقداس هذا الصباح. قماشه ليس غالياً أبداً، وخاطتَه لي امرأةٌ متواضعة... يجب ألاّ تعتقد أني مسرفة».

«لا، طبعاً لا ياأمي».

«ليتَ والدك كان أقلَّ عناداً... مافائدة البقاء في المزرعة وانتظار القتل؟ كان في وسعه أن يبيعها بسعر طيب، وكان يمكن أن نكون سعداء معاً هنا».

قال الدكتور بلار: «لقد كان مثالياً».

«المُثُل العليا على عيني ورأسي، لكنه أخطأ كثيراً وكان أنانياً جداً لأنه لم يضع مصلحة عائلته في المقام الأول»..

وتساءل عن نوع الصلوات المريرة والملائمة التي تلتها في ذاك الصباح في قداس الأب غالفاو. وكان الأب غالفاو يسوعياً بورتوغالياً أُبعدَ لسببٍ ما عن ريو دي جانيرو. كان يحظى بشعبيةٍ واسعة بين النساء ـ ربما كُنَّ أكثر استعداداً لائتمانهِ على أسرارهن لأنه قَدِمَ من مكانٍ بعيد جداً.

كان في كل مكان حوله في محل ريتشموند يسمع ثرثرة أصواتٍ نسائية. ولم يكد يميِّز عبارةً واحدة. وكأنه داخل قفصٍ كبير للطيور، يُنصتُ الى جلَبَةِ عصافيرٍ من مناطق عديدة مختلفة. فمنهن من تشقشق بالإنكليزية، وأخريات بالألمانية، بل إنه سمع عبارة فرنسية من النوع الذي يحظى بإعجاب أمه Georges est tres Coupable [1]. ونظر اليها وهي تُبرزُ

---

(١) أي: جورج مذنب تماماً.

فمها نحو الشوكولاة. تُرى هل شعرت أبداً بأي حبٍ نحو والده أو نحوه، أم كانت تمثّلُ ملهاةَ الحبِّ مثل كلارا؟ لقد كَبِرَ، خلال السنوات التي أمضاها وحيداً مع أمه في بوينس ايريس، ولم يعد يزدري الملهاة. إنه لايحتفظ بأي تذكارٍ عاطفيّ في شقته ـ ولاحتى بصورة فوتوغرافية؛ لقد كانت عارية وصريحة وتشبه ـ تقريباً زنزانة في محطةِ بوليس. حتى خلال علاقاته الغرامية مع النساء كان يحاول دائماً أن يتجنب تلك العبارة المسرحية «أحبك». وطالما اتُّهِمَ بالقسوة، على الرغم من أنه كان يفضّل أن يرى في نفسه شخصاً مثابراً ومشخِّصاً دقيقاً للأمراض. ولو أنه اكتشف مرضاً ولم يجد له أي وصف آخر، لاستخدم ودون تردُّد عبارة «أحبُّ»، لكنه كان دائماً يستطيع أن يخلع مشاعره التي يحس بها على مرضٍ مختلف تماماً ـ على الوحشة، أو الكبرياء، أو الرغبة الحسية، أو حتى على إحساسٍ بسيطٍ بالفضول.

قالت السينيورة بلار: «إنه لم يحب قط أياً منّا. كان رجلاً لم يعرف ذهره معنى الحب».

ودّلو يسألها بجدية: «وهل عرفتِهِ أنتِ؟»، لكنه كان يعلم أنها ستفهم كلامه كتأنيب، ولم يكن يرغب في تأنيبها. ولو أرادَ أن يكون أكثر عدلاً لأنّبَ نفسه على جهلٍ يعادل جهلها. وقال في نفسه، لعلها على حقٍ وأنا أشبهُ والدي. قال: «لاأتذكره بوضوح أبداً، فيما عدا أني لاحظت، حين ودّعنا، كم أصبح شعره شائباً. أذكر أيضاً كيف كان يتجول في المنزل ليلاً ويُغلق كل الأبواب. كان الضجيجُ يوقظني دائماً. إنني حتى لاأعرف كم سيكون عمره لو أنه مايزال حياً حتى الآن».

«كان سيكون في الحادية والسبعين اليوم».

«اليوم؟ إذن أكان في يوم عيد ميلاده ...؟».

«قال لي إنّ أفضل هدية يتلقاها مني هي أن يرانا ونحن نبتعد بإتجاه أسفل النهر. كم كان قولاً قاسياً منه».

«ولكن ياأمي لاأعتقدُ أنه كان يتعمّدُ القسوة».

«إنه حتى لم يُخبرنا مُسبقاً. لم يتوفر لي الوقت لأحزِمَ الأمتعة كما يجب. ونسيت بُعض مجوهراتي. من بينها ساعة يدي الصغيرة وبعض الجواهر كنتُ أرتديها مع فستاني الأسود. ألا تذكر الثوب الأسود؟ ولكن طبعاً لن تتذكر. لطالما كنتَ ولداً شاردَ الذهن. قال إنه كان يخشى أن أخبر صديقاتي فيثرثرن ويوقفنا البوليس. كنتُ قد أعددتُ له عشاءَ عيد ميلاد جميل جداً، مع جبن كمقبّل - كان دائماً يفضّل المقبلات على الفاكهة. هذه هي نتيجة الزواج من أجنبي. إن أذواقنا لم تتوافق قط. هذا الصباح صلّيت من كل قلبي لكي لايلقى الكثير من العذاب».

«ظننتك تعتقدين أنه مات».

«كنتُ أقصد طبعاً العذاب الذي يلاقيه في المَطْهر. يقول الأب غالفاو: «إن أسوأ آلام المطهر تحدث عندما يرى الناس نتيجة أعمالهم والعذاب الذي سببوه للذين أحبوهم»، وانتقتْ كعكة أخرى.

«لكنكِ تقولين إنه لم يُحِب أياً منّا».

«أوه، أعتقد أنه كان يكنُّ حباً من نوعٍ ما، وإحساساً بالواجب. لقد كان انكليزياً جداً. كان يفضل صحبة رجال آخرين. ولاأشك في أنه ذهب الى النادي بعد أن أقلعَ القارب».

«أي نادٍ؟»، ولم يكونا قد تحدثا عن والده كل ذاك القدر منذ سنين عديدة.

«لم يكن من المأمون انتسابه الى ذلك النادي. كان يسمى بـ«الدستوري»، لكن البوليس أغلقه. بعد ذلك أخذ الأعضاء يجتمعون سراً - بل إنهم اجتمعوا ذات مرة في مزرعتنا. ولم ينصت إلى كلامي عندما أبديت احتجاجي. قلت له: «إنَّ لك زوجةً وطفلاً» فقال لي: «كل عضو في النادي لديه زوجة وطفل». فقلت: «في هذه الحال يجب أن يكون لديهم أشياء أكثر أهمية من السياسة ليتحدثوا بشأنها»، وأضافت مع تنهيدة قصيرة: «آه حسن،

تلك مشاحنات مرَّ عليها الزمن. طبعاً أنا سامحته. إحكِ لي قليلاً عن نفسك ياعزيزي»، وأرسلتْ عيناها بريقَ اللااهتمام.

قال: «أوه، ليس ثمة مايستحق الذكر بحق».

***

كانت طائرة المساء المتجهة إلى الشمال تُشكّلُ بالنسبة إلى رجل مثل الدكتور بلار يحبُّ العزلةَ مجازفةً، فإنَّ بضعة غرباء وسيّاح يسافرون على متنها. بين المسافرين يكون هناك عادة سياسيون محليون عائدون من زيارةٍ قاموا بها للعاصمة، أو زوجات ثريات كان أحياناً يتفحصهنَّ (يكنَّ قد ذهبن إلى بوينس ايريس في حملةٍ للتبضُّع أو لحضورِ حفلة، أو حتى لتصفيف الشعر لأنهنَّ لايثقنَ في حلاقيهنَّ المحليين). كُنَّ يشكلنَ مجموعةً كثيرةَ الضجيج من المعارف في الطائرة الصغيرة ذات المحركين.

لم تكن هناك إلا فرصة ضئيلة للاستمتاع بسفرٍ دون إزعاج، وقد غاصَ قلبه بين جنبيه عندما حيَّته، عبرَ الممرِ مباشرة، السينيورة إسكوبار، حتى قبل أن يراها، بصيحةِ سرورٍ كصرخة ببغاءٍ «إدواردو!».

«مارغاريتا!».

وبدأ يفكُّ حزام الأمان مُذعناً، وذلك ليجلس في المقعد الخالي بجانبها.

قالت له بهمسٍ سريع: «لا. غوستافو بِصُحبَتي. إنه في الخلف يتحدث مع الكولونيل بيريز».

«الكولونيل بيريز هنا أيضاً؟».

«إنهما يتحدثان عن عمليةِ الإختطاف. أتَعرِفْ ماذا أعتقد؟».

«لا».

«أعتقدُ أنَّ الرجلَ المسمَّى فورتنوم هربَ من زوجته».

«ولِمَ يفعل ذلك؟».

«لابد أنَّكَ تعرف القصة ياإدواردو. إنها Putain [1]. أصلها من ذاك المنزل الفظيع في شارع ... ولكنك رجل. أنت تعرف جيداً المنزل الذي أعني».

تذكَّر أن مارغاريتا كانت دائماً، حين تقصد أن تكون فظة، تستخدم عبارةً فرنسية. كاد يسمعها وهي تصرخ، في غرفتها ذات الظلال المحسوبة بإتقان، التي تسبِّبها الـPersianas [2] الثُلثَيّ مغلقة، Baise moi,boise moi[3] ولم تسمح لنفسها قط باستخدام المرادف الأسباني للعبارة، قالت: «لم أركَ منذ وقت طويل جداً ياإدواردو»، وأطلقتْ تنهيدة مصمَّمة بعناية لأجل هذه المناسبة مثل مصراع نافذة غرفة نومها. وتساءل عمّا حلَّ بعشيقها الجديد ـ غاسبار فاليخو الموظف في الشؤونِ المالية. وتمنى ألا يكونا قد تشاجرا.

أنقذَهُ هدير المحركات من حاجتهِ للإجابة، وحالما سكتتْ التحذيرات الصادرة من فوقِ الرؤوس وحلَّقوا فوق مصب البلاتا ذي اللون الخاكي، الذي تحول أسود مع حلول ظلام المساء، وجدَ عبارةً غامضةً مستعدة على طرف لسانه: «أنتِ تعرفينَ ماذا يعني أن يكون المرء طبيباً يامارغاريتا».

قالت: «نعم، أعرف ـ ومَنْ أفضل مِني يعرف؟ هل ماتزال ترى السينيورة ڤيفا؟».

«لا. أعتقد أنها لابدَّ غيَّرت طبيبها».

«ماكنتُ لأفعلَ ذلك ياإدواردو ـ إذ لايتوفر الكثير من الأطباء الجيدين أمثالك. إن كنتُ لن أطلب منك أن تأتي لزيارتي فهذا فقط لأني على أحسن

---

(١) عاهرة.

(٢) ستارة النافذة.

(٣) قبِّلني، قبِّلني!.

مايرام. ولِمَ العجبُ، ها أنا قد حصلتُ على زوجٍ أخيراً. أنظرْ مَنْ معنا هنا، غوستافو! لاتتظاهر بأنك لاتعرف الدكتور بلار».

«وكيف يمكن أن أنساه؟ أين كنت كل تلك المدة ياإدواردو؟». وضغط غوستافو إسكوبار يده على كتف الدكتور بلار بقوة ودلّكه برفق ـ كانت لديه رغبة أميركية لاتينية في لمس أي رجل يتحدث إليه. حتى طعنة السكين في إحدى قصص خورخه خوليو سافيدرا يمكن تفسيرها على سبيل اللمس. وتابع بصوتٍ عالٍ كأنه أصم: «اشتقنا إليكَ. كم من مرة قالت لي زوجتي: «أتعجّب لماذا لم يعد إدواردو يتصل بنا هاتفياً الآن؟»».

كان لغوستافو شارب ضخم أسود بسبلتين كثّتين: وجهه، الأحمر القرميدي كصخر اللّطريط، يشبه فسحة أرضٍ مكشوفة قُطعت منها الشجيرات، وأنفه شامخ كحصانِ أحد الفاتحين Conquistador. قال إسكوبار: «لقد اشتقتُ إليك بقدرِ اشتياق زوجتي. ماأجمل وجبات العشاء تلك التي كنا نتناولها معاً ...».

خلال كل الفترة التي كان فيها الدكتور بلار عشيقاً لمارغاريتا لم يكن يستطيع أن يميِّز عن يقينٍ بين عبثه الخشن وسخريته. وطالما أكّدت له مارغاريتا أنّ زوجها رجلٌ يتّصف بأعنف أنوع الغيرة ـ وكانت كبرياؤها ستتأذّى لو أنها أحسّتْ أنه لايهتم حقاً. لعله كان يغار فعلاً، فقد كانت على الأقل إحدى عشيقاته، على الرغم من كثره عددهن. وكان الدكتور بلار قد قابله في مناسبةٍ واحدة في منزل الأم سانشيز حيث كان يسلّي أربع فتيات دفعة واحدة. وخِلافاً لما تنص عليه قواعد المنزل، كانت الفتيات يشربن الشمبانيا، شمبانيا فرنسية جيدة لابد أنه كان قد أحضرها معه. إذ لم يكن من الممكن فرض أية قواعد على غوستافو إسكوبار. وكان الدكتور بلار يتساءل أحياناً ماإذا كان قد أصبح يوماً زبوناً لكلارا. تُرى أي نوع من الملهاة كانت تؤدي لأجله؟ لعلّه دور التذلُّل؟

«ماذا كانت تفعل في بوينس ايريس ياعزيزي إدواردو؟».

ردَّ عليه الدكتور بلار بصيحةٍ مماثلة: «ذهبتُ إلى السفارة، وزرتُ أمي. وأنتَ؟».

«زوجتي كانت تتبضع. أما أنا فتناولت طعام الغداء في مطعم الهرلينغهام»، وواصل جسّ كتف الدكتور بلار بأصابعه وكأنّه يقررُ هل يشتريه لغرضِ التوالد (فقد كانت لديه مزرعة في جانب سهل التشاكو من نهر بارانا).

قالت مارغاريتا: «سيهجرني غوستافو مرة أخرى طوال أسبوعٍ كامل. إنه دائماً يسمح لي بالتبضُّع قبل أن يهجرني مباشرة».

كان الدكتور بلار يودُّ لو يحوّل مجرى الحديث نحو خليفته، غاسبار فاليخو، الذي كان من المناسب أكثر أن تنقل إليه هو المعلومات التي أفضت بها إليه لتوها. وكان مما سيدعم هذه الفكرة معرفةُ أنَّ فاليخو كان مايزال صديقاً للعائلة.

«ما رأيك في أن ترافقني إلى المزرعة ياإدواردو؟ سأعلّمكَ الصيد على أصوله».

قال الدكتور بلار: «الطبيب مربوط إلى مرضاه».

غاصت الطائرة في جيب هوائي فاضطرَّ إسكوبار للتشبث بخلفيةِ كرسي بلار.

«انتبه، Caro [1]. سوف تؤذي نفسك الثمينة. الأفضل أن تجلس».

لعلَّ التعبير الآلي الذي كشف عن عناية زوجته المفرطة به هو ماأغضب اسكوبار. أو لعلّه فهمَ التحذير على أنه تشكيكٌ في رجولته. فقال بسخرية لاشك في وضوحها: «أعتقد أنكَ في الوقت الحاضر مربوطٌ إلى مريضٍ مفضّل جداً ياإدواردو؟».

---

(١) ياعزيزي.

«كل مرضايَّ مفضلين لديّ».

«أعتقد أنَّ السينيورة فورتنوم تنتظرُ مولوداً».

«نعم. وكذا، كما أعتقد أنك تعلم، السينيورة فيغا، لكنها لاتثق بي في مسألة توليدها. إنها تتردد الآن على الدكتور بينيفنتو».

قال اسكوبار: «أنت رجل كتوم ياإدواردو»، ثم أخذ يتلمس طريقه مجتازاً زوجته إلى المقعد المجاور للنافذة وجلس عليه. وحالما أغلق عينيه بدا وكأنه قد نام، وهو جالس بإستقامةٍ تامة. بدا أشبه بأحد أسلافه القدامى، الذي كان ينام وهو على صهوة جواده، أثناء عبوره جبال الأنديز، وهاهو يتهادى برفق على خطى الطائرة عبر الذرى الثلجية للسحب.

سألت زوجته هامسة: «ماذا كان يقصد ياإدواردو؟».

«كيف لي أن أعرف؟».

تذكَّر أنه طالما كان نوم إسكوبار ثقيلاً. وذات مرة، في مرحلةٍ مبكِّرة جداً من تعارفهما قالت له مارغاريتا: «لاشيء يوقظه إلا الصمت المفاجىء، لذا تابع كلامك».

سأل: «عمَّ؟».

«عن أي شيء. لِمَ لاتقول لي كم تُحبُّني؟». كانا جالسين متجاورين على صوفا وكان زوجها نائماً على كرسي ذي ذراعين في الطرف النائي من الغرفة، وظهر الكرسي مواجهتهما. ولم يكن الدكتور بلار متأكداً حتى إنْ كانت عيناه مغمضتين. فقال بحذر: «أريدكِ».

«نعم؟».

«أريدكِ».

قالت مداعبةً إياه: «لاتتكلم بالتقسيط هكذا، إنه بحاجة لأن يسمع غمغمةَ حديثٍ متواصلة».

من الصعب أن يستمر المرء في التكلُّم بمفرده بينما امرأةٌ تمارس الحبَّ معه. وبدا الدكتور بلار يائساً بسردِ قصة الدببة الثلاثة، بادئاً بها من الوسط، في حين راح يراقب طوال الوقت وبقلقٍ الرأس التمثاليّ القوي من فوق ظهر الكرسي.

«وقال الدب الثالث بصوته الأجش: «مَنْ الذي كان يأكل ثريدي؟»».

جلست السينيورة إسكوبار على ساقيه المنفرجتين وكأنها طفل يلعب لعبة الأحصنة.

«وهكذا صعدت الدببة الثلاث الى الطابق العلوي وقال الدب الصغير: «مَنْ كان ينام على سريري؟»». وتشبَّث بكتفي السينيورة إسكوبار، وأضاع تسلسل القصة، بحيث اضطرَّ الى أن يتابع بأول جملة خطرت بباله: «هكذا يركب الحوذي. عَدْواً، عَدْواً، عَدْواً». حين عادا للإسترخاء على الصوفا جنباً الى جنب قالت السينيورة إسكوبار ـ ولم تكن قد سنحت له فرصة كافية بعد ليفكِّر بها على أنها مارغاريتا ـ «كنتَ تتكلم بالإنكليزية. ماذا كنتَ تقول؟».

قال الدكتور بلار بحذر: «كنتُ أعبِّر لكِ عن مدى رغبتي فيك». كانت قصة الحوذي لعبةً كان يلعبها مع والده، ولم يكن لدى أمه أية ذخيرة منها. لعلَّ الأطفال الأسبان ليست لديهم ألعاب ـ أو أن ألعابهم ليست طفولية.

سألته مارغاريتا مرة أخرى: «ماذا كان غوستافو يقصد بكلامه عن السينيورة فورتنوم؟»، معيدةً إياه بهذا الى الحاضر والطائرة التي كانت تتمايل وسط التيارات الهوائية فوق نهر البارانا.

«ليست لديَّ أية فكرة».

«ستخيِّب أملي فيك كثيراً ياإدواردو إنْ كانت لكَ أيَّة علاقة بتلك العاهرة الحقيرة. أنا مازلت مدلَّهة بك».

قال: «عن إذنك يامارغاريتا، أريد أن أقول كلمة للكولونيل بيريز». وكانت أنوار العاصمة لاباز تخفقُ من تحتهم ـ كان هناك خطٌّ مستقيم أبيض

من المصابيح يمتد على طول النهر بينما كانت الظلمة التامة تشمل الضفة الأخرى، وكأن المصابيح تحدّدُ طرف عالم مسطّح.

كان بيريز جالساً في الطرف البعيد من الطائرة بالقرب من المرحاض وكان المقعد الذي يجاوره خالياً.

سأله الدكتور بلار: «أمَا من أخبارٍ ياكولونيل؟».

«أية أخبار؟».

«عن فورتنوم».

«لا. لماذا؟ هل كنتَ تتوقع شيئاً؟».

«حسبتُ أنه ربما كان لدى البوليس شيء... ألم يقل الراديو أنكم كنتم تبحثون عنه في روزاريو؟».

«إنْ كان عندئذ حقاً موجوداً في روزاريو فيمكن أن يكونوا في ذلك الحين وبسهولة قد أحضروه إلى بوينس ايريس».

«وماذا عن المكالمة الهاتفية التي وردت مِنْ قرطبة؟».

«لعلَّ تلكَ محاولة بلهاء لتشويشنا. لايمكن أن يكون في قرطبة. إنني أشك في أنهم كانوا قد وصلوا إلى روزاريو وقتَ ورود المكالمة. إنَّ أسرع سيارة ستستغرق خمس عشرة ساعة لتصل».

سأله الدكتور بلار: «إذن أين تعتقد أنه موجود؟».

«لعلَّه مات وأُلقيَ به في النهر وإلا فهو مخبأ في منزلٍ قريب. ماذا كنتَ تفعل في بوينس ايريس؟».

كان سؤالاً مهذّباً، لايصدر عن رجل بوليس. ولم يكن مهتماً أكثر من إسكوبار.

«أردتُ أن أقابل السفير بشأن فورتنوم».

«نعم؟ وماذا كان لديه ليقوله؟».

«لقد أفسدتُ عليه قيلولته، المسكين. قال إنَّ المشكلة هي أنه لاأحدَ يهتمُّ حقاً».

قال الكولونيل بيريز: «أؤكد لكَ أني مهتم. بالأمس أردتُ أن أنظِّم عملية تفتيشٍ شاملةٍ للحي الشعبي، لكنَّ الحاكم رأى أنه عملٌ ينطوي على خطرٍ جسيم. أراد أن يتجنب إطلاق الرصاص قدر الإمكان. إن مقاطعتنا كان يسودها حتى الآن هدوء تام فيما عدا مشاكل بسيطة مع كُهَّان العالم الثالث أولئك. وقد أرسلني اليوم إلى بوينس ايريس لأتحدث مع وزير الداخلية. أعتقدُ أن الحاكمَ يأملُ في أن يؤجّل الأمور. فإذا ما استطاع أن يؤخِّر تنفيذ الحكم مدة كافية وكنا محظوظين فعثرنا على جثة فورتنوم خارج المقاطعة، فلن يشتكي أحد من أننا تصرَّفنا بحمق. وسيكون الإبتزاز قد فشل. وسيسعد الجميع. إلا أنا. حتى حكومتكم ستفرح. ألا يمكن أن نأمل في أن يدفعوا منحةً للأرملة؟».

«أشك في ذلك. إنه لم يكن أكثر من قنصل فخري. ماذا قال الوزير؟».

«ذاك الرجل لايخشى إطلاق النار. نحن بحاجة إلى المزيد من أمثاله. وهو ينصح الحاكم بالهجوم وليحدث مايحدث وبأن يستخدم القوات إذا لزم الأمر. فرئيس الجمهورية يريد أن يسوِّي كل شيء قبل أن يُنهي الجنرالُ رحلةَ صيده. ماذا قال سفيركم غير هذا؟».

«قال إنه إذا أثارت الصحف ضجة كافية ...».

«ولِمَ يفعلون؟ ألَمْ تسمع أخبار بعد الظهر؟ لقد تحطمت طائرة B.O.A.C. هذه المرة ألقى المختطف قنبلته فعلاً وكانت الحصيلة مائة وسبعة وستون قتيلاً ـ مائة وسبعة وستون فورتنوم، وأحدهم نجم سينمائي. لا، يادكتور بلار، يجب أن نعترف بأن قضيتنا صغيرة جداً».

«إذن أنت تريد أن تستسلم؟».

«أوه، لا ـ طوال حياتي وأنا أتعامل مع القضايا الصغيرة، وطالما كنت أفضِّل أن أراها تسوَّى. إنَّ الملفات الناقصة تحتلُ حيِّزاً أكبر. بالأمس أطلق الرصاص على مهرِّب في النهر، وهكذا استطعنا أن نُغلِق ملفَّه. وأحدهم

سرق مائة ألف بيزو من إحدى غرف نوم فندق الناسيونال ـ لكننا مانزال نراقبه. وصباح هذا اليوم الباكر عُثر على قنبلة صغيرة في كنيسة لاكروز. قنبلة صغيرة جداً ـ لأننا مقاطعة هادئة جداً ـ وكانت قد أُعدَّت لتنفجر عند منتصف الليل وقتَ خلوِّ الكنيسة. ومع ذلك، فلو أنها انفَجرت لدمَّرت الصليب العجائبي ـ ولكان ذلك شكَّل خبراً حقيقياً في صحيفة EL litoral ، حتى وإن لم يردْ في صحيفة الناسيون. وربما سيصبح جزءاً من الأخبار في كل الأحوال. وثمة إشاعات تدور الآن تقول إنَّ سيدتنا العذراء نزلت بنفسها من مذبحها وعطَّلت مفعول القنبلة بيديها وإنَّ رئيس الأساقفة زار موقع الحدث. أنت تعلم أن الصليب أُنقذَ أول مرة ـ حتى قبل أن توجد بوينس ايريس بزمن طويل ـ عندماقتلت الصاعقة الهنود الذين كانوا يحرقونه».

وفُتحَ باب المِرحاض، «ألا تعرف زميلي الكابتن فالاردو يادكتور؟ كنتُ أحكي للدكتور عن معجزتنا الجديدة ياروبن».

«قد تضحك لما سأقوله ياكولونيل، لكنَّ القنبلة لم تنفجر».

«أترى يادكتور، إن إيمان روبن مزعزع»

«إنني أحمل عقلاً متفتحاً، مثل رئيس الأساقفة. إن رئيس الأساقفة رجلٌ مثقف».

«أعتقدُ أن الفاصل كان قد أُعدَّ بشكل خطأ».

«ولماذا أُعدَّ الفاصل بشكل خطأ؟ يجب أن نعود إلى المنبع ياكولونيل. المعجزة شديدة الشبه بالجريمة. أنت تقول إن الفاصل أُعدَّ بشكل سيء، ولكن كيف نتأكد من أن سيدتنا العذراء ليست هي التي وجَّهت اليد التي أعدَّت الفاصل؟».

«في كل الأحوال أنا أفضِّل أن أؤمن بأن مايرفعنا في الهواء الآن هي المحركات ـ حتى وإن لم تكن من نوع رولز رويس ـ وليس بتدخُّلٍ إلهي».

هبطت الطائرة مرة أخرى في جيب هوائي وأضيئت أنوار الإنذار، طالبةً منهم أن يشدُّوا الأحزمة. وظنَّ الدكتور بلار أنَّ الكولونيل بدا عليه قليل من الإنزعاج، فعاد إلى مقعده.

الفصل الثاني

لمّا كان الدكتور بلار قد أرسل دعوتيه بالهاتف من المطار فقد وقف ينتظر ضيفيه على شُرفةٍ فندق الناسيول . وعلى ورقةٍ من أوراق الفندق أخذ يدوّن بعناية مسودة رسالة اعتقد أنّ السفير سيجدها رصينة ومقنعة . كانت المدينة قد بدأت تستفيق استعداداً لاستقبال ساعات المساء بعد قيلولة بعد الظهر الطويلة ، وأخذت سلسلةٌ من السيارات تمرّ على التوالي على طول ضفة النهر ، وشعّ التمثال الأبيض العاري المُقام في الحديقة الغنّاء تحت ضوء المصباح ، وتوهّجت لافتةُ الكوكا كولا بحروفها القرمزية كأنّها ضريح قديس . وخلال الظلام كانت المعدّية تُرسل زعيقها محذّرة من شاطىء سهل التشاكو . كانت الساعة قد بلغت التاسعة وبضع دقائق ـ وقتٌ مبكر جداً لأغلب الناس لتناول وجبة العشاء ـ والدكتور بلار وحده في المصطبة ، لولا وجود الدكتور بينيفنتو وزوجته . وقد جلس الدكتور بينيفنتو يرشف رشفات صغيرة من مشروبٍ فاتحٍ للشهية ، وكأنه يتذوق بتشكّكٍ شراباً مقوياً لأحد المنافسين ، بينما زوجته ، المرأة الصارمة المتوسطة العمر التي تضع صليباً كبيراً ذهبياً كأنه شارة مميزة ، لم تتناول أي شيء متفاخرةً بذلك ، وراحت تراقب اختفاء مشروب زوجها المشهّي بمظهرٍ زائفٍ من الصبر . وتذكّر الدكتور بلار أن اليوم هو الخميس ، وربما كان الدكتور بينيفنتو قد عاد مباشرة الى الفندق قادماً من جولته التفتيشية الأسبوعية على فتيات الأم سانشيز . وتجاهل كل من الطبيبين الآخر : فعلى الرغم من مرور كل تلك السنين منذ وصوله من بوينس ايريس إلا أنّ الدكتور بلار كان لايزال في عينيّ الدكتور بينيفنتو متطفلاً أجنبياً .

كان همفريز أول من وصل إلى ضيفيه . كان يرتدي بذلة قاتمة اللون مُحكمة الإغلاق وكانت جبهته مبللة برطوبة الليل . ولم يكن مزاجه قد

تحسن، بعد أن جلس فوراً، حين هاجمت بعوضة جريئة كاحله من خلال الجورب الصوفي الرمادي السميك، فضربها أستاذ اللغة الإنكليزية غاضباً واشتكى قائلاً: «كنتُ أنوي التوجه إلى النادي الإيطالي وإذا بي أتلقى رسالتك»، وكأنه يكره أن يُحرم من تناول وجبته المفضلة من الغولاش. ثم نظر إلى المقعد الثالث على الطاولة وسأل: «مَنْ سيأتي؟».

«الدكتور سافيدرا».

«لماذا بحقِ اللهِ؟ لا أفهم ماذا يعجبك في ذاك الرجل. إنه جحش طنَّان».

«خطر لي أن نصيحته قد تفيد. أريد أن أكتب رسالة إلى الصحافة بإسم النادي الأنكلو ـ أرجنتيني نيابة عن فورتنوم».

«أنت تهزأ بي. أي نادٍ؟ لا وجود لنادٍ بهذا الإسم».

«أنتَ وأنا سنؤسس النادي هذا المساء. وآمل أن يقبل سافيدرا منصب الرئيس. سأكون أنا رئيس المجلس. وأظن أنك لا تمانع بتولي منصب السكرتير الفخري. لن يكون هناك عمل كثير».

قال همفريز: «هذا جنون صرف. فحسب علمي لا يوجد في المدينة كلها إلاّ انكليزيٌ واحد آخر. أو كان موجوداً. أنا مقتنعٌ بأن فورتنوم هرب واختفى عن العيون. لابد أنَّ زوجته تلك كانت تكلفه مبالغ طائلة من المال. وعاجلاً أو آجلاً سنسمع أنَّ حساب القنصلية قد مُني بخسارة. أو من المحتمل أكثر أننا لن نسمع أي شيء. فموظفوا السفارة في بوينس ايريس سيعملون حتماً على إسكات كل الأصوات، حفاظاً على شرف مايسمُّونه خدماتهم. إن المرء لا يصل لحقيقة أي شيء». وكانت تلك شكواه الدائمة والصحيحة تماماً. كانت الحقيقة أشبه بجملة صعبة لم ينجح تلامذته في التوصل إلى كتابتها بطريقة قواعدية صحيحة.

قال الدكتور: «على الأقل ليس هناك أي شك حول عمليةِ الإختطاف. هذا أمر صحيح تماماً. وقد تحدثتُ إلى بيريز».

«وهل تثق فيما يقوله رجل بوليس؟».

«هذا الرجل، نعم. انظر ياهمفريز، يجب أن تكون معقولاً. يجب أن نفعل شيئاً لأجل فورتنوم. حتى وإنْ كان حقاً قد رفع العلم البريطاني مقلوباً. لم يبقَ أمام المسكين في الحياة غير ثلاثة أيام. اليوم اقترح السفير عليّ - وأراد أن يبقى الأمر سراً - أن نكتبْ مايشبه التقدمة ونرسلها إلى الصحف. أن نفعل أي شيء من شأنه أن يثير قليلاً من الاهتمام. ومن النادي الإنكليزي هنا. آه، نعم، نعم، لقد قلتَها لتوك. طبعاً لاوجود لمثل هذا النادي. لقد خطر لي أثناء عودتي بالطائرة أنه من الأفضل أن نسمي النادي بالأنكلو - أرجنتيني. بهذه الطريقة يمكننا استغلال اسم سافيدرا وتسنح لنا فرصة أكبر لإنجاح مسعانا في صحافة بوينس ايريس. يمكننا أن نتكلم عن الأثر الطيِّب الذي طالما خلّفه فورتنوم في العلاقات مع الأرجنتين. ويمكننا أن نتحدث عن نشاطاته الثقافية».

«نشاطاته الثقافية! أبوه كان سكيراً سفيهاً وكذا كان تشارلي فورتنوم. ألا تذكر تلك الليلة التي اضطررنا فيها إلى جرّه والعودة به إلى البوليفار؟ لم يكن حتى يستطيع أن يقف على قدميه. كل مافعله لأجل علاقتنا مع الأرجنتين هو أنه تزوج من عاهرة محلية».

«في كل الأحوال لايمكننا أن نتركه يموت».

قال همفريز: «لن أرفع حتى إصبعي الصغير لأجل ذاك الرجل».

كان هناك أمرٌ ما يحدث داخل الفندق. فرئيس الخدم، الذي كان قد خرج إلى الشرفة ليستنشق الهواء قبل أن يبدأ نشاطاته الليلية، هرع عائداً إلى غرفة الطعام. والخادم، الذي كان في منتصف الطريق الى مائدة الدكتور بينيفتتو، غيّر اتجاهه استجابةً لإشارة تلقّاها. ومن خلال النافذة الفرنسية الطراز للمطعم رأى الدكتور بلار الوميض الرمادي الفاتح لبذلة خورخه خوليو سافيدرا حين وقف المؤلف ليتبادل بضع كلمات مع هيئة الفندق. وتناولتْ امرأةٌ من غرفة الملابس قبعته، وأخذ الخادم منه عصاه، وجاء المدير مسرعاً من

مكتبه لينضم إلى رئيس الخدم. كان الدكتور سافيدرا يشرح لهم شيئاً، يشيرُ إلى هذه الجهة والى تلك، وحين خرج إلى المصطبة تقدموه على شكل كتيبة نحو مائدة الدكتور بلار. حتى الدكتور بينيفنتو نهض بضعة إنشات عن مقعده، بينما الدكتور سافيدرا يتقدم بقدميه الشبيهتين بمخالب الحمام بحذائهِ المدبَّب اللمَّاع.

قال همفريز ساخراً: «هاقد أتى الروائي العظيم. أراهن على أنه لاأحد منهم قرأ كلمةً واحدة ممّا كَتُب».

قال الدكتور بلار: «لعلَّكَ على حق، لكنَّ جدَّه الأكبر كان حاكماً هنا. في الأرجنتين لديهم حسٌّ قوي بالتاريخ».

أراد المدير أن يعرف إن كانت المائدة موضوعةً في الموضع الذي يُرضي الدكتور سافيدرا، وهمس رئيس خدم الفندق في أذن الدكتور بلار بخبرِ وجودِ صنفٍ ثانٍ لم يكن مُدرجاً في لائحة الطعام ـ فقد وصل في ذلك اليوم سمك سلمون طازج من إغوازو، بالإضافة إلى السمك الذهبي إذا رغبَ ضيوف الدكتور بلار به.

بعد ذهاب أفراد هيئة إدارة الفندق واحداً إثر آخر، قال الدكتور سافيدرا: «لقد أثاروا حولي ضجة سخيفة. كنت فقط أخبرهم أني سأضمِّن روايتي الجديدة مشهداً يدور في مطعم فندق الناسيونال. أردت أن أشرح أين أريد لبطلي أن يجلس. كان يجب أن أرى بالضبط ماذا سيقع ضمن مجال رؤيته حين يدخل فيورابيا، الذي سيعتدي عليه، من الشرفة وهو مسلَّح».

سأله همفريز بخبث: «أهي قصة بوليسية؟ أنا أحبُّ القصص البوليسية الجيدة».

«أنا واثق من أنني لن أكتب قصصاً بوليسية أبداً يادكتور همفريز، إذا كنتَ تقصد بالقصة البوليسية إحدى تلك الألغاز التافهة، والتي هي الموازي الأدبي للأحاجي. في كتابي الجديد أنا مهتم بسايكولوجي العنف».

«عن الغوشو[1] مرة أخرى؟».

«لا، ليس عن الغوشو. هذه رواية معاصرة. مغامرتي الثانية في السياسة. إنها تجري في زمن الدكتاتور روزاس».

«أظنّكَ قلتَ إنها معاصرة».

«الأفكار معاصرة. لو كنتَ كاتباً يادكتور همفريز، بدل أن تدرّس الأدب، لعرفتَ أنّ الروائيّ يجب أن يقف على مبعدة من موضوعه. لاشيء يعتق بسرعة كبيرة أكثر من المعاصر الفوري. يمكنك أيضاً أن تتوقع مني أن أكتب قصة عن اختطاف السينيور فورتنوم»، والتفت إلى الدكتور بلار: «لقد عانيت من بعض الصعوبة في الفرار هذا المساء، حدث شيء مزعج، ولكن حين اتصل بي صاحبي الدكتور كان يجب أن ألبّي النداء، ما القضية؟».

«الدكتور همفريز وأنا قرّرنا أن نؤسس نادياً أنكلو أرجنتينياً».

«فكرة ممتازة. ماهي نشاطاته ... ؟».

«ثقافية طبعاً. أدبية، حفريات أثرية. نريدك أن تتولى منصب الرئيس».

قال الدكتور سافيدرا: «يشرّفني هذا».

«من أول الأشياء التي أودُّ أن يقوم بها النادي هي توجيه نداءٍ إلى الصحافة حول مسألة خطف فورتنوم. ولو كان هنا لأصبح عضواً».

سأل الدكتور سافيدرا: «كيف لي أن أساعدكم؟ إنني بالكاد تكلمت مع السينيور فورتنوم. مرة واحدة فقط في منزل السينيورة سانشيز ... ».

«لقد أحضرتُ مسودة أولية ـ أولية جداً. إنني لستُ كاتباً ـ فيما عدا الوصفات الطبية».

قال همفريز: «الرجل فرّ واختفى. هذا كل مايمكن قوله. لعلّه هو نفسه الذي رتّب القضية كلّها. شخصياً أرفض أن أوقّع».

---

(١) المرادف الأرجنتيني لرعاة البقر، أو الكاوبوي.

«إذن يجب أن نعمل من دونك ياهمفريز . ولن يتساءل إلا أصدقاؤك ـ إذا بقي لك منهم أحداً ـ حين تنشر الرسالة ، لماذا لستَ عضواً في النادي الأنكلو أرجنتيني . بل قد يظنون أننا لم نقبل بك» .

«أنتَ تعلم أنه لاوجود لمثل هذا النادي» .

«بل نعم ، يوجد ، وقد وافق الدكتور سافيدرا على أن يكون رئيسنا . وهذا أول عشاء للنادي . ولدينا سمك سلمون من إغوازو جيد جداً . فإذا كنت لاتريد أن تصبح عضواً فاغرب عنا وتناول بعض الغولاش في بورتك الإيطالية» .

«هل تحاول ابتزازي؟» .

«لسبب وجيه» .

«من الناحية الأخلاقية لستَ أفضل من المختطفين في شيء» .

«لستُ أفضل ـ ومع ذلك أفضّلُ ألاّ يقتلوا تشارلي فورتنوم» .

«إنّ تشارلي فورتنوم وصمة عار على جبين بلده» .

«لاتوقيع . لاسلمون» .

قال الدكتور همفريز ، وهو يفك فوطته : «إنك لاتترك لي مجالاً للإختيار» .

قرأ الدكتور سافيدرا الرسالة بعناية ، ثم وضعها بجانب الصحن . قال : «يجب أن آخذ هذه إلى البيت لأعالجها . ينقصها ـ لاعليكما من نقدي ، فهو نابع من ضميري المهني ـ ينقصها حسّ العجلة . نبرتها باردة وكأنها تقرير لإحدى الشركات . لو تتركان الرسالة في عهدتي فسأكتب شيئاً مفعماً بالألوان وبالأثر الدرامي . شيئاً تنشره الصحافة على علاّته» .

«أريد أن أبرق بها هذا المساء إلى صحيفة «التايمز» اللندنية وأجعلها تظهر في صحف بوينس ايريس» .

«رسالةٌ كهذه لايمكن الإستعجال بكتابتها يادكتور بلار، ثم إني كاتب بطيء. أعطني مهلة حتى الغد وأعدك بأن تكون النتيجة جديرة بالإنتظار».

«قد لايتبقّى للمسكين إلاّ ثلاثة أيام من الحياة. أفضّل أن أبرق مسودتي هذه الليلة على أن أنتظرحتى الغد. فهناك في إنكلترا يكون الغد قد حل الآن».

«إذن عليكما أن تعملا دون توقيعي. أنا آسف يادكتور، سيسيء إليَّ أن أضع اسمي على الرسالة كما هي الآن، لن يصدّق أحد في بوينس ايريس أنَّ لي يداً فيها. إنها تحتوي على ـ وسامحني ـ بعض الكليشيهات الفظيعة. إسمع هذه فقط ...».

«لهذا أريدك أن تعيد كتابة الرسالة. لاشك في إنك تستطيع أن تفعل ذلك الآن، على المائدة».

«أتعتقد أن الكتابة تتم بهذه السهولة؟ هل تجري عملية دقيقة، ارتجالاً، على هذه المائدة؟ سأظلُّ يقظاً طوال الليل إذا لزم الأمر. إنَّ نوعية الرسالة التي سأكتبها لكما ستعوِّض كثيراً عن التأخير، حتى في نسختها المترجمة. بالمناسبة، من الذي سيترجمها ـ أنت أم الدكتور همفريز؟ أريد أن أراجع الترجمة قبل أن ترسلها الى الخارج. طبعاً أنا أثق في دقتكما، لكنها مسألة أسلوب. ففي رسالة كهذه يجب أن نحرِّك عواطف القارىء، أن نوضِّح له جوانب شخصية هذا الرجل المسكين ...».

قال همفريز: «كلّما أخفيت جوانب شخصيته كان أفضل».

«في رأيي، إنَّ السينيور فورتنوم رجل بسيط ـ وليس حكيماً جداً أو ذكياً ـ وفجأة إذ به يجد نفسه قاب قوسين من الموت العنيف. ربما لم يفكر في الموت من قبل. إن رجلاً مثله في وضعه هذا إمّا أن يستسلم للخوف أو تتعاظم مكانته. فكِّرْ في حالة سينيور فورتنوم إنه متزوج من فتاة صغيرة، وثمة طفل قادم على الطريق ...».

قال الدكتور بلار: «ليس لدينا وقت لكتابة رواية حول الموضوع».

«حين قابلته كان قد أسرف قليلاً في الشرب. وجدتُ صحبته مُربكةً إلى أن رأيت خلف مرحه الظاهري كآبة عميقة».

قال بلار مندهشاً: «إنكَ لاتخطيء كثيراً هنا».

«أعتقد أنه كان يشرب للسبب نفسه الذي يجعلني أكتب - أي ليهرب من ظلام روحه. لقد أسرَّ إليَّ بأنه كان عاشقاً».

هتف همفريز: «عاشق في الستين! كان يجب أن يكون تجاوز كل ذلك الهراء».

قال الدكتور سافيدرا: «أنا لم أتوصل لتجاوزه. ولو كنتُ تجاوزته لما استطعتُ أن أكتب. إنَّ الغريزة الجنسية والغريزة الخلاقة تعيشان وتموتان معاً. إنَّ الشباب، يادكتور همفريز، يدوم في بعض الرجال مدة أطول مما قد تظن، وعلى ضوء تجربتك الخاصة».

«هو فقط يريد أن تكون له عاهرة تحت تصرفه. فهل تسمي هذا حباً؟».

قال الدكتور بلار: «ليتنا نعود إلى موضوع الرسالة...».

«وماهو الحب بالنسبة إليك يادكتور همفريز؟ زواجٌ معدٌّ وِفقَ التقاليد الأسبانية؟ عائلة كبيرة من الأطفال؟ دعني أقول لك إني أنا نفسي أحببت عاهرة. يمكن لعاهرة أن تتحلى بسخاءٍ في الروح أكثر مما تجده عند الطبقة البورجوازية في بوينس ايريس. وبوصفي شاعراً تلقيتُ من العون من عاهرة أكثر مما تلقيتُ من أي ناقد - أو أستاذ في الأدب».

«حسبتُ أنك روائي، وليس شاعراً».

«في اللغة الأسبانية لانحصرُ لقبَ شاعر في مَنْ يكتب نظماً».

قاطعه الدكتور بلار «الرسالة»، دعونا نحاول أن ننهي الرسالة قبل أن نأتي على السلمون».

«يجب أن تتركني لأفكر بهدوء - إن الجملة الإفتتاحية هي مفتاح كل مايليها. يجب النقر على النبرة الصحيحة، بل وعلى الإيقاع الصحيح.

الإيقاع الصحيح في النثر مهمٌ بكل دقائقه مثلما الوزن الصحيح في قصيدة. هذا سلمون جيد جداً. هل لي بكأس نبيذ أخرى؟».

«يمكنكَ أن تشرب الزجاجة كلها إذا كتبتَ الرسالة».

قال الدكتور همفريز: «ماأكثر مانثير من ضجة حول تشارلي فورتنوم». أنهى نصيبه من السلمون، وملأ كأسه، ولم يعد ثمة مايخشاه. «في الحقيقة هناك دافع معقول آخر لاختفائه - إنه لايريد أن يكون أباً لطفلِ رجلٍ آخر».

قال الدكتور سافيدرا: «أريد أن أبدأ الرسالة بدراسة شخصية الضحية»، والقلم بيده وثمة أثر من سمك السلمون على شفته العليا، «ولكن بشكل ما السينيور فورتنوم يرفض أن يعود حياً. إنني أضطر إلى حذفِ كلمةٍ بعد كلّ كلمة. ولو كنتُ أكتب روايةً لاستطعت أن أخلقه ببضع جملَ. إنَ واقعيته هي التي تدحرني. إنني أقف عاجزاً أمام واقعيته. عندما أكتب عبارة أشعر كأنَّ فورتنوم هو الذي أمسك بيدي وقال: «ولكني لست هكذا أبداً»».

«دعني أصبُّ لك كأساً أخرى».

«ثمة شيء آخر يقوله لي يجعلني أتردد: «لماذا تحاول أن تعيدني إلى نمط الحياة الذي كنت أعيشه، حياة حزينة وبلا شرف؟»».

قال الدكتور همفريز: «إن تشارلي فورتنوم لايمكن أن يهتم كثيراً بمسألة الشرف، مادام يتوفر لديه مايكفيه من الويسكي».

«إذا استطعت أن تسبرَغور شخصية أي إنسان، حتى وإن كان أنت، فسوف تجد حس الرجولة machiesmo كامناً هناك».

كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة وبدأ الضيوف يتوافدون إلى الشرفة لتناول العشاء. تحرّكوا في صفين منفصلين، مارّين من جانبي مائدة الدكتور بلار، كقبيلتين مهاجرتين تمرّ بصخرةٍ في الصحراء، وهم يحملون أولادهم معهم. بينهم طفلٌ صغير، يمكن أن يكون تمثالاً من الشمع، جالس بشكل قائم في عربة للأطفال: وطفلة ذات ثلاث سنوات شاحبة الوجه تترنح تعباً وهي تعبر الصحراء الرخامية ترتدي ثوباً للحفلة أزرق، وقد ثُقبت أذناها

الصغيرتان لتعليق قرطين ذهبيين منهما، وصبي في السادسة يمشي كأنما على إيقاع طبل، يتثاءب عند كل خطوة، على طول جدار الشرفة. ويتهيَّأ للناظر أنهم قطعوا القارة بأكملها ليصلوا إلى هنا. ولاشك في أنهم عند الفجر، وبعد انتهاء الرعي، سيحزمون أغراضهم وينتقلون إلى أرضٍ أخرى ليخيِّموا فيها. قال الدكتور بلار بصبرٍ نافذ: «أعدْ إليّ رسالتي، سأبعثُ بها كما هي».

«في هذه الحالة لايمكنني أن أضع اسمي عليها».

«وأنت، ياهمفريز؟».

«لن أوقع. لم يعد في وسعك أن تهددني الآن. لقد أنهيتُ حصَّتي من السلمون».

أخذ الدكتور بلار الرسالة ومزقها قطعتين. وضع بعض النقود على المائدة ونهض.

«دكتور بلار، أنا آسف لأني أغضبتك. أسلوبك لابأس به، إنه بارع، ولكن لن يصدقَّ أحد أني أنا من كتب الرسالة».

ذهب الدكتور بلار إلى غرفة الغسل. وبينما هو يغسل يديه راح يفكر: إنني أشبه ببيلاطس، كليشة لن يوافق عليها الدكتور سافيدرا. غسل يديه بدقة وكأنه ينوي أن يُعاين مريضاً. رفعهما من الماء ونظر في المرآة وألقى سؤالاً على الصورة القلقة هناك ـ إذا قتلوا فورتنوم هل سأتزوج كلارا؟ ليس من الضروري، لن تتوقع أبداً منه أن يتزوجها. إذا ورثت المخيم يمكنها أن تبيعه وتنتقل إلى مكانٍ آخر؟ إلى موطنها في توكومان؟ أو لعلها تشتري شقة في بوينس أيريس وتأكل الكعك المحلى مثل أمه؟ سيكون من المريح أكثر لهم جميعاً إذا بقي فورتنوم حياً. سيكون فورتنوم أباً أفضل للطفل منه ـ فالطفل يحتاج إلى الحب.

حين كان يجففُ يديه سمع صوت الدكتور سافيدرا من خلفه يقول: «إنك تظن أني خذلتك يادكتور، لكنك لاتحيط بملابسات كل الظروف».

كان الروائي يتبول. كان قد رفع الكُم الأيمن لسترته الرمادية بلون اللؤلؤ. كان رجلاً صعب الإرضاء.

قال الدكتور بلار: «ماظننت أنني أطلبُ الكثير حين سألتك أن توقِّع على الرسالة، مهما كان أسلوبها سيئاً، ولعلَّها تُنقذ حياة رجل».

«أعتقد أنه من الأفضل أن أفضي إليك بالسبب الحقيقي. إنني بحاجة إلى أكثر من حبة من حبوبك هذا المساء يادكتور، لقد جُرحت جرحاً عميقاً» زرَّر الدكتور بلار بنطاله والتفت: «ألم أحدثك لتوّي عن مونتيز؟».

«مونتيز؟ لا، لاأذكر الإسم».

«إنه روائي شاب في بوينس ايريس ـ لم يعد شاباً جداً الآن، على ماأظن، فهو أكبر منك، السنون تمر بسرعة. لقد ساعدته في نشر روايته الأولى. رواية غريبة جداً. سوريالية لكنها كُتبت بشكلٍ ممتاز. إيميسه[1] رفضها، وسُور[2] لم يقبلها، أنا فقط عملت على إقناع ناشري الخاص بقبولها بعد أن وعدته بأن أكتب نقداً جيداً عنها. في تلك الأيام كنت أكتب عموداً أسبوعياً في صحيفة ناسيون كان له كبير أثر. كنت مولعاً بمونتيز. شعرت أني بمثابة أب له. مع أني، خلال أعوامي الأخيرة في بوينس ايريس لم أره إلا نادراً. فقد كوَّن لنفسه بعد نجاحه أصدقاءه الخاصين. مهما يكن فأنا لاأتوانى عن تقريظ إنجازه كلَّما سنحت لي الفرصة، والآن أنظر ماذا كتب عني»، وأخرج من جيبه ورقة مطبوعة مطوية.

كانت مقالةً طويلةً حسنة الصياغة. موضوعها يدور حول الأثر السيء للقصيدة الملحمية «مارتين فييرو» على الرواية الأرجنتينية. واستثنى المؤلف بورغيس من نقده. وذكر بضع كلمات تقدير لماليا mallea

(1) Emece
(2) Sur
إثنان من أصحاب دور النشر الشهيرة.

وساباتو Sabato [1]، إلا أنه جعل من روايات خورخه خوليو سافيدرا أضحوكة قاسية. وظهرت كثيراً كلمة «عادي»، وكان رنين كلمة machismo الساخر يصدر في كل فقرة تقريباً. هل كان ينتقم من الرعاية التي أسبغها عليه سافيدرا ذات مرة، ومن كل النصائح المُملة التي لعلَّه أجبره على سماعها؟ قال الدكتور بلار: «نعم، إنها خيانة ياسافيدرا».

«ليس في حقي فقط، بل في حق وطنه. إن قصيدة «مارتين فييرو» [2] هي الأرجنتين. ولِمَ العجب، إنَّ جدي الأكبر مات أثناء مبارزة. لقد تقاتل أعزل مع غوشو سكير أهانه. ماذا كان مصيرنا الآن» ـ ولوَّحتْ يده مابين الحوض والمبولة ـ «لولا تبجيل آبائنا للـmachismo؟ هاأنت قد رأيت ماذا يكتب عن فتاة سالتا. إنه حتى لم يفهم رمز ساقها الوحيدة. ولو كنتُ وقَّعت على رسالتك فتخيَّل كيف كان سيسخر من أسلوبها» مسكين خورخه ـ هذا مايحدث للكاتب الذي يهرب من أنداده ويختبىء في الأقاليم. إنه يكتب بأسلوب موظف إداري. «أتمنى لو كان مونتيز موجوداً هنا الآن حتى ألقِّنه درساً في معنى الـmachismo. هنا على هذه الأحجار القرميدية».

سأل الدكتور بلار، آملاً عبثاً في أن يشيع ابتسامة: «ألا تستعد بسكين؟».

«سأقاتله مثلما فعل جدي الأكبر: أعزل».

قال الدكتور بلار: «لكنَّ جدكَ الأكبر قُتِلْ».

قال الدكتور سافيدرا: «لستُ أخشى الموت».

«أمَّا تشارلي فورتنوم فيخشاه. والمطلوب عمل شيء صغير جداً ـ أن توقِّع على رسالة».

---

(١) إدواردو ماليا، وأرنستو ساباتو: روائيان من أميركا اللاتينية.

(٢) «مارتين فييرو»: قصيدة ملحمية كتبت بأسلوب حماسي جياش وتتحدث عن بطل حقيقي.

«شيء صغير؟ أن أوقّع على مقطوعة نثرية كهذه؟ سيكون أسهل كثيراً أن أعطي حياتي. آه، أنا أعرف أنه من المستحيل على مَنْ ليس كاتباً أن يفهم».

قال الدكتور بلار: «إنني أحاول أن أفهم».

«إن غرضك هو أن تُلفت الإنتباه إلى قضية تشارلي فورتنوم، أليس صحيحاً؟».

«نعم».

«إذن إليك اقتراحي. أبلغ الصحف وحكومتك بأني مستعد أن أقدِّم نفسي رهينة بدلاً منه».

«أأنتَ جاد؟».

«كل الجدِّية».

قد تنجح، فكَّر الدكتور بلار، ثمة فقط إمكانية ضعيفة في هذا البلد المجنون لأن تنجح. وقال بفعل التأثر: «إنها شجاعة منك ياسافيدرا».

«على الأقل سأبرهن لذاك الشاب مونتيز أنَّ الـ machismo ليست من اختراع مؤلف «مارتين فييرو»».

قال الدكتور بلار: «أتدرك أنهم قد يقبلون عرضك؟ بعد ذلك لن تكون هناك روايات بقلم خورخه خوليو سافيدرا ـ اللهم إلا إذا قرأ الجنرال أعمالك وأصبحتْ لكَ شعبية واسعة في باراغواي».

«وهل ستبرق إلى بوينس أيريس وإلى صحيفة «التايمز» اللندنية أيضاً؟ لن تنسى صحيفة التايمز؟. إن اثنتين من رواياتي طُبعتا في إنكلترا. والـ El litoral: يجب أن تخبرهم. لابدَّ أن المختطفين يقرؤون الـEl litoral».

توجها معاً إلى غرفة مكتب المدير التي كانت خالية، وراح الدكتور بلار يكتب نصوص البرقيات، وحين استدار رأى عينيّ الدكتور سافيدرا حمراوين من أثر الدموع المحبوسة.

قال سافيدرا: «كان مونتيز مثل إبني. وقد أعجبتُ بكتُبه. كانت تختلف كثيراً عن كُتبي، وكانت رفيعة المستوى ـ لقد ميَّزتُ مستواها الرفيع. ومع ذلك لابدَّ أنه كان طوال الوقت يحتقرني. أنا رجل عجوز يادكتور بلار، والموت ليس بعيداً كثيراً عني على أية حال. تلك القصة التي كنت أصفها لمدير الفندق ـ قصة الدخيل ـ كنت أنوي أن أطلق عليها اسم «الدخيل» ـ لعلها لن تنتهي أبداً. حتى حين كنت أخطط لها أدركتُ أنها تنتمي إلى منطقته من الأدب وليس إلى منطقتي. كنت في الماضي أنفحه بنصيحتي، وهاأنا الآن ـ أعمل على تقليده. والجدير بالشبان أن يلجأوا الى التقليد. . إنني أفضل الموت بطريقة تدعو حتى مونتيز لإحترامها».

«سيقول إنك أنتَ بدورك قُتِلتَ في النهاية على يد «مارتين فييرو».

«في الأرجنتين أغلبنا يموت على يد «مارتين فييرو»، ولكن يحق للرجل أن يختار لحظة موته».

«تشارلي فورتنوم لم يُسمَح له بالإختيار».

«السينيور فورتنوم قُبض عليه مُصادفة. وأوافقكَ على أن هذه ليست طريقةً محترمةً للموت. إنها أشبه بحادثِ طريقٍ أو بإصابةٍ بالرشح».

***

تبرَّع الدكتور بلار بتوصيل سافيدرا إلى منزله. ولم يكن قد دُعي بعد لزيارة الروائي وكان يتخيَّله يشغل منزلاً عتيقاً من الطراز الكولونيالي، له نوافذ ذات قضبان تطل على شارع مظلم، مع بعض أشجار البرتقال والـlapachos في الحديقة، منزلاً مهيباً عتيقَ الطراز مثل ملابسه. وربما كانت هناك لوحات شخصية معلَّقة على الجدار تمثِّل جدَّه الأكبر الذي كان حاكم الإقليم وجدَّه الذي قُتل على يد الغوشو.

قال سافيدرا: «إنه ليس بعيداً. يمكنني بسهولة أن أمشي إليه».

«أعتقد أننا يجب أن نتحدث أكثر عن عرضك وعن كيفية تنفيذه».

«كل هذا خرج من بين يديّ الآن».

«ليس تماماً».

بينما كان الدكتور بلار يقود سيارته لفتَ نظرَ الروائي إلى أنه منذ اللحظة التي سينشر فيها عرضه في El litoral سيبدأ البوليس بمراقبته. «سيعمل الخاطفون على أن يتصلوا بك ويقدموا اقتراحهم من أجل تنفيذ عملية التبادل. وسيكون من الأسهل إذا غادرتَ البلدة هذه الليلة قبل أن يعرف البوليس. يمكنك أن تتوارى عن الأنظار مع أحد الأصدقاء في الريف».

«وكيفَ سيعثر عليّ الخاطفون؟».

«ربما من خلالي. لعلهم يعرفون أنني صديق للسينيور فورتنوم».

«لايمكنني أن أهرب وأختبىء كأي مجرم». «إذن سيجدون من الصعب قبول عرضك».

قال الدكتور سافيدرا: «ثم هناك عملي».

«يمكنكَ أن تأخذه معك بالتأكيد».

«سهلٌ عليكَ أن تقول هذا. يمكنك أن تذهب وتعود مريضاً في أي مكان، إنك تحمل تجربتك معك. لكن عملي مرتبط بالغرفة التي أعمل بها. حين أتيتُ إلى هنا من بوينس ايريس مرت سنة تقريباً قبل أن استطعتُ أن أخطّ حرفاً على الورق. كانت غرفتي أشبه بغرفة في فندق. إنّ الكتابة تتطلّب بيتاً».

بيت: دُهش الدكتور بلار حين وجد أنّ الروائي يعيش في بناية أكثر حداثة ورثاثة حتى من بنايته في حي قريب من سور السجن. كانت البيوت الرمادية مبنية ضمن مربعات وكأنها تشكّل امتداداً للسجن. حتى أنّ المرء يتوقع أن تكون معلّمة بالأحرف الأبجدية أ، ب، ث ... ومخصصة لفئات

مختلفة من المجرمين. وكانت شقة الدكتور سافيدرا تقع في الطابق الثالث وليس هناك مصعد. شاهد أولاد يلعبون مايشبه لعبة البولينغ بعلب تنك أمام المدخل، وقد أقنعتهم رائحة الطبخ بصعود الدرج. وربّما شعر الدكتور سافيدرا بأنّ الأمر يتطلب تفسيراً، فراح يتكلّمُ وهو يلهث قليلاً بعد أنْ توقفَ عند الطابق الثاني «أنت تعلم أن الروائي لايقوم بزيارات مثل الطبيب، وعليه أن يتعايش مع موضوعه. لاأستطيع أن أعيش مرتاحاً وسط مجتمع بورجوازي لأنني أكتب عن الناس. إنّ المرأة التي تنظف بيتي هنا زوجة حارس السجن، وأنا أحسُّ أني في الـ milieu[1] الصحيح. لقد ذَكَرتُها في كتابي الأخير. ألا تذكرها؟ كانت تُدعى كاتيرينا وكانت أرملة رقيب. أعتقد أني تعرفّت على طريقتها في التفكير». فتحَ بابه وقال بنبرة تحدٍ: «هاأنت في قلب مايسمّيه النقاد عالم سافيدرا».

وكان بحق عالماً صغيراً جداً. وخُيِّل إلى الدكتور بلار أنّ طولَ مسير الروائي في طريق الأدب لم يوفر له إلا أقل مقابل مادي خلاف بذلته الأنيقة وحذائه الملمع واحترام مدير الفندق له. كانت غرفة المعيشة ضيقة وطويلة كمقصورة قطار. رفٌّ من الكتب (أغلبها من مؤلفات سافيدرا نفسه)، وطاولة قابلة للطي لو فُتحتْ لاحتلّت مساحة الغرفة كلها تقريباً، ولوحة من القرن التاسع عشر تمثل غوشو يمتطي صهوة حصان، وكرسي للاسترخاء وكرسيان قائمان ـ هذا كل ماكانت تحتويه، فضلاً عن خزانةٍ ضخمةٍ عتيقةٍ من الماهاغوني لابد أنها كانت تنتمي إلى نمطٍ أرحب من المساكن، لأنّ الالتفافات الباروكية فوق القوصرة قد نُحِتَتْ لتتطابق وعلو السقف. ومن خلال بابين مفتوحين، سارع الدكتور سافيدرا إلى إغلاقهما، لمح الدكتور بلار هيكل سرير رهباني ومدفأة للطبخ طلاؤها مشقّق. وعبر نافذة مجزّءة بشبكة صدئة دفعاً للبعوض، أتته قرقعة التنك الذي كان الأولاد يلعبون به في الأسفل.

---

(١) الوسط، الجو.

«هل أقدِّمُ لكَ كأسَ ويسكي؟».

«كأساً صغيرة من فضلك».

فتح الدكتور سافيدرا الخزانة، كانت أشبه بصندوق هائل الحجم رُصَّت فيه ممتلكات العمر كله استعداداً للرحيل. عُلِّقت فيها بذلتان. وثمة قمصان وألبسة داخلية وكتب كُدِّست على الرفوف بلا تمييز: مظلة مطروحة بين أشياء غير واضحة في الخلف: أربع ربطات تتدلى من عصا: حزمة صغيرة من الصور بأطر عتيقة الطراز تشارك الأرضية مع زوج من الأحذية وبعض الكتب لم يتوفَّر لها حيِّز في أي مكان آخر. وعلى إفريز وفوق البذلات وقفت زجاجة ويسكي، وزجاجة نصف ممتلئة من النبيذ وبضع كؤوس - إحداها مكسورة - ومجموعة من سكاكين المائدة وطاس مملوء بالخبز. قال الدكتور سافيدرا بتحدٍ: «إنني أشعر بضيق المكان، لكني أريد أن تمتد حولي أصغر مساحة ممكنة عندما أكتب. فإذا اتَّسعت المساحة تبدّد التركيز»، ونظر بقلق إلى الدكتور بلار وحاول أن يبتسم «هذا هو رحمُ شخصياتي يادكتور، وثمة متسع لحفنة أخرى. يجب أن تعذرني لأني لم أقدم لك ثلجاً، لأنَّ ثلاجتي تعطَّلتْ هذا الصباح والكهربائي لم يأتِ بعد».

قال الدكتور بلار: «أفضل الويسكي صرِفاً بعد العشاء».

«إذاً سأحضر لكَ كأساً أصغر».

كان عليه أن يقف على أطراف حذائه الصغير اللمّاع ليصل إلى أعلى الخزانة. كانت كُمَّة المصباح البلاستيكية الرخيصة المرسومة عليها أزهار قرمزية، وقد بدأ لونها يميلُ إلى البنّي بسبب الحرارة، بالكاد تخفِّف من قسوة الضوء الأساسي. وبينما هو يراقب الدكتور سافيدرا يمد يده نحو الكأس، بشعره الأبيض، ببذلته الرمادية بلون اللؤلؤ، وحذائه الملمَّع حتى السطوع، شعر الدكتور بلار بالدهشة نفسها التي انتابته وهو في حي الفقراء عندما رأى فتاة صغيرة تظهر مرتدية ثوباً أبيض نظيفاً من كوخ مبني من الطين والتنك ومحروم من الماء. أحسَّ باحترامٍ جديد نحو الدكتور سافيدرا. إنَّ ولعه

بالأدب ليس تافهاً مهما كانت نوعية الكتب. لقد كان يرغب في أن يعاني الفقر لذاته، ومعاناة الفقر المستتر أسوأ بكثير من معاناة الفقر الصريح. وذاك الجهد المطلوب لتلميع حذائه، وكوي بذلته ... ماكان في مقدوره، كالشبان، أن يصرف الإنتباه عنه. حتى شَعره كان يجب أن يَقُصَّه بانتظام. إن زراً مقطوعاً جديرٌ بأن يكشف الكثير. لعله لن يُذكر في تاريخ الأدب الأرجنتيني إلا في حاشية، لكنه سيستحق تلك الحاشية. إنَّ عُري غرفته يمكن مقارنته بالجوع الذي لايُشبع هاجسه الأدبي.

مشى الدكتور سافيدرا نحوه حاملاً كأسين، وسأله: «كم في اعتقادك يجب أن ننتظر لنتلقَّى رداً؟».

«قد لايأتي أبداً».

«أعتقد أن اسم والدك موجود في لائحة المطلوب إطلاق سراحهم؟».

«نعم».

«أتصور أنه سيكون غريباً عليك أن ترى والدك ثانية بعد مرور كل ذاك الزمن. كم ستسعد أمك إذا ... ».

«أظنُّ أنها تفضّله ميتاً. لم يعد يلائم أسلوب حياتها الآن».

«وربَّما لو عاد السينيور فورتنوم لن يلقى ترحيباً حتى من زوجته؟».

«كيف لي أن أعرف؟».

«آه كفاك يا الدكتور بلار، إنَّ لي أصدقاء في منزل السينيورة سانشيز».

سأل الدكتور بلار: «إذن فقد عادت إلى هناك؟».

«كنت هناك في أول هذا المساء وهي أيضاً كانت موجودة. كانوا يثيرون حولها الكثير من الجلبة ـ حتى السينيورة سانشيز. لعلها تأمل في عودتها. وحين أتى الدكتور بينيفنتو لرؤية بقية الفتيات أخَذَتها إلى القنصلية».

«هل حكَتْ لكَ شيئاً عنّي؟».

ارتبك قليلاً من تهورها، إلا أنه مع ذلك أحسَّ بالإرتياح، كان يهرب من السرِّية. لم يكن في المدينة شخص واحد يستطيع أن يحدثه عن كلارا،

ومَنْ أفضلُ من مريضه الخاص يثق به؟ وثمة أسرار لن يرغب الدكتور سافيدرا أيضاً في كشفها.

«أخبرتني كمْ كنتَ لطيفاً معها».

«أهذا كل ماقالته؟».

«إن ذلك هو كل مايلزم بين الأصدقاء الحميمين».

سأل الدكتور بلار: «أكانت إحدى فتياتك؟».

«أظن أني كنتُ معها مرة واحدة».

لم يشعر بلار بالغيرة. كان التفكير في كلارا تنتظر عارية في صومعتها على ضوء الشمعة بينما الدكتور سافيدرا يعلّق بذلته الرمادية بلون اللؤلؤ أشبه بمشاهدة مشهدٍ مسرحي، حزينٍ وهزلي معاً، من مقعدٍ بعيدٍ في آخر الصالة. لقد أبعدَتْ المسافة الشخصيات عنه كل ذاك القدر بحيث لم يعد يتأثر إلا بالعاطفة الشكلية. وسأل: «هل أعجبتكَ بحيث رغبت في إعادة التجربة؟».

قال الدكتور سافيدرا: «لم يكن الأمر مسألة إعجاب. كانت امرأةٌ غضَّة جيدة، أنا واثق، وجذابة تماماً أيضاً، ولكن لايميِّزها شيء خاص بالنسبة إليّ. فهي لم تفاجئني بشخصيتها ـ كشخصية متميزة ـ واغفر لي إنْ تكلمتُ كالنقاد ـ من عالم خورخه خوليو سافيدرا. إنَّ مونتيز يدَّعي أن العالم لا وجودَ حقيقيٍّ له. وماذا يعرف وهو في بوينس ايريس؟ أليستْ تيريز موجودة ـ أتذكر ليلة قابلتها؟ قبل أن نجتمع بخمسٍ دقائق أصبحت تيريزا هي الفتاة القادمة من سالتا. قالت شيئاً ـ لم أعد أذكر كلماتها الآن. ذهبتُ معها أربع مرات ثم كان يجب أن أتركها، لأنها كانت تقول أشياء كثيرة ليست مناسبة. كانت تشوش تفكيري».

«كلارا قدمت من توكومان. ألم تحصل على شيء منها؟».

«توكومان ليست المنطقة المناسبة لي. منطقتي هي منطقة المُطْلَقات. مونتيز لايفهم هذا. تريليو... سالتا. توكومان ليست مدينة أنيقة، وهي محاطة بنصف مليون هكتار من حقول السكر. أيُّ ملل! كان والدها حاصدَ قصب سكر، أليس كذلك؟ وأخوها اختفى».

«ظننتُ أن هذا جدير بأن يكونَ موضوعاً جيداً لكَ ياسافيدرا».

«ليس لي. إنها لاتبدو لي حية أبداً»، وأضاف بشجاعة وكأنَّ الليل لايضجُّ بالتنك المتدحرج جيئة وذهاباً في الباحة الإسمنتية في الأسفل «ليس هناك إلا فقرٌ مملّ خالٍ من الـmachismo على امتداد نصف مليون هكتار. أنت لاتدرك كم يمكن للفقر المجرد أن يكون هادئاً ومملاً. دعني أقدم لكَ جرعة أخرى صغيرة من الويسكي. إنه «جوني ووكر» أصلي».

«لا، لاشكراً. يجب أن أعود الى البيت»، ومع ذلك تلكأ. من المفروض على الروائيين أن يكتسبوا حكمة معينة... وسأل: «ماذا في اعتقادك سيحدث لكلارا إذا مات فورتنوم؟».

«ربما ستتزوجها؟».

«وهل يمكنني؟ سيكون عليَّ أن أبتعد عن هذا المكان».

«يمكنكَ بسهولة أن تعيش حياة أفضل في مكانٍ آخر. هل أقول في روزاريو؟».

قال الدكتور بلار: «هذا وطني أيضاً ـ أو هو الأقرب إلى كونه وطناً منذ مغادرتي الباراغواي».

«وهل تشعر أنَّ والدك ليس بعيداً جداً؟».

«أنت بحق رجل متبصِّر ياسافيدرا. نعم، ربما كان قُرْب والدي ماأحضرني إلى هنا. في حي الفقراء أعي أني أقومُ بعملٍ كان سيحبُ أن يراني أقوم به، ولكن حين أكون مع المرضى الأثرياء أشعر وكأني غادرت أصدقاءه لأساعد أعداءه. إنني حتى أضاجعهن أحياناً، وحين أستيقظ أنظر إلى الوجه الملقى على الوسادة من خلال عينيه. وأعتقد أنَّ هذا أحد أسباب عدم دوام علاقاتي الغرامية طويلاً، وحين أشرب الشاي مع أمي في شارع فلوريدا بين كل سيدات بوينس ايريس الأخريات... أجده جالساً أمامي أيضاً ينتقدني بعينيه الإنكليزيتين الزرقاوين. وأظن أنَّ والدي كان سيحنو على كلارا. إنها واحدة من فقرائه».

«أتحب الفتاة؟».

«حب، حب، أتمنى أن أعرف ماذا تعني أنت وكل الآخرين بهذه الكلمة. أنا أرغبها، نعم. بين وقتٍ وآخر»، ثم أضاف: «الرغبة الجنسية لها، كما تعرف جيداً، إيقاعاتها الخاصة. وهذه الفتاة دامت معي أطول مما ظننتُه ممكناً. تيريزا بالنسبة إليك هي الفتاة ذات الساق الوحيدة في سالتا. وربما كلارا هي ـ فتاتي المسكينة. لكنِّي لم أردها أبداً أن تكون ضحيَّتي. فهل هذا ماشعر به تشارلي فورتنوم عندما تزوجها؟».

قال الدكتور سافيدرا: «قد لاأراكَ ثانية. جئتُ إليكَ أريد أقراصاً ضد الكآبة، ولكن على الأقل لديَّ عملي. وأتساءلُ إن لم تكن أنت بحاجة إلى الأقراص أكثر مني».

نظر الدكتور بلار إليه دون أن يفهم، كانت أفكاره تجول في مكانٍ آخر.

حين دخل المصعد ليصل إلى شقته تذكَّر الدكتور بلار إثارة كلارا عندما صعدت به لأول مرة. وفكَّر في أن يتصل بها في القنصلية ويطلب منها أن تأتي إليه. السرير في القنصلية ضيق جداً عليهما معاً، وإذا ذهب هو إليها سيضطر إلى مغادرتها قبل أن تأتي المرأة الشبيهة بالصقر في الصباح.

دخل شقته ودخل أولاً إلى غرفة الإستشارة ليرى إن كانت سكرتيرته آنا قد تركت له ورقة على مكتبه، لكنه لم يجد شيئاً. أزاح الستارة وألقى نظرة إلى الميناء في الأسفل: ثمة ثلاثة رجال من البوليس يقفون بجانب كشك لبيع الكوكا كولا، ربَّما لأنَّ القارب الأسبوعي المتوجه إلى أسونسيون موجود في المرسى. كان أشبه بمشهدٍ من زمن طفولته، لكنه نظر إليه من الجهة المقابلة من نافذة طابقه الرابع المُطل على النهر.

قال: «كان الله في عونك ياأبي، أينما كنت»، وتكلم بصوتٍ عالٍ. كان من الأسهل الإيمان بإلهٍ له حسٌ إنساني بالسماع على الإيمان بقوةٍ كلّية يمكنها أن تقرأ أفكاره المضْمَرة. والغريب في الأمر أن الوجه الذي استحضره في ذهنه وهو يتكلم لم يكن وجهَ أبيه بل وجه تشارلي فورتنوم، القنصل الفخري

وهو متمددٌ على طوله على التابوت ويهمس «تد». لقد سَمَّى والد الدكتور بلار ابنه إدواردو وكأنما إرضاءً لزوجته. وحين حاول أن يضع وجه هنري بلار محلَّ وجه تشارلي فورتنوم وجدَ أنَّ معالمَ وجه أبيه قد امَّحت مع السنين، وكما يحدث لقطعة النقد العتيقة التي اندفنت ردحاً من الزمن في الأرض لم يميِّز إلا تمعُّجاً خفيفاً على السطح لعله كان ذات مرة حدوداً لوجنةٍ أو شفة. وهتف له صوت تشارلي فورتنوم من جديد «تد».

استدار مبتعداً ـ ألم يقم بكل مافي مقدوره للمساعدة؟ ـ وفتح باب غرفة النوم. رأى على الضوء الآتي من المكتب جسد زوجة فورتنوم بارزاً من تحت الغطاء. قال: «كلارا!». جلست على الفور واعتدلت جالسة. ولاحظ أن ملابسها كانت مطوية بعناية وموضوعة على أحد الكراسي، كانت تملكُ حسَّ الترتيب من مهنتها السابقة. فبالنسبة الى امرأة عليها أن تنزع عنها ملابسها عدة مرات في الليلة فمن الأساسي ترتيبها بعناية وإلا سيتجعَّد الثوب بشكل سيء بعد زيارة زبونين أو ثلاثة. وقد قالت له ذات مرة إن السينيورة سانشيز كانت تلح على أن تدفع كل فتاة أجرة غسيل ملابسها ـ حرصاً على الترتيب.

«كيفَ دخلت؟».

«طلبتُ من البوّاب».

«أهو الذي فتحَ لكِ الباب؟».

«إنه يعرفني».

«هل سبق ورآك هنا؟».

«نعم. وهناك أيضاً».

إذن فقد تقاسمها مع البواب أيضاً، هكذا فكَّر. كم من المحاربين المجهولين في ساحتها سيظهرون أيضاً عاجلاً أم آجلاً؟ ليس هناك ماهو أكثر تغريباً للحياة من شارع فلوريدا ورنين فناجين الشاي وكعك الـ dulce de leche، الأبيض كالثلج. لقد تقاسم مارغاريتا لفترة من الوقت مع سينيور فاليخو ـ فمعظم العلاقات الجنسية تتداخل في بدايتها أو نهايتها ـ وهو يفضّل

البواب على السينيور فاليخو، الذي كان يشم رائحة غسول بعد حلاقته أحياناً على بشرة مارغاريتا خلال الأشهر البطيئة الأخيرة.

«قلتُ له إنكَ ستنفحهُ بعض المال. ألن تفعل؟».

«طبعاً. كم؟ لنقل خمس مائة بيزو؟».

«ألف تكون أفضل».

جلس على طرف السرير وأزاح الغطاء.

لم يكن بعد قد ملّ جسدها النحيل ورائحة نهديها اللذين لم يكادا يدلان على حبلها أكثر من بطنها. قال: «أنا سعيدٌ جداً لأنكِ هنا. كنتُ سأطلبك، مع أن ذلك ماكان سيكون تصرفاً حكيماً كثيراً. فالبوليس يظن أنّ لي علاقة بعملية الإختطاف»، ثم أضاف: «إنهم يشكّون في أن الدافع قد يكون الغيرة» وابتسم لهذه الفكرة. «لن يجرؤوا على إيذائك بأي شيء، إنك تعتني بزوجة السكرتير المالي».

«لعلهم بدأوا بمراقبتي على أية حال».

«وماذا يهم هذا؟ إنهم يراقبونني».

«هل تبعوكَ إلى هنا؟».

«أوه، أنا أعرف كيف أتعامل مع أمثال أولئك الرجال. ليس البوليس من أحسبُ له الحساب، بل ذاك الصحافي الخنزير. لقد أتاني هناك في المخيم بعد أن سادَ الظلام، وعَرَضَ عليّ نقوداً».

«لماذا؟ لكتابة قصة؟».

«كان يريد أن يضاجعني».

«وماذا قلت؟».

«قلت له إني لم أعد بحاجة إلى نقوده، فغضب. لقد دخل في خَلَده حقاً أني أحببته لذاته عندما كنت في منزل السينيورة سانشيز. ظنّ أنه عاشق عظيم «ثم تابعت مستمتعة: «آه كم جرحت كبرياءه عندما قلت له إنّ تشارلي يعادل إثنين من أمثاله».

«وكيف تخلصتِ منه؟».

«طلبت البوليس (كانوا قد تركوا أحدهم في المخيم ـ قالوا إنه هناك لحمايتي، لكنه كان يراقبني طول الوقت)، وبينما الإثنان يتجادلان ركبت السيارة وهربت». «لكنكِ لاتعرفين كيف تقودين سيارة ياكلارا».

«كنتُ قد راقبت تشارلي مرات كافية. ليس الأمر صعباً جداً. أنا أعرف الأشياء التي فيها أزرار تُضغط وأشياء تُسحب. في أول الأمر اختلط عليَّ الأمر، ولكن كل شيء سار على مايرام في النهاية. وراحت تهتزُّ إلى أن وصلتُ إلى الطريق العامة، وبعد ذلك عرفتُ كيف أقوم بالعملية كما يجب وصرتُ أقود أسرع من تشارلي».

قال بلار: «مسكينةٌ فخر فورتنوم».

«أعتقد أني قد قدتُ بسرعة كبيرة قليلاً لأنني لم أرَ الـ Camion[1] قادمة نحوي».

«وماذا حدث؟».

«وقعت حادثة».

«وهل تضررتِ؟».

«الجيب تضررت، أما أنا فلا».

ومضَتْ عيناها وهي تنظر إليه من على الوسادة، كانتا براقتين بفعل إثارة الأحداث الغريبة. لم يألفهامن قبل تتكلّم كل ذلك القدر. كانت ماتزال بالنسبة إليه تمثل جاذبية الشخص الغريب ـ كأنها فتاة مجهولةفي حفلة كوكتيل.

قال: «أنا معجب بك»، بخفة، بلا تفكير، كما كان يمكن أن يقولها أثناء شرب الكوكتيل، ولم يفهم أي منهما هذه الكلمات إلا على أنها تعني «تعال ضاجعني».

قالت: «لقد أوصلني السائق. طبعاً أراد أن يضاجعني. وقلت له سأفعل حين نصل إلى البلدة في بيتٍ سيذهب اليه في سان خوزيه، لكني نزلت عند

---

(١) الشاحنة.

أول إشـارة مـرور، وقـبل أن يتـمكن من إيقـافي، وذهبتُ إلى السـينيـورة سـانشـيز. آه كم فَرِحت برؤياي، فـرحت بحق، ولـم تكن غـاضـبـة مني، وضمّدتني بنفسها».

«إذن فقد أوذيت بحق؟».

قالت: «قلت لها أني أعرف طبيباً جيداً» وابتسمت وأزاحت عنها الغطاء لتُريه الرباط الذي يحيط بركبتها اليسرى.

«كلارا، يجب أن أنزعه لأرى إن ... ».

قـالت: أوه، يمكنه أن ينتظر. ألن تحبني قليلاً؟» وأسـرعت بتـصـحـيح كلامها: «هل تريد أن تضاجعني؟».

«الوقت متسعٌ لهذا. ابقي ساكنةً ودعيني أنزع الرباط».

حاول أن يكون لطيفاً قدر المستطاع، لكنه كان يعلم أنه لابد من إيلامـها. استلقتْ هادئةً ولم تشتك، وفكَّر في بعض مرضاه البورجوازيين الذين كانوا يُقنِعون أنفسهم بأنَّ الألمَ لايُحتملُ، حتى أنهم يفقدون الوعي من الخوف أو ليكسبوا انتباهه. قال مبدياً إعجابه: «عضدٌ فلاحيّ جيد».

«ماذا تقصد؟».

«أنتِ فتاة شجاعة».

«ولكن هذا الجرح ليس شيئاً. يجب أن ترى ماذا يفعل الرجال بأنفسهم في الحـقـول وهم يحـصـدون قـصب السكر. لقـد رأيتُ ولـداً ونصف قـدمـه مقطوعة»، وسألتْ عَرَضاً، وكأنها تتحدث عن قريب مشترك بينهما: «ألم تصل أخبار بعد عن تشارلي؟».

«لا».

«هل ماتزال تظن أنه قد يكون على قيد الحياة؟».

قال: «أنا واثق كل الثقة».

«هل أفهم أنكَ حصلتَ فعلاً على أخبار؟».

«تحدثتُ إلى الكولونيل بيريز، وذهبتُ اليوم إلى بوينس أيريس لأقابل السفير».

«ولكن ماذا سنفعل إذا عاد؟».

«نفعل؟ أظننا سنفعل مانفعله الآن. وأي شيء آخر؟» وأنهى إعادة ربط الضماد. «سنستمر في مافعلناه دائماً. سآتي لرؤيتك في المخيم، وسيذهب تشارلي ليهتم بالزراعة». كان كأنما يصف نمطاً من الحياة كان ممتعاً ذات يوم، ولكنه لم يعد يؤمن به.

«كان أمراً طيباً ذهابي لرؤية الفتيات ثانية في منزل السينيورة سانشيز. قلت لهنَّ أن لي عشيقاً. طبعاً لم أقل لهنَّ من هو».

«إنني مندهش لأنهن لم يعرفن. يبدو أن كلَّ شخصٍ في هذه البلدة يعرف ماعدا المسكين تشارلي».

«لماذا تدعوه المسكين تشارلي؟ لقد كان سعيداً. كنت دائماً أقوم بما يريدني أن أفعله».

«وماذا كان يطلب؟».

«ليس الشيء الكثير. وليس غالباً. كان مملاً، ياإدواردو. إنني لاأملك الكلمات لأعبر لك بها عن مدى مللي معه. كان رقيقاً وحريصاً معي. إنه لم يؤذني أبداً كما تؤذيني أنت. أحياناً أشكر ربَّنا وسيدتنا المباركة على أنَّ المزروع هنا داخلي هو طفلك، وليس طفله. أي نوع من الأطفال كان سيأتي من صلب تشارلي؟ طفل رجل عجوز. كنت سأودُّ خنقه منذ ولادته».

«كان تشارلي سيكون أباً أفضل بكثير مني».

«إنه لايستطيع أن يفعل أي شيء أفضل منك».

آه، بل نعم، يستطيع، هكذا فكَّر الدكتور بلار، يستطيع أن يموت بشكل أفضل، وهذا أمر لايُستهان به.

مدَّتْ يدها ولمست وجنتهُ ـ كان في استطاعته أن يستشعر أعصابَ أطراف أصابعها. إنها لم تداعبه هكذا من قبل. الوجه جزء من منطقة الرقَّة المحرَّمة،

ونقاء الإيماءة صَعَقه تماماً كما لو أنَّ فتاةً صغيرةً أثارته جنسياً. وانسحبَ مسرعاً. قالت: «أتذكر تلك المرة في المخيم عندما أخبرتك أني كنتُ أدَّعي؟ ولكن، Caro، أنا لم أكن أدَّعي. الآن حين تضاجعني أدَّعي. أدَّعي أنني لاأشعر بشيء. أعضُّ على شفتي لكي أدَّعي. هل أفعل ذلك لأني أحبك ياإدواردو؟»، ثم أضافت بمذلة جعلته يتنبه كأنه حارس يتلقى أمراً: «أتظن أني أحبك؟ أنا آسفة. لم أقصد قول ذلك... الأمر سيان، أليس كذلك؟».

سيان؟ كيف يستطيع أن يبدأ فيشرح لها مدى الفرق الشاسع؟ «الحب» ادّعاءٌ لن يواجهه، مسؤوليةٌ يرفض أن يقبلها، طلبٌ... كم من مرة استخدمت أمّه الكلمة حين كان طفلاً. كان أشبه بتهديد يوجّهه لصٌ مسلح (إرفع يديك وإلاّ...»، شيءٌ يطلب دائماً مقابل شيء آخر: طاعة، اعتذار، قبلة لارغبة للمرء في إعطائها. لعلّه أحبَّ أباه أكثر من ذي قبل لأنه لم يستخدم الكلمة قط ولاطلبَ شيئاً. كان يتذكر فقط قبلةً واحدةً تلقَّاها على المرسى في أسونسيون وكانت قبلةً من النوع الذي يمنحه رجل لآخر. كانت أشبه بقبلة رسمية رأى الجنرالات الفرنسيين يمنحونها في الصور الفوتوغرافية بعد تسليم وسام، ولم تكن تعني أي شيء. كان والده يشُدُّه أحياناً من شعره أو يربت على خده. والعبارة ذات الطابع الإنكليزي «صديق حميم» هي أقرب تعبيرٍ رآه للتحبُّب. تذكَّر أمه، حين بكت في المقصورة بينما السفينة تطفو مع التيار، وقالت له: «لم يعد لي أحدٌ غيركَ الآن يُحبني»، واقتربت منه وهما في سريرها الجداري وكرَّرت على مسمعه حبيبي، ولدي الحبيب»، كما اقتربت منه مارغاريتا بعدها بسنوات وهما في سريرها، قبل أن يأتي السينيور فاليخو ليأخذ مكانه، وتذكَّر كيف نادته مارغاريتا «ياحب حياتي»، كما كانت والدته تناديه بـ«ولدي الوحيد». إنه لم يشعر قط بأي إيمان بالحب الجنسي، ولكن كان وهو مستلقٍ يقظاً في الشقة المزدحمة في بوينس ايريس يتذكر أحياناً، وهو يسمع خطوات أمه تصرُّ متجهة نحو المرحاض، الأصوات المحرَّمة الحزينة التي سمعها في المزرعة في باراغواي ـ الترددات المنمنمة للطَرق الخافت، وقعٌ غريب لأقدام تتسلل في الطابق السفلي، همسٌ يصدر

من القبو، طلقٌ ناري يعلن تحذيراً عاجلاً من البعيد عبر الحقول ـ كانت تلك إشارات تنمُّ عن رقَّة أصيلة، حنوٌ أعمق من أن يكون أبوه مستعداً للموت من أجله. أكان ذلك حباً؟ هل شعر ليون بالحب؟ أو حتى أكوينو؟.

«إدواردو»، عاد من البُعد السحيق ليسمعها تناديه مناشدة: «سأقول كل ماتريد. لم أقصد أن أغضبك. ماذا تريد ياإدواردو؟ قل لي. أرجوك. ماذا تريد؟ أود أن أعرف ماذا تريد، ولكن كيف أعرف إذا لم أكن أفهم؟».

«تشارلي أبسط مني، أليس كذلك؟».

«إدواردو، هل ستغضب دائماً إذا أحببتُك؟.. أقسمُ بأنه لن يغيِّر شيئاً في الأمر. سأبقى مع تشارلي. سآتي فقط عندما تريدني، تماماً كما كنت أفعل في المؤسسة».

أجفَله رنين جرس الباب الذي توقف ثمَّ رنَّ من جديد. وتردَّد في الإجابة. ولِمَ يتردَّد؟ لم يكن يمر أسبوعٌ دون أن يتلقى فيه مكالمة هاتفية أو يرنُّ له باب أثناء الليل. قال: «إبقي مكانكِ هادئة. إنه مجرد مريض»، وانتقل الى الصالة ونظر خلال العين السحرية في الباب، لكنه لم يرَ أحداً في ظلام أعلى الدرج. وشعرَ وكأنه عاد إلى باراغواي في طفولته. كم من مرة كان والده يضطر إلى أن يهتف من وراء باب موصد كما فعل هو الآن، قائلاً: «مَنْ هنُاك؟»، محاولاً أن يجعل نبرة صوته حازمة.

«بوليس».

فتح الباب، فإذا به وجهاً لوجه مع الكولونيل بيريز: «أتسمح لي بالدخول؟».

سأل الدكتور بلار: «حين تقول «أتسمح» كيف لي أن أرفض؟ ولو كنتَ قلتَ «أنا بيريز»، لطلبتُ منك، مادمتَ صديقاً، أن تتصل بي غداً صباحاً، في وقت أفضل».

«ولأننا صديقان قلتُ «بوليس» لأعلمكَ أنها زيارة رسمية».

«أهي رسمية إلى حد عدم شرب كأس؟».

«لا. لم تصل إلى ذلك الحد بعد».

قاد الدكتور بلار الكولونيل بيريز إلى غرفة الإستشارة وأحضر زجاجتي ويسكي من الصنف الأرجنتيني، وقال: «إنني أحتفظ بالمقدار القليل من النوع الأسكتلندي الأصيل الذي لديّ للزيارات الإجتماعية».

«نعم. أنا أفهم. ولقاؤك مع الدكتور سافيدرا هذا المساء، أعتقد أنه كان اجتماعياً بحتاً؟».

«أتراقبني؟».

«ليس حتى الآن. ربما كان يجب أن أفعل منذ وقت مبكر. لقد أخبرني أحدهم في صحيفة EL litoral عن مكالمتك الهاتفية هذا المساء، وطبعاً البرقيات التي تركتَها في الفندق أثارت اهتمامي عندما عرضوها عليّ. لاأظنُّ أن ثمة وجوداً في هذه المدينة لما يسمَّى بالنادي الأنكلو ـ أرجنتيني، أليس كذلك؟».

«لا. هل أُرْسِلتْ البرقيات؟».

«ولِمَ لا؟ لاضرر منها. ولكن هناك كذبة ألقيتها على مسمعي بالأمس... يبدو أنَّك متورط كثيراً في هذه القضية يادكتور».

«أنت على حق طبعاً، إذا كنتَ تقصد أنني أبذل أقصى مافي وسعي لإطلاق سراح فورتنوم. ولكن لاشك في أنَّ كلينا ينشط في هذا الإتجاه».

«ثمة فرقٌ شاسع يادكتور. إنني لست مهتماً حقاً بفورتنوم، اهتمامي منصبٌ فقط على الخاطفين. أنا أفضِّلُ أن تفشل عملية الإبتزاز، لأنَّ ذلك سيحبط همَّة الآخرين. وأنت من ناحية أخرى تريد للإبتزاز أن ينجح. ولاشك ـ بل من الطبيعي ـ أنني أحب أن أربح اللعبة في كلتا الطريقتين، أنقذُ السينيور فورتنوم وآسِرُ أو أقتل خاطفيه، لكن الحل الثاني أهم بكثير بالنسبة إليّ من حياة سينيور فورتنوم. أنت وحدكَ هنا؟».

«نعم، لماذا؟».

«كنتُ أنظر من النافذة خُيِّل إليّ أني رأيت نوراً ينبعث من الغرفة المجاورة».

«كانت سيارة مارة على الطريق المحاذية للنهر».

قال وهو يرشف الويسكي ببطء: «نعم، ربما». تكوّن لدى الدكتور بلار انطباعٌ غريب بأنّه أضاع الكلمات. «أتصدق حقاً دكتور أنه يمكن لأولئك الرجال أن يطلقوا سراح والدك؟».

«حسن، ثمة سجناء أُفرجَ عنهم بالطريقة نفسها».

«ليس مقابل مجرّد قنصلٍ فخري».

«حتى القنصل الفخري بشر - إنّ له حقاً في الحياة. والحكومة البريطانية لن تقبل باغتياله».

«الأمر لايتوقف على الحكومة البريطانية، بل يتوقف على الجنرال، وأشكُّ في أنّ الجنرال قلقٌ كثيراً حول أي حياة إنسانية. إلا حياته، طبعاً».

«إنه يعولّ على المعونة الأميركية. فإذا أصرّوا ...».

«نعم، لكنه أعطى الأميركيين لتوه شيئاً بالمقابل وهو أثمن بكثير لديهم من قنصل فخري إنكليزي. إنّ الجنرال يتّصفُ بميزةٍ واحدةٍ عظيمةٍ، كما كان بابا دوك[1] في هاييتي: إنه معادٍ للشيوعية. هل أنت متأكد تماماً من أنك وحدكَ يادكتور؟».

«طبعاً».

«كل مافي الأمر أني ... حسبتني سمعت ... طيب، لابأس. هل أنت شيوعي يادكتور؟».

«لا. لطالما وجدتُ أن قراءة ماركس لاتُحتَمل، كأغلب الاقتصاديين. ولكن هل تصدّق حقاً أنّ أولئك الخاطفين من الشيوعيين؟ إذ ليس فقط الشيوعيون يناهضون الاستبداد والتعذيب».

«بعضُ الرجال الذين يطلبون الإفراج عنهم شيوعيون ــ أوهكذا يدّعي الجنرال».

«والدي ليس كذلك».

«إذن فأنت تصدّق فعلاً أنه مايزال حياً؟».

---

(١) بابا دوك: اللقب الذي أطلق على رئيس هاييتي من عائلة دوڤالييه الحاكمة. كتب غرين رواية «الهزليون» عن الوضع في تلك الجزيرة.

رنَّ الهاتف عند مرفق الدكتور بلار، فرفع السماعة على مضضٍ. قال صوتٌ عَرِفَ فيه صوت ليون: «لقد جدَّ جديد. نحتاج إليك على عجل. كنَّا نحاول طوال النهار ...».

«هل الأمر ملحاح إلى هذه الدرجة؟ لديَّ صديق يشاركني شرب كأس».

همسَ الصوت عبر الخط: «أقَبَضُوا عليك؟».

«ليس في الوقت الحاضر».

مال الكولونيل بيريزإلى الأمام، وهو يراقبه، ويحاول أن ينصت.

«ماكان يجب أن تتصل بي في مثل هذا الوقت المتأخر. نعم، نعم، أعلم. قليل من الخوف طبيعي تماماً في ظل الظروف الراهنة، لكن درجة حرارة الطفل دائماً ترتفع. أعطها قرصيّ أسبرين آخرين».

«سأتّصل بكَ بعد ربع ساعة».

«أرجو ألاّ تعتبر الأمر هاماً. اتَّصل بي غداً صباحاً ولكن ليس باكراً جداً. لقد أمضيتُ يوماً طويلاً مضنياً: ذهبتُ الى بوينس ايريس»، ثم أضاف وعينه على الكولونيل بيريز: «وأريد أن آوي الى السرير». كرّر صوت ليون: «بعد ربع ساعة»، وعلّق الدكتور المهتاف.

سأله بيريز: «مَنْ المتحدث؟ أوه، إغفرلي، لقد استولتْ عليّ عادة طرح الأسئلة. إنها رذيلة رجل البوليس».

قال الدكتور بلار: «مجرد أهل قلقون».

«أظنني سمعتُ صوت رجل».

«نعم. هو الوالد. غالباً مايقلق الرجال على أطفالهم أكثر من النساء. الأم موجودة في بوينس أيريس للتبضع. عمَّ كنّا نتحدث أيها الكولونيل؟».

«عن أبيك. غريبٌ أن هؤلاء الرجال أدرجوا اسمه في لائحتهم. هناك الكثير غيره يمكن أن يكونوا أكثر فائدة لهم. من الشبان. لابدَّ أن والدك قد أصبح عجوزاً تماماً الآن. يبدو وكأنهم يدفعون لك مقابل مساعدة قدمتها لهم ... أنهى جملته بإشارةٍ غامضة.

«ماذا كان في وسعي أن أفعل لأجلهم؟».

«كل هذه الدعاية التي تحاول أن تنظّمها ـ إنها مفيدة لهم ـ وهي أمر لايستطيعون القيام به وحدهم. إنهم لايريدون أن يقتلوا الرجل. سيكون موته نوعاً من الهزيمة. ومن ثم ـ تبدّى لي اليوم فقط، فأنا مفكر بطيء ـ أنهم يعرفون مالا تنشره الصحف ـ أي البرنامج الحقيقي الذي وضعه الحاكم لزيارة السفير. من المضحك كيف يغيب عن ذهني شيءٌ بكل هذا الوضوح طوال ذلك الوقت. لابد أنهم تلقوا معلومات، معلومات موثوقة».

«ربما. ولكن ليس مني. إنني لاأحظى بثقة الحاكم».

«لا، لكن السينيور فورتنوم كان يعلم ولعلّه أخبرك. أو ربما السينيورة فورتنوم». فليس غريباً لإمرأة أن تذكر هذا لعشيقها بينما زوجها غائب».

«إنك تجعل مني دون جوان مع مريضاتي ياكولونيل. قد أكون أخشى زوجاً في انكلترا، أمّا هنا فالمجمّع الطبي العام لايعمل. أرجو ألاّ تكون قد أزعجت السينيورة فورتنوم؟».

«أردتُ أن أتبادل كلمةً معها، لكنها لم تكن في المخيم. وهذا المساء زارت منزل سانشيز. ثم ذهبتُ إلى القنصلية، لكنها ليست هناك الآن. لقد قلقتُ قليلاً في أول الأمر لأنّ سيارة السينيور اللاندروفر وجدت محطّمة على جانب الطريق ـ مسكين الرجل، لقد تحطمت له سيارتان خلال يومين. وأسعدني أن أسمع أنها كانت مع السينيورة سانشيز، وأنّ جروحها كانت بسيطة. أظنك كنت ترعى مريضاً يادكتور، أليس كذلك؟ إنّ كُمّك الأيمن مرفوع».

دفع الدكتور بلار الهاتف بعيداً عنه. كان يخشى أن يتكلم مرة أخرى في أي وقت. قال: «ماأكثر ماتلاحظ ياكولونيل. إنني لم أثقْ بالسينيورة سانشيز لتقومَ بدورِ الطبيب. إنّ كلارا معي هنا».

«وكنتَ مُحقاً أيضاً بشأن أكاذيبك بالأمس».

«كلّ علاقة عاطفية تشتمل على بضعِ أكاذيب».

«أنا آسف لأنني قطعت عليك أمسيتك يادكتور، لكن الأكاذيب أزعجتني. إننا أصدقاء قبل أي شيء. إننا حتى تقاسمنا بضع مغامرات في وقت ما. مع السينيورة إسكوبار، مثلاً».

«نعم، أتذكَّر. قلت لك أني سأتركها وكانت الطريق - تقريباً - مفتوحة أمامك. إنني لاأفهم لماذا فضَّلتْ في النهاية فاليخو عليك».

«لم تكن تثق في دوافعي. إنه قَدَرُ رجلِ البوليس المعروف. أنت تعلم أن السينيور إسكوبار يمتلك مهبطاً للطائرات في مزرعته في سهل التشاكو. وربما كان الويسكي والسجائر تأتي من باراغواي عن ذاك الطريق».

«رجل خيِّرٌ ذو شعبية».

«نعم، طبعاً لايمكن أن أتدخل في شؤونه أبداً. آمل أن تنفعني أقراص الأسبرين. لاأظن أنك تريد أن يقاطعك أحد مرة أخرى». جرع الكولونيل ماتبقى من الويسكي ونهض واقفاً «لقد أرحتَ بالي كثيراً جداً. طبعاً صرتُ أفهم الآن لماذا تريد أن يُطلق سراح الدكتور فورتنوم. إن الزوج له أهمية عظمى في علاقة الحب إنه يُعتبر حجة للهرب عندما تصبح العلاقة مملة. لاأحد يرغب في أن يتركَ امرأةً وحيدة تماماً. حسن، علينا أن نحاول أن ننقذ لك السينيور فورتنوم - ونأسر خاطفيه أيضاً. وسيعرفون ماذا يفعلون بهم في الطرف الآخر للنهر».

صَحبه الدكتور بلار حتى الباب: «أنا سعيدٌ لأنَّ قلبكَ ارتاح من ناحيتي»

«الأسرارُ بالنسبة الى رجل البوليس تفوح منها رائحةٌ كريهة. حتى البريء منها. نحن مدرَّبون، كما الطلب عند اقتفاء أثر الحشيش على شمِّ رائحتها. خذها مني نصيحة يادكتور، لقد فعلتَ حقاً مايكفي حتى الآن. وأرجو ألاّ تتدخل أكثر من ذلك. لطالما كانت علاقتنا ودية، ولكن إذا تورطتَ في هذه القضية فيجب أن تنتبه الى نفسك. سأكونُ أولَ من يطلق الرصاص وآخر من يُرسل إكليل الزهور».

«تبدو أشبه بآل كابوني».

«نعم، كابوني أيضاً دعم النظام على طريقته الخاصة». فتحَ الباب وتلكأ لحظة عند العتبة المظلمة، وكأنَّ شيئاً هاماً أفلت من ذاكرته «ثمة أمرٌ آخر ربما كان يجب أن أخبرك به باكراً. لديَّ فعلاً أخبارٌ عن والدك. من رئيس قسم البوليس في أسونسيون. طبعاً اطّلعنا معه على كل الأسماء التي أدرجها الخاطفون في لائحتهم. لقد قُتِلَ والدك منذ أكثر من عام. حاول أن يهرب مع رجلٍ آخر - رجل يدعى أكوينو ريبيرا - لكنه كان قد أصبح شديد العجز وبطيء الحركة. فلم ينجح وتُركَ وحده. كما ترى - لم يعد من الحكمة الظّن أن في إمكانك أن تفعل أي شيء الآن لمساعدته. أسعدتَ مساء يادكتور. أنا آسف لأني جلبتُ إليكَ أنباءً سيئة. ، ولكن على أية حال ها أنا أتركك مع امرأة. إنَّ المرأة هي أفضل مواساة يمكن للرجل أن يحصل عليها».

بدأ الهاتفُ يرنُّ من جديد، حالما أغلق الباب تقريباً.

وفكَّر الدكتور بلار: لقد خدعني ليون. كان يكذب عليّ طوال الوقت ليحصل على مساعدتي. لن أجيب على الهاتف. فليخرجوا من ورطتهم على طريقتهم. لم يخطر بباله لحظة واحدة أنه يمكن أن يكونَ الكولونيل بيريز مَنْ يكذب. إن البوليس من القوة بحيث يصرِّح بالحقيقة.

ظلَّ الجرس يرن ويرن وهو واقف بعناد في الصالة، ثم استسلمَ كائناً مَنْ كان الذي يطلبه. كل ماكان يعرفه هذه المرة أنه ربما كان أحد مرضاه، ووسط الصمت المتّهم بدأ يشعر بالذنب لأنانيته: كان أشبه بالصمت الذي يتبع صرخةَ المنتحر طالباً النجدة. ثمة صمت في غرفة النوم أيضاً. قبل قليل صدرت عن كلارا مناشدة. هذه أيضاً أدار لها ظهره.

قطعة الرخام الصغيرة من الأرضية التي وقف عليها بدت كأنها حافة هاوية الجحيم، لم يكن يستطيع الحراك خطوة واحدة في أي إتجاه دون أن يسقطَ أعمق داخل ظلمة التورط أو ارتكاب الذنب. وقف وأنصتَ إلى الصمت - في الشقة حيث تستلقي كلارا، في شارع منتصف الليل في الخارج حيث مرت سيارة بوليس تتجه الآن إلى البيت، في الحي الشعبي حيث لابد أنَّ ثمة شيئاً حدث بين أكواخ الطين والتنك. . صمتٌ، أشبه بجمهورية

أثيرية يتمدد فيها والده ميتاً في أعمق صمت ممكن ـ لقد كان شديد العجز وبطيئاً، فلم ينجح وتخلوا عنه». أحسَّ بالدوار وهو على حيِّزه من الرخام المزخرف. لم يستطع أن يقف ثابتاً طوال الوقت. مرة أخرى رنَّ جرس الهاتف وعاد إلى غرفة مكتبه.

تكلَّم صوت ليون: «ماذا حدث؟».

«كان عندي زائر».

«البوليس؟».

«نعم».

«أأنت وحدك الآن؟».

«نعم، وحدي».

«أين كنت طوال النهار؟».

«في بوينس ايريس».

«ولكن حاولنا أن نتصل بك مساء أمس».

«كانت لدي زيارة خارجية».

«وهذا الصباح في السادسة؟».

«جافاني النوم. خرجتُ أتمشى بمحاذاة النهر. قلتَ لي لن تحتاجني بعد ذلك».

«مريضك يحتاج إليك الآن. إنزل الى النهر وقِفْ بالقرب من كشك الكوكا كولا. نستطيع أن نرى إن كان ثمة من يراقبنا. إذا كانت الطريق خالية سنأخذك».

«تلقيتُ لتوي أخباراً عن والدي. من الكولونيل بيريز. أهي صحيحة؟».

«أية أخبار؟؟».

«عن أنه هرب، لكنه كان بطيء الحركة، وتخليتم عنه».

فكَّر: إذا اكتشفتُ كذبة واحدة عبر الهاتف ـ ولو حتى تردُّد ـ سأضع المهتاف مكانه، ولن أجيب مرة أخرى.

قال ليون: «نعم. أنا آسف. هذا صحيح. لم أستطع أن أخبرك من قبل. كنّا بحاجة إلى مساعدتك».

«ومات والدي؟».

«نعم. قتلوه فوراً، بعدما وقع على الأرض».

«كان يمكنكَ أن تخبرني».

«ربما، لكننا لم نرغب في المجازفة».

وصله صوت ليون وكأنما من مسافةٍ لامتناهيةٍ: «ألن تأتي؟».

قال الدكتور بلار: «آه نعم، سآتي» ووضع المهتاف ودخل غرفة النوم. أدارَ مفتاحَ النور ورأى كلارا، كانت عيناها مفتوحتين واسعاً، تراقبه.

«مَنْ الذي أتى؟».

«كولونيل بيريز».

«وهل أوقعكَ في مشكلة؟».

«ليس هو».

«والهاتف؟».

«مريض. يجب أن أخرج لبعض الوقت ياكلارا».

تذكّر أنه كان هناك سؤالٌ ما ظلّ بينهما معلقاً دون إجابة، لكنه لم يعد يذكر الآن ماذا كان. قال: «أبي مات».

«أوه، إدواردو. أنا آسفة. أكنتَ تحبه؟». لم تكن أكثر منه استعداداً للتسليم بوجود الحب، حتى بين أبٍ وابن.

«ربما كنتُ».

تعرّف ذات مرة على رجلٍ في بوينس ايريس كان إبناً غير شرعي. وماتت الأم دون أن تخبره بإسم والده. بحث بين رسائل أمه، وسأل عن أصدقائها. حتى أنه تفحص حسابها في البنك ـ كانت أمه تتلقى دخلاً يأتيها من مصدرٍ ما. لم يغضب، ولا صُدِم، لكن رغبته في معرفة هوية والده كانت تلحُّ عليه كالحكة. وشرح للدكتور بلار وضعه قائلاً: «إنه أشبه بإحدى أحاجي الصور

المجزأة الموضوعة في الزئبق. لاأستطيع أن أثبّت عينيّ في المكان الصحيح، ومع ذلك لاأستطيع أن أتخلى عن الأحجية». وذات يوم عرف اسم أبيه: كان صاحب بنك عالمي وقد مات منذ زمن بعيد. قال لبلار: «لن تتصور كم أشعر بالفراغ الآن. ماذا بقي هناك ليثيرني؟» وفكّر الدكتوربلار، إنّ ذلك النوع من الخواء هو ماأمرَ به الآن.

«تعالَ واستلقِ ياإدواردو».

«لا. يجب أن أذهب».

«الى أين؟».

«لستُ متأكداً. إنه أمرٌ يتعلق بتشارلي».

سألتْ: «هل وجدوا الجثة؟».

«لا، لا. ليس لهذا»، وكانت قد أبعدت الملاءة عنها حتى منتصفها فدثّرها بها. قال: «سوف تصابين بالبرد من تأثير المكيّف».

«سأعود إلى القنصلية».

«لا، إبقي هنا. لن أغيبَ طويلاً».

في العزلة، يرحّب المرءُ بأي مخلوقٍ حي - فأر، عصفور على عتبة نافذة، عنكبوت روبرت بروس[1]. في العزلة الكاملة يمكن أن تنشأ رقةٌ من نوع خاص قال: «أنا آسف ياكلارا. عندما أعود-» لكنه مااستطاع أن يستحضر أي شيء يستأهل حقاً ليَعدها به. وضع يده على بطنها وقال: «اعتني به. نامي هنيئاً».

أطفأ النور حتى لايعود يرى عينيها تراقبانه - محتارتين، وكأنّ تحركاته أعقد بكثير بالنسبة إلى أي فتاة من مؤسسة السينيورة سانشيز من أن تفهمها. على الدرج (لابد أن الجيران سمعوا صوت تحركُّ المصعد) حاول أن يتذكر سؤالها الذي لم يُجِب عنه. لعلّه لم يكن بتلك الأهمية. الأسئلة الهامة الوحيدة هي تلك التي يطرحها الإنسان على نفسه.

---

(١) عنكبوت روبرت بروس، أو روبرت البروس (١٢٧٤-١٣٢٩): ملك اسكتلندا بين (١٣٠٦-١٣٢٩). حارب الانكليز من أجل استعادة المنطقة الإسكتلندية بعد أن استولى على العرش. يقال إن شجاعته استمدها من طول مراقبته لعنكبوت ينسج خيوطه.

الجزء الخامس

الفصل الأول

عاد الدكتور بلار من الغرفة الداخلية وقال للأب ريفاس: «سيكون على مايرام. ماكان رجلك سدَّد أفضل مما لو كان يقصد ذلك. لقد أصاب وتر آخيل[1]. طبعاً سيستغرق وقتاً ليلتأم. إذا منحته وقتاً. ماذا حدث؟».

«حَاول أن يهرب. أطلق أكوينو النار أولاً على الأرض ومن ثم على ساقيه».

«من الأفضل لو ينقل إلى المشفى».

«أنتَ تعرف أن هذا مستحيل».

«كل ماأستطيع فعله هو أن أضمِّده. يجب أن يوضع كاحله في قالبٍ من الجبس. لماذا لاتتخلى عن العملية كلها ياليون؟ يمكنني أن أحتفظ به في سيارتي مدة ثلاث أو أربع ساعات لأتيحَ لك فرصة للإختفاء، وسأقول للبوليس إني عثرت عليه على جانب الطريق».

لم يزعج الأب ريفاس نفسه بالإجابة. قال الدكتور بلار: «يحدث الشيء نفسه دائماً عندما تسيرُ الأمورُ سيراً خاطئاً ـ إنه كوقوعِ خطأ في معادلة... أول خطأ ارتكبتَهُ أنك اختطفْتَهُ بدل السفير والآن انظر إلى أين وصل الأمر. إنَّ معادلتكَ لن تُحَلْ أبداً».

«لعلَّكَ على حق، ولكن إذا لم نتلقَّ أوامر من إل تيغره...».

«احصل عليها إذن».

---

(١) كاحل القدم.

«مستحيل. بعد أن أعلنّا عن عملية الإختطاف انقطعت كل صلَة بيننا. نحن نعمل وحدنا هنا. وعلى هذا الأساس إذا قبضوا علينا لايمكننا أن نبوح بأي شيء».

«يجب أن أذهب عليّ أن أنام قليلاً».

قال الأب ريفاس: «ستبقى معنا هنا».

«هذا غير ممكن. إذا شُوهدتُ وأنا أغادر في ضوء النهار ...».

«إذا كان هاتفك مراقباً سيعرفون أنَّك كنتَ شريكاً لنا. إذا عُدتَ قد يقبضون علينا وسيترُك صديقُكَ فورتنوم دون طبيب».

«لديَّ مرضى آخرون لأعالجهم ياليون».

«أمّا أولئك فيمكنهم أن يجدوا أطباء آخرين».

«إذا نفَّذتَ خطتكَ... أو قتَلته ماذا سيحدث لي؟».

أشار الأب ريفاس إلى الزنجي المدعو بابلو الواقف عند ممر الباب: «إنَّك ممنوعٌ من الخروج ومُحتجز هنا بالقوة. هذه هي الحقيقة البسيطة. لايمكننا أن نسمح لك بالذهاب الآن».

«وماذا لو تخطيتُ عتبة هذا الباب؟».

«سآمره أن يطلق النار. كُنْ عاقلاً ياإدواردو. كيف يمكننا أن نثقَ في أنَّكَ لن تقود البوليس إلى هنا؟».

«أنا لستُ مخبراً للبوليس ياليون على الرغم من الخدعة التي لعبتَها عليَّ».

«إنني أتعجب ضمير الانسان ليس شيئاً بسيطاً. إنني أؤمن بصداقتكَ. ولكن كيف أتأكد من أنَّك لن تقنع نفسك بأن تعود إكراماً لمريضك؟ ويتبعكَ البوليس، ويؤدي قسمك لأبقراط[1] بنا جميعاً إلى الموت. ثم هناك الإحساس بالذنب الذي أظنُّكَ تشعر به. يقولون إنَّك تضاجعُ زوجة فورتنوم. إذا كان هذا صحيحاً، فإنَّ محاولتك التكفير عن هذا قد يتطلَّبُ موتنا جميعاً».

---

(١) قسم أبقراط: يقسمه الأطباء في حفل تخرجهم.

«لم أعد مسيحياً ياليون. ولا أفكر بهذه الطريقة. أنا لاضمير لي. أنا رجلٌ بسيط».

«أنا لم أقابل رجلاً بسيطاً دهري. ولا حتى على كرسي الإعتراف مع أنَّي كنت أجلس هناك لساعات طويلة. الإنسان لم يُخلق بسيطاً. حين كنتُ كاهناً شاباً كنت أحاول أن أتبيَّن دوافع كلُّ رجلٍ وامرأة، والإغواءات وتضليل الذات التي يتعرضون لها. لكنّي سرعان ماتعلَّمت أن أتخلى عن ذلك، لأنه لاوجودَ لجوابٍ صريح. لاأحد كان بسيطاً بما يكفي لأفهمه. وفي آخر الأمر أكتفي بالقول: «ردِّد ثلاثاً أبانا الذي في السموات، وثلاثاً ليكن سلامٌ لكِ يامريم. اذهب في سلام».

تحرك الدكتور بلار مبتعداً نافذ الصبر. وألقى نظرةً أخرى على مريضه. كان تشارلي فورتنوم نائماً بهدوءٍ تام ـ نوماً راضياً مُخدَّراً. كانوا قد جمعوا من مكانٍ ما مزيداً من الملاءات لجعلِ الكفن مريحاً. عاد الدكتور بلار إلى الغرفة الخارجية وتمدَّد على الأرض. خُيِّل إليه أنه أمضى يوماً طويلاً جداً. لايكاد يصدِّق أنه كان قد شرب الشاي في فترة بعد ظهيرة اليوم السابق فقط في مقهى ريتشموند في شارع فلوريدا وراقب أمه وهي تأكل الحلوى الأصبعية.

ظلَّت صورة أمه في مخيلته حين استغرق في النوم وراحت تحدثُه بنبرةِ صوتِها الشاكية المعتادة، تقول له كيف أنَّ والده لن يستريح كرجلٍ محترمٍ ذي مكانةٍ في جوف تابوته. لقد اضطرُّوا إلى دفعه إلى الداخل مراراً، وتلك ليست الطريقة اللائقة بـ Caballero [1] ليستمتع بها براحته الأبدية. كان الأب غالفاو في طريقه قادماً في ريو دي جانيرو ليرى ماذا في إمكانه أن يفعل ليقنِعَهُ بالركون إلى السكينة.

فتح الدكتور بلار عينيه. كان ميغيل الهندي نائماً على طوله على الأرض الى جانبه، وكان الأب ريفاس قد ناب عن بابلو في جلسته عند ممر الباب

---

(١) تعني: سيد محترم أو فارس.

وبندقيةٌ في حجره. كانت شمعةٌ مثبَّتة في صحفةَ ترمي ظلاً لأذنيه على الجدار خلفه. ذكّر هذا الدكتور بلار بالكلاب التي كان والده يشكلها له على جدار غرفة نومه. ظلَّ مستلقياً لفترة من الوقت ينظر إلى رفيقه في المدرسة. ليون، ليون صاحب أذني ّالكلب، الأب صاحب أذني الكلب. تذكَّر ليون وهو يقول، أثناء أحد أحاديثه الطويلة الجادة التي اعتادا على تبادلها وهما في الخامسة عشرة، أنه لاتوجد إلا نصف دزينة من المهن التي تستحق أن ينخرط فيها الرجل لفترة من الوقت: على الرجل أن يكون طبيباً، كاهناً، محامياً (على أن يسير دائماً، طبعاً، على الصراط المستقيم)، شاعراً (إن كان يجيد الكتابة)، أو عاملاً يدوياً. ولم يعد يذكر الآن كيف كانت المهنة السادسة، إلا أنها حتماً لم تكن مهنة الخاطف أو القاتل.

وهمسَ عبر الغرفة: «أين أكوينو والآخرون؟».

قال ليون: «هذه عملية عسكرية. لقد تدرَّبنا على يدي ّإل تيغره. إننا نحدِّد نقاطنا الأمامية، ونبقى يقظين ليلاً».

«وزوجتك؟».

«إنها في البلدة مع بابلو. هذا الكوخ له، وهو معروف هناك. هكذا آمن. لاحاجة بك إلى الهمس. الهندي يستغرق في النوم، في أية لحظة، حين لايكون مطلوباً. الصوت الوحيد الذي يوقظه هو إسمه ـ أو ضجَّةٌ تنمُّ عن خطر. انظر إليه، يستلقي هناك بينما نحن نتحدث. إنني أحسده. هذه دعِةٌ حقيقية. هكذا يجب أن يعني النوم لنا جميعاً، لكننا فقدنا اللمسة الحيوانية.

«إحك لي عن أبي ياليون. أريد الحقيقة». وما إنْ قال هذا حتى تذكر كيف كان الدكتور همفريز يطلب دائماً الحقيقة الحَقَّة، حتى من نادل مطعم النيبوليتان، ولايحصل إلا على جوابٍ مبهم.

«كان أبوك وأكوينو موجودين في مركز واحد للبوليس يقع على بعد مائة كيلومتر إلى الجنوب الشرقي من أسونسيون. بالقرب من مدينة فيلاريكا. كان

إل تيغره ضد محاولتنا لإنقاذ والدك، لكننا صوّتنا ضد هذا الرأي. وكنا على خطأ. لعلّ والدك كان حياً الآن لو كنّا سمعنا كلام إل تيغره».

«نعم. ربما. في مركز بوليس. يموت ببطأ».

«كانت مسألة ثوانٍ. حركة سريعة. كان يمكن أن ينجح بسهولة أيام كنت تعرفه، لكن خمس عشرة سنة في مركز للبوليس - إن المرء يتهدم بسرعةٍ أكبر مما يحدث له وهو في السجن. إن الجنرال يدرك أن الرفقة تتكون في السجن. وهكذا فهو يذرع ضحاياه في أصصٍ متفرقة يزوّدهم بكميةٍ غير كافية من التربة، فيذبلون يأساً».

«هل رأيتَ أبي؟».

«لا، كنتُ جالساً في سيارة الهروب وفي حجري قنبلة يدوية معدّة للإنفجار. وأنا أصلي».

«أما تزال تؤمن بالصلاة؟».

لم يُدلِ الأب ريفاس بجوابٍ واستغرق الدكتور بلار في النوم.

***

حين استيقظ كان ضوء النهار قد ساد واتّجه من فوره إلى الغرفة الداخلية ليلقي نظرة على مريضه. ورآه تشارلي فورتنوم آتياً إليه، قال: «إذن فأنتَ حقاً واحد منهم».

«نعم».

«أنا لاأفهمك ياتد. مادخلُ هذا كله بكَ؟».

«كنتُ غالباً أحدثك عن والدي. حيث أنّ هؤلاء الرجال يمكن أن يساعدوه».

«كنتَ صديقاً لي - ولكلارا».

«لستُ مسؤولاً عن خطئهم. كيفَ حال كاحلك؟».

«عانيتُ آلاماً أسوأ بكثير من أسناني. يجب أن تخرجني من هنا ياتد. إكراماً لكلارا».

أخبر الدكتور بلار فورتنوم عن زيارته للسفير. وأدرك وهو يتكلم أنَّها ليست قصة تبث الشجاعة. ولم يهضم تشارلي فورتنوم التفاصيل بسرعة.

«أوَصلتَ حقاً إلى العجوز بنفسك؟».

«نعم. وهو يبذل أقصى جهده».

«أوه، سيشعرون بالارتياح في بوينس ايريس حين سأموت. أعرف جيداً هذا. عندئذٍ لن يضطروا شحني. وهذا تصرفٌ غير لائق، فكلهم سادة محترمون ملاعين هناك».

«الكولونيل بيريز أيضاً يفعل كل ما في وسعه. لن يطول بهم الأمر حتى يعثروا على هذا المكان».

«ستكون النتيجة واحدة إذا فعلوا. أتظن هؤلاء الناس سيدعونني أخرج من هنا حياً؟ هل تحدثت مع كلارا؟».

«نعم. إنها على مايرام».

«والطفل؟».

«لاداعي للقلق بشأنه».

«حاولتُ أن أكتب لها رسالة بالأمس. أردتها أن تنال شيئاً تستطيع أن تحتفظ به فيما بعد، مع أني أشكُّ في أنها ستفيد منها فيما بعد. إنها ماتزال تجد القراءة صعبة جداً. ففكَّرت أنه قد يقرأها أحدٌ عليها بصوتٍ عالٍ ـ ربَّما أنت ياتد. طبعاً هذا يعني أنّي ماستطعت أن أعبِّر عن كل شعوري نحوها، لكنّي رأيت أنه إذا حدث لي شيء أن تُعلمها أنت».

«أُعلِمُها بماذا؟».

«بشعوري. أعلم أنكَ سمكةٌ باردة الدم ياتد. لطالما سمّيتك هكذا. أبدو لك عاطفياً، لكنّي توصّلت الى التفكير في أمورٍ كثيرةٍ وأنا مستلقٍ هنا ـ كان يتوفر لديَّ وقتٌ بحجم الجحيمِ لأملأه. يبدو لي أن طوال السنين التي سبقت

تعرفي على كلارا ـ تلك التي يصفها البلهاء بريعان الشباب ـ كانت في الحقيقة سنوات خاوية تماماً، بلا أي هدف، كنت فقط أزرع أعشاب الماتيه اللعينة تلك لأكسب بعض المال ـ مال من أجل ماذا، بل لمن؟ أردت أن يكون معي شخصٌ أفعل شيئاً لأجله ـ وليس فقط أن أكسب عيشي لنفسي. هناك أناسٌ يتولعون بالقطط والكلاب، لكني لم أهتم بها قط. ولا حتى بالخيول. خيول! لم أحتمل دهري تلك الوحوش اللعينة. كل ولعي كان منصباً على فخر فورتنوم. كنت أقنع نفسي بأنها حية. وكنت أزوّدها بالوقود والزيت وأنصت الى أصواتها الداخلية، لكني كنت أدرك أنها ليست أكثر حقيقة من إحدى تلك الدمى التي تصدر أصواتاً. وطبعاً اهتممتُ بزوجتي لبعض الوقت، إلا أنها كانت دائماً متفوقة بشكلٍ لعين ـ لم يكن ثمة ماأصنعه لأجلها ولا تستطيع هي أن تفعله لنفسها بشكلٍ أفضل. أنا أسف. إنني أكثر من الكلام، لكن تبدو أقرب إليَّ من أي شخص آخر لأنَّك قابلت كلارا».

«قُلْ كل ماعندك. ليس بمقدورنا أن نفعل أي شيء آخر في الظرف الذي نحن فيه. إنني سجينٌ هنا مثلك تماماً».

«ألن يدعوكَ تذهب؟».

«لا».

«وكلارا ـ إنها مقطوعة من شجرة؟».

قال الدكتور بلار بغضب: «تستطيع هي أن تعتني بنفسها ليومٍ أو اثنين. فالوضع أسهل بكثير بالنسبة إليها مما هو بالنسبة إليك وإليَّ».

«إنهم لن يقتلوك أنت».

«لا. لن يقتلوني إذا ما استطاعوا تجنُّب ذلك».

«في الحقيقة مرَّ عليَّ وقتٌ طويل قبل أن أقابل كلارا أحسستُ خلاله أني عثرت على شخصٍ أحبُّه. كانت أيضاً فتاةً عند الأم سانشيز. كان اسمها ماريا، لكنَّ تلك الفتاة كانت سيئة».

«قتلها أحدهم بسكين».

«نعم. أراكَ تعرف. حسن، بعد ذلك بوقتٍ قصير قابلت كلارا. لاأعلم لماذا لم أكن قد لاحظتُ وجودها من قبل أعتقد أنني لست خبيراً بالنساء، وماريا ـ يعني، يمكن القول إنها بهرتني. كلارا لم تكن جميلة بهذه الطريقة، بل كانت صادقة. كان في إمكاني أن أثق بها. إن إسعادَ فتاةٍ مثل كلارا هو بمثابة إحراز نجاح، أليس كذلك؟».

«نوعٌ متواضعٌ من النجاح».

«نعم، أنت تستطيع أن تقول هذا، أمَّا أنا فقد اعتدتُ على الفعل، ولاأستطيع أن أصبو الى الكثير. إذا تحسَّنت الأمور، فَمن يدري... عندما عيَّنوني قنصلاً فخرياً أقلعت عن الشرب فترة حوالي أسبوع، لكن هذا طبعاً لم يستمر. مازلتُ أحتفظ بالرسالة التي بعثوا بها إليَّ من السفارة. أودُّ لو تنقلها إلى كلارا إذا لم أخرج من هنا. إنها في الدرج الأيسر الأعلى من طاولة المكتب في القنصلية. يُمكنك أن تُخرجها بسهولةٍ بسبب وجود شعارِ السلاح الملكي على لسان الظرف. يمكنها أن تحتفظ بها لتُريها للولد ذات يوم».

وحاولَ أن يغيِّر من وضعه على التابوت فأجفل.

«هل آلمكَ ذلك؟».

قال مع ضحكةٍ خفيفة: «طعنةٌ بسيطة. عندما أفكِّر في زوجتي وكلارا ـ ياالله، الى أي مدى يمكن لامرأتين أن تختلفا. زوجتي قالت لي ذات مرة أنها تزوّجتني بدافع الشفقة. شفقةً على ماذا؟ لقد كانت تتصرفُ كرجلٍ في البيت ـ تفهم في كلِّ شيءٍ لعين يتعلق بالكهرباء. كان في إمكانها أن تُصلح جلدة الحنفية. وإذا ماتجاوزتُ قليلاً معياريّ المعتاد لاترحمني. طبعاً لم يكن من التعقل توقع مايزيد عن ذلك منها. لقد كانت من المؤمنين بالعلم النصراني[1] وحتى السرطان لا وجود له بالنسبة إليها، مع أن والدها مات به، لذا ما كان في الإمكان التوقع منها أن تؤمن بالآثار المتخلفة عن عادةٍ ما. ومع

---

(١) العلم النصراني: يؤمن أصحاب هذا المذهب بأن الخطيئة والمرض والموت يمكن القضاء عليها عن طريق فهم تعاليم المسيح فهماً كاملاً.

ذلك لم يكن هناك من داعٍ لأن تتكلم بصوتٍ عالٍ عندما علمت أن لديَّ عادةً مثلها. كان صوتها يخترق رأسي كالمثقاب والآن كلارا ـ كلارا امرأة حقيقية، هي تعرف متى تصمت. فليباركها الله. أريد أن أسعدها حتى النهاية».

«كان يجب أن يكون هذا سهلاً. أنا لاأجدها امرأةَ صعبة المراس».

«لا. ولكن أعتقد أنه عاجلاً أم آجلاً يحين دائماً وقت الاختبار. هو أشبه بالإمتحانات اللعينة التي كنّا نجريها ونحن في المدرسة. إنني لست مؤمّناً تماماً ضد الفشل».

وفكّر الدكتور بلار أنهما ربّما كانا يتحدثان عن امرأتين مختلفتين ـ إحداهما المرأة التي أحبها تشارلي فورتنوم ـ والأخرى عاهرة من منزل السينيورة سانشيز كانت تنتظره في سريره الليلة الفائتة. وكانت قد سألته سؤالاً، ثم رنَّ الكولونيل بيريز الجرس. لم يعد ثمة فائدة من محاولة تذكُّر ماذا كان سؤالها.

قُرابة نهاية فترة الصباح عادت مارتا من المدينة مع نسخةٍ من صحيفة EL litoral ـ إذ لم تكن صُحف بوينس ايريس قد وصلت بعد. كان الناشر قد أفرد العناوين الرئيسية لعرض الدكتور سافيدرا ـ ووجد الدكتور بلار أنَّ القصة قد حظيت بعناوينَ أكبر مما كان ممكناً أن تحظى به في أي مكان آخر. وانتظر رؤية ردَّة فعل ليون، لكنه لم يدلِ بأي تعليق عندما ردَّ الصحيفة دون أن يفوهْ بكلمة لأكوينو. قال أكوينو: «ومَنْ هو هذا السافيدرا؟».

«روائي».

«ولماذا يعتقد أننا نريد روائياً مكان قنصل؟ مافائدة روائي؟ هو أرجنتيني على أية حال. مَنْ يهتم إذا مات أرجنتيني؟ ليس الجنرال. ولارئيسنا نحن. ولا حتى العالم. إنه مجرَّد واحد نكرة من العالم المتخلف لايفكر أحد بمقايضته بالنقود».

في الساعة الواحدة أدار الأبُ ريفاس مفتاح المذياع على نشرة الأخبار من بوينس ايريس. لم يأتوا فيها حتى على ذكر عَرْض الدكتور سافيدرا. وتساءل

الدكتور بلار تُرى هل كان ينصت وهو في تلك الغرفة الصغيرة القريبة من السجن، يُصغي إلى صمت لابدَّ أنه وجده أشدَّ إذلالاً من الرفض؟ لم يعد أمرُ الاختطاف يثيرُ اهتمامَ الرأي العام الأرجنتيني.

ثمة أحداثٌ أكثر إثارة تضج لَفْتاً للإنتباه: رجل قَتَلَ عشيق زوجته (في عراك بالسكاكين طبعاً) ـ هذه قصة لاتفقدُ إثارتها أبداً بالنسبة الى إنسان أميركا اللاتينية، وخبرُ الصحون الطائرة المُعتاد آتٍ من الجنوب، وثمة انقلابٌ عسكري في بوليفيا، وسردٌ تفصيليٌّ لنشاطات فريقِ كرة القدم الأرجنتيني في أوروبا (أحدهم ينتقدُ الحَكَمْ بشدة). عند إنتهاء الإرسال قال المذيع: «ماتزال الأخبار منقطعة حول اختطاف القنصل البريطاني. والمدة التي حدَّدها الخاطفون لتنفيذ الشروط تنتهي عند منتصف ليل يوم الأحد».

ربَتَ أحدهم على الباب الخارجي. التصق الهندي الذي كان قد عاد إلى حراسته بالحائط وقد أخفى بندقيته. كان الستة كلهم في الغرفة في تلك اللحظة ـ الأب ريفاس ودييغو، سائق السيارة، والزنجي ذوبثرات الجدري بابلو، ومارتا وأكوينو. كان من المفروض على اثنين منهم أن يقوما بالحراسة خارجاً، ولكن الآن في ضوء النهار الساطع حيث كل شيء هادىء سمح ليون لهما بالدخول ليستمعا إلى الأخبار عبر المذياع، وتلك خطيئة لعله كان يندم على ارتكابها. سُمِعَ القرع مرة أخرى، وأغلق أكوينو المذياع.

قال الأب ريفاس: «بابلو».

اقترب بابلو من الباب على مضض. أخرجَ مسدساً من جيبه، لكنَّ الكاهن قال له بِحِدَّةٍ: «أعِدْهُ».

وتساءل الدكتور بلار بإحساسٍ بالإذعان، وحتى بالإرتياح، إن كانت ذروة القضية السخيفة كلها قد حانت. هل سيكون هناك قصفٌ من إطلاق الرصاص عندما يُفتح الباب؟.

ربما خطرت الفكرة نفسها للأب ريفاس، لأنه انتقل الى الغرفة وكأنه، إذا كانت هذه هي النهاية، أراد أن يكون أول من يموت. وفتح بابلو الباب.

في الخارج كان يقف رجلٌ عجوز، يتمايل في ضوء الشمس المبرقش ويحملق بصمت فيهم بفضول بدا غير طبيعي، إلى أن أدرك الدكتور بلار أنه أعمى بسبب إعتامٍ في عدسة العين، راح العجوز يتحسس حَرْفَ الباب بيدٍ رقيقةٍ كالورقة، معروقةٍ كورقةِ نباتٍ قديمة.

هتف الزنجي: «خوزيه، ماذا تفعل هنا؟».

«جئت أطلبُ الكاهن».

«لايوجد كاهن هنا ياخوزيه».

«آه، نعم، بل يوجد يابابلو. كنت جالساً بجانب حنفية الماء أمس وسمعتُ أحدهم يقول: «الكاهن الذي يعيش مع بابلو كاهن صالح».

«ولماذا يلزمُكَ كاهن؟ على أية حال لقد ذهب».

حرك العجوز رأسه من طرف الى آخر وكأنّما كان يُنصتُ بكل أذنٍ على حدةَ، يميِّز بين الأنفاس المختلفة التي تترددّ في الغرفة، أنفاسٌ ثقيلةٌ وأخرى خرساء، أنفاسُ أحدهم مسرعة وأنفاسُ آخر ـ هو ديبغو ـ تُصدِرُ صفيراً ربَوياً.

قال لهم: «لقد ماتت زوجتي. حين استيقظتُ هذا الصباح ومددتُ يدي لأوقظها كانت باردة كحجرٍ رطب. كانت على أحسن مايرام ليلة أمس. صَنَعَتْ لي حسائي، وكان حساءً طيباً جداً. لم تذكر لي قط أنها ستموت».

«عليكَ أن تستعين بكاهن الحي ياخوزيه».

قال العجوز: «إنه ليس كاهناً صالحاً. هو كاهن الأسقف. أنت تعرف هذا جيداً يابابلو».

«الكاهن الذي أتي الى هنا كان مجرد زائر. قريب لإبن عمي في روزاريو. لقد سافر من جديد».

«ومَنْ كل الناس الموجودين في الغرفة يابابلو؟».

«أصدقائي. وماذا تظن؟ كنّا نستمع الى الراديو عندما أتيت».

«ياإلهي، ألديك راديو يابابلو؟ كم أصبحتَ غنياً فجأة».

«إنه ليس لي. هو يخص أحد أصدقائي».

«ماأغنى صديقك. أنا أحتاج إلى تابوت لأجل زوجتي ياپابلو، وليس معي نقـود».

«أنت تعلم أنَّ هذا الأمر سيدبَّر يا خوزيه. نحن في الحي سوف نـؤمّنه لك».

«يقول خوان إنك اشتريت تابوتاً منه. أنت ليست لديك زوجة ياپابلو. دعني آخذ تابوتك».

«إني أحتاج التابوت لنفسي ياخوزيه. لقد أخبرني الطبيب بأني مريض جداً. سيصنع لك خوان تابوتاً وكلُّنا في الحي سندفع له ثمنه».

«ولكن هناك القداس. أريد الكاهن ليتلو القداس. لاأريدُ كاهن الأسقف» وخطا العجوز خطوة داخل الغرفة، وهو يتحسس طريقه نحوهم بيديه، وراحتاهما موجهتان إلى أعلى.

«لاوجودَ لكاهن هنا. لقد قلتُ لك. لقد عاد إلى روزاريو».

وقف بابلو حائلاً بين العجوز والأب ريفاس وكأنه يخشى أن يتعرَّف، حتى وهو أعمى، على الكاهن.

سأله دييغو: «كيف اهتديتَ إلى الطريق إلى هنا ياخوزيه؟ كانت زوجتك هي العينان الوحيدتان لديك».

«أهذا دييغو؟ أستطيع أن أرى كفاية بيديّ» ومدَّهما، بأصابعهما التي أشارت أولاً إلى دييغو، ومن ثم إلى حيث وقف الطبيب، وبعد ذلك أدارهما بإتجاه الأب ريفاس. كانت أشبه بعيون على أطراف عيدانِ لحشرةٍ ما غريبة. إنه حتى لم ينظر الى بابلو. فوجود بابلو أصبح بديهياً. ولكن عن الآخرين، الغرباء، كانت يداه وأذناه تبحث. كان يوحي بأنه يَعُدُّهم كأنه حارس سجن، وهم واقفون صامتون أمام تفتيشه. «ثمة أربعة غرباء هنا ياپابلو» وخطا خطوة نحو أكوينو وانتفض أكوينو مرتداً.

«كلهم أصدقائي ياخوزيه».

«لم أكن أعلم أنَّ لديكَ كلَّ هذا العدد من الأصدقاء ياپابلو. إنهم ليسوا من هذا الحي».

«لا».

«أهلاً بهم على أية حال ليأتوا ويروا زوجتي».

«سيأتون فيما بعد، ولكن يجب أن أقودك إلى البيت الآن ياخوزيه».

«دعني أستمع إلى الراديو وهو يتكلم ياپابلو. أنا لم أسمع قط الراديو يتكلم».

«تد!» نادى صوت تشارلي فورتنوم من الغرفة الثانية «تد!».

«مَنْ الذي ينادي ياپابلو؟».

«رجلٌ مريض».

«تد! أين أنت ياتد؟».

أضاف العجوز فزعاً: « A gringo ! »[1]. لم أسمع بوجود gringo في الحي من قبل. وراديو. لقد أصبحتَ رجلاً مهماً ياپابلو».

أدار أكوينو مفتاح الراديو على آخره ليطغى على صوت تشارلي فورتنوم فتعالى صوت امرأة يُعدِّد المزايا الرائعة لرُقاقات الأرز من ماركة كيلوغ. قال الصوت: «يفرقعُ حياةً وحيوية. ذهبيٌ وحلو كالعسل».

أسرع الدكتور بلار بالدخول إلى الغرفة الخلفية. وهمسَ: «ماذا تريد ياتشارلي؟».

«حلمتُ بأنَّ هناك شخصاً في الغرفة. كان يوشك أن يقطع عنقي. لقد خفت خوفاً لعيناً. أردتُ أن أتأكد من أنَّك ماتزال هنا».

«لاتعاود الكلام. ثمة غريب هنا. إذا تكلَّمت سوف تعرِّض حياتنا جميعاً للخطر. سأعود إليك بعد أن يذهب».

---

(١) كلمة يقولها الأسبان إشارة الى أي شخص من الدول المتحدثة باللغة الإنكليزية، ويقصد بها الإزدراء والاستخفاف.

حين عاد إلى الغرفة الأخرى كان صوت المرأة المزيَّف يقول: «سوف تحب النعومة العطرة لخدك».

قال العجوز: «إنه أشبه بالمعجزة. تصورَّ أن صندوقاً قادراً على أن يقول أشياء جميلة كهذه».

ثم بدا شخص يغني أغنية عاطفية عن الحب والموت.

«خذ ياخوزيه، المس الراديو. احمله بيديك»، وغمرهم شعور بالارتياح حين انشغلتْ يدا العجوز ـ ولم تعودا تدوران لتنظرا إليهم.

قرَّب الراديو من أذنيه وأنه يخشى أن تفوته كلمة واحدة من الكلمات الجميلة التي تصدر عنه. تنحَّى الأب ريفاس ببابلو جانباً، وهمس له: «سأذهب معه إذا كنتَ ترى أنَّ هذا يفيد».

قال بابلو: «لا. سيتجمَّع كل الحي في هذا الكوخ ليروا جثة زوجته. سيعلمون أنه ذهب ليبحث عن كاهن. وإذا أتى كاهن الأسقف سيطلب معرفة هويتك. سيطلب رؤية أوراقك. وقد يستدعي البوليس».

قال أكوينو: «يجب أن تقع حادثة للعجوز قبل أن يعود».

قال بابلو: «لا. لن أوافق على هذا. إني أعرفه مذ كنتُ صبياً».

وأدلى السائق دييغو برأيه بصوت نكد: «مهما يكن، فقد فات أوان إسكاته الآن. كيف عرفت المرأة عند الحنفية بوجود كاهن هنا؟».

قال بابلو: «أنا لم أخبر أحداً».

قال الأب ريفاس: «لاأسرارَ تخفى طويلاً في الحي».

قال دييغو: «أصبح يعرف أمر الراديو والـ gringo. وهذا أسوأ شيء على الإطلاق. يجب أن ننتقل من هنا بسرعة».

قال الدكتور بلار: «سيكون عليكم أن تحملوا فورتنوم على نقالة».

هزَّ العجوز الراديو، واشتكى قائلاً: «إنه لايحشرج».

سأله بابلو: «ولِمَ يحشرج؟».

«هناك صوت في داخله».

قال بابلو: «هيا ياخوزيه حان وقت عودتك إلى زوجتك المسكينة».

قال خوزيه: «لكن ماذا عن الكاهن؟. أريد الكاهن ليمسحها بالزيت».

«أقول لك ياخوزيه لايوجد كاهن هنا. كاهن الأسقف سيقوم باللازم».

إنه لايأتي أبداً حين نرسل في طلبه. إنه دائماً مشغول في اجتماعٍ ما. ستمضي ساعات عديدة قبل أن يأتي، وأين ستحومُ روح زوجتي المسكينة أثناء كل ذلك الوقت؟».

قال الأب ريفاس: «لن ينالها أي أذى أيها العجوز. إنَّ الله لاينتظر مجيء كاهن الأسقف».

توجَّهتْ يدا الرجل بسرعة نحوه وقال: «أنت ـ أنت هناك الذي تكلم ـ أنت لك صوت كاهن».

«لا، لا، لست بكاهن. لو كنتَ تبصر لرأيت زوجتي هنا الى جانبي. تحدثي إليه يامارتا».

قالت بصوت منخفض: «نعم. هذا زوجي أيها العجوز».

قال بابلو: «هيا. سأصحبك إلى البيت».

تشبَّث العجوز بالراديو بعناد. كانت الموسيقى تنبعث عالية لكنها ليست عالية عليه. وضغطه على أذنه.

همس دييغو: «قال لنا إنه جاء إلى هنا وحده. كيف استطاع؟ لنفرض أنَّ أحداً قاده إلى هنا عَمْداً وتركه عند الباب...».

«لقد جاء إلى هنا مرتين من قبل مع زوجته. والأعمى يتذكَّر الدرب جيداً. على أية حال إذا أخذتُه إلى البيت يمكنني أن أعرف إن كان ثمة مَنْ ينتظره أو يراقب».

قال أكوينو: «إذا لم ترجع في غضون ساعتين، إذا أوقفوك... فسوف نقتل القنصل»، ثم أضاف: «قُل لهم هذا. ليتني فقط أطلقتُ الرصاص على ظهره بالأمس، لكنَّا الآن بعيدين».

قال العجوز مندهشاً: «أنا استمعتُ إلى الراديو»، ووضعه برفقٍ وكأنه شيءٌ هش. «ليتَ كان في استطاعتي أن أخبر زوجتي...».

قالت مارتا: «إنها تعرف، تعرف كل شيء».

«هيا ياخوزيه» وأمسك الزنجي بيد العجوز اليمنى وجرّه باتجاه الباب، لكنه كان عنيداً. فدار حول نفسه، وبيده الحرةً بدا كأنه يَعُدُّهم مرة أخرى. قال: «ماأكبر الجمع الذي لديك هنا ياباblo. أعطني شيئاً أشربه. أعطني بعض الـ Cana [1]».

«ليس لدينا مايُشرب هنا ياخوزيه» وجرّ الأعمى إلى الخارج وعجّل الهندي بإغلاق الباب خلفهما. وشعروا للحظة بارتياح شبيه بهبّة ريحٍ تبرد النهار المُثقَل بالرعود.

سأل الدكتور بلار: «مارأيك ياليون؟ أكانَ جاسوساً؟».

«كيف لي أن أعرف؟».

قالت مارتا: «أعتقد أنه كان يجب أن تذهب مع الرجل الفقير ياأبتِ. زوجته ميتة ولايوجد كاهن يساعده».

«لو ذهبتُ لعرّضتكم جميعاً للخطر».

«أنت سمعت ماقال. كاهن الأسقف لايأبه بالفقراء».

«وهل تظنّنيني لاآبه بهم؟ إنني أعرّض حياتي للخطر لأجلهم يامارتا».

«أعلم هذا ياأبتِ. لم أكن أتّهمك. أنت رجل صالح».

«لقد مرّت ساعات على موتها. أي فرق يمكن لقليل من الزيت أن يشكّله الآن؟ إسألي الطبيب؟».

قال الدكتور بلار: «أوه، أنا أتعامل فقط مع الأحياء».

لمست المرأة يد زوجها: «لم أقصد أن أهينك ياأبتِ. أنا امرأتك».

قال الأب ريفاس بنفاذِ صبر غاضب: «لستِ امرأتي، بل زوجتي».

«كما تشاء».

«شرحتُ لكِ الأمر مراراً وتكراراً».

«أنا امرأةٌ غبيَة ياأبتِ. لاأفهم دائماً. هل الأمر هامٌ الى هذه الدرجة؟ امرأة، زوجة ... ».

---

(١)عصير قصب السكر.

«نعم يهمّ. الكرامة الإنسانية تهمّ ياマارتا. الرجل الذي يغلبه الشبق يتّخذ امرأةً طوال فترة شهوته، أمّا أنا فأخذتُكِ مدى الحياة. وهذا زواج».

«كما تشاء ياأبت».

قال الأب يفاس بصوتٍ بدا تعباً لأنه يضطر على الدوام إلى تعليم الشيء نفسه: «ليس كما أشاء أنا ياMارتا. بل هي الحقيقة».

«نعم، ياأبت. سأشعر بتحسُّنٍ إذا سمعتُك أحياناً تصلّي ...».

«لعلّي أصلّي أكثر مما تظنين».

«أرجوك لاتغضب ياأبتِ. إنني شديدة الفخر لأنكَ انتقَيتني».

التفتتْ نحو الآخرين في الغرفة وقالت: «كان في إمكانه أن يضاجع أي امرأة تعجبه في حيّنا في أسونسيون. إنه رجل صالح. فإذا لم يَعُدْ مع القديمة فلا بدَّ أن لديه سبباً وجيهاً. فقط، أرجوكَ ياأبت ...».

«أتمنى ألا تناديني أبتِ طوال الوقت. أنا زوجكِ ياMارتا. زوجك».

«نعم، لكني سأكونُ شديدة الفخر لو أراكَ ولو مرةً واحدة كما كنتَ قبلاً ... بلباسك الكامل على المذبح ... تستدير لتُسبغَ علينا البركة، ياأبت».

أفلتَتْ الكلمةُ منها مرةً أخرى، فوضعت راحة يدها على فمها بعد فوات الأوان لتوقِفَها.

«أنت تعلمين أني لاأستطيع أن أفعل ذلك».

«لوأراكَ كما رأيتُكَ في أسونسيون.. بلباسك الأبيض في عيد الفصح..».

«لن تريني هكذا مرة أخرى».

أشاح ليون ريفاس بوجهه. قال: «أكوينو، دييغو، عودا إلى مركزيكما. ستر تاحان بعد ساعتين. وأنتِ ياMارتا، عودي إلى البلدة وانظري إن كانت صُحُف بوينس ايريس قد وصلت».

قال الدكتور بلار: «كان من الأفضل لو تبتاع مزيداً من الويسكي لفورتنوم، فإنَّ معياره الخاص سوف يُنهي الزجاجة قريباً».

قال الأب ريفاس: «هذه المرَّة لن يشاركه فيها أحد».

سأله أكوينو: «إلامَ تلمِّح؟».

«لاألمح إلى أي شيء. أتظن أنّي لم أشم رائحة أنفاسك بالأمس؟».

***

في الرابعة كان أكوينو هو مَنْ أدار مفتاح الراديو، ولكن هذه المرة لم يَرِدْ تنويهٌ واحد إلى عملية الإختطاف. وكأنهم مسحوا ذاكرة العالم. قال أكوينو للدكتور بلار: «إنهم حتى لايذكرون اختفاءك أنت».

قال الدكتور: «لعلَّهم لم يعلموا بعد. إنني أفقدُ عادة عَدَّ الأيام. أهو الخميس؟ أذكر أني منحتُ سكرتيرتي عطلةً أسبوعية مطوَّلة. ستكون منشغلةً في مكانٍ ما تجمع الغفرانات للأرواح في المَطْهَر، آمل ألاّ نعمل على الإستفادة منها».

بعد ساعة عاد بابلو. لم يُبدِ أحدٌ منهم أية ريبة، لكنه أطال غيبته أكثر مما كان ينوي لأنه صمَّم على الوقوف في الطابور الذي كان ينتظر تقديم آخر واجب للاحترام للمرأة المتوفاة. حين غادر الموكب لم يكن كاهن الأسقف قد وصل بعد. والقلقُ الوحيد الذي انتابه كان عندما راح خوزيه يثرثر مع الجميع عن الراديو. فقد كان العجوز فخوراً الى أقصى حد لأنه كان الوحيد بينهم استمع أبداً الى مذياع، بل إنه في الحقيقة ضمَّ جهازاً بين يديه. في تلك الأثناء يبدو أنه نسي أمر الـ gringo.

قال دييغو: «سرعان ماسيتذكر. يجب أن نبتعد عن هذا المكان».

أفحمهم أكوينو قائلاً: «لو كان إل تيغره هنا لقال «اقتله الآن».

قال دييغو: «كانت قد أتيحتْ لك هذه الفرصة».

سأل بابلو: «أين الأب ريفاس؟».

«في الحراسة».

«يجب أن يكون منكم إثنان في الخارج».

«على الرجل منّا أن يتناول مشروباً. كميّتي من الماتي نفذت. كان من واجب مارتا أن تُحضر المزيد، لكن الأب ريفاس أرسلها الى البلدة لتشتري ويسكي للـ gringo. إذ يجب ألا ندعه يعطش».

«أكوينو، إذهب أنت».

«أنا لاأتلقى أوامر منك ياْبابلو».

قال الدكتور بلار في نفسه، لو أنّ هذا التكاسل يستمر فترة أطول لتقاتلا معاً.

***

في الوقت الذي عادت فيه مارتا كان المساء قد حلّ. كانت الصُحف قد وصلت من يوينس ايريس وفي الناسيون خُصِّصت بضعة أسطر للحديث عن الدكتور سافيدرا، إلا أنّ المراسل وجد من الضروري أن يذكِّر قرّاءه من هو سافيدرا. كتبَ يقول: «الروائي الذي عرف أكثر ماعُرف بكتابه الأول (القلب الصامت)» مُخطئاً بذلك في العنوان.

بدا كأن المساء قد استطال إلى ما لانهاية وكأنهم وهم جالسون هناك لساعات في صمت قد شكّلوا جزءاً من صمت كونيّ يشملَ كلّ ماحولهم، صمتُ الراديو، صمتُ السلطات، وحتى صمتُ الطبيعة. لا كلبَ ينبح. والعصافير كُفّت عن التغريد، وحين بدأ المطر يهطل كانت حباته ثقيلة تفصل بينها فراغات، وغير منتظم ككلماتهم ـ وأعمق الصمت كان الذي فصل بين القطرات. وفي مكانٍ ما في البعيد هبّت عاصفة، لكنّ العاصفة كانت تدوّم عبر النهر في بلد آخر.

كلّما تكلّم أيّ منهم حام خطرُ نشوب شجارٍ من أكثر الملاحظات براءة. الهندي وحده لم يكن يتأثر. جلس وابتسامة الرضا الرقيق على شفتيه وهو يزيِّت بندقيته. فنظّف شقوق الرتاج برقّة ولذّة حسية كامرأة ترعى وليدها الأول. وحين قدّمت لهم مارتا شوربة تذمَّر أكوينو من نقص الملح، وظنّ الدكتور بلار لبرهة من الزمن أنها تنوي أن ترمي صحناً ملآن بالشوربة المرفوضة في وجهه. فتركهم ودخل الغرفة الداخلية.

. قال تشارلي فورتنوم: «ليتَ لديَّ شيئاً أقرأه ...».

قال الدكتور بلار: «لايوجد ضوء كافٍ للقراءة». لم يكن يضيء الغرفة غير نور شمعة واحدة.

«لاشكَّ في أنه يمكنهم أن يزودوني بمزيد من الشمع».

«هم لايرغبون في أن يشعّ مزيدٍ من الضوء إلى الخارج، أغلب سكان هذا الحي ينامون حالما يهبط الظلام... أو يتضاجعون».

«شكراً لله لأنه مايزال هناك الكثير من الويسكي. خذ كأساً. إنها علاقة غريبة، أليست كذلك؟ يطلقون الرصاص عليّ كأني كلب ومن ثم يعطونني الويسكي. هذه المرة إنني حتى لم أدفع ثمنه. أما مِنْ أخبار؟ عندما فتحوا الراديو أخفضوا صوته بشكلٍ لعين بحيث لم أسمع أي شيء».

«لاأخبار على الإطلاق. كيف حالك؟».

«شنيعة جداً. أتظن أني سأعيش حتى أرى نهاية هذه الزجاجة؟».

«طبعاً».

. «إذن كُنْ متفائلاً وعبّ جرعة أكبر».

اشتركا في الشرب وسط الصمت الذي لم يخرقاه إلا للحظات. وتساءل بلار أين تكون كلارا. أفي المخيم؟ أفي القنصلية؟ وأخيراً قال: «ما الذي جعلك تتزوج من كلارا ياتشارلي؟».

«لقد قلت لك ـ أردتُ أن أساعدها».

«لم تكن مضطراً للزواج منها لتفعل ذلك».

«لو لم أفعل لخسرت الكثير في دفع الضرائب بعد موتي. ثم أني أردت طفلاً. أنا أحبها ياتد. أردتُها أن تشعر بالأمان. أتمنى لو أنّكَ تعرفتَ عليها أكثر قليلاً. إن الطبيبَ لايرى إلا الظاهر ـ آه، والداخل أيضاً، أظن، لكنك تعرف ماأعني. هي بالنسبة إليَّ أشبه... أشبه...» لم يستطع أن يعثر على الكلمة التي أراد، وشعر الدكتور بلار برغبة بتزويده بها. قال في نفسه، إنها

أشبه بمرآة، مرآة صنعتها السينيورة سانشيز لتعكس صورة أي رجل ينظر فيها ـ لتعكس رقة تشارلي المتعثرة مع تقليدها الخاص لها و ... و ... لكنَّ الكلمة الصحيحة خَذَلَتْهُ هو أيضاً. من المؤكد أنها ليست (هيامي). ماذا كان السؤال الذي طرحَتهُ عليه مباشرة قبل أن يغادرها؟ عكستْ حتى ارتياب المرء بها. كان غاضباً منها وكأنها جرحته بطريقة غامضة. وفكَّر، يمكن للمرء أن يستخدمها للحلاقة. وتذكر نظارات غروبر الشمسية.

تابع تشارلي فورتنوم: «سوف تضحك مني، لكنها تذكِرني قليلاً بميري بيكفورد[1] أيام السينما الصامتة القديمة ... أنا لاأقصد وجهها طبعاً بل، يعني، مايشبه ... أعتقد أنه يمكن تسميته البراءة».

«إذن آمل أن يكون الوليد بنتاً. إنَّ ولداً يشبه ميري بيكفورد لن يتمكن من شق طريقه في الحياة».

«لايهمني ماذا يكون. لكن يبدو أن كلارا تريده صبياً» ثم أضاف بنبرة سخرية ذاتية: «لعلها تريده أن يحذو حذوي».

انتابت الدكتور بلار رغبة وحشية بأن يُفضي إليه بالحقيقة كلها، لولا أن منعه جسده الممدَّد بلا حراك على غطاء التابوت. إن إزعاج مريض سيكون عملاً منافياً لشرف المهنة.

رفع تشارلي فورتنوم كأسه بالويسكي وأضاف: «ليس على غرار ماأنا عليه الآن طبعاً، في صحتك».

سمع الدكتور بلار الأصوات تتعالى في الغرفة المجاورة.

سأل تشارلي فورتنوم: «ماذا يحدث هناك؟».

«إنهم يتشاجرون فيما بينهم».

«حول ماذا؟».

«ربما حولك».

---

(١)ميري بيكفورد: ممثلة أميركية كانت معروفة أيام السينما الصامتة. (١٨٩٣ ـ ١٩٧٩)

الفصل الثاني

بُعيدَ الساعة التاسعة من صباح يوم الجمعة حامت طائرة هليوكبتر تطير منخفضة فوق الحي. وصارت تروح وتجيء بخط منتظم، كمرور قلم رصاص على حافة مسطرة، ومسحت كل درب موحل، فوق الأشجار مباشرة، دون كلل وبدقة. ذكَّر هذا الدكتور بلار بالطريقة التي كان يحرك بها أصابعه أحياناً على جسدِ مريضه، بحثاً عن موضع الألم الدقيق.

أمر الأب ريفاس بابلو أن ينضم إلى دييغو وماريا اللذين كانا يقومان بالحراسة خارجاً. قال: «سيكون الحي كله يراقبهم. سيلاحظون إن كان أناس هذا الكوخ وحده يُبدون لامبالاة» وأمرَ أكوينو أن يراقب فورتنوم في الغرفة الداخلية. مع أنَّ لاسبيل ممكناً لفورتنوم ليلفت الإنتباه إلى وجوده هناك، لكنَّ الأب ريفاس لم يكن ليخاطر.

جلس الدكتور بلار والكاهن صامتين يراقبان سقف الغرفة وكأنهما يتوقعان في أية لحظة أن تنقضّ الطائرة متحطّمة فوق رأسيهما. بعد أن ذهبت الطائرة صار إمكانهما أن يسمعا حفيف ورق الأشجار وهو يسقط كحبات المطر. وحين توقف هذا الصوت ظلاَّ أبكمين، في انتظار عودة الهليوكبتر.

دخل بابلو ودييغو. وأفضى بابلو بما لديه: «كانوا يلتقطون صوراً».

«لهذا الكوخ؟».

«للحي بأكمله».

قال الدكتور بلار: «إذن فقد رأوا السيارة. سوف يتساءلون ماذا تفعل سيارة هنا».

قال الأب ريفاس: «لقد أحسنَّا إخفاءها. إننا فقط نأمل ...».

وأخبرهم بابلو: «إنهم يقومون بتفتيش دقيق».

قال دييغو: «من الأفضل أن نقتل فورتنوم الآن».

«إنذارنا لاتنتهي مدته إلا عند منتصف ليل الأحد».

«لقد رفضوه منذ الآن. الهليوكبتر تبرهن على ذلك».

قال الدكتور بلار: «مددٌ مدة إنذارك بضعة أيام. يجب أن نفسح بعض الوقت ليعمل إعلاني عمله. ليس هناك من خطر يتهددكم. إنَّ البوليس لايجرؤ على مهاجمتكم».

«قال الأب ريفاس: «إل تيغره هو الذي حدَّد المدة».

«يجب أن تجد طريقة للإتصال به، مهما قلت».

«ليست لدينا أية طريقة».

«لكنكَ أرسلتَ له أخبار فورتنوم».

«ذاك الخط قُطع من فوره».

«إذن تصرَّف بنفسك. دع أحداً يتصل هاتفياً بـ EL litoral. امنحهم أسبوعاً آخر».

قال دييغو: «نمنح البوليس أسبوعاً آخر ليعثر علينا».

«إن بيريز لا يجرؤ على إجراء تفتيش عن قرب. إنه لايريد أن يجدَ رجلاً ميتاً».

مرة أخرى سُمع هدير الهليكوبتر. سمعوه من مكانٍ بعيد، لايكاد صوتها يعلو عن همهمة رجل. في المرة الأولى عبرت من الشرقِ إلى الغرب. والآن هي تَعْبر من فوق الأشجار مباشرة متجهة من الشمال إلى الجنوب لتعود من جديد. عاد بابلو ودييغو إلى الفناء، وعاودا انتظارهما الطويل على إيقاع سقوطِ ورق الأشجار. وأخيراً عاد الصمت.

وعاد الرجلان. قال دييغو: «كانوا يلتقطون مزيداً من الصور. لابد أنهم أخذوا صورة لكل درب وكوخ في الحي».

قال الزنجي: «أكثر مما فعله مجلس المدينة في أي وقت. لعلهم بعد هذا سيدركون أننا نحتاج إلى مزيدٍ من حنفيات المياه».

دعـا الأب ريفـاس مـاريـا إلى الدخـول من الفناء، وهمس لهـا ببـعض التعليمات. حاول الدكتور بلار أن يسمع ماكان يقول، لكنه لم يستطع سماع أي شيء حتى ارتفع صوتاهما.

قالت ماريا: «لا، لا. لن أتركك ياأبت».

«هذه أوامري».

«هل قلت لي بأني زوجتك أم امرأتك؟».

«طبعاً أنت زوجتي».

«آه نعم، أنت تقول ذلك، سهل أن تقول ذلك، ومع هذا تعاملني كأني امرأتك. تقول: «اذهبي» لأنك شبعت مني. صرت أعرف جيداً الآن أنني لست إلا امرأة لك. لن يقبل أي كاهن أن يزوجنا. كلهم رفضوك. حتى صديقك الأب أنطونيو».

«شرحت لك مراراً أن الكاهن ليس ضرورياً لعقد زواج. ماالكاهن إلا مجرد شاهد. الناس يتزوجون. وتبادلنا العهد هو المهم. ونوايانا».

«كيف لي أنا أن أستشف نواياك؟ ربما أنت تريد فقط امرأة لتضاجعها. لعلّي عاهرتك. إنك تعاملني وكأني عاهرة عندما تقول لي اذهبي واتركيني».

رفع الأب ريفاس يده كأنه أراد أن يضربها... ومن ثم أشاح بوجهه».

«إذا كنت لست الإثم الذي اقترفته ياأبت فلماذا لست من يقيم لنا القداس؟ نحن جميعاً مهددون بالموت ياأبت. نحن بحاجة إلى قداس. وتلك المرأة البائسة في الحي التي ماتت ... حتى الـ gringo الذي في الداخل... بحاجة إلى صلواتك أيضاً».

وعاودت الدكتور بلار رغبة تلميذ المدرسة في السخرية من ليون. قال: «من المؤسف أنك تركت الكنيسة. كما ترى ـ كلهم يفقدون ثقتهم بك».

رفع الأب ريفاس بصره إليه بعينين تتلظّيان كأنه كلب يدافع عن عظمته: «أنا لم أقل قط أني تركت الكنيسة. كيف أترك الكنيسة؟ الكنيسة هي العالم.

الكنيسة هي هذا الحي، هذه الغرفة. ليست هناك إلا طريقة واحدة لترك الكنيسة وهي بالموت». وأومأ بإشارة إنسانٍ ملَّ النقاشَ العقيم. «ولا حتى عندئذ، إنْ كان مانؤمن به أحياناً صحيحاً».

«إنها لاتطلب منك إلا أن تصلي. أنسيتَ كيف تصلي؟ أنا حتماً نسيت. إنني لاأستطيع أن أتلو أكثر من «ليكن سلامٌ لكِ يامريم»، بعد ذلك أخلط الكلمات مع أغنية إنكليزية للأطفال «ميري، ميري، بالعكس تماماً».

قال الأب ريفاس: «إنني لم أعرف قط كيف أصلي».

«ماهذا الذي تقوله ياأبتِ؟. . إنه لايعرف ماذا يقول»، وجَّهت ماريا هذه العبارة إليهم وكأنها تدافع عن طفلٍ تلفَّظَ بعبارةٍ فاحشةٍ، التقطها من الشارع.

«هناك صلاة لشفاء المرضى، وصلاة لاستجلاب المطر، أهذا ماتريدينه؟ آه، أنا أحفظ هذه كلها عن ظهر قلب، لكنها ليست صلوات. سَمِّها عرائض إذا أردتِ أن تعطي تلك الغمغمات إسماً. يمكنكِ أيضاً أن تكتبيها على شكل رسالة وتجمعي عليها تواقيع الجيران أيضاً وتختميها في مركز البريد مُعنونَة الى الله القدير. لن تَجِدي من يستلم رسالتك. لن يقرأها أحد. آه، طبعاً، قد تحدث بين الحين والآخر مصادفة، ومرة من المرات قد يصف الطبيب الدواء الصحيح لطفل فيشفى، أو قد تأتي العاصفة عندما نريدها، أو يتغير مجرى الريح».

قال لهم أكوينو من باب الغرفة الأخرى: «ومع ذلك كنتُ أصلي في مركز البوليس. صلَّيتُ أن تأتي فتاةٌ الى سريري من جديد. لاأظنكَ ستقول لي أن هذه ليست صلاة حقيقية. ثمَّ أنها لبَّيتْ أيضاً. ففي أول يوم خرجت فيه ضاجعتُ فتاة. حدث ذلك في حقلٍ بينما كنتَ في القرية تشتري الطعام. لقد استجيبَ لصلاتي ياأبتِ. حتى وإنْ كان ذلك قد حدث في حقلٍ وليس في سرير».

فكَّر الدكتور بلار، إنه مثلي: بيكادور[1]، يلكز جلد الثور ليثير نشاط الوحش قبل أن يموت. وكان ترديد كلمة «أبت» أشبه برماح مغروزة في الجلد. لماذا نريد جميعاً وبقوة أن ندمره - أم هلَ نأمل في أن دمّر أنفسنا؟ - يالها من ممارسة قاسية!

«ماذا تفعل عندك هنا ياأكوينو؟ قلتُ لكَ أن تبقى وتراقب السجين».

«الهليكوبتر ذهبت. ماذا يسعه أن يفعل؟ إنه فقط يكتب رسالة لإمرأته».

«أعطيتهُ قلم حبر؟ أنا أخذت منه القلم بنفسي عندما أُحضر إلى هنا».

«وما الضَّرر في كتابة رسالة؟».

«كانت تلك أوامري. إذا أخذ كلٌ منكم يعصي الأوامر لن يكون هناك أمان لأي منّا. دييغو، بابلو، عودا إلى الخارج. لو كان إل تيغره هنا ...».

الأب ريفاس: «لِمنْ تكتب؟».

«إلى زوجتي».

«لابدَّ أنه من الصعب أن تكتب في هذه الوضعية».

«يستغرق منّي كتابة جملتين ربع ساعة. طلبتُ من رجلُكَ أكوينو أن يكتب نيابة عنّي. لكنه رفض. إنه غاضب منّي منذ أن أطلق الرصاص عليّ. لم يعد يريد أن يكلّمني. لماذا؟ وكأنني سبّبتُ له أذى».

«ولعلّكَ فعلت».

«أيُّ أذى؟».

«ربّما يشعر بأنه خُدِعْ. إنه لايؤمن بأنّك تتحلى بالشجاعة لخداعه».

«شجاعة؟ أنا؟ إنني لاأتحلى بشجاعة فأر ياأبتِ. أردتُ أن أرى زوجتي مرة أخرى، هذا كل شيء».

«مَنْ الذي سيعطيها هذه الرسالة؟».

---

(١) البيكادور: هو الفارس الذي يفتتح مصارعة الثيران بإهاجةِ الثور بوخز الرماح ليوهن عضلات عنقه وكتفيه. المترجم.

«ربما الدكتور بلار. إذا سمحتَ له بالذهاب بعد موتي. يمكنه أن يتلوها عليها بصوتٍ عالٍ، فهي لاتُحسن القراءة بشكل جيد وخطّي في الكتابة سيء في أحسَن حالاته».

«إذا أحببتَ أكتب أنا الرسالة لك».

«شكراً جزيلاً. سأكون ممتناً إذا فعلت. إنني في الواقع أفضّلكَ على أي شخص آخر. إنَّ رسالة من هذا النوع هي أشبه بالسر. أشبه بالإعتراف. ثم إنَّك في الحقيقة كاهن».

أخذ الأب ريفاس الرسالة وجلس على الأرض بجانب التابوت.

«نسيتُ الى أين وصلت بالكتابة».

وقرأ الأب ريفاس عليه: «لاتقلقي، ياعزيزتي، لأنَّكِ وحيدةٌ وحامل. من الأفضل له أن يكون وحيداً مع أم على أن يكون مع أب. أدرك هذا جيداً. أنا تُرِكتُ وحيداً مع أبي ولم يكن الوضع مفرحاً. لايهتم إلا بالجياد، الجياد... » هذا كل شيء. أنت لم تكتب شيء بعد كلمة «جياد».

قال تشارلي فورتنوم: «في الوضع الذي أنا فيه أعتقد أنَّكَ ترى أني يجب أن أجد سبيلاً للغفران. حتى والدي. لعله لم يكن ذاك الرجل السيء بعد كل شيء. الأولاد يكرهون بسهولة كبيرة. من الأفضل أن نحذف الكلام حول الجياد».

ورسم الأب ريفاس خطاً فوق الكلمات.

«ضع بدلاً عنها ـ ولكن ماذا؟ لعنني الله إذا كنتُ معتاداً على كتابة أي شيء شخصي، هذه هي المشكلة. أعطني دمعة ويسكي ياأبتِ. إنه يساعد العقل على العمل، أقصد، ماتبقى منه».

صبَّ الأب ريفاس له كأساً.

قال تشارلي فورتنوم: «أنا أفضّل لونغ جون، ولكن هذا النوع الذي أحضرته ليس سيئاً إلى ذاك الحد. وإذا بقيتُ هنا فترة طويلة سأعتاد على مذاق الويسكي الأرجنتيني، ولكن يصعب معه معرفة المعيار الصحيح أكثر مما

هو مع السكوتش الحقيقي. أنت لن تفهم ماأقصد ياأبت، ولكن لكلٍّ مشروب معياره الصحيح - لاأقصد الماء، طبعاً. فالماء ليس للشرب. إنه يصدىء الجوف أو يسبّب لكَ التيفوئيد. وهو غير نافع للإنسان أو للحيوان ماعدا تلك الجياد اللعينة. هل يجوز أن أطلب منك أن تتناول معي كأساً أخرى؟».

«لا. فأنا، كما يقال، أثناء تأدية واجبي. ألا تريد أن تتابع كتابة رسالتك؟».

«نعم، طبعاً. كنتُ فقط أنتظر قليلاً لأدعَ الويسكي يعمل عمله. أنت حذفت تلك الجملة عن الجياد، أليس كذلك؟ ماذا يجب أن أقول بعد ذلك؟ كما ترى أنا أريد أن أخاطبها بلغةٍ بسيطة تماماً، وكأننا معاً وحدنا، على الشرفة، في المخيم، لكن الكلمات لاتردنّي بسهولة - ليس على الورق - على أية حال. أظنك تفهم. فقبل كل شيء أنت أيضاً متزوج بشكلٍ ما ياأبتِ».

قال الأب ريفاس: «نعم، أنا أيضاً متزوج».

«ولكن حيث أنا ذاهب لاوجود للزواج، أو هكذا تقولون لنا دائماً أنتم الكهّان. يبدو من المؤسف قليلاً أنني عثرت على الفتاة الملائمة في وقتٍ متأخر بشكلٍ لعين. يجب أن تُخَصَّص أيام للزيارات في السماء، وهكذا نُمنَح شيئاً نصبو إليه من وقتٍ لآخر. كما يفعلون في السجن. وإذا لم يكن هناك مايُصبى اليه، لن يكون ذلك خليقاً بالسماء. في الحقيقة أني أصبحتُ فقيهاً في الدين بعد أن أشرب المعيار الصحيح من الويسكي. أين كنتُ قد وصلت؟ آه، الجياد. هل أنت متأكد تماماً من أننا قد حذفنا موضوع جياد العجوز ابن الحرام؟».

دخل الدكتور بلار قادماً من الغرفة الداخلية، لم تصدر قدماه صوتاً على الأرض الترابية، ولم يرفع أيٌّ من الرجلين بصره. كانا منشغلين بالرسالة. وقف يراقبهما في صمت بالقرب من الباب. بَدَوا له كصديقين قديمين.

وأملى عليه تشارلي فورتنوم: «سجّلي الطفل في المدرسة المحلية. ولكن إذا كان ولداً أرسليه إلى تلك المدرسة الإنكليزية في بوينس ايريس حيث

ذهبتُ أنا. إنني لم أكن سعيداً هناك. فليكن أرجتينياً حقيقياً مثلك ـ وليس نص ـ نص مثلي» هل كتبتَ هذا ياأبت؟».

«نعم. أليس من الأفضل لكَ أن تقول لها شيئاً عن التغيُّر الذي طرأ على الخط؟ قد تتساءل ...».

«أشكُّ في أنْ تُلاحظ أمراً كهذا. ويمكن لبلار دائماً أن يشرح لها الموضوع. ياإلهي، إنَّ كتابةَ رسالة أشبه بتشغيل فخر فورتنوم في صباح ماطر. إرتجاجٌ بعد آخر. تبدأ بالظن أن المحرك قد أخذ يعمل وإذا به يقف ثانية. آه حسن ياأبتِ، اكتب ـ «إنني، وأنا مستلقٍ هنا، أفكِّر فيكِ في أغلب الوقت، وفي الطفل أيضاً. في البيت تكونين إلى جانبي الأيمن، وأضع يدي اليمنى على بطنك وأحسُّ بإبن الحرام الصغير يرفس، أمَّا هنا فلا يوجد جنب أيمن. السرير شديد الضيق، وغير مريح أبداً، طبعاً. ليس هناك ماأشتكي منه. إنني أوفر حظاً من أغلب الرجال» وتوقف «أوفرُ حظاً ...» وعضَّ على طرف الكلمة بأسنانه. «قبل أن أعرفكِ ياحبيبتي، كنت رجلاً منتهياً. على الرجل أن يكونَ له نوعٌ من الطموح ليعيش عليه. حتى المليونير يرغب في أن يجمع مليوناً آخر. ولكن قبل أن تعيشي معي لم يكن ثمة ماأتطلع إليه، إلا المعيار الصحيح، طبعاً. لم يكن محصولي من الماته من النوع الذي يصلح للعرض. ثمَّ وجدتُكِ وأصبح لديَّ شيءٌ أرغب حقاً بعمله. أردتُ أن أسعدكِ وأحيطك بالأمان، ثم كان طفلنا هذا. كنا معاً مشغولين. لم أكن أتوقَّع أنْ أعيش طويلاً. كل ماأردته هو أن أتأكد من أن تلك السنوات الأولى ستمضي على مايرام ـ فالسنوات الأولى هامة بالنسبة للطفل، إنها بشكل ما تكوِّن نظاماً. ومع ذلك يجب ألا تعتقدي أني فقدتُ الأمل ـ مايزالُ في وسعي أن أجدَ وسيلةً للخروج من هنا رغمَ أنفهم» وتوقف ... «طبعاً هذه مجرَّد دعابة ياأبتِ. فكيف لي أن أهرب؟ لكنني لاأريدها أن تظن أني مبتئس. يا الله، لقد بدأ فخر فورتنوم يعمل قليلاً، كدنا نخرج من هذا المأزق، لكنني لم أعد أستطيع الآن. اكتب فقط «فتاتي الحبيبة، لكِ كلُّ حبي».

«هل أنتَ واثق من أنَّك انتهيت؟».

«نعم. أظن ذلك. إن كتابة الرسائل عمل مضنٍ. عندما أرى على رفّ المكتبة مجلداً بعنوان «رسائل مُنتَقاة» باسم إحدى الشخصيات أقول: «ياللأبله المسكين. وقد يكون مؤلفاً من جزئين. ثمة حقاً شيء نسيته. ضعه فقط في النهاية. اكتب: ملاحظة سريعة. كما تعلم ياأبتِ، هذا أول طفل تلده. لم تمر بأية تجربة مماثلة من قبل. يقول الناس أن المرأة تَعرف بالفطرة. لكني أشك في ذلك. اكتب مايلي ـ «أرجوكِ لاتعطي الطفل حلوى. إنها ضارة بالأسنان، لقد أفسدتْ أسناني تماماً، وإذا شككتِ في أي شيء إسألي الدكتور بلار. إنه طبيبٌ جيد وصديقٌ صدوق» هذا كل مايخطر في بالي ياأبتِ»، وأغمض عينيه «قد أستحضر المزيد بعد قليل. أريد أن أضيف كلمة أو اثنتين قبل أن تقتلني مباشرة، الكلمات الأخيرة الشهيرة، لكني أتعبْ من أن أفكر في أكثر من هذه».

«يجب ألاّ تتخلى عن الأمل، سينيور فورتنوم».

«أي أمل؟ منذ أن تزوجت من كلارا وأنا دائمُ الخوف من الموت. هناك فقط طريقةٌ وحيدة للموت بسعادة وهي أن نموتَ معاً، وحتى لو لم تتدخل، لكنتُ أكبرَ سناً من أن يحدث لي ذلك بتلك الطريقة. لاأكاد أحتمل التفكير في أنها ستكون وحيدة ينتابها الخوف عندما يحين دورها في الموت. أريد أن أكون معها عندئذ لأمسكَ بيدها وأقول كل شيء على مايرام ياكلارا، هاأنا أموت أيضاً، فلا تجزعي ـ إن الموت ليس بالأمر السيء. ها أنا أبكي الآن، ترى بنفسكَ أني لستُ بالرجل الشجاع. على أية حال ليس هذا بإشفاقٍ على الذات ياأبت. أنا فقط لاأريدها أن تكون وحيدة حين تموت».

أومأ الأبَ ريفاس بإشارة ـ لعلها كانت محاولةً لرسمِ إشارةِ تبريكٍ في الهواء نسيها الآن. وقال دون اقتناع: «سيكون الله موجوداً».

«أوه، يمكنك أن تحتفظ بربك. آسف ياأبتِ، لكني لاأرى أي دلالة على وجوده، هل ترى أنت؟».

***

كان الدكتور بلار قد عاد إلى الغرفة الداخلية وهو في حالة غضب جامح. بدا له أنَّ كلَّ كلمةٍ من الرسالة التي سمع فورتنوم يُمليها كانت تأنيباً موجهاً ظُلماً إليه. وكان غضبه من الشدَّة حتى أنه مشى مباشرة عبر الباب الخارجي إلى أن أحسَّ ببندقية الهندي تضغط على بطنه فتوقف. وفكَّر في نفسه، الطفل، دائماً يتحدث عن الطفل، والصديق الصدوق، لاتُعطي الطفل حلوى، وأشعرُبه يرفس. وقف مكانه والبندقية مغروزة في بطنه وبصق غضبه على الأرض.

سأله أكوينو: «ما الأمر، إدواردو؟».

«مَلَلتُ حتى الموت من احتجازي هنا. لماذا بحق الجحيم لاتثق بي وتدعني أذهب؟».

«نحتاج إلى طبيب لفورتنوم. إذا ذهبت من هنا لن تتمكن من العودة».

«لم يعد في وسعي أن أفعل المزيد لأجل فورتنوم، ثم أنني في سجنٍ حقيقي هنا».

«ماكنتَ شعرتَ هكذا لو أنَّك دخلت سجناً حقيقياً. هذه حرية بالنسبة إليّ».

«مائة متر مربع من الأرض القذرة».

«كنت معتاداً على تسعة. لذا فالعالم كَبُرَ بقدرٍ هائلٍ بالنسبة إليَّ».

«أعتقد أنه في استطاعتكَ أن تكتب قصائدك في أية بؤرةٍ لعينة، أما أنا فليس لديَّ أي شيء، أي شيء، أفعله. أنا طبيب. ومريض واحد ليس كفاية».

«لم أعد أكتب أية قصائد الآن. لقد كانت مجرَّد جزء من السجن المؤبد. كتبتُ قصائد لأنه كان من السهل حفظها. كانت تشكِّلُ وسيلةً للتواصل، فقط. الآن لديَّ كل الورق الذي أحتاج وقلم ولاأستطيع أن أكتب بيتاً واحداً. ولماذا أهتم؟ أنا أعيش بدل ذلك».

«أتسمِّي هذه حياة؟ إنك حتى لاتستطيع أن تمشي حتى البلدة».

«إنني لا آبه كثيراً بالمشي. لطالما كنتُ رجلاً كسولاً».

دخل عليهما الأب ريفاس، وسأل: «أين بابلو ودييغو؟».

قال أكوينو: «يقومان بالحراسة. أنت أرسلتهما بنفسك».

«مارتا، خذي واحداً منهما واذهبا الى البلدة. قد تكون فرصتنا الأخيرة. اشتري أكبر كمية من المؤن. تكفي لثلاثة أيام. وتكون خفيفة على الحمل».

سأله أكوينو: «ما الذي يقلقك؟ وكأنكَ سمعتَ أخباراً سيئة؟».

«أنا قلق بشأن الهليكوبتر. وبشأن الرجل الأعمى أيضاً المدَّة المحدَّدة تنتهي في ليل يوم الأحد، وقد يأتي رجال البوليس قبل ذاك الموعد بوقت طويل».

سأله الدكتور بلار: «وبعد ذلك؟».

«سنقتله ونهرب إبَّان ذلك. يلزمنا طعامٌ لنأخذه معنا. وسيكون علينا أن ننأى عن البلدان».

سأل أكوينو: «هل تُحسِن لعب الشطرنج ياإدواردو؟».

«نعم، لماذا؟».

«لديّ مجموعة جيب».

«إذن حبّاً بالله دعنا نلعب».

جلسا على الأرض القذرة والرقعة الصغيرة بينهما. قال الدكتور بلار وهو يرتِّب القِطَع: «كنتُ معتاداً أن ألعبَ كل أسبوع تقريباً في البوليفار مع رجلٍ عجوزٍ يُدعى همفريز. كنتُ ألعب معه هناك ليلة قبضتم على السمكة الخاطئة».

«أهو لاعب جيد؟».

«لعبَ أفضل مني في تلك الأمسية».

كان أكوينو لاعباً متهوراً، يتحركُ بسرعةٍ كبيرةٍ، وحين كان الدكتور بلار يتردَّد عند القيام بنقلة، يبدأ يتأفف. ويناشده الدكتور بلار «اهدأ».

«ها، ها. غلبتكَ، أليس كذلك؟».

«على العكس. كش».

«سأعالج الأمر سريعاً».

«كش ثانية. مات».

ربح منه لعبتين على التوالي.

قال أكوينو: «أنت ماهر جداً عليّ. يجب أن ألاعب سينيور فورتنوم».

«أنا لم أره يلعب أبداً».

«أأنت صديق حميم له؟».

«نوعاً ما».

«ولزوجته؟».

«نعم».

أخفض أكوينو صوته: «وذاك الطفل الذي لايكف عن الكلام عنه - أهو طفلك؟».

قال الدكتور بلار: «لقد مللتُ حتى الموت من كُثرَةِ الكلام عن ذاك الطفل. أتلعب شوطاً آخر؟».

وبينما هما يُرتبان القِطَع سمعا طلقة بندقية، بعيدة جداً. وقبض أكوينو على بندقيته، لكنها لم تتكرَّر. وجلس الدكتور بلار على الأرض وقطعة الرخ السوداء في يده. أصبحت رطبة من التعرق. لاأحد منهم تكلَّم. أخيراً قال الأب ريفاس: «مجرَّد طلق على بطةٍ برية. صرنا نعتقد أن كل شيء له علاقة بقضيتنا».

قال أكوينو: «نعم، حتى الهليكوبتر ربما كانت تخص مجلس المدينة إذا تغاضيت عن العلامات العسكرية عليها».

«كم بقي من الوقت على نشرة الأخبار التالية؟».

«ساعتان أخريان. ومع ذلك فقد يُذاعُ إعلانٌ خاص».

«لايمكننا أن ندع الراديو يعمل طوال الوقت. إنه الراديو الوحيد في المنطقة. أصبح عددٌ كبيرٌ من الناس يعلمون بأمره».

قال الدكتور بلار: «إذن فيمكننا أكوينو وأنا أن نتابع لعبتنا. سأعطيك رخاً».

«لا أريد رخَّكَ وسأغلبك في مباراة واحدة. ينقُصُني المِران، هذا كل شيء».

عبر كتفي أكوينو كان الدكتور يستطيع أن يرى الأب ريفاس، كتلة صغيرة مغبَّرة، أشبه بمومياء منكمشة أخرِجت من باطن الأرض، مع بعض الممتلكات المكنوزة دُفنت معه - مسدس، وكتاب ذي غلاف ورقي مهترىء. وتساءل الدكتور بلار أهو كتاب القداس؟ أكتاب لصلوات؟ وبإحساسٍ من الضجر التام كرَّر لازمِتَهُ القديمة «كش مات».

قال أكوينو: «أنت تلعب بمستوى أعلى من مستواي».

سأل الدكتور بلار: «ماذا تقرأ ياليون؟ أما تزال تقرأ في كتاب صلواتك؟».

«تركت ذلك منذ سنوات طويلة».

«وماذا لديك هنا؟».

«مجرد قصة بوليسية. قصة بوليسية إنكليزية».

«جيدة؟».

«لستُ خبيراً فيها. الترجمة ليست جيدة جداً، وفي قصص مثل هذه أستطيع دائماً أن أخمِّن النهاية».

«إذن فأين المتعة؟».

«أوه، هناك نوعٌ من الراحة في قراءة قصة حين يعرف المرء كيف ستكون النهاية، قصة من عالم الأحلام حيث دائماً تُقام العدالة. لم تكن هناك قصص بوليسية في عصر الإيمان - نقطة مثيرة للاهتمام حين نفكر فيها. كان الله هو التحرِّي الوحيد حين كان الناس يؤمنون به. كان القانون. كان النظام. كان طيباً. مثل صاحبك شرلوك هولمز. كان هو الذي لاحق الرجل الشرير ليعاقبه ويكتشف كل شيء. أما الآن فأُناسٌ مثل الجنرال هم الذين يصنعون القانون والنظام. صعقات كهربائية في الأعضاء التناسلية. أصابع أكوينو. أبقِ الفقراء سيئي التغذية ولن تكون لديهم القدرة على الثورة. أنا أفضِّل التحري. أنا أفضِّل الله».

«أما تزال تؤمن به؟».

«يعني. أحياناً. ليست الإجابة بنعم أو لا بالأمر الهيِّن. طبعاً هو ليس نفس الإله الذي عرَّفونا به في المدرسة أو في المعهد اللاهوتي».

قال الدكتور بلار، يضايقه مرة أخرى: «هو ربُّكَ الشخصي. كنتُ أحسبُ أنَّ هذا يُعْتَبَرُ هرطقةً بروتستانية».

«ولِمَ لا؟ وهل هي سيئة لهذا؟ هل هذا يقلِّل من صحتها؟ نحن لم نعد نقتل المهرطقين ـ بل فقط السجناء السياسيين».

«تشارلي فورتنوم هو سجينك السياسي؟».

«نعم».

«إذن فأنتَ نفسك تشبه الجنرال يا ليون».

«أنا لا أعذِّبه».

«هل أنت واثق من هذا؟».

عادت مارتا من البلدة وحدها. وسألتْ: «هل دييغو هنا؟».

قال الأب ريفاس: «لا. لقد ذهب معك حتماً ـ أم هل أخذتِ بابلو؟».

«لقد تخلَّف في البلدة. قال إنه سيلحق بي، كان عليه أن يجمع بعض البترول. قال إنَّ السيارة تكاد تفرغُ ولم يبقَ أي احتياطي».

قال أكوينو: «هذا غير صحيح».

قالت مارتا: «كان خائفاً جداً من الهليوكبتر. ومن الرجل العجوز أيضاً».

سأله الدكتور بلار: «أتظن أنه توجه الى البوليس؟».

قال الأب ريفاس: «لا، لن أصدق هذا».

وتساءل أكوينو: «إذن فأين هو؟».

«لعلَّهم قبضوا عليه للإشتباه. ربما ذهب مع امرأة. مَنْ يدري؟ مهما يكن ليس في وسعنا عمل أي شيء. ليس أمامنا إلا الإنتظار. كم بقي حتى موعد نشرة الأخبار؟».

قال أكوينو: «اثنتان وعشرون دقيقة».

«قُلْ لبابلو أنْ يدخل. إذا كانوا قد حدَّدوا مكاننا فلا معنى لتركه في الخارج حتى يُصَادُ وحده. من الأفضل أن نبقى معاً في النهاية».

عاد الأب ريفاس إلى قصته البوليسية. قال: «الشيء الوحيد الذي في وسعنا أن نفعله هو أنْ نأملَ»، وأضاف: «هذا العالم مسالمٌ بشكلٍ رائع. كل شيء في منتهى النظام. لامشاكل. وثمة إجابة عن كل سؤال».

سأل الدكتور بلار: «عمَّ تتكلك؟».

«عن العالم في هذه القصة البوليسية. هل تستطيع أن تقول لي ماذا يعني برادشو[1]؟».

«برادشو؟».

خيِّل الى الدكتور بلار أن تلك كانت المرة الأولى التي يرى فيها ليون على راحته منذ المناقشات الطويلة التي كانا يتبادلانها عندما كانا تلميذين في المدرسة معاً. هل فَقَد، مع تأزم الوضع من سيءٍ إلى أسوأ، الإحساس بالمسؤولية، كلاعب الروليت الذي يتخلى عن الجدول ولايعود يزعج نفسه حتى بمراقبة الكرة؟ ماكان يجب أن يحاول أن يكون رجل عمل: كان وهو يقف الى جانب أحد الأسرة سيشعر بارتياحٍ وهو ينتظر بإذعان حلول النهاية.

قال الدكتور بلار: «إنه إسمٌ لعائلةٍ إنكليزية. كان لأبي صديقٌ من عائلة برادشو وكان يراسله من مدينة تدعى تشستر».

«هذا الشخص يبدو أنه يعرف كلَّ خطوط القطارات غيباً. القطارات لاتستغرق إلا بضع ساعات لتصل إلى أي مكان. وكلها تصل الى موعدها بدقة. وكل ماعلى التحري أن يفعله هو أن يستشير برادشو ليعرف بدقة متى... ماأغرب العالم الذي أتى منه والدك. هنا نحن نبعد عن بوينس

---

(١) في إنكلترا كانت كلمة «برادشو» تستخدم للإشارة إلى جدول مواعيدحركة القطارات، وذلك مابين (١٨٣٩ ـ ١٩٦١) الكلمة مأخوذة من إسم مُبْتكِر هذا الجدول جورج برادشو. المترجم.

أيريس أكثر قليلاً من مسافة ثمانماية كيلومتر، ومن المفروض أن يستغرق القطار يوماً ونصف لإتمام الرحلة، لكنه غالباً مايتأخر يومين أو ثلاثة. هذا التحري الإنكليزي بَرِمٌ جداً. إنه يقطع رصيف محطة القطار في لندن جيئةً وذهاباً، ينتظر وصول القطار القادم من أدنبرغ ـ الذي يبعد مسافة تقرب من مسافتنا عن بوينس أيريس حسب ما أعتقد؟ ـ والقطار متأخر نصف ساعة، بالنسبة إلى هذا الرجل برادشو، ومع ذلك يظن التحري أن في الأمر خطأً. وهتفَ الأب ريفاس: «نصف ساعة تأخير! هذا يذكِّرني عندما كنت طفلاً وكنت أتأخر في الرجوع من المدرسة تقلق أمي، ويقول أبي: «ولكن ماذا يمكن أن يحدث للولد بين هنا ومبنى المدرسة؟»».

قال أكوينو بصبرٍ نافد: «وديبغو؟ ديبغو تأخَّر أيضاً، وبصراحة أنا قلق».

دخل بابلو الى الكوخ، فقال له أكوينو على الفور: «لقد ذهب ديبغو».

«إلى أين؟».

«ربما إلى البوليس».

قالت مارتا: «كان طول الطريق في البلدة يتحدث عن الهليكوبتر. وعندما وصلنا إلى النهر ـ أوه، لم يَقُل شيئاً، لكن منظره كان غريباً. وعند مرسى المعدية قال لي: «هذا غريب، لايوجد رجال بوليس لمراقبة المسافرين»، وقلتُ له: «والجانب الآخر ـ هل ترى كل المسافة حتى هناك؟ وهل تستطيع أن تتعرف على رجل بوليس دون بذَّته الرسمية؟»».

قال بابلو: «مارأيكَ، ياأبت؟ أنا عرَّفتُكَ به. أشعر بالخزي. قلت لكَ إنه أفضل مَنْ يقود السيارة، وإنه رجلٌ شجاع».

قال الأب ريفاس: «لاسببَ يدعونا الى القلق منذ الآن».

«أنا يجب أن أقلق، إنه من أبناء قريتي. وكلكم هنا أتيتم من الجانب الآخر للحدود. يمكن أن يثق بعضكم ببعض. أشعر وكأني أخو ديبغو وأنَّ أخي خانكم. ماكان يجب أن تطلبوا مساعدتي».

«مـاذا كنّا سنفـعل مـن دونك ياباباو؟ لـم يكـن في البـاراغـواي أي مكان يمكننا أن نخفي فيه السفير. حتى نقله عبر النهر كان سيشكّلُ خطراً جسيماً. لعلّه كان من الخطأ إلحاق أياً من أهالي قريتك في مجموعتنا، لكن إل تيغره لم يكن ينظر إلينا كأجانب ونحن هنا في الأرجنتين. إنه لايفرّق بيننا من حيث كوننا باراغوائيين، أو بيروفيين، أو بوليفيين، أو أرجنتينيين. أعتقد أنه كان يفضّل أن ينادينا جميعاً بالأميركيين، لولا ذاك المكان هناك في الشمال».

قـال بابلو: «سـألني دييـغو ذات مـرة قـال لماذا لايوجد في لائحتك من المطلوب إطلاق سراحهم من المساجين غير البـاراغـوائيين. فقلت له ـ هذه هي الحالات الأكـثـر إلحاحاً. هم الرجال الذين أمضـوا حتى الآن أكثر من عشر سنوات. في ضربتنا التالية معـاً ربما سيكون هدفنا رجالنا نحن، كـما فـعلنا في سـالتـا. كـان هناك باراغـوائيـون سـاعـدونا عندئذ. لاأصـدق أنه سيـتوجه إلى البوليـس ياأبتِ».

«ولا أنا ياباباو».

قـال أكوينو: «لن ننتظر كثيـراً. لا بد أن يسـتـسلمـوا ــ وإلا تركنا لهم قنصلاً ميتاً في النهر».

«كم بقيَ على الأخبار؟».

قال الدكتور بلار: «عشر دقائق».

وعـاد الأب ريفاس إلى قصته البوليسية، لكنه بدا للدكتور بلار، الذي كـان يراقبه عن كثب، أنه يقرأ ببطء غير طبيعي. فقد ثبّت عينيه على فقرةٍ واحدة وأبقـاهمـا هناك فـترة طويلة قـبل أن يقلب الورقـة. وتحـرّكت شـفـتـاه قليلاً. لعلّه يصلي ـ ربما بسريّة، لأنّ الصلوات التي يتلوها الكاهن عند فراش الموت هي الملجأ الأخير ولايجب على المريض أن يسمعها.

وفكّر الدكتور بلار قائلاً، كلنا مرضاه، وكلّنا نوشك أن نلقى حتفنا.

لم يكن الدكتور بلار يؤمن بأن الأمور ستنتهي على خير. لأنه لاتنتج عن معـادلة غير صحيـحة إلا سلسلة من الأخطاء وقد يكون مـوته هو أحد هذه

الأخطاء. لأن الناس بعد ذلك سيقولون أنه سار على خطى والده، لكنهم سيكونون مخطئين ـ فلم تكن تلك نيَّته.

وتساءل بإلحاحٍ مزعجٍ من القلق والفضول عن طفله. الطفل بدوره كان نتيجة خطأ، إهمال من جانبه، إلا أنه لم يشعر من قبل بأي إحساس بالمسؤولية. كان يعتبر الطفل جزءاً لانفع فيه من كلارا كزائدتها الدودية، ولعلَّها زائدة دودية مريضة يجب استئصالها. وقد اقترح عليها عملية إجهاض، لكنَّ الفكرة أفزعتها ـ ربما أجريت عمليات إجهاض غير مشروعة كثيرة جداً في منزل الأم سانشيز. والآن، أثناء انتظاره حلول موعد نشرة الأخبار في الراديو، قال في نفسه: يا لابن الحرام الصغير، ليتني فقط قمت ببعض الإجراءات استعداداً لمجيئه. أي نوع من الأمهات ستكون كلارا؟ هل ستعود إلى الأم سانشيز وينشأ الطفل ولداً سيئاً في ماخور؟ ربما سيكون ذلك أفضل من أن يعيش مع أمه في بوينس أيريس ليُحشى بحلوى الحليب في شارع فلوريدا ين الأصوات العالية للأثرياء. وفكَّر في الورطة التي سيقع فيها مع أسلافه، ولأول مرة أصبح الطفل شيئاً حقيقياً بالنسبة إليه وسط هذه الورطة ـ لم يعد مجرَّد قطعة أخرى رطبة من اللحم كأية مُزِقة انتُزِعت من الجسم ولها حبلٌ يجبُ قطعه. هذا الحبل لايمكن قطعه. إنه يربط الطفل بجدين مختلفين تماماً ـ حاصد قصب سكر في توكومان وليبرالي إنكليزي عجوز قُتل رمياً بالرصاص في فناء مركز للبوليس في باراغواي. الحبلُ يربطهُ بأبٍ كان طبيباً ريفياً، وبأمٍ جاءت من ماخور، وبخالٍ هرب ذات يوم من حقول قصب السكر ليختفي في فيافي قارِّية، بجدَّتين... ولانهاية للورطة التي لابدَّ ستقيِّد المخلوق الصغير مثل أربطة القماط التي كانوا أيام زمان يربطون بها أعضاء طفل حديث الولادة.

تشارلي فورتنوم أطلق لقب سمكة باردة عليه. كيف تكون ردة فعل طفل له والد هو سمكةٌ باردة؟ ربَّما كان من الأفضل لو أنهما تبادلا أبويهما. كان سيناسبه أكثر أن يحصل على سمكة باردة بدل أبٍ بالغَ في إبداء عنايته الى

حدّ الموت. كان سيودُّ لو أنَّ ابن الحرام الصغير يؤمن بشيءٍ، لكنه لم يكن ذاك الأب الذي يورث إيماناً بآلةٍ أو قضية. وهتفَ عبر أرضِ الغرفةِ القذرة: «أحقاً تؤمن بالله الآب القدير ياليون؟».

«ماذا؟ أنا آسف. لم أسمع. هذا التحري رجلٌ داهية، لذا لابدَّ من سببٍ وجيهٍ لتأخُّر القطار القادم من ادنبرغ نصف ساعة».

«سألتُ إن كنتَ قد آمنتَ يوماً بالله الآب؟».

«لقد سألتَني هذا من قبل. لاأظنُّك حقاً تريد أن تعرف. أنت فقط تهزأ بي ياإدواردو. ومع ذلك سأعطيك جوابي عندما لن يعود هناك أمل. عندئذ لن يكون لديك استعدادٌ للضحك. عن إذنك برهة - لقد أصبحتْ القصة أكثر إثارةً للإهتمام - قطار ادنبرغ يدخل محطة تدعى كينغز كروس. أيكون هذا رمزاً؟».

«لا. هو فقط إسم محطة في لندن».

«اصمتا أنتما الإثنان»، وعلّى أكوينو صوت المذياع وأخذوا يُصتون الى نشرة الأخبار العالمية التي كانت تُبثُّ في تلك الساعة من بوينس ايريس. وَصَفَ المذياع زيارة الأمين العام للأمم المتحدة لغرب افريقيا، طُرِدَ خمسون من الهيبيز بالقوة من مايوركا، وثمة ارتفاع آخر في نسبة الضرائب على السيارات المستوردة الى الأرجنتين، وجنرالٌ متقاعدٌ مات في قرطبة عن عمر يناهز الثمانين عاماً، وبضعُ قنابل انفجرت في بوغوتا، وطبعاً فريق الأرجنتين في كرة القدم يواصل تقدُّمه العنيف في أرجاء أوروبا.

قال أكوينو: «لقد نسونا».

قال الأب ريفاس: «ليتنا نصدّق أننا سنمكث هنا... منسيين... الى الأبد. لن تكون تلك نهاية سيئة جداً، أليس كذلك؟».

الفصل الثالث

في منتصف نهار يوم السبت أذيعت الأخبار التي طالما انتظروها، ولكن كان عليهم أن يُصغوا بصبرٍ حتى نهاية النشرة. لقد كانت سياسة كل الحكومات معنيَّة بالانتقاص من أهمية قضية فورتنوم. واقتطفت بوينس ايريس عبارات معتدلة من وجهة النظر البريطانية. فصحيفة «تايمز» اللندنية، صرَّحت، مثلاً، بأنَّ روائياً أرجنتينياً (لم يَرِدْ اسمه) قدَّم نفسه بديلاً للقنصل. ووضعَ برنامجٌ أذيع من محطة بي. بي. سي القضية، كما ذكر المعلق الأرجنتيني، في منظورٍ ملائم. وأشار وزيرٌ شاب إلى القضية باقتضاب عندما سُئلَ أثناء ندوة تلفزيونية أقيمت حول العنف السياسي وتزامنت مع الموت المأساوي لأكثر من مائة وستين مسافر على متن طائرة تابعة للشركة الجوية البريطانية لما وراء البحار. «لاأعرف عن هذه القضية التي وقعت في الأرجنتين أكثر مما يعرفه أي من مستمعينا. وليس لديّ وقتٌ لأقرأ الكثير من الروايات، ولكن قبل أن أخرج هذا المساء سألت بائع الكتب الذي تتعامل معه زوجتي عن السيد سافيدرا، وأخشى أنه لم يكن يعرفه أكثر مني، وأضاف: «وعلى الرغم من تعاطفي مع السيد فورتنوم، إلا أني أريد أن أشدِّد على أننا لانستطيع أن نتعامل مع عملية اختطافٍ مثل هذه على أنها هجومٌ على الهيئة الدبلوماسية البريطانية بكل تعقيداتها. إنَّ السيد فورتنوم لم يكن في أي يوم من الأيام عضواً في الهيئة الدبلوماسية. فقد وُلِدَ في الأرجنتين، وحسب علمي فهو حتى لم يَزُرْ هذا البلد. وعندما نشأت القضية المؤسفة كنَّا على وشك أن ننهي عمله كقنصل فخري بما أنه تعدَّى السن المعتادة للتقاعد، وفي الحقيقة لم تسنح لنا أية فرصه لاستبداله بما أن عدد المقيمين البريطانيين في تلك المقاطعة بالذات قد خُفِّضَ إلى حدٍ كبيرٍ فيَ السنين العشر الأخيرة. أنا واثق

من أنكم تـدركون أن الحكومة الحالية تبذل أقصى جهدها للاقتـصاد في الهيئة الدبلومـاسية».

وعندما سُئِلَ عمَّا إذا كان موقف الحكومة سيظلُّ على ماهو عليه فيما لو أنَّ الضحية كان عضواً في الهيئة الدبلوماسية، أجاب الوزير: «طبعاً كان سيبقى كما هو. نحن لاننوي أن نرضخ لمثل هذا النوع من الإبتزاز في أي مكان، وتحت أي ظرف كان. وفي هذه القضية بالذات لدينا كل الثقة في أنَّ السيد فورتنوم سيُفْرَج عنه حين يدرك أولئك الرجال اليائسون العُقْمَ الكامل لعملهم. والأمر يعود في هذه القضية إلى رئيس جمهورية الأرجنتين ليُقرِّر إن كان سيراأف بأولئك المجرمين. والآن، إذا سمح لي رئيس الجلسة، أود أن أعود إلى الموضوع الأصلي لبرنامج الليلة. أؤكد لكم أنه لم يكن هناك رجال أمن في الطائرة لذا فلا مجال للحديث عن وقوع اشتباك مسلَّح ...».

أطفأ بابلو المذياع.

سأل الأب ريفاس: «مامعنى هذا كله؟».

قال الدكتور بلار: «لقد تركوا قضية فورتنوم بين يديك».

قال أكوينو: «إذا كانوا قد تجاهلوا الإنذار فكلَّما أسرعنا في قتله كان أفضل».

قال الأب ريفاس: «إنذارُنا لم يكن موجهاً إلى الحكومة البريطانية».

عجَّل الدكتور بلار بتصحيح كلامه: «طبعاً، عليهم أن يعلنوا كل هذا على الملأ. لايمكننا أن نتكهَّن بالضغوط التي ربما يمارسونها في بوينس ايريس وأسونسيون سراً». حتى بالنسبة إليه كانت هذه الكلمات تفتقر إلى الثقة في النفس.

***

أمضوا جميعاً فترة بعد الظهر، أثناء تناوبهم على الحراسة، في شرب الماتي، باستثناء الدكتور بلار الذي ورث عن أبيه ميلَهُ لشرب الشاي. ولعب

مباراة أخرى مع أكوينو وسمح لأكوينو، بادّعائه ارتكاب غلطة أفقدته وزيره، بالفوز، لكن كان في صوت أكوينو افتقارٌ كئيب للتصديق وهو يعلن: «كش مات».

زارَ الدكتور بلار مريضه مرتين ووجده نائماً في المناسبتين. وتأمّلَ بامتعاضٍ تعبير السكينة على وجه الرجل المُدان. بل إنه كان يبتسم قليلاً ـ لعلّه كان يحلم بكلارا أو بالطفل، أو ربما فقط بـ «المعيار الصحيح»، وتساءل الدكتور بلار كيف ستكون السنوات القادمة ـ في حال ما إذا كانت هناك أية سنوات قادمة، وهو أمرٌ غير محتمل. إنه لم يكن قلقاً على كلارا: فهذه القضية ـ إذا صحّ أن نسمّيها قضية ـ ستنتهي قريباً على أي حال. أمّا ماكان يُقلقه حقاً فصورة الطفل وهو يتربّى تحت رعاية تشارلي فورتنوم. وبلا أي سبب معقول تصوّر الطفل ولداً، ولداً يشبه صورتين مبكّرتين له، واحدة أُخذت له وهو في سن الرابعة وواحدة وهو في سن الثامنة. ماتزال أمه تحتفظ بهما في الشقة الشديدة الإزدحام، بإطاريهما الفضيين اللذين فقدا بريقهما من غياب العناية، بين الببغاوات المصنوعة من الصيني وحثالات مَحَالّ الأنتيكات.

كان واثقاً من أن تشارلي سيُنشىء الطفل تنشئة كاثوليكية ـ سوف يتشدّد كثيراً من هذه الناحية لأنه هو نفسه خرَقَ في أحد الأيام قوانين الكَنيسة ـ وتخيّل تشارلي يستمع باستمتاعٍ عاطفي وهو جالس بجوار السرير الجداريّ للولد بينما الطفلُ يتلعثم في تلاوة «أبانا الذي ... ». بعد ذلك سينضم إلى كلارا بجانب طاولة المشروبات في الشرفة. سيكون تشارلي أباً عطوفاً جداً، ولن يدفع ابنه لامتطاءِ حصان. بل من المحتمل أنه سينبُذُ الشراب، أو على الأقل سيقلّل وبقسوة معياره المناسب. وسيخاطب تشارلي ولده بـ «صاحبي العزيز»، وسيربت على خده ويقلّب معه صفحات كتاب «مشاهدُ من لندن» قبل أن يدثّره جيداً في فراشه. وترآى للدكتور بلار فجأة الولد يجلس منتصباً في سريره، كما كان يفعل هو، ينصتُ إلى صوتٍ بعيدٍ لإغلاق الأبواب،

إلى أصوات هامسة في الطابق السفلي، وإلى الخُطى المتسلّلة. وثمة ليلةٌ واحدةٌ يتذكرها زحفَ خلالها إلى غرفة والده طَلَباً للطمأنينة، وهاهو الآن ينظر إلى وجه أبيه الملتحي ممدَّداً على التابوت - إنَّ أربعة أيام دون حلاقة بدأت تجعل الشعرَ يغدو لحية.

عاد الدكتور بلار على عجل إلى صُحبة قاتلي تشارلي فورتنوم المقبلين.

وعادت مناوبات الحراسة. كان أكوينو في الخارج، بينما أخذ بابلو مكان الهندي عند الباب. نام الغواراني بهدوء على الأرض، وكانت مارتا تقرقع بالصحون مثيرةً الضجيج من الفناء الخلفي. وجلس الأب ريفاس مُسنداً ظهره إلى الجدار، وأخذَ يعبث ببعض حبوب الفاصولياء اليابسة، كان يتقاذفها من يدٍ إلى يد، كحبَّات مسبحة منفرطة.

سأل الدكتور بلار: «ألم تُنْهِ كتابكَ؟».

قال الأب ريفاس: «آه نعم، كانت النهاية كما تخيلتُها تماماً. يمكنك دائماً أن تخمِّن. لقد ذهب المجرم وانتحرَ على متنِ قطارِ أدنبرغ. لذا تأخَّر نصف ساعة وأخطأ برادشو. كيف حال القنصل؟».

«نائم».

«وجُرحَه؟».

«يتعافى. ولكن هل سيعيش حتى يراه يلتئم؟».

«حسبتك تؤمن بتلك الضغوط السريَّة؟».

«وأنا أيضاً ظننتكَ تؤمن بشيء ما ياليون. بأشياء مثل الرحمة والرفق. الكاهن كاهن دائماً - هذا ماتقوله النظرية، أليس كذلك؟ إياك أن تحكي لي عن الأب توريس أو عن الأساقفة الذين خاضوا الحرب في القرون الوسطى. الآن لسنا في القرون الوسطى ولانحن نُخوض حرباً. هذه عملية اغتيال رجلٍ لم يسبِّب أي أذى لكم - رجلٌ عجوز جديرٌ بأن يكونَ أبي - أو أباك. وأبَوك، ياليون، أين هو؟».

«في أسونسيون، تحت نُصُب من الرخام بحجمِ هذا الكوخ».

«يبدو أننا جميعاً نعيش مع آباءٍ موتى، أليس كذلك؟ فورتنوم كان يكره أباه. أعتقد أني ربما أحببتُ والدي. ربما. كيف يمكنني أن أعرف؟ فكلمة حبّ هذه لها نبرةٌ مُبتَذلَةٌ. إننا نسلّم بالحب وكأننا نجحنا في امتحانٍ ونلنا علاماتٍ فوق المعدل. كيف كان شكلُ والدك؟ لاأذكرُ حتى أني رأيته».

«كان كما تتوقعه، أحد أغنياء الطبقة البورجوازية في باراغواي. لابدَّ أنَّك تذكر منزلنا في أسونسيون برواقه الشاسع والأعمدة البيضاء والحمّامات الرخامية وكل ماتحتويه الحديقة من أشجار البرتقال والليمون والـ lapachos يغطي الممرات ببتلاته الوردية. لعلّكَ لم تشاهد داخل المنزل، لكني واثق من أنك حضرت مرةً حفل عيد ميلاد أحدهم أقيم في الحديقة. لم يكن يُسمح قط لأصدقائي بدخول المنزل ـ فثمة أشياء كثيرة قد تتعرّض للكسر أو للاتساخ. كان لدينا ستة من الخدم. كنت أحبهم حتى أكثر مما أحببتُ والديّ. وكان هناك بستاني يدعى بيدرو ـ كان دائماً مشغولاً في كنس البتلات ـ فقد قالت أمي إنها شديدة القذارة. وكنت شديدَ الكَلَفِ ببيدرو، لكنَّ والدي طرده لأنه سَرقَ بضعة قروش كانت قد تُركت على مقعدٍ في الحديقة. وكان والدي يقدِّم مبلغاً كبيراً من المال كلَّ عامٍ لحزبِ كولورادو، لذا لم يتعرض لأيَّة متاعب عندما استلم الجنرال السلطة بعد الحرب الأهلية. كان محامياً بارعاً، لكنه لم يكن يترافع قط عن زبونٍ فقير. خَدَمَ الأغنياء بإخلاصٍ حتى مماته، وقال الجميع إنه كان أباً صالحاً لأنه خلَّف الكثير من المال. اه حسن، أظن أنه كان كذلك، من هذه الناحية. فأحد واجبات الأب أن يوفّر المال».

«وماذا عن الله الآب ياليون؟ يبدو أنه لايعطي شيئاً. سألتُكَ مساء أمس إن كنتَ ماتزالُ تؤمن به. لطالما بدا لي حقيراً قليلاً. أفضّل أكثر أن أؤمن بأبولُو. على الأقل كان جميلاً».

قال الأب ريفاس: «المشكلة هي أننا فَقدنا القدرة على الإيمان بأبولو. يَهْوَه يسكنُ دمَنَا. لاحيلة لنا في ذلك. فبعد كل تلك القرون مازال يَهْوَه يعيش في ظلامنا كدودةٍ في الأمعاء».

«ماكان يجب أبداً أن تصبح كاهناً ياليون».

«لعلّك على حق، ولكن فات الأوان الآن على التغيير. ما الساعة الآن؟ هذا الراديو يُضجرني حتى الموت، ولكن يجب أن نستمع الى نشرة الأخبار ـ مايزال من الممكن أن يذعنوا».

«ساعتي توقفتْ. نسيتُ أن أملأها».

«إذن من الأفضل لنا أن ندعَ الراديو مفتوحاً، مهما كان هذا خطراً، مادامت هناك فرصة ... »، وأخفضَ الصوتَ قَدْرَ الإمكان، ولكن سيَّان فلم يعودا وحدهما. كان أحدهم يعزف عزفاً لايكادُ يُسْمَعُ على آلة الهارب، وآخر يغني همساً. وكأنهما كانا جالسين في قاعةٍ عظيمةٍ حيث لاأحدَ يرى أو يسمع المؤدّين.

لم يكن أمامهما إلا أن يتحدثا، يتحدثا عن أي شيء مهما كان، باستثناء عن منتصف ليلِ يوم الأحد.

قال الدكتور بلار: «لطالما لاحظت أنه مالإنْ يغادر رجل امرأة حتى يبدأ بكرُهها. أم هل نقول إنه يكره محاولاته الفاشلة معها؟ لعلنا نريد أن نقضي على الشاهد الوحيد الذي يعرفنا على حقيقتنا بعد انتهاء الملهاة. أعتقد أني سأكره كلارا بعد أن أتركها».

«كلارا؟».

«زوجة فورتنوم».

«إذن صحيحٌ مايقولونه؟».

«لامعنى أبداً للكذب حول أي شيء ياليون، في الوضع الذي نحن فيه الآن. الاحتضار ببطء عقارٌ فعَّال بشكلٍ مدهش لكشف الحقيقة، وأفضلُ من البنتوثال. أنتم الكهَّان كنتم دائماً تعرفون هذا. عندما يصل الكاهن فإنني دائماً أغادرُ رجلاً يحتضرُ لأُتيحَ له حريةَ الكلام. أغلبهم يرغبون في الكلام، إذا توفرت لهم القوة لذلك».

«أتنوي أن تهجرَ هذه المرأة؟».

«إنني لاأنوي أي شيء. لكنه سيحدث. إذا بقيتُ حياً. أنا واثق من ذلك. لاشيء في هذاالعالم يدوم إلى الأبد ياليون. عندما كنتَ تدخل الكنيسة، ألم تكن متيقناً في قلبك من أنه سيأتي يومٌ وينتهي حتى أجلُ عملك ككاهن؟».

«لا. لم أؤمن بهذا يوماً. ولا للحظة. كنت أرى أنَّ الكنيسةَ وأنا نريدُ الشيءَ نفسه. في الحقيقة كنتُ سعيداً جداً في المعهد اللاهوتي. ويمكنك القول إن تلك الفترة كانت بمثابةِ شهرِ عسلٍ بالنسبة إليّ. فيما عدا بعض المناسبات... أعتقد أن هذا مايحدث في كل شهر عسل... كان هناك بالفعل مايشيرُ الى أن ثمةَ سوءاً قد يقع... أذكرُ كاهناً عجوزاً... كان البروفسور في حلقة اللاهوت الأخلاقي. لم أعرف دهري رجلاً بحزمه وموضوعيته ووثوقه في الحق. لاشكَّ في أن اللاهوت الأخلاقي هو بُعْبُع كل معهد لاهوتي. إن المرءَ يتعلمُ الأصولَ ويجدُ أنها لاتتلاءم وأية حالة إنسانية... آه حسن، كنت أقول في نفسي، لايهم، إنه اختلاف بسيط في الرأي، وفي آخرِ الأمر يتقارب الزوج والزوجة بالتدريج، وسوف تقترب الكنيسة مني بينما أنا أقترب منها.

«ولكن بعدما تركتَ الكنيسة بدأتَ تكرهها، أليس كذلك؟».

«لقد قلتُ لك ـ أنا لم أترك الكنيسة مطلقاً. بالنسبة إليّ الأمر مجرَّد انفصال ياإدواردو، انفصالٌ بموافقةٍ مشتركةٍ، وليس طلاقاً. إنني لن أنتمي أبداً انتماءً كلياً إلى أي شخص آخر، ولاحتى إلى مارتا».

قال الدكتور بلار: «حتى الانفصال كثيراً مايُجلب الحقد. رأيتُ ذلك يحدثُ مرات عديدة بين مرضاي في هذا البلد الملعون حيث لايسمح لأحد بالحصول على الطلاق».

«لن يحدث أبداً في حالتي. حتى وإنْ كنتُ لاأقدر على الحب، لا أرى سبباً لأحقد. لن أنسى دهري شهر العسل الطويل ذاك في المعهد اللاهوتي حين كنت سعيداً. الآن، إنْ كنتُ أكنُّ أيَّ شعورٍ نحو الكنيسة فهو الندم، لا الحقد. أعتقد أنه كان في وسعها أن تستخدمني بسهولة لهدفٍ سامٍ لو أنها فَهِمتْ أفضل قليلاً. أقصد فهمتْ العالمَ كما هو».

تابع المذياع غمغمته، وأخذوا ينصتون بآذانٍ يقظة لالتقاط دقات الساعة. وفي الغرفة الموحلة، التي كان من الممكن أيضاً أن تكون قبراً بدائياً يبرزُ فوق الأرض مُعداً ليضم العائلة برمتها، لم يعد الدكتور بلار يشعر بأدنى رغبة في تعذيب ليون ريفاس. إنْ كان ثمة مَنْ يريد أن يعذِّبه فهو نفسه. وفكَّر: مهما ادَّعى كل منّا أمام الآخر، فإنَّ كلينا تخلى عن الأمل. لهذا ترانا نتحدث كأصدقاء كما كنا. لقد وصلتُ إلى سنٍ متقدمةٍ ناضجةٍ لم أعدْ عندها أسخرُ من رجلٍ بسبب معتقداته، مهما كانت تافهة. أستطيع فقط أن أحسدَه عليها.

بعد قليل دفعه الفضول إلى الكلام. تذكَّر كيف أنه في أول اجتماع للتناول حضره في حياته في أسونسيون، وقد ارتدى رداء راهب صغير جداً له حزام يربط عند الخصر، أعلن إيمانه ـ وهو شيء لم يعد الآن يذكر ماهو.

قال لليون: «مضى وقت طويل منذ أن استمعتُ الى كاهن يتحدَّث. كنتُ أحسَبُ أنَّك كنتَ تَعلَّم أنَّ الكنيسة، مثل المسيح، معصومةٌ عن الخطأ».

قال الأب ريفاس: «المسيح كان إنساناً، حتى وإنْ كان بعضُنا يؤمن بأنه الله أيضاً، لم يكن الله من قَتَله الرومان، بل إنساناً، نجاراً من الناصرة. وبعضُ الأسس التي وضَعَها لم تكن سوى أسسٍ صادرة عن إنسانٍ صالح. إنه رجل عاش في مقاطعته، في يومه الخاص. لم تكن لديه فكرة عن نوع العالم الذي نعيشه الآن، «إعطِ لقيصر ...»، ولكن قيصرنا نحن يستخدمُ قنابلَ النابالم والقنابل الانشطارية ... الكنيسة تعيش أيضاً في الزمن. فقط أحياناً، لفترةٍ وجيزةٍ، يحدث لبعض الناس ـ وأنا لستُ منهم ـ لستُ رجل

رؤى ـ أظن أنه ربما ـ ولكن كيف أشرح لك وأنا نفسي لاأكاد أنطوي على أقل قدرٍ من الإيمان؟ ـ أظنُّ أحياناً أن ذكرى ذلك الرجل، النجار، يمكنها أن تسمو بحفنة من الناس من الكنيسة الزمنية لهذه السنين الرهيبة، التي جلس فيها الأسقف على مائدة عشاء الجنرال، إلى الكنيسة العظمى هناك مافوق زماننا ومكاننا، ومن ثم ... يالأولئك المحظوظين ... لن يعثروا على الكلمات القادرة على وصف جمالِ تلك الكنيسة».

«أنا لاأفهم كلمةً مما تقول ياليون. كنتَ تشرحُ الأمور بوضوحٍ أشد. حتى الثالوث المقدّس».

«اغفر لي. لقد مرَّ وقت طويل مذ كنتُ أقرأ النوعية الصحيحة من الكتب».

«وأيضاً لستَ تحظى بالجمهور المناسب. فأنا لم أعد أهتم الآن بالكنيسة أكثر مما أهتم بالماركسية. والكتاب المقدس بالنسبة إليه مثل كتاب «رأس المال»، لايُقرأ. فقط أحياناً، وكعادةٍ سيئةٍ، أجدني أستعين بتلك الكلمة الفظة: الله. مساء أمس ...».

«كل كلمة يستخدمها المرء بفعلِ العادةِ لاتعني أيَّ شيء».

«مهما يكن، عندما تطلق الرصاص على فورتنوم على قفا رأسه، فهل أنت متأكد من أنه لن تنتابكَ لحظةُ خوفٍ من يَهْوَهِ العجوز وغضبه؟ وهو القائل «لاتقتل».

«إذا قتلته ستكون تلك غلطة الله بِقدرِ ماهي غلطتي».

«غلطة الله؟».

«هو الذي جعل مني ماأنا عليه الآن. سيكون هو الذي عبَّأ مسدسي وثبَّت يدي».

«ظننتُ أنَّ الكنيسة تعلِّم أنَّ الله هو الحب؟».

«أكان حباً مَنْ أرسلَ ستة ملايين من اليهود إلى أفران الغاز؟ أنت طبيب، ولابدَّ أنك كثيراً ماشاهدت حالاتٍ من الألم الذي لايُحْتَمل ـ طفلاً يموت من

التهاب السحايا. أهذا حب؟ لم يكن حباً ماقطع أصابع أكوينو. ومراكز البوليس حيث تحدث هذه الأمور... الله هو الذي ابتكرها».

«لم أسمع قط من قبل كاهناً يلوم الله على أشياء كهذه».

قال الأب ريفاس: «أنا لاألومه. أنا أشفِقُ عليه»، ودقّت الساعةُ بصوتٍ واهنٍ وسط الظلام.

«تشفق على الله؟».

وضع الكاهن يده على مفتاح الصوت. تردّد في إدارته لحظة. وفكّر الدكتور بلار، نعم ثمة دائماً شيءٌ يُقال لصالحِ الجهلِ بالأسوأ. أنا لم أُخبر بعد مريضاً بالسرطان بأنه لم يبق له أي أمل.

قال صوت بلا مبالاة وكأنه يقرأ لائحة أسعار العُملات في سوق البورصة: «البلاغ الرسمي التالي صدر عن مركز إدارة البوليس: «في الساعة الرابعة عشرة من يوم أمس ألقي القبض على رجلٍ رفضَ الإدلاء بإسمه بينما كان يحاول أن يستقل المعدِّية المتوجهة إلى شاطىء التشاكو. وقد حاول أن يهرب بأن غاص في النهر، لكن ضباط البوليس أطلقوا عليه النار. وقد اكتُشفت جثته. واتّضحَ أنها جثة سائق شاحنة مستخدمٍ في مصنع برغمان لتعليب البرتقال. وكان قد تغيَّب عن عمله منذ يوم الاثنين الفائت، اليوم السابق لاختطاف القنصل البريطاني. اسمه دييغو كوريدو ويبلغ من العمر خمسة وثلاثين عاماً. غير متزوج. ويُعتقد بأن التعرف عليه يُعتبر خطوة هامة نحو اقتفاء أثرِ بقية أفراد العصابة. ويُظنُّ بأن المختطفين لم يغادروا المقاطعة، وتجري الآنَ عملية بحثٍ مكثَّفة، وقد وضع قائد لواء المشاة التاسع سرية من المظليين تحت تصرف البوليس».

قال الدكتور بلار: «من حُسنِ حظك أنه لم يُستَجوبْ. أشكُّ في أن تنتاب بيريز أيةُ شكوكٍ في هذه المرحلة».

وكان بابلو مَنْ أجاب: «سرعان ماسيكتشفون من كانوا أصدقاءه. لقد كنتُ مستخدماً في المصنع نفسه حتى قبل عام مضى. كل الناس يعرفون أننا

كنّا صديقين حميمين»، وعاد صوت الرجل الصادر عن المذياع ليتكلم عن فريق كرة القدم الأرجنتيني، فقد وقعتْ أعمالُ شغبٍ سقطَ من جرائها عشرون من الجرحي عندما لعب في برشلونة.

أيقظ الأب ريفاس ميغيل وأرسله الى الخارج ليريحَ أكوينو، وعندما عاد أكوينو انبجست النقاشات القديمة من جديد. كانت مارتا قد طبخت يخنة مجهولة التكوين وحتى الآن قدّمتها لهم على مدى يومين. وتساءل الدكتور بلار إنْ كان الأب ريفاس قد اضطرَّ لتحمُّل الوجبة نفسها في كل يوم من حياته الزوجية، ولكن لعلّها لم تكن أسوأ مما اعتاد أن يأكله في الحي الفقير في أسونسيون.

لوّح أكوينو بملعقتهِ وطالبَ بالموت الفوري لتشارلي فورتنوم، وقال: «لقد قتلوا دييغو».

ولكي يبتعد عنهم فترة من الوقت حمل الدكتور بلار صحناً من اليخنة إلى الغرفة الأخرى، فنظر فيه تشارلي فورتنوم باشمئزاز وقال: «كان يمكن أن أكتفي بقطعة لحمٍ مشوي لطيفة، ولكن أعتقد أنهم يخافون أن أستخدم السكين في الهرب».

قال الدكتور بلار: «كُلُّنا نأكل الشيء نفسه. ليتَ فقط كان همفريز هنا، فربما فَتَحَ هذا شهيَّته لأكلِ الغولاش في النادي الإيطالي».

«مهما كانت الجريمة، فإنَّ الوجبة نفسها تقدَّمُ للجميع».

«أهو اقتباس؟».

«إنها إحدى قصائد ذاك الرجل أكوينو. أمَا مِنْ أخبار؟».

«حاول المدعو دييغو أن يهرب إلى التشاكو، لكنَّ البوليس قتله».

«كانوا عشرة زنوج صغار ثم أصبحوا تسعة. أأكون أنا التالي؟».

«لاأظن ذلك. أنت الورقة الوحيدة التي بقيت لهم ليقامروا بها. حتى وإنْ اكتشفَ البوليس هذا المخبأ سيخافون أن يهاجموا مادمتَ حياً».

«أشك في أن يزعجوا أنفسهم كثيراً بأمري».

«الكولونيل بيريز سوف يقلق بشأن مستقبله المهني».

«أأنتَ خائف مثلي ياتد؟».

«لاأدري. ربّما كان لديّ قدرٌ أكبر ُقليلاً من الأمل. أو ربما ليس لديّ الكثير لأفقده».

«نعم. هذا صحيح. أنت محظوظ. ليس لكَ كلارا والطفل لتَقْلقَ عليهما».

«لا».

«أنتَ أعلمُ بمثلِ هذه الأمور ياتد. هل سأتألم كثيراً؟».

«يُقال إنه عندما يكون الجرح خطيراً لايكادُ يكون هناك إحساس».

«وجُرحي سيكون أخطرها جميعاً».

«نعم».

«سيطول إحساس كلارا بالألم أكثر مني. أتمنى لو كان الوضع معكوساً».

***

كانوا مايزالون يتجادلون في الغرفة الخارجية عندما عاد الدكتور بلار.

كان أكوينو يقول: «ولكن ماذا يعرف عن الوضع؟ إنه آمنٌ في قرطبة أو ... ». لَجَمَ نفسه ورفعَ بصرَهُ إلى الدكتور بلار.

قال الدكتور بلار: «لاتقلق. ليس من المتوقع أن أبقى بعد موتك. إلا إذا تخلّيت عن هذه الفكرة المجنونة. مايزالُ أمامك وقتٌ للهرب».

قال أكوينو: «وأعترف بالفشل أمام العالم كله».

«لقد كنتَ شاعراً. فهل كنتَ تخاف أن تعترف بفشلِ قصيدةٍ لك؟».

قال أكوينو: «قصائدي لم تُنشر قط. لم يعرف أحدٌ متى فشلت. ولم تُقرأ قصائدي عبر الراديو. ولم تُطرح أسئلة حولها في البرلمان البريطاني».

«إنها تلك الـ machismo مرة أخرى، أليس كذلك؟ مَنْ الذي اخترع الـmachismo ؟ عصابةٌ من المتوحشين أمثال بيزارو [1] وكورتيس [2]. ألا يستطيع أحد منكم أن يهرب من تاريخكم اللعين؟ لاأظنكَ تعلمت شيئاً من سرفانتس؟ لقد نال كفايته من الـ machismo في ليبانتو [3]».

قال الأب ريفاس: «أكوينو على حق. لانستطيع أن نتحمَّل الفشل. مرة من قبل أطلقت جماعتنا سراح رجل بدل قتله ـ كان قنصلاً باراغوائياً، ولم يهتم الجنرال بحياته أكثر مما اهتمَّ بحياة فورتنوم، وعندما حانت اللحظة الحاسمة لم نكن مهيَّئين لقتله. ولو ضعفنا هكذا مرة أخرى، لن يكون لأي تهديد بالموت أيُّ نفع على هذه القارة. إلى أن يبدأ رجل أشد حزماً منّا في قتل عدد كبير آخر. لاأريد أن أكون مسؤولاً عن الميتات التي ستلي فشلنا».

قال الدكتور بلار: «إنَّ لكَ ضميراً مُعقَّداً. وهل تُشفق على الله من أجل تلك الجرائم أيضاً؟».

«أرى أنَّك لم تفهم ماقصدت؟».

«لا. فأنا لم أتعلم قط على أيدي اليسوعيين في أسونسيون أي شيء عن الرثاء لله. ليس حسب ماأذكر».

«ربما كنتَ ستغدو أشدَّ إيماناً لو أنَّكَ تذكَّرت أكثر قليلاً».

«حياتي حياة ملآى بالعمل ياليون، أحاول أن أشفي المرضى، ولايمكنني أن أدع هذا الأمر لله».

---

(1) فرانشيسكو بيزارو (أو بيثارو)، (١٤٧٥ـ ١٥٤١): فاتح اسباني، فتح البرو. وأسس عاصمتها ليما عام (١٥٣٥). ذُبِحَ على يد مرافقيه. المترجم.

(2) هرناندوز كورتيس: (١٤٨٥ـ١٥٤٧): فاتح أسباني. دحر الأزتيكيين وفتح المكسيك. المترجم.

(3) اشترك الشاب سرفانتس في معركة ليبانتو ضد تركيا بدافع وطني رومانسي وخرج منها مثخناً بالجراح وخيبة الأمل لأنَّ المعركة فشلت لصالح تركيا عام ١٥٧١. المترجم.

«آه، لعلَّكَ على حق. لطالما توفَّر لديّ الكثير من الوقت: أقيم قُدَّاسين في يوم الأحد، وبضعة أيام من الاحتفالات الدينية. وثمة الاعترافات مرتين في الأسبوع. كان أغلب من يأتون من النساء العجائز ـ والأطفال طبعاً. كان الأطفال يُجبَرون على المجيء، ويُضربون إذا لم يأتوا. وعلى أية حال كنتُ أقدِّمُ لهم الحلوى، ليس كمكافأة. وكان الطفل المشاكس يتلقى من الحلوى قدر الطيِّب. أردتُ فقط أن أشعرهم بالسعادة وهم راكعون في ذاك الصندوق الخانق. وحين كنتُ أمنحهم كفَّارتي أحاول أن أجعل ذلك كلعبةٍ نلعبُها معاً، كمكافأةٍ، وليس كعقاب. وكانوا يَمُصُّون الحلوى وهم يتلون «ليكن سلام لك يامريم». وكنت أسعَدُ أنا بدوري، طوال ماأنا معهم. لم أكن أسعَدُ مع آبائهم ـ أو أمهاتهم. لاأعرف لماذا. ربما لو كان لديَّ طفلٌ...».

«لقد قمتَ برحلةٍ طويلة ياليون منذ أن غادرتَ أسونسيون».

«لم تكن الحياة بالبراءةِ التي تظنّها. ذات مرة أخبرني طفلٌ في الثامنة أنه أغرقَ أخته الوليدة في نهر البارانا، وظنَّ الناس أنها انزلقتْ من فوق الجرف. قال لي إنها كانت تأكل كثيراً بحيث لايبقى له إلا القليل. القليل من المانديوكا!».

«وهل أعطَيتَه حلوى؟».

«نعم. وثلاث ترتيلات «ليكن سلام لك يامريم» ككفَّارة».

خرج بابلو ليقوم بنوبة حراسته، وأخذ مكان ميغيل. وقدمت مارتا يخنة للغواراني، ونظَّفت الصحون الأخري. قالت: «أبتِ، غداً الأحد، أحقاً لاتستطيع أن تقيم لنا قداساً في ذاك اليوم؟».

«لقد مرت أكثر من ثلاث سنوات منذ أن أقمتُ آخرَ قُداس. وأشكُّ في استطاعتي أن أتذكر الكلمات».

«أنا معي كتاب صلوات ياأبتِ».

«إذن اقرأي القداس لنفسك يامارتا. وستكون النتيجة نفسها».

«لقد سمعتَ ماقيلَ في الراديو. الجنود يبحثون عنا. وقد يكون آخر قداس نسمعه. ثم إن هناك دييغو - يجب أن تقيم قداساً لأجله».

«لايحق لي أن أتلو قداساً. عندما تزوجتك يامارتا حَرَمتُ نفسي كنسياً».

«لا أحد يعرف أنك تزوجتني».

«أنا أعرف».

«الأب بيدرو كان يضاجع النساء. وكل انسان في أسونسيون يعلم ذلك. وكان يقيم القُداس كل أحد».

«هو لم يتزوج يامارتا. كان في استطاعته أن يعترف من ثم يأثم من جديد ويعود للإعتراف. أنا لستُ مسؤولاً عن ضميره».

قال الدكتور بلار: «يبدو أنك تتعذَّب تحت وطأة قَدْرٍ غريبٍ من الشكوك ياليون لاتصدر عن رجل يخطِّط لارتكابِ جريمة قتل».

«نعم. لعلها ليست شكوكاً - بل مجرد أوهام. في الحقيقة لو أني تناولت خبز القربان لبقيت نصف مؤمن بأني تناولت جَسَدَه. على أية حال إنه نقاش عقيم. إذ لايوجدُ خمر».

قالت مارتا: «آه، ولكن يوجد ياأبت. أنا عثرتُ على زجاجةٍ فارغةٍ في مقلبِ النفايات وعندما كنتُ في البلدة ملأتُها في الكانتينا(1)».

قال الأب ريفاس بحزن: «إنكِ تفكرين في كل شيء».

«أبتِ، أنتَ تعلم أني طوال تلك السنين وأنا أرغب في أن أسمعكَ تتلو قداساً من جديد وأن أرى الناس يُصلُّون معك. طبعاً لن يكون بنفس رونقِه دون الأردية الكهنوتية الجميلة. ليتكَ فقط احتفظتَ بها».

«إنهالم تكن تخصُّني يامارتا. مهما يكن، الأردية لاتصنع قداساً. أتظنينَ أنَّ الرُسُلَ كانوا يلبسون الأردية الكهنوتية؟ كم أكره ارتداءها بينما أرى

---

(1) الكانتين هو مطعم بسيط متنقل ومؤقت.

كلُّ الناس أمامي يضعون عليهم تلك الأسمال. كم كان يُسعدني أن أدير لهم ظهري وأنساهم لأرى فقط المذبح والشموع ـ لكنَّ ثمن الشموع كان جديراً بأن يُطعم نصفَ الناس الموجودين».

«أنت مخطىء ياأبتِ. كلُّنا كنّا نسعَدُ ونحن نراكَ بتلكَ الأردية. كانت فائقة الجمال، بلونها القرمزي وزخارفها الذهبية».

«نعم، أعتقد أنها كانت تساعدك على الهرب من كل شيء لفترةٍ قصيرة من الوقت، أما بالنسبة إليّ فكانت بمثابة لباس المحكوم».

«ولكن، ياأبتِ، لاأظنك ستهتم بقوانين الأسقف؟ إذن ستتلو علينا القداس غداً حقاً؟».

«ماذا لو كان مايقالُ صحيحاً وأنني أجلبُ اللعنةَ على نفسي؟».

«الله الكريم لايلعنُ رجلاً مثلكَ ياأبت. أما دييغو المسكين، وزوجة خوزيه... وكلنا... نحن نحتاج إليك لتكلّمَ الله نيابة عنا».

قال الأب ريفاس: «حسن، سأقيم قداساً. إكراماً لك يامارتا. ماأقلَّ مافعلتُ لأجلكِ في هذه السنوات الأخيرة. لقد منحتني الحبَّ وكل ماقدمتهُ لكِ كان الكثير من الخطر وأرضاً قذرة لتستلقي عليها. سأقيمُ القداس حالما يبزغ الفجر إذا أتاح لنا الجنود وقتاً كافياً. هل بقي لدينا أي خبز؟».

«نعم، ياأبت».

حرّكَ مشاعر الدكتور بلار إحساسٌ بحزنٍ ما غامض، فقال: «إنّكَ غير مقتنع بكل هذه الغمغمة التي تتفوّه بها ياليون. أنت تخدعهم كما خدعتَ ذلك الطفل الذي قتل أخته، تريد أن تعطيهم حلوى في العشاء الرباني لتُطَمْئِنَهم قبل أن تغتال تشارلي فورتنوم. لقد رأيتُ بأمّ عيني أشياءَ تعادل ماسمعته في حجيرة الاعتراف في السوء، ولكن لايمكن تَطييب خاطري بالحلوى. أنا رأيت طفلاً يولد دون أيدٍ أو أرجل. ولو تُركتُ وحدي معه لقتلته لكنَّ والديه كانا في إثري ـ كانا يرغبان في المحافظة على حياة ذلك

الجذع المحطَّم اللعين. كان اليسوعيون يقولون لنا إنه من واجبنا أن نحب الله. أمِنْ واجبنا أن نحبَّ إلهاً يخلق مثل ذلك الجهيض؟ إنه أشبه بواجب الألماني في أن يحبَّ هتلر. أليس من الأفضل الآن نؤمن بذلك الرعب الجالس هناك فوق بين سحب السماء بدل أن ندَّعي حبه؟».

«ربما من الأفضل الا نتنفَّس، ولكن مهما يكن لايسعني إلا أن أتنفس. أعتقد أن بعض الناس محكومٌ عليهم بالإيمان كما لو أنه محكومٌ عليهم بالسجن. فلا خيارَ لهم. لامهرب. لقد وُضِعُوا خلف القضبان الى الأبد».

اقتطف أكوينو بنوع من الرضا الذاتي الكئيب: «لاأرى أبي إلا من بين القضبان».

قال الأب ريفاس: «وهكذا أجلس هنا على أرض زنزانتي، أحاول أن أضفي معنى على الأشياء. أنا لستُ لاهوتياً، لقد كنتُ الأخير في أغلب صفوفي المدرسية، لكني طالما أردتُ أن أفهمَ ماتسمِّيه الرعب ولماذا لاأستطيع الكفَّ عن حبه. مثل تينك الوالدين اللذين أحبَّا ذاك الجذع المسكين اللعين. آه، أنا أوافقك على أن الله بشعٌ تماماً، ولكن أنا أيضاً بشع ومع ذلك تحبني مارتا. في سجني الأول ـ أقصد في المعهد اللاهوتي ـ كان هناك عدد هائل من الكتب قرأتُ فيها كل شيء عن حبِّ الله، لكنها لم تُغنِني. ولا واحد من الآباء قدَّم لي أي عون. لأنهم لم يقتربوا من مرحلة الرعب ـ معك كل الحق في تسميته هكذا. إنهم لم يروا أي إشكال. هم فقط جلسوا مرتاحين في حضرة الرعب كجلوس الأسقف العجوز على مائدة الجنرال وتحدثوا عن مسؤولية الإنسان وعن الإرادة الحُرَّة. كانت الإرادة الحرة هي عذرهم في كل شيء. كانت ذريعة الله. إنهم لم يقرأوا فرويد قط. الشرُّ يصنعه إما الإنسان أو الشيطان. بهذه البساطة. لكني ما استطعتُ مطلقاً أن أؤمن بالشيطان. كان أسهل عليَّ كثيراً أن أؤمن بأنَّ الله هو الشر».

هتفت مارتا: «أبتِ، أنتَ لاتدرك ماتقول».

«أنا لاأتكلم بصفتي كاهناً الآن يامارتا. يحقُّ للإنسان أن يفكِّر بصوتٍ عالٍ مع زوجته. حتى المجنون، ولعلّي مجنون قليلاً. لعلَّ تلك السنين التي أمضيتها في الحي في أسونسيون قد لخبَطتْ عقلي، فها أنا أنتظرُ لأقتلَ رجلاً بريئاً ...».

قال أكوينو: «لستَ مجنوناً ياليون. لقد عدتَ إلى صوابك. سوف نصنع منك ماركسياً جيداً فيما بعد. طبعاً الله هو الشر، الله هو الرأسمالية. ادَّخِرْ ثرواتك في السماء ـ وستعود عليكَ بفائدةٍ بنسبةِ مائة في المائة وإلى الأبد».

قال الأب ريفاس: «أنا أؤمن بشرّ الله، لكنني أؤمن أيضاً بخيره. لقد خُلِقْنا على صورته ـ هذه هي الأسطورة القديمة. إدواردو، أنت تعلم جيداً كم من حقائق في الطب تكمن في الأساطير القديمة. لم يكن مختبراً حديثاً مَنْ اكتشفَ أول استخدام لسُمّ الحية. واستخدمت عجائز النساء العفن بأخذه مِنْ على البرتقال الشديد النضج وذلك قبل اكتشاف البنسلين بزمنٍ طويل. لذا تراني بدوري أؤمن بأسطورةٍ قديمةٍ تكادُ تكون منسية. هو صنَعنا على صورته ـ إذن فشرُّنا أيضاً هو شرُّه. كيف يمكنني أن أحبَّ الله إذا لم يكن مثلي؟ منقسماً مثلي. مغْوياً مثلي. إذا أحببتُ كلباً فذلك فقط لأني أرى فيه شيئاً إنسانياً. أستطيع أن أحسّ بخوفه وامتنانه وحتى بغدره. إنه يحلمُ أثناء نومه مثلي. أشكُّ في أني أستطيع أبداً أن أحبَّ علجوماً ـ مع أني أحياناً، عندما ألمس جلد علجوم، يذكرني بجلد عجوز أمضى حياةً قاسية معدمة في الحقول، وأتساءل ...».

«أنا أجدُ عدمَ إيماني أسهلَ كثيراً على الفهم من طريقتك في الإيمان. إذا كان الله هو الشر ...».

قال الأب ريفاس: «إنني مختفٍ عن الأنظار منذ سنتين، وعلينا أن نرتحل خفافاً، ولامكان بين أغراضنا لكتب اللاهوت. مارتا فقط تحتفظ بكتاب للصَلوات. أنا أضعتُ خاصتي. أحياناً كنتُ أعثرُ على روايةٍ ذات غلاف

ورقي ـ كالتي كنتُ أقرأها. قصة بوليسية. ذلك النوع من الحياة يوفّر الكثير من الوقت للتفكير وربما مارتا على حق في قولها أنّ أفكاري تنحو منحى عنيفاً. لكنني لاأرى سبيلاً آخر للإيمان بالله، اللهُ الذي أؤمن به يجب أن يكون مسؤولاً عن كل الشرور وأيضاً عن كلّ القديسين. عليه أن يكون إلهاً معمولاً على صورتنا، له جانب مظلم مثلما له جانب مضيء. عندما تتحدث عن الرعب ياإدواردو فإنّك تتحدث الى الجانب المظلم من الله. أعتقد أنه سيأتي زمنٌ يذوي فيه الجانب المظلم، مثل دولتك الشيوعية ياأكوينو، ولن نرى بعدها إلا الضياء البسيط لله الخيِّر. إنكَ تؤمن بالإرتقاء ياإدواردو، على الرغم من أنّ أجيالاً بأكملها أحياناً تنزلقُ متراجعة الى عصر الوحوش. إنّ الارتقاء صراعٌ طويل ومعاناة طويلة، وأعتقد أنّ الله يعاني ارتقاءنا نفسه، ولكن ربما بتألمٍ أعظم».

قال الدكتور بلار: «أنا لستُ واثقاً جداً من مسألة الإرتقاء، وذلك منذ أن نجحنا في تقديم هتلر وستالين في جيلٍ واحد. ماذا لو أنّ الجانب المظلم من الله التَهَمَ الجانب المُضيء كله؟ لنفرض أنّ الجانب الخيِّر هو الذي خبا. فإذا جاريتكَ بما تؤمن، فسوف أعتقد أحياناً أنّ هذا قد حدث فعلاً».

قال الأب ريفاس: «لكنني أؤمن بالمسيح، أؤمن بالصليب وبالإفتداء. افتداء الله وافتداء الإنسان. أؤمن بأنّ الجانب المشرق من الله ينتج، في لحظة خلقٍ واحدة وسعيدة، خيراً كاملاً، كما قد يرسم رجلٌ لوحة واحدة كاملة المزايا. إنّ هدف الله الخيِّر أُنجزَ بتمامه مرة واحدة بحيث لايُحرز الجانب المظلم أكثر من نصر هزيل هنا وهناك. وبمساعدتنا. لأن ارتقاء الله يعتمد على ارتقائنا. وكل عمل شرير من أعمالنا يقوّي جانبه المظلم، وكل عمل خيِّر يدعم جانبه المشرق. ونحن ننتمي إليه وهو ينتمي إلينا. أما الآن فنحن على الأقل نستطيع أن نتأكّد أين سيؤول مآل الإرتقاء ذات يوم ـ سيؤول الى طيبةٍ تشبه طيبة المسيح. إنها عملية رهيبة في كل الأحوال والله الذي أؤمن به يعاني مثلنا وهو يصارع نفسه ـ ضد جانبه الشرير».

«وهل قتل تشارلي فورتنوم سيساعد على ارتقائه؟».

«لا. إنني أصلّي طول الوقت لكي لاأضطر الى قتله».

«ومع ذلك فستقتله إذا لم يذعنوا؟».

«نعم. تماماً كما تضاجعُ أنت زوجة رجل آخر. هناك عشرة رجال يموتون ببطء في السجن، وأنا أقول لنفسي إنني أقاتل لأجلهم وإنني أحبهم. لكنَّ نوع حبي الذي أعرفه هو حجَّة واهية. القديس ليس أمامه إلا الصلاة، أمّا أنا فعليَّ أنْ أحملَ مسدساً. إنني أخفف من سرعة الإرتقاء».

«إذن لماذا... ؟».

«لقد أجاب القديس بولس عن ذلك السؤال «ماأفعله ليس ماأتمنى فعله، بل أحياناً أفعل ماأكرهه». لقد كان يعرف كل شيء عن جانب الله المظلم، وكان أحد الذين رموا ستيفن[1] بالحجارة».

«أما تزال تسمّي نفسك كاثوليكياً، بعد إيمانك بكل هذا؟».

«نعم. أسمّي نفسي كاثوليكياً مهما يقول الأساقفة. أو البابا».

قالت مارتا: «أبت، أنت تخيفني. كل هذا غير موجود في كتاب التعاليم، أليس كذلك؟».

«لا، ليس في كتاب التعاليم، لكنَّ كتاب التعاليم لايمثِّل الإيمان يامارتا، إنه نوع من المائدة المزدوجة. إن كتابك لاينكر أي شيء مما قلته. أنت تعلمت عندما كنت طفلة شيئاً عن ابراهيم واسحق، وكيف أن يعقوب خدعَ أخاه، وكيف دُمِّرَت سدوم كما دمَّرتْ تلك القرية في العام الفائت في جبال الأنديز. عندما يكون الله شريراً يطلبُ القيام بأفعالٍ شريرة، يمكنه أن يخلق وحوشاً من أمثال هتلر، يمكنه أن يفني أطفالاً ومدناً. ولكن ذات يوم سيتمكن بمساعدتنا من أن يمزق قناع شرِّه إلى الأبد. كم مِنْ مرةٍ وضع القديسون أقنعةَ الشرّ لفترة من الوقت، حتى بولس. الله مرتبطٌ بنا بما

---

(١) القديس ستيفن (مات نحو عام ٣٦ م): أحد الشمّاسين السبعة في الكنيسة المبكرة. أعدمَ رمياً بالحجارة في أورشليم، وأصبح أول شهيد في المسيحية. المترجم.

يشبه عملية نقل الدم، دمه النقي يجري في عروقنا، ودمنا الملوَّث يجري في عروقه. آه، أعلم أني ربما مريض أو مجنون، لكنها الطريقة الوحيدة التي أستطيع بها أن أؤمن بطيبة الله».

«من الأسهل كثيراً الآن نؤمن بالله مُطلقاً».

«أواثق أنت؟».

«يعني، لعلَّ اليسوعيين تركوا جرثومة واحدة من المرض في داخلي، لكني عزلتُها، وأنا أتحكَّم فيها».

«إنني لم أتكلم بصوتٍ عالٍ هكذا من قبل ـ ولاأدري لماذا أفعل الآن».

«ربما لأنكَ تعتقد أنه لم يعد هناك أي أمل».

«تدْ»، نادى الصوت، الذي بدأ الدكتور بلار يمقته، من الغرفة الداخلية «تدْ». ولم يأتِ الدكتور بلار بأيّ حركةٍ نحو النهوض.

ذكَّره الأب ريفاس: «مريضك».

«لقد فعلت كل ما في وسعي لأجله. مافائدة معالجة كاحله إذا كنتَ تنوي أن تُودِع رصاصة في دماغه؟».

عاد الصوت ينادي: «تد».

«لعله يريد أن يسألني عن نوع الفيتامينات التي يجب على كلارا أن تعطيها للمولود. أو متى يجب أن يفطم. ولده! لابدّ أن الجانب المظلم من الله يضحك ملء قلبه من ذلك. أنا لم أرغب بولد قط. كنتُ أود أن أتخلص منه لو تركتني أفعل».

قال الأب ريفاس: «أخفض صوتك. حتى وإن كنتَ تغارُ من المسكين».

«أغارُ من تشارلي فورتنوم؟ ولماذا أغارُ؟»، ولم يتمكن من السيطرة على صوته «أأغارُ بسبب الطفل؟ ـ لكن الطفل لي. أغار بسبب زوجته؟ إنها لي أيضاً. طالما أني أريدها».

«تغارُ لأنه يحب».

ورأى كيف نظرتْ مارتا إليه. حتى صمت أكوينو بدا كأنه ينتقده.

«آه الحب! هذه الكلمة ليست من ضمن مفرداتي».

قالت مارتا: «أعطني قميصكَ ياأبتِ. أريدُ أن أغسله لكَ استعداداً للقداس».

«قليلٌ من القذارة لن يضير».

«لقد نمتَ به طوال ثلاثة أسابيع ياأبتِ، ليس من اللائق أن تذهب الى المذبح ورائحتكَ تفوح كما الكلب».

«ليس هناك مذبح».

«أعطنيه ياأبتِ».

تعرَّى من قميصه طائعاً، وكان لونه الأزرق قد بَهَتَ بفعلِ الشمس وتلطَّخَ بعلاماتٍ من الطعام وبياض العديد من الجدران. قال الكاهن: «افعلي ماتريدين. على كل حال حرام أن تهدري ماءنا. قد نحتاج إلى كل مالدينا منه قبل حلول النهاية.

***

اشتدَّت الظلمة بحيث تعذَّرت الرؤية وأشعلَ الزنجي ثلاثَ شمعات. حملَ واحدةٍ إلى الغرفة الداخلية، لكنه أعادها وأخمد اللهب. قال: «إنه نائم».

فتح الأب ريفاس الراديو فصدحت الأنغام الحزينة للموسيقى الغوارانية ـ موسيقى الناس المحكوم عليهم بالموت. كانت مصحوبة بالكثير من الشوآش الذي يسبب طرطقة كطلق البنادق الرشاشة تنبىء بالفناء. وهناك فوق الجبال خلف النهر كان الصيف قد بدأ يبزغ وارتعش وميضُ البرقِ على الجدار.

قال الأب ريفاس لبابلو: «ضعْ في الخارج كل مالديك من مقالٍ ودلاء».

هبَّت الريح بقوة فجأة، وانجرفت أوراق أشجار الأفوكادو عبر سطح التنك، ومن ثم مرة أخرى همدت الريح. قال الأب ريفاس: «سأضطرُّ إلى ارتداء قميصٍ مبلل في القداس، إلا إذا استطعتُ إقناع مارتا بأنَّ الله لايعترضُ على جِلْدْ الإنسان العاري».

وفجأة، وكأنما شخص كان واقفاً بالقرب منهم داخل الكوخ، خاطبهم صوت قائلاً: «بطلبٍ من إدارة مراكز البوليس نقرأ عليكم البيان التالي». ساد صمت بينما كان الرجل يبحث عن المكان المناسب. كان في إمكانهم حتى أن يسمعوا خشخشة الأوراق التي يحملها.

«باتَ معروفاً الآن المكان الذي تَحتَجز فيه عصابة المختطفين القنصل البريطاني. إنهم متمركزون في ركنٍ معيَّن من الحي الشعبي الذي ... ». هطلَ المطر مدراراً قادماً من باراغواي، وهو يضرب على السقف، وغطَّى على صوت المعلن. ودخلت مارتا مسرعة، وهي تحمل قطعة من القماش المبلل هو قميص الأب ريفاس. صرخت: «أبتِ، ماذا أفعل؟ المطر ... ».

«هشش» قال الكاهن، وعلَّى صوت المذياع. مرّ المطر من فوقهم متجهاً صوب المدينة، وكان البرق يضيء الغرفة باستمرار تقريباً. وعبر البارانا في سهل التشاكو أصبح الرعد مسموعاً هناك، كسَدٍ من النيران انتقل وتقدَّم قبل شن الهجوم.

استأنفَ الصوتُ قائلاً: لم يبقَ أمامكم أيّ أمل في الهروب». بطيئاً ثقيلاً، تخلَّلته فترةٌ من الشوّاش، يتكلم بوضوحٍ متناهٍ كأستاذٍ يشرح مسألةً رياضية إلى فصلٍ من الأولاد، وميَّزَ الدكتور بلار فيه صوت الكولونيل بيريز: «نحن نعلم بدقة مكان تواجدكم. أنتم مُحاصرون برجال من اللواء التاسع. عليكم قبل حلول الساعة الثامنة من صباح الغد أن تُرسلوا القنصل البريطاني إلى خارج الكوخ. يجب أن يكون وحده وأن يمشي دون مضايقة داخل غطاء الأشجار. بعد ذلك بخمسِ دقائق يجب أن تخرجوا بدوركم، واحداً إثر آخر، أذرعتكم مرفوعة فوق رؤوسكم. الحاكم يضمن الإبقاء على

حياتكم ولن تُعَادوا الى باراغواي. لاتحاولوا الهرب. إذا غادر أحدكم الكوخ قبل تسليم القنصل سالماً سيُقتَلْ. لن يقبل ظهور أي راية بيضاء. أنتم محاصرون تماماً. أحذِّركم من أنه إذا أصاب أي أذى ... »، بعد ذلك أخذ الشّواش يطنُّ ويزعق من خلال كلماته، وجعلها غير مفهومة.

قال أكوينو: «خداع! مجردُ خداع! لو كانوا هناك في الخارج لحذَّرنا ميغيل، ذاك الرجل يستطيع أن يرى نملة وسط الظلام. إقتُلْ فورتنوم وبعد ذلك سنجري قرعة لنرى مَنْ يغادر أولاً. كيف يستطيعون في ليلة كهذه أن يعرفوا مَنْ الذي غادر الكوخ ـ القنصل أم غيره؟». فتح الباب بقوة ونادى على الهندي: «ميغيل!»، وإجابةً على سؤاله ومَضَ نصف دائرة من النور الساطع ـ كان موجهاً من بين الأشجار على مدى قوس طوله مائة ياردة ومن خلال الباب استطاع الدكتور بلار أن يرى العث يحتشد بعيداً عنه متجهاً نحو الأضواء ليرتطم بالعدسات العاكسة ثم يَهِنْ. انطرح الهندي متمدداً على الأرض، واندفع ظلُّ الطبيب مرتداً إلى داخل الكوخ وتمدَّد كالميت على الأرض، فتنحّى الطبيب جانباً، وتساءل إن كان بيريز قد رآه وتعرَّف عليه.

قال أكوينو: «إنهم لايجرؤون على إطلاق النار إلى داخل الكوخ مخافة أن يقتلوا فورتنوم».

أُطفِئت الأضواء من جديد. وفي الصمت الذي تخلل وميض البروق لم تعد تسمع الخشخشة إلا بقدرِ ماتسمع تحركات جرذ. وقف أكوينو عند حرف الباب ووجَّه بندقيته نحو الظلام. قال الأب ريفاس: «لا. ميغيل». اجتاحت موجةٌ أخرى من المطر السقْفَ، وفي الفناء انقلبَ دلوٌ وأرسل قرقعة مع الريح.

لم يَدُمْ الظلام. لعلَّ البرق نسفَ صمّامةَ الكهرباء وثمة الآن مَنْ يُصلحها. ورأى الرجال الذين يراقبون من داخل الكوخ الهندي ينهض واقفاً على قدميه ليركض، لكنَّ الأضواء أعمَتْه. فأخذ يدور حول نفسه وإحدى

يديه فوق عينيه . انطلقت طلقةٌ واحدةٌ وسقط على ركبتيه ، وكأنَّ رجال اللواء التاسع لانيَّة لديهم أن يهدروا ذخيرتهم على شخصٍ ليست له أية أهمية . ركع الغواراني ورأسه محني ، كرجل ورع أمام سمو خبز القربان المقدس . ترنّح من جنب الى جنب ـ كان يمكن الإعتقاد أنه يؤدي دوراً في شعيرة بدائية . ثم بدأ يرفع بندقيته بجهد هائل في الإتجاه الخطأ الى أن اتَّجهت نحو الكوخ المفتوح . وبدا للدكتور بلار ، الذي كان يراقب وهو يلصق ظهره بالحائط ، أنَّ المظليين كانوا ينتظرون بفضولٍ فظ صبورٍ أن يروا ماذا سيحدث بعد ذلك . لم يكونوا ينوون أن يضيِّعوا طلقة أخرى ، فالهندي لايشكل أي خطر عليهم ، إذ كيف يمكنه أن يرى الجهة التي يطلق عليها وهو وسط وهج الأضواء؟ وسواءً أكان يموت أم لا فهو أمرٌ لايهمهم في شيء ، ويمكنه أن يظل مطروحاً هناك حتى حلول الصباح . ثم تقدمت البندقية بضعة إنشات في الهواء نحو الكوخ . وقعت منه وارتمى ميغيل هامداً على الأرض .

قال أكوينو : «يجب أن نَجُرَّه الى الداخل» .

قال الدكتور بلار مؤكداً : «لقد مات» .

«كيف تعرف؟» .

أُطفئتْ الأضواء من جديد . وكأنَّ الرجال المُختفين بين الأشجار يلعبون لعبةً وحشيةً معهم .

قال أكوينو : «هذه فرصتك يادكتور» .

«ماذا في إمكاني أن أفعل؟» .

قال الأب ريفاس : «أنت محق . إنهم يحاولون إغواء أحدنا بالخروج» .

«لعلَّ صديقك بيريز لايطلق النار إذا خرجت أنت» .

قال الدكتور بلار : «مريضي موجود هنا» .

زاد أكوينو من اتساع فُرجة الباب . كانت البندقية الآلية بعيدة عن المتناول . مدَّ يده إلى الخارج نحوها . فسطعتْ الأضواء وضربتْ طلقةٌ نارية

حَرفَ الباب في اللحظة التي أغلقه بقوة. لابدَّ أن الرجل المسؤول عن الأضواء سمع صرير المفاصل.

«أغلقْ المصاريع يابابلو».

«حاضر ياأبت».

بعد انطفاء وهج الأضواء شعروا بإحساس بالحماية.

سأل الزنجي: «ماذا ستفعل الآن، ياأبت؟».

قال أكوينو: «أقتُل فورتنوم فوراً، فإذا ماأُطفِئتْ الأضواء مرة أخرى نهرب».

قال بابلو: «مات منّا إثنان حتى الآن. ربما كان من الأفضل ياأبتِ لو استسلمنا. ثم إن مارتا موجودة هنا».

«وماذا عن القداس ياأبت؟».

قال الأب ريفاس: «يبدو لي أنني يجب أن أجعل منه قداساً للموتى».

قال أكوينو: «أقِمْ أي قداس تشاء، ولكن اقْتُل القنصل أولاً».

«كيف يمكن لي أن أقيم القداس بعد أن أقتله؟».

قال الدكتور بلار: «ولِمَ لا إذا كان في استطاعتكَ أن تقيم قداساً وأنت تنوي أن تقتله؟».

«آه ياإدواردو، ماتزال كاثوليكياً بالقدر الذي يجعلكَ تعرف كيف تغرز السكين في الجرح. ستكون متُقبّل اعترافي فيما بعد».

«هل أعدّ المائدة ياأبتِ؟ لديّ الخمر. ولديّ الخبز».

«سأقيمه عند بزوغ أول خيوط الفجر. يجب أن أعدّ نفسي يامارتا، وهذا يستغرق وقتاً أطول من إعداد مائدة».

قال أكوينو: «دعني أقتله بينما تتلو أنت صلواتك. قُمْ بعملكَ واتركني أقوم أنا بعملي».

قال الدكتور بلار: «كنتُ أظنُّ أن عملكَ هو نظم القصائد».

«قصائدي كلها كانت تدور حول الموت، لذا فأنا مؤهل له».

قالَ بابلو: «من الجنون أن نستمر. سامحني ياأبتِ، لكن دييغو كان محقاً في محاولته للهرب. من الجنون أنْ نقتل رجلاً ونَحن متأكدون من أننا سنموت نحن الخمسة، ياأبتِ...».

قاطعه أكوينو بصبرٍ نافد: «إجرِ تصويتاً. دع التصويت يقرّر».

قال الدكتور بلار: «هل تحوّلت إلى برلماني ياأكوينو؟».

«ابقَ ضمن ماتعرفه يادكتور. إن تروتسكي كان يؤمن بالتصويت الحر داخل الحزب».

قال بابلو: «أنا أصوِّت مع الاستسلام»، ووضع يديه على وجهه. وبيَّنت حركات كتفيه أنه كان يبكي. أعَلَى نفسه؟ أم على الموتى؟ أم لإحساسه بالعار؟.

فكَّر الدكتور بلار، متهوّرون يائسون! هكذا ستصفهم الصحف. شاعر فاشل، وكاهن منبوذ من الكنيسة، وامرأة ورعة، ورجل يبكي. بحق السماء فَلْنَنْهِ هذه الملهاة بملهاة. لاأحد منّا يليق بمأساة.

قَال بابلو «أنا أحبُّ هذا البيت. لم يبقَ لي غير البيت بعد أن ماتت زوجتي وطفلي».

قال الدكتور بلار لنفسه، هاهنا كاهنٌ آخر: ألن نتخلَّص من الكهان أبداً؟».

قال أكوينو: «أنا أصوِّت لقتل فورتنوم الآن».

قال الأب ريفاس: «قلت لنا أنهم يخدعوننا. لعلك على حق. لنفرض أنه حلّتْ الساعة الثامنة ولم نُحرز شيئاً ـ مع ذلك مازالوا لايستطيعون مهاجمتنا. طالما أنه حي».

سأل أكوينو: «إذن على ما تصوِّت؟».

«لصالح التأجيل. سوف نعطيهم مهلة حتى منتصف ليل الغد».

«وأنتِ يامارتا؟».

قالت بفخر: «أنا أصوّت مع زوجي».

حدَّثهم مكبِّر للصوت ـ كان من القرب بحيث لابد أنه كان موضوعاً بين الأشجار في الخارج ـ ومرة أخرى بصوت بيريز. «رفضت حكومتا الولايات المتحدة وبريطانيا التدخل. وإذا كنتم تستمعون الى مذياعكم ستعرفون أن ماأقوله صحيح. ابتزازكم فشل. لن تكسبوا شيئاً من احتجازكم للقنصل بعد الآن. أرسلوه إلى خارج الكوخ قبل الساعة الثامنة إذا أردتم أن تحتفظوا بحياتكم».

قال الأب ريفاس: «إنهم يلحُّون كثيراً».

كان هناك من يهمس بقرب مكبِّر الصوت. لم يكن مفهوماً ـ صوت يقرقر مثل حصى تنجزُّ من تحت موجة. ومن ثم تابع بيريز: «هناك رجل يموت خارج بابكم. أرسلوا إلينا القنصل الآن، وسنحاول أن ننقذ صديقكم. هل ستتركون واحداً منكم يموت ببطء؟».

قال الدكتور بلار لنفسه، قَسَم أبقراط لايطلب منّا أن ننتحر. في طفولته كان أبوه يقرأ عليه قصصاً بوليسية، عن رجالٍ جَرحى أنقذوا من تحت النيران، عن الكابتن أوتس الذي خرج من الثلج. وقصيدة «أَطلق النار إذا كان لابدّ لكَ على هذا الرأس العجوز الأشيب» كانت إحدى قصائده المفضَّلة في تلك الأيام.

دخل مسرعاً إلى الغرفة الداخلية. لم يكن يستطع الرؤية في الظلام هناك. وهمسَ: «هل أنت يقظ؟».

«نعم».

«كيف حال كاحلكَ؟».

«على مايرام».

«سأحضر ضوءاً وأغيِّر الرباط».

«لا».

قال الدكتور بلار: «إنَّ الجنود يحاصروننا. يجب ألاّ تتخلى عن الأمل».

«الأمل في ماذا؟».

«هناك رجلٌ واحد فقط يريدك حقاً أن تموت».

أجاب الصوت اللامبالي «وهو؟».

«أكوينو».

قال تشارلي فورتنوم: «وأنت، أنت! أنت تريد ذلك».

«ولِمَ؟».

«أنتَ تتكلم بصوتٍ عالٍ كثيراً يابلار. لاأعتقد أنك كنت تتكلم بهذا العلو في المخيَّم، حتى عندما أكون في الخارج أشرفُ على المزرعة على بُعدِ ميل. كنت دائماً كتوماً لعيناً، أليس كذلك؟ خشية أن يسمعك الخدم. ولكن دائماً يأتي وقت تنفتح فيه حتى أُذُنا الزوج». سُمِعَ صوت خدش في الظلام وكأنه كان يحاول أن يجرّ نفسه ليعتدل.

«طالما ظننتُ أنَّ لدى الأباء مبادىء للشرف يابلار، ولكن طبعاً هذا في الأمة الإنكليزية، وأنتَ لستَ سوى نصف إنكليزي، أما نصفك الآخر ...».

قال الدكتور بلار: «لاأعلم ماذا سمعت. لابدَّ أنك حلمت بذلك أو أسأت فهمه».

«أحسبك قلتَ في نفسك ماذا يهم، إنها مجرد عاهرة حقيرة من منزل الأم سانشيز. كم كلَّفتك؟ ماذا قدَّمتَ لها يابلار؟».

قال الدكتور بلار بدفق من الغضب: «إذا أردتَ أن تعرف فاعلم أنني أعطيتها نظارة شمسية من محل غروير».

«تلك النظارة؟ كانت مولعة بتلك النظارة. كانت ترى أنها أنيقة، وقد حطمها أصدقاؤك الآن. يالكَ من خنزير يابلار. إن ذلك كان أشبه باغتصاب طفلة».

«كان الأمرُ أسهل من ذلك».

لم يكن الدكتور بلار يُدرك مدى قُربِه من التابوت. وفي الظلام تلقَّى ضربة يد. قبضَتْ عليه من رقبته حتى كاد يختنق. تراجع خطوة إلى الخلف وسمع التابوت يصرّ.

قال تشارلي فورتنوم: «آه ياربي. لقد قَلَبتُ القنينة»، ثم أضاف: «كان مايزال فيها مقدار يناسبني. كنت أحتفظ بها للـ... »، وراحت يدٌ تتلمّس الأرض، لمستْ حذاء بلار وتراجعت.

«سأحضر ضوءاً».

آه لا، لن تحضره. لاأريد أن أرى وجهك القذر مرة أخرى يابلار».

«إنَّك تُحمّل الأمرَ أكثر مما يحتمل. هذه الأمور تحدث يافورتنوم».

«إنك حتى لاتدّعي أنك تحبها، هل تحبها؟».

«لا».

«أظنكَ كنتَ تنالها في الماخور، وهكذا حسبتَ أنَّ... ».

«قلتُ لكَ من قبل - رأيتُها هناك، لكني لم أنلها قط».

«لقد أنقذتُها من ذلك المكان وجئتَ أنتَ ورحتَ تدفع بها إلى هناك».

«لم تكن تلك نيتي قط يافورتنوم».

«أنت كنتَ تحرص على ألاّ يُفتَضحْ أمرك. كان ذلك أرخص لك أليس كذلك؟ لأنك لست مضطراً لدفع ثمن مضاجعتك».

«مانفعُ مثل هذه المشاجرات؟ حسبتُ أنَّ الأمرَ سينتهي سريعاً وأنَّك لن تعرف». هذا لايعني أن أيّاً منّا كان يهتم بأمر الآخر. الإهتمام هو الخطر الوحيد يافورتنوم».

«أنا كنت أهتم».

«كان يمكن أن تستعيدها. كان يمكن ألاّ تعرف».

«متى بدأ الأمر يابلار؟».

«عندما رأيتها للمرة الثانية. في محل غروبر. حين أعطيتُها النظارة الشمسية».

«وأين بلْتها؟ هناك في منزل الأم سانشيز؟». ذكّرت الأسئلة المُلحّة الدكتور بلار بأصابع تضغط لتُخرج القيح من بثرة.

«أخذتُها إلى شقتي. عزمتُها على فنجان قهوة، لكنها علمَتْ علم اليقين ماذا كنتُ أقصد بالقهوة يافورتنوم. لو لم أكن أنا لكان شخصاً آخر عاجلاً أم آجلاً. لقد كانت تعرف حتى بوأب شقتي».

قال فورتنوم: «شكراً لله».

«ماذا تقصد؟».

«عثرتُ على القنينة. لم تُسفَح».

سمع صوت فورتنوم يشرب. قال: «من الأفضل لك أن تدَّخر قليلاً لما بَعْد، فربما... ».

«أعرف أنَّك تظن أني جبان يابلار، لكني لم أعد أخشى الموت الآن، فهو أرحم بكثير من أن أعود إلى المخيَّم وأنتظر مجيء طفل يحملُ ملامحَ وجهكَ يابلار».

كرَّر الدكتور بلار: ليس هكذا عنيتُ أن تكون الأمور». ولم يبقَ فيه أيُّ غضب يدافع به عن نفسه، «لاشيء يحدث كما نخطط له. هم ماكانوا يقصدون أن يختطفوك. وأنا لم أقصد أن أنجب طفلاً. في إمكانك أن تقول إنَّ هناك مُهرِّجاً في مكانٍ ما يجب أن يشوِّه الأمور. لعلَّ للجانبِ المظلم من الله حساً فكاهياً».

«أيّ جانب مظلم؟».

«هي ملاحظة مجنونة قالها ليون. كان يجب أن تسمع هذا ـ وليس الأشياء التي سمعتها».

«لم أعمَد إلى التنصُّت ـ كنتُ أحاول أن أبتعد عن هذا الصندوق اللعين لأنضمَّ إليكم. شعرتُ بالوحشة، ثمَّ إن عقاقيرك لم تعدْ تعطي مفعولها. كنت قد وصلتُ حتى الباب تقريباً حين سمعت الكاهن يقول إنك غيور. وقلت في نفسي، غيور ممَّ؟ ثم سمعت كل شيء وعدتُ الى الصندوق».

كان الدكتور بلار قد اضطرَّ في أحد الأيام، في قرية نائية، إلى إجراء عمليةٍ جراحيةٍ طارئة لم يكن مؤهلاً للقيام بها. كان حراً في أن يُغامرَ بإجرائها

أو أن يترك المرأة تموت. بعد ذلك شعر بالتعب نفسه الذي شعر به الآن، وعلى أية حال فإنَّ المرأة ماتت. وجلس على الأرض من فرط الإرهاق. وفكَّر: لقد قلتُ كل مالديّ. ماذا يسعني أن أقول أكثر من ذلك؟

قال فورتنوم: «تصوَّر أنني كنت سأكتب رسالة إلى كلارا أقول لها فيها إنَّك ستعتني بها وبالطفل».

«أعرف».

«وكيفَ لكَ أن تعرف بحق الجحيم؟».

«لستَ الوحيد الذي يسترقُ السمع. المهرِّج يتدخَّلُ مرة أخرى. لقد سمعتُكَ تُملي على ليون. وهذا أغضبني».

«أنتَ غاضب؟ لماذا؟».

«أعتقد أن ليون كان على حق ـ أنا غيور فعلاً».

«غيور مم؟».

«إنَّ هذا سيكون انعطافاً هزلياً آخر، أليس كذلك؟».

مرة أخرى سمع صوت تشارلي فورتنوم يشرب. قال الدكتور بلار: «حتى أحد مقاديرك المناسبة لن يدوم الى الأبد».

«الأبد ليس في يدي. لماذا لاأستطيع أن أكرهك يابلار؟ أبسبب الويسكي؟ أنا لم أسكر بعد».

«لعلَّكَ سكرت. قليلاً».

«إنه لأمر فظيع يابلار. ولكن لاأحدَ غيرك يمكنني أن أتركهما معه. لاأستطيع الوثوق من همفريز ...».

«سأعطيكَ جرعةً من المورفين إذا كنت ترغب بالنوم».

«أفضِّل أن أبقى يقظاً. لديَّ أشياء جحيمية كثيرة أفكر فيها ولايوجد مايكفي من الوقت. أريد أن تتركني وحدي يابلار. وحدي. يجب أن أعتاد على هذا، ألا تظن ...؟».

الفصل الرابع

بدا للدكتور بلار أنهم جميعاً تُركوا وشأنهم تماماً. لقد تخلى عنهم أعداؤهم: فمكبِّر الصوت صمت، والمطر توقف، وعلى الرغم من تدفق أفكاره نام الدكتور بلار، وإنْ بشكل متقطّع. وحين فتح عينيه للمرة الأولى كان صوت الأب ريفاس مَنْ أوقظه. كان الكاهن راكعاً يتحدث إلى الرجل الميت أو الذي يوشك أن يموت في الخارج. تُرى أهي كلمات لراحة النفس، أو صلاة، أم صيغة للغفران المشروط؟ تقلّب الدكتور بلار إلى الجنب الآخر وعاد ينام. عندما استيقظ للمرة الثانية كان تشارلي فورتنوم يشخر في الغرفة الأخرى ـ شخيراً صادراً عن حنجرة جافة صارّة بسبب الويسكي. لعلّه كان يحلمُ بشعورِ الأمان وهو في سريره في منزله بعد أن يُنهي شرب الزجاجة عند طاولة المشارب. هل كانت كلارا تصبر عليه حين يشخر هكذا؟ وحين كانت تضطر للاستلقاء جانبه وهي يقظة بماذا كانت تفكر؟ أكانت تندم على صومعتها عند الأم سانشيز؟ هناك، مع إنبلاج الفجر، كان في إمكانها أن تنام وحدها بسلام. أكانت تندمُ على بساطة حياتها هناك؟ لم يحظَ بجواب. لم يعد في وسعِهِ أن يتخيَّل أفكارَها أكثر مما يستطيع أن يتخيَّل أفكار حيوان غريب.

فَقَدَ الضوء المنبعث من العدسات والمتسرب من تحت الباب بريقه. لقد بدأ اليوم الأخير. وتذكَّر مناسبة قبل سنين عديدة حينَ جلس مع أمِّهَ يشاهدان عَرضاً للـ Son - et- lumiere (١) في مكان خارج بوينس ايريس. كانت الأضواء الكاشفة تروح وتجيء كطباشير الأستاذ، تُسلَّط على شجرة كان قد

---

(١) عَرْض الصوت والضوء: كالذي يقام عند أعتاب تمثال أبي الهول في مصر، حيث تلقى على الجمهور أحداث بارزة من تاريخ الأمة القديم والحديث باستخدام الأضواء الكاشفة. المترجم.

جلس تحتها شخص - أكان سان مارتين؟ - وعلى طاولة ربَطَتْ عندها شخصية تاريخية حصانها، وعلى نافذة غرفة وقّعتْ عندها معاهدة أو دستور - لم يعد يذكر -. وكان ثمة صوت يشرح القصة بلغة نثرية فيها لمسة إجلال للماضي الذي لايمكن استعادته. لقد كان تعباً من دراساته الطبية واستغرق في النوم. عندما أفاق في المرة الثالثة رأى مارتا مشغولة في إعداد المائدة، بينما ضوء النهار يتسلّل من خلال شقوق النافذة والباب. كانت هناك شمعتان غير مضائتين على المائدة مثبّتتان في صحفتين. قالت مارتا: «إنهما كل ماتبقى لنا منها ياأبت».

كان الأب ريفاس مايزال نائماً، مُلتفّاً على نفسه كالجنين.

كرّرت مارتا: «أبت».

بينما كانت تتكلم أخذ الآخرون، واحداً إثر آخر، يستفيقون على النهار الجديد، ليون وبابلو وأكوينو.

«كَمْ الساعة؟».

«ماذا؟».

«ماذا قلت؟».

«لايوجد مايكفي من الشموع ياأبت».

«الشموع لاتهمّ يامارتا، أنت تثيرينَ الكثير من الضجيج».

«قميصك مايزال رطباً. سوف تموت من البرد».

قال الأب ريفاس: «أشكُّ في هذا».

دمدمتْ متذمّرة من خيبات أملها وهي تضع على المائدة على التوالي زجاجة دواء ملآى بالخمر، ويقطينة من الماتي كان يجب أن تستخدم بدل كأس القربان، وقماشة يوضع عليها الصحن كفوطة. واشتكت قائلة: «ليس هكذا أردته أن يكون، ليس هكذا حلمْتُ به» ووضعتْ نسخةَ جيب من الكتاب المقدس فَقَدَ غلافه مفتوحاً على المائدة. وسألت، وهي تتحسس الأوراق: «أيُّ أحد هو هذا ياأبت؟ أهو الأحد الخامس والعشرون بعد عيد العنصرة أم السادس والعشرون؟ أم أيكون الأحد السابق للميلاد ياأبت؟».

قال الأب ريفاس: «ليست لديّ فكرة».

«إذن كيف أعثر لكَ على المزمور الصحيح والرسالة الإنجيلية الصحيحة؟».

قال: «سأقرأ ماتيسّر. مما يتوفر».

قال بابلو: «سيكون أمراً جميلاً أن نُطلقَ سراح فورتنوم الآن. لابد أنها تقترب من السادسة، وفي غضون ساعتين ...».

قال أكوينو: «لا، لقد صوتّنا على الإنتظار».

قال بابلو، مشيراً إلى الدكتور بلار: «هو لم يُدلِ بصوته».

«لايحقُّ له أن يصوّتْ. إنه ليس منّا».

«إنه سيموت معنا».

تناول الأب ريفاس قميصه المبلل من مارتا. وقال: «لم يعد لدينا وقت للجدال الآن. سأقيم القداس. ساعدوا السينيور فورتنوم للإنضمام إلينا إذا أراد أن يسمع. سأقيم قداساً على روحَيْ دييغو وميغيل، ولنا جميعاً نحن الذين ربّما سنموت اليوم».

قال أكوينو: «ليس لي».

«لاتستطيعُ أن تُملي عليّ مَنْ سأصلي لأجله. أعرف جيداً أنّك لاتؤمن بشيء. حسن. آمن بلا شيء. ابقَ في الزاوية هناك وآمن بلا شيء. مَنْ يهتمُّ إنْ آمنتَ أم لم تؤمن؟ حتى ماركس لايستطيع أن يضمن ماهو صحيح أو زائف أكثر مما أستطيع أنا».

«أكره أن أرى الوقت يُهْدَر. لم يعد لدينا منه الكثير».

«ماذا تفضّل أن تفعل بوقتك؟».

ضحك أكوينو: «آه، طبعاً، كنتُ سأضيّعه مثلك» (عندما يصبح الموت على طرف اللسان، يتكلم الرجل الحي). لوكانت ماتزال بي رغبة في الكتابة لأعدتُ كتابة هذا البيت من الشعر بشكل أوضح قليلاً ـ أنا نفسي بالكاد بدأت أفهمه».

سأل الزنجي: «هل تتقبّل اعترافي ياأبت؟».

«طبعاً. إمنحني لحظة. إذا أتيت إلى الفناء. وأنت يامارتا؟».

«كيف يمكنني أنا أن أعترف ياأبت؟».

«ولِمَ لا؟ أنتِ قريبةٌ من الموت لتَعَدِي بأي شيء. حتى بتركي».

«إنني لن ...».

«المظليون سيهتمّون بذلك».

«وأنتَ، ياأبت؟».

«آه، يجب أن أنتهزَ فرصتي. ليس الكثير من الناس محظوظين الى حد أن يموتوا بين يديّ كاهن. يُسعدني أن أكون واحداً في الأغلبية. لقد ظللتُ زمناً طويلاً واحداً من المميَّزين».

***

تركهم الدكتور بلار وولجَ الغرفة الداخلية. قال: «سيقيمُ ليون قداساً. أتريد أن تحضره؟».

«كم الساعة؟».

«لاأدري. تجاوزَتْ السادسة بقليل، في حسباني. لقد أشرقت الشمس».

«ماذا سيفعلون الآن؟».

«أعطاهم بيريز مُهلة حتى الثامنة ليُطلقوا سراحك».

«ألن يفعلوا؟».

«لاأعتقد».

«إذن سيقتلونني وبيريز سيقتلهم. إنَّك تحظى بأفضل الفرص، أليس كذلك؟».

«ربما. وهي ليست فرصة كبيرة».

«رسالتي إلى كلارا ... ... من الأفضل أن تحتفظ لي بها على أية حال».

«إذا شئت».

تناول تشارلي فورتنوم حزمة من الأوراق من جيبه «أغلب هذه الأوراق فواتير. غير مسدَّدة. كل التجار يغشّون ماعدا غروبر. أين وضعتها بحق الجحيم؟» وأخيراً عثر على الرسالة في جيب آخر. قال: «لا. لم يعد هناك كبير أهمية لإرسالها إليها الآن. لماذا تأبه لسماع الكثير من كلمات الحب مني إذا كانت تحصل عليها؟» ومزّق الرسالة قطعاً. قال، باحثاً في محفظة جيبه: «على أية حال لاأريد للبوليس أن يقرأها. وهناك صورة أيضاً. هي الصورة الوحيدة لديّ لفخر فورتنوم، لكنها هي أيضاً تظهر فيها» وألقى عليها نظرة سريعة ومزقها أيضاً إلى قطع صغيرة.

«عدني أنك لن تخبرها بأني عرفتُ بأمركما. لاأريد أن أجعلها تحسُّ بأي شعور بالذنب. إنْ كانت قادرةً على ذلك».

قال الدكتور بلار: «أعدك».

قال تشارلي فورتنوم: «هذه الفواتير ـ الأفضل أن تسدِّدها» وسلَّمها للدكتور بلار «لعلَّ هناك مايكفي في حسابي الجاري لسدادها. إذا لم يوجد ـ فإنّ الأوغاد استغلوني تماماً. سأنظِّف متن السفينة منهم»، ثم أضاف: «لكني لاأريد للطاقم أن يعاني».

«سيكون الأب ريفاس قد باشر القداس الآن. إذا أردتَ أن تسمعه سأعينك على الذهاب إلى هناك».

«لا. إنني لم أكن قط مايمكنكَ أن تسميه بالرجل المتديِّن. أظنني سأبقى هنا مع الويسكي»، وقدَّر بعناية ماتبقى في الزجاجة «ربما لو شربتُ جرعة صغيرة الآن ـ فسيتبقّى معيار حقيقي في آخر الأمر. أكبر من معيار ربان سفينة».

في الغرفة الأخرى كان ثمة صوت منخفض يتكلم. قال تشارلي فورتنوم: «أعرف أنَّ الناس من المفروض أن يشعروا بشيء من الإرتياح في النهاية ـ بإيمانهم بكل هذا. أتؤمن بأي شيء مهما كان؟».

«لا».

الآن وبعد أن خرجت الحقيقة الشخصية وسادت بينهما شعر الدكتور بلار بحاجة ملحّة إلى التكلّم بدقة تامة. فأضاف: «لا أظن ذلك».

«ولا أنا ـ إلا أني ... إنه لشعور سخيف لعين ينتابني، ولكن عندما أكون مع ذاك الشخص الذي في الخارج، أقصد الكاهن ... ذاك الذي سيقوم بقتلي ... أشعر ... أتدري أنّي في لحظة ما يخطر لي أنه ينوي أن يعترف لي. لي، أنا تشارلي فورتنوم؟ أتصدق هذا؟ تصوّر بحق الله أني سأمنحه الغفران. متى سيقتلونني يابلار؟».

«لاأدري في أي وقت. ليست معي ساعة. أعتقدُ في وقت ما قُرابة الثامنة عندئذ سيرسل بيريز المظليين. أمّا ماسيحدث بعد ذلك، فعلمُهُ عند اللـه».

«الله مرة أخرىَ! ألا تستطيع أن تفلت من هذه الكلمة اللعينة؟ أعتقد أني سأذهب وأستمع قليلاً مهما يكن. لاضرر في ذلك. سيسعده ذلك. أقصد الكاهن. ثم ليس ثمة شيء آخر أفعله. ليتكَ تساعدني».

وضع ذراعه على كتف الدكتور بلار. والعجب أنّ وزنه بالنسبة إلى جثته كان خفيفاً ـ كأنه جسمٌ لايملؤه إلا الهواء. وقال الدكتور بلار في نفسه، إنه عجوز، وفي كل الأحوال ماكان ليعيش طويلاً، وتذكّر الليلة التي قابله أثناءها لأول مرة، عندما جرّه مع همفريز وهو يحتجّ وعبرا به الشارع الى البوليفار. عندئذ كان أثقل وزناً بكثير. مشيا فقط خطوتين نحو الباب ثم توقف تشارلي فورتنوم جامداً في مكانه، وقال: «لاأستطيع المشي، ولماذا أفعل على أية حال؟ ليست بي رغبة في انتزاع الفضل في اللحظة الأخيرة. أعدْني إلى الويسكي. هذا هو سري المقدس».

***

عاد الدكتور بلار إلى الغرفة الأخرى. واتّخذَ لنفسه موقفاً بالقرب من أكوينو الذي جلس على الأرض، يراقب حركات الكاهن ويبدو مرتاباً، وكأنه يخشى أنّ الأب ريفاس إنما ينصبُ فخاً ما، أو يخطّط لخيانة، بتحركه

جيئة وذهاباً مِنْ وإلى المائدة ويقوم بالإشارات السرية بيديه. وتذكَّر الدكتور بلار أنَّ كل قصائد أكوينو كانت تدور حول الموت. والآن لن يعمل أحد على سرقته منه.

كان الأب ريفاس يقرأ المزمور. قرأه باللاتينية وليس بالأسبانية، وكان الدكتور بلار قد نسيَ منذ زمن طويل القليل من اللاتينية التي كان يعرفها ذات يوم. ظلَّ يراقب أكوينو بينما كان الصوت يُتابع بإيقاعٍ سريع باللغة البائدة. لعلهم ظنوا أنه يصلي وعيناه منخفضتان وقد دار شيءٌ يشبه الصلاة فعلاً في عقله ـ أو على الأقل رغبة، مثقلة بعدم الثقة في النفس، بحيث إذا حانت اللحظة الحاسمة ستتوفر لديه البراعة والتصميم فيتصرف بسرعة. وتساءل ماذا كنتُ فعلتُ لو أني كنتُ معهم في الطرف الآخر للحدود حين نادى والدي طالباً النجدة في فناء مركز البوليس؟ هل كنت سأعود إليه أو سأهرب كما فعلوا؟.

وصل الأب ريفاس إلى المقطع الذي يلي صلاة التَقْدُمة من القداس وتقديس الخبز. كانت مارتا تراقب بَعْلَها وعلى سيمائها علائم الفخر. رفع الكاهن يقطينة الماتي وتفوَّه بالعبارات الوحيدة من القداس التي، ولسببٍ ما، لم ينسها الدكتور بلار قط. «كلّما أديتم هذه الأشياء فستؤدونها لتسبِّحوا بإسمي». كَمْ من عملٍ قام به في حياته تسبيحاً بإسم شيءٍ منسيّ أو يكاد؟.

أخفض الكاهن اليقطينة. ثم ركعَ ونهض بسرعة. بدا وكأنه يعمل على التعجيل بإنهاء القداس بفارغ الصبر. كان أشبه براعٍ يقود قطيعه إلى الزريبة قبل هبوب العاصفة، لكنه تأخر كثيراً. وهَدَرَ مكبِر الصوت مذيعاً الرسالة بصوت الكولونيل بيريز. «بقي لديكم بالضبط ساعة واحدة لترسلوا لنا القنصل إلى الخارج ولتنقذوا حياتكم». ورأى الدكتور بلار يدَ أكوينو اليسرى تشدُّ على بندقيته. وتابع الصوت: «أكرِّر: لم يعد أمامكم إلا ساعة واحدة. إبعثوا لنا بالقنصل إلى الخارج وانقذوا حياتكم».

«... الذي يخلِّص العالم من الآثام، ويمنحه الراحة الأبدية».

وبدأ الأب ريفاس يرتّل: «Domine, non sum dignus»[1]. وكان صوت مارتا هو الوحيد الذي انضمّ لصوته. نظر الدكتور بلار حوله باحثاً عن بابلو. كان الزنجي راكعاً ورأسه محنيّ بمحاذاة الجدار الخلفي. وتساءل أيمكنه، قبل أن ينتهي القداس، وبينما هم ملتهون بالطقوس، أن يقبض على بندقية أكوينو ويحتجزهم مدة كافية لإتاحة الفرصة لتشارلي فورتنوم أن يهرب؟ وقال في نفسه، سأنقذ حياتهم جميعاً، وليس فقط حياة تشارلي. وعاد ينظر إلى أكوينو، فهزّ له أكوينو رأسه وكأنما علم بما يدور في ذهنه.

تناول الأب ريفاس قماشة المطبخ وبدأ ينظف اليقطينة، بدقة متناهية وكأنه موجود هناك في الكنيسة الأبرشية في أسونسيون.

«ete missa est»[2].

أجاب الصوت الصادر عن المكبر وكأنما بجوابٍ طقوسي: «بقي لديكم خمسون دقيقة».

قال بابلو: «أبتِ، لقد انتهى القداس. من الأفضل أن نستسلم الآن أو دعنا نجري تصويتاً آخرَ».

قال أكوينو: «صوتي هو كما هو».

قالت مارتا: «أنتَ كاهنٌ ياأبتِ، لايمكنكَ أن تقتل».

مدَّ لها الأب ريفاس يده بمنشفةِ الصحون وقال: «اذهبي إلى الفناء واحرقي هذه. لن أحتاجها ثانية».

«سترتكبُ إثماً مميتاً إذا قَتلتَه الآن ياأبتِ، بعد أن أقمتَ القداس».

«إنه إثمٌ مميت بالنسبةِ إلى أيّ إنسانٍ في أي زمان. وأفضل مايمكنني أن أفعله هو أن أسأل رحمة الله كما يفعل أي إنسان».

سأله الدكتور بلار: «أهذا ماكنتَ تفعله هناك فوق المذبح؟». وشعر بإرهاقٍ من كثرة الجدالِ ومن بطء الوقت القصير الذي كان يجرّهم.

---

(١) «يارب، يامَنْ لامعبود سواك».

(٢) «انتهى القداس».

«كنتُ أصلي لكي لاأضطر إلى قتله».

قال الدكتور بلار: كنتَ تبعث برسالة إذن ـ حسبتكَ لاتؤمن بأي جواب على رسائل كهذه».

لعلني كنتُ أعمل في حدوث مصادفة».

وأعلن مكبِّر الصوت: «بقي لديكم خمسٌ وأربعون دقيقة».

اشتكى بابلو قائلاً: «ليتهم يدعوننا وشأننا ...».

قال أكوينو: «يريدون تحطيم أعصابنا».

وعلى عجلٍ تركهم الأب ريفاس، حاملاً معه مسدسه.

كان تشارلي فورتنوم مستلقياً على التابوت. وكانت عيناه مفتوحتين تحدقان في السقف الطيني. سأله: «هل أتيتَ لتصفّيني ياأبت؟».

كان يبدو على الأب ريفاس الخجل وربما العار. تحرك بضع خطوات داخل الغرفة. قال: «لا. لا. ليس هذا. ليس الآن. ظننتُ أنَّكَ ربما تحتاجُ إلى شيء».

«مايزال لديَّ بقيةٌ من الويسكي».

«لقد سمعتُ ماقالوهُ في المكبر. قريباً سيأتون ليأخذوكَ».

«وعندئذٍ ستقتلني؟».

«هذه أوامر صادرة إليَّ، سينيور فورتنوم».

«حسبتُ أن الكاهن يتلقى أوامره من الكنيسة ياأبت. آه، نسيتْ. أنت لم تعدْ تنتمي، أليس كذلك؟ ورغم ذلك كلّه كنتَ تلقي قداساً. هذا لايعني أني كاثوليكي، لكنّي لم أشعر برغبةٍ في حضوره. ليس هذا بالضبط إجازةٌ من الإلتزام. ليس بالنسبة إليَّ».

قال الأب ريفاس بلهجة رسمية خرقاء، وكأنه يخاطب أبرشي بورجوازي: «لقد تذكّرتُكَ وأنا عند المذبح، سينيور فورتنوم». صيغت العبارة بلغة أصبحت صدئة خلال السنوات الأخيرة.

«ليتكَ نسيتني ياأبتِ».

قال الأب ريفاس: «لن يُسمحَ لي بذلك أبداً».

لاحظ تشارلي فورتنوم مندهشاً أن الرجلَ يكاد يذرف الدمع. قال: «ماالأمر، ياأبتِ؟».

«لم أكن أعتقد أن الوضع سينتهي إلى هذا. أتعلم ـ لو كان السفير الأميركي في قبضتنا ـ لأذعنوا، ولكنتَ أنقذتَ حياةَ عشرة رجال. لم يخطر ببالي أنني سأضطرُ إلى سلبِ حياة».

«لماذا اختاروكَ أنتَ قائداً؟».

«ظنَّ إل تيغره أنه يستطيع أن يثق بي».

«حسنٌ، إنه يستطيع، ألا يستطيع ؟».

«لاأعرف الآن. لاأعرف».

وسألَ تشارلي نفسه، هل يضطرّ الرجل المحكوم دائماً إلى تهدئةِ خاطر جلاده؟ وقال: «هل في إمكاني أن أفعل أي شيء لأجلكَ ياأبتِ؟».

نظر إليه الرجل بتعبيرٍ من الأمل، ككلبٍ يظن أنه سمع كلمة «نزهة»، واقترب بنشاط خطوة. وتذكر تشارلي فورتنوم تلميذ المدرسة ذا الأذنين الناتئتين الذي كان ميسون يتنمَّر عليه. قال: «أنا آسف ...». آسف على ماذا؟ ألأنه فَشِلَ في أن يكون السفيرَ الأميركي؟.

قال الرجل: «أعرف مدى صعوبة الأمر عليك. وأنت مستلقٍ هناك. تنتظر. ربّما لو تهيِّىء نفسك قليلاً ... قد يشغل هذا ذهنك ...».

«تقصد أن أعترف؟».

شرحَ له: «نعم، في الحالةِ الطارئة ... حتى أنا ...».

«لكني لستُ تائباً جيداً ياأبتِ. لم أعترف منذ ثلاثين عاماً. ليس منذ زواجي الأول على أية حال ـ الذيَ لم يكن زواجاً. من الأفضل أن تتوجه إلى الآخرين».

«لقد فعلتُ كل مافي إمكاني لأجلهم».

«بعدَ مرور كل هذا الوقت ... مستحيل ... ليس لديّ إيمان كاف. يُخجلني أن أفوه بكل تلك الكلمات الورعة ياأبتِ، حتى وإن تذكَّرتُها».

«ماكنتَ شعرتَ بالخجل الآن لو كنتَ بلا إيمان. ولستَ مضطراً لتقولها لي بصوتٍ عال، سينيور فورتنوم، فقط كُنْ في وضعِ الندم العميق. بصمت. أمام نفسك. هذا كاف. ليس لدينا إلا القليل من الوقت. فقط إحساس عميق بالندم». تُوَسَّل إليه وكأنه يطلب منه ثمن وجبة.

«ولكني قلتُ لك، لقد نسيت الكلمات».

تقدَّم الرجل خطوتين، وكأنه يستجمع قليلاً من الشجاعة أو الأمل. لعلَّه كان يأمل في أن يُمْنَح قدراً كافياً من النقود لشراءِ قطعة خبز.

«فقط قُل إنَّك نادمٌ وحاول أنْ تَصْدُقَ فيه».

«آه، إنني نادم على أشياءٍ كثيرة ياأبتِ. ليس الويسكي أحدها»، ورفع الزجاجة متفحصاً ماتبقّى ووضَعها ثانية «إنها حياة صعبة. لابدَّ للإنسان فيها أن يلجأ الى مخدرٍ ما».

«إنسَ الويسكي. لابدَّ أن هناك أشياء أخرى. أنا فقط أسألكَ أن تقول ـ أنا نادم لأنّي خالفتُ قانوناً».

«لاأذكر حتى القوانين التي خرقتُها. هناك الكثير جداً من القوانين اللعينة».

«أنا أيضاً خَرقت القوانين، سينيور فورتنوم. لكني لستُ نادماً لأني تزوجت مارتا، لستُ نادماً لأني هنا مع هؤلاء الرجال. وهذا المسدس ـ لايمكن للمرء دائماً أن يُمسك بمبخره يؤرجحها الى أعلى وأسفل أو يرش ماءً مقدساً. ولكن لو كان يوجد كاهن آخر هنا لقلتُ له، نعم أنا نادم فعلاً. نادم لأني لم أعش في عصر تبدو فيه قوانين الكنيسة أسهل على الإلتزام بها كثيراً ـ أو في آخرَ مستقبلي قد تتغير فيه أو لاتبدو شديدة القسوة. ثمةَ أمر واحد يمكنني قوله بسهولة. ربما أنت أيضاً تستطيع أن تقوله. أنا نادم لأني لم أكن أشدُّ صبراً. إنَّ فاشلين أمثالنا هم في الغالب فاشلون في

التمسك بالأمل. أرجوك ـ ألا تستطيع أن تقول إنَّك نادم لأنَّك لم تكن أشد تمسكاً بالأمل؟».

كان واضحاً أن الرجل يحتاجُ إلى المواساة وقد منحه تشارلي فورتنوم كل ماأمكنه: «نعم، أعتقد أني أستطيع أن أبلغ ذاك الحد ياأبتِ».

أبت. أبتِ. أبتِ. تكرَّرت الكلمة في عقله. لقد رأى في رؤيا أن والده جالس في حيرةٍ، بالقرب من طاولة المشارب، لايفهمه، ولايلاحظ وجوده، وهو متمدد على الأرض والحصان واقف فوقه. قال في نفسه، ابن حرام مسكين.

أنهى الأب ريفاس تلاوة كلمات الغفران. قال: «أعتقد أني سأتناول كأساً معك الآن ـ جرعة صغيرة».

قال تشارلي فورتنوم: «شكراً لكَ ياأبتِ. إنني أوفر حظاً منك. فليس هناك مَنْ يمنحك أنتَ الغفران».

***

قال أكوينو: «لم أكن أرى والدك إلا لبضع دقائق مرة في اليوم، عندما كان يتمشى في الفناء. أحياناً...» توقف فجأة لينصت لمكبِّر الصوت الكامن بين الأشجار في الخارج. قال الصوت: «لم يتبقَّ لكم غير خمس عشرة دقيقة».

علّقَ الدكتور بلار: «لقد مضت الربع ساعة الأخيرة بسرعة كبيرة نوعاً ما بالنسبة إليّ».

«هل يبدأون الآن بعدّ الدقائق؟ ليتهم يَدعوننّا لنموت في هدوء».

«إحكِ لي المزيد عن والدي».

«كان عجوزاً رائعاً».

سأله الدكتور بلار: «خلال الدقائق الأخيرة التي كنتَ تراه خلالها، عمَّ كنتما تتحدثان؟».

لم يكن يتوفر لنا الوقت لنتحدث كثيراً حول أي شيء. كان هناك دائماً حارس. كان يمشي بجانبنا. كان يحيّيني ـ بشكلٍ رسمي جداً وبحبٍ كأبٍ يحيّي ابنه ـ وأنا ـ حسن، كنتُ أكنُّ له احتراماً جماً، أنت تفهم. كانَ هناك دائماً فترة من الصمت ـ أنت تعرف كيف يكون الأمر وأنت مع Coballero مثل ذاك. كنت أنتظره ليبادرني الكلام. ثم كان الحارس يصرخ بنا ويفرّقنا».

«هل عذبوه؟».

«لا. ليس كما فعلوا بي. ماكان رجال المخابرات الأميركية ليوافقوا. لقد كان أنغلو ساكسوني. وفي كل الأحوال إن البقاء خمس عشرة سنة في مركز البوليس هو عذاب طويل الأمد. من الأسهل فقدان بضعة أسابيع».

«كيف كان شكله؟».

«رجل عجوز. ماذا يمكنني أن أزيد؟.. يجب أن تعرف أكثر مني كيف كان شكله».

«لم يكن عجوزاً في آخر مرة رأيته. ليت كان معي حتى ولو صورة من البوليس وهو ملقى ميتاً. أنت تعرف تلك الصور التي يلتقطونها من أجل السجلات».

«لن يكون منظراً ساراً».

«كانت ستسدُّ نقصاً. ربما ماكنا تعارفنا لو كان قد هرب. ليته كان هناك معك الآن».

«كان شعره ناصع البياض».

«لم يكن حين عرفته».

«وكان شديد انحناء الظهر. كان يعاني الكثير من الروماتيزم في ساقه اليمنى. يمكنك القول أن الروماتيزم هو الذي قتله».

«أنا أتذكره إنساناً مختلفاً تماماً. شخص طويل ونحيل ومستقيم العود. مشى مسرعاً وهو يبتعد عن رصيف الميناء في أسونسيون. والتفت مرة واحدة ليلوّح بيده».

«غريب. لقد بدا لي رجلاً قصيراً سميناً يعرج».

«أنا سعيد لأنهم لم يعذبوه ـ كما فعلوا بك».

«بوجود الحراس دائماً في كل مكان لم تتح لي قط فرصة مناسبة لأنذره بشأن خطتنا. وحين حانت اللحظة ـ لم يكن حتى يعرف أننا قد رشونا الحارس ـ وصرختُ فيه «إركض» فنظر حوله مبلبلاً. وتردد. ذاك التردد بالإضافة إلى الروماتيزم...».

«أنت قمت بأفضل مايمكنك ياأكوينو. لم تكن غلطة أحد».

قال أكوينو: «مرة ألقيتُ على مسمعه قصيدة، لكني ماأظن أنه كان يأبه كثيراً بالشِعر. مع ذلك كانت قصيدة جيدة. عن الموت طبعاً، تبدأ: «للموت طعم الملح». أتدري ماذا قال لي ذات مرة؟ وكأنما كان غاضباً ـ لاأعرف ممّن ـ قال:«إنني لست تعيساً هنا، إنني ضجر. ضجر. ليت الله يمنحني ولو قليلاً من الألم». كان قولاً غريباً».

قال الدكتور بلار: «أظنني أفهم».

«في النهاية، لابد أنه نال ألمه».

«نعم. كان محظوظاً في النهاية.

قال أكوينو: «من جانبي أنا لم أعرف الضجر قط. الألم نعم. الخوف. أنا خائف الآن. ولكن ليس الضجر».

قال الدكتور بلار: لعلّكَ لم تصل الى نهاية نفسك. يكون هذا أمراً حسناً حين يحدث لك وأنتَ عجوز، مثلما كان والدي». وفكّر بأمه وهي بين ببغاوات البورسلين في بوينس ايريس أو وهي تأكل الحلوى الإصبعية في شارع فلوريدا، وبمارغاريتا وهي غاطّة في النوم في الغرفة التي تكتنفها

الظلال بعناية بينما يستلقي هو بكامل يقظته يراقب وجهها غير الجميل، وبكلارا، وبالطفل، وبالمستقبل الطويل المستحيل على ضفاف البارانا. بدا له أنه قد وصل منذ الآن إلى عمر والده، وأنه قد أمضى في السجن قدر ماأمضى والده، وأنّ والده هو الذي هرب.

قال مكبّر الصوت: «بقي لديكم عشر دقائق. أخرِجوا القنصل في الحال ومن ثم ليخرج كلٌّ بدوره وأيديكم مرفوعة ... ».

عندما عاد الأب ريفاس إلى الغرفة كان مايزال يُصدرُ تعليمات دقيقة.

قال أكوينو: «انتهى الوقت تقريباً. الأفضل أن تتركوني أَقتله الآن. إنه ليس عملاً يليق بكاهن».

«لعلّهم مايزالون يخدعوننا».

«حتى يحين وقت تأكدنا يكون الوقت قد فات. هؤلاء المظليّون مدرَّبون جيداً على يد الأميركيين في بناما. إنهم يتحركون بسرعة».

قال الدكتور بلار: «سأخرج لأكلّم بيريز».

«لا، لا، ياإدواردو. سيكون هذا انتحاراً. لقد سمعت ماقاله بيريز. إنه حتى لن يحترم علماً أبيض. ألا توافقني ياأكوينو؟».

قال بابلو: «لقد هزِمنا. دَعْ القنصل يذهب».

قال أكوينو: «إذا عبَرَ ذاك الرجل الغرفة سأرديه قتيلاً ـ وكل من يساعده ـ حتى أنت ياپابلو».

قالت مارتا: «إذن فسيقتلوننا جميعاً. إذا مات فسنموت كلنا».

«على أي حال ستكون مناسبة لاتُنسى».

قال الدكتور بلار: machismo ، يالرجولتك اللعينة الحمقاء. يجب أن أفعل شيئاً لذاك الشيطان المسكين الذي هناك ياليون. إذا كلّمتُ بيريز ... »

«ماذا في وسعك أن تعرض عليه؟».

«إذا وافق على أن يمدِّد فترته المحدَّدة، هل تمدِّد أنت فترتك؟».

«وما الفائدة المرجوّة؟».

«إنه القنصل البريطاني. والحكومة البريطانية ... ».

«هو مجرد قنصل فخري ياإدواردو. لقد شرحت أكثر من مرة ماذا يعني هـذا»

«هل توافق بيريز إذا ... ».

«نعم، أوافق، لكنّي أشك في أن بيريز ... قد لايمنحك حتى وقتاً للكلام».

«أظنه سيفعل. لقد كنّا صديقين حميمين».

استعاد الدكتور بلار ذكرى وقعت في القسم الخلفي للنهر، تذكر الصقيع الشامل العظيم، وبيريز وهو يتنقل بلا تردد من جذعٍ غارقٍ إلى آخر نحو المجموعة الصغيرة حيث كان القاتل في انتظاره. وقال بيريز: «كلُّهم من أهل بـلدي».

«بيريز ليس سيئاً كما يقول عنه رجال البوليس».

«أنا خائف عليكَ ياإدواردو».

قال أكوينو: «الدكتور يعاني من الـ machismo بدوره. هيا ... أخرج إليهم وتحدَّث ... ولكن خذ معك بندقية ... ».

«ليس الـ machismo ماأعاني منه. أنت قلت الحق ياليون. أنا غيور فعلاً. غيور من تشارلي فورتنوم».

قال أكوينو: «إذا غَارَ الرجل قُتلَ غريمُهُ ـ أو قُتِلَ على يده. الغيرة شيءٌ بسيط».

«غيرتي ليست من هذا النوع».

«وما النوع الآخر للغيرة؟ أنت تضاجع زوجة رجل ... وعندما يفعل الشيء نفسه ... ».

«إنه يُحبها ... هذه هي المشكلة».

أعلن مكبِّر الصوت: «بقي أمامكم خمس دقائق».

«أنا أغار لأنه يحبها. هذه الكلمة الحمقاء المبتذلة الحب. إنها لاتعني لي أي شيء على الإطلاق. مثل كلمة الله. أنا أعرف كيف أنكحُ - ولاأعرف كيف أحب. المسكين السكّير تشارلي فورتنوم يفوز بالمباراة».

قال أكوينو: «إن المرء لايتخلى عن خليلةٍ بهذه السهولة. فالحصول عليهنّ يكلف الكثير من المشقة».

ضحك الدكتور بلار قائلاً: «تقصد كلارا؟ دفعتُ ثمنها نظارة شمسية». وتابعت الذكريات تواردها. كانت أشبه بعوائق مملّة عليه أن يتجاوزها، كاللعب بالزجاجات والعينان معصوبتان، قبل أن يصل إلى الباب. قال: «طلبتْ مني شيئاً قبل أن أغادر المنزل... ولم أزعج نفسي بالإنصات».

«إبقَ هنا ياإدواردو. لايمكنكَ الوثوق من بيريز...».

***

للوهلة الأولى بعد أن فتحَ الدكتور بلار الباب بَهَرهُ ضوء الشمس، ومن ثم عاد العالم ضمن بؤرة حادة. امتدَّت أمامه عشرون ياردة من الطين. كان ميغيل الهندي مُلقى ككومةٍ من الثياب العتيقة رُميتْ على جنبٍ واحد، منقوعةٍ بماءِ مطر الليل. خلف الجثة بدأت منطقة الأشجار والظل القاتم.

لم يكن هناك أثر لمخلوقٍ حي. لعلَّ البوليس أخلى الأكواخ المجاورة من الناس. وعلى مبعدة حوالي ثلاثين ياردة ومَضَ شيءٌ بين الأشجار. ربما كان رمحاً مسلولاً عكَسَ أشعة الشمس، ولكن حين اقترب قليلاً وألقى نظرة عن قرب رأى أنها كانت قطعة من صحيفة بترول تشكّل جزءاً من كوخٍ مُستتر بين الأشجار. ونبح كلب من مسافةٍ بعيدة.

مشى الدكتور بلار ببطء وتردُّد. لم يتحرك أحد، لم يتكلم أحد. ولم تُطلقْ رصاصة واحدة. رفع يديه فوق صدره بقليل كمشعوذ يريد أن يبيّن أنهما فارغتان. ونادى: «بيريز! كولونيل بيريز! شعر أنه سخيف. بعد كل هذا ولاخطر. لقد بالغوا في تقدير الوضع كله. شعرَ بعدم أمانٍ أشد في

المناسبة التي تبع أثناءها بيريز في الإنتقال من طوف الى طوف. لم يسمع الطلقة التي أصابته من الخلف في خلفية ساقه اليمنى. وقع إلى الأمام على طوله، وكأنما أمسكه أحدهم في لعبة الرغبي، ووجهه لايبعد عن فيء الأشجار غير بضع ياردات. لم يشعر بأي ألم، ومع أنه فقد الوعي لفترة من الوقت، إلا أنه كأنما غفا وهو يقرأ في كتابٍ في يوم حار.

حين فتح عينيه من جديد لم يكد ظلّ الأشجار قد تحرك. شعر بنعاس شديد. أراد أن يزحف إلى الظل ليعود إلى النوم. كانت شمس الصباح هنا عنيفة جداً. وبالكاد كان يعي أنّ ثمة شيئاً عليه أن يناقشه مع شخصٍ ما، لكنه سيستطيعُ أن ينتظر ريثما ينتهي من قيلولته. وفكّر قائلاً، شكراً لله أنا وحدي. كان أتْعَبُ من أن يمارس الحب، وكان النهار شديد الحرارة. لقد نسي أن يسدل الستائر.

سَمِعَ صوت تنفس: أتى من ورائه، ولم يفهم كيف أمكن حدوث ذلك. وهَمسَ صوت «إدواردو». في أول الأمر لم يميِّزه، ولكن بعد ما سمع إسمه يتردد هتف «ليون؟» ولم يفهم ماذا يفعل ليون هناك. حاول أن يستدير، لكنّ تصلباً في ساقه منعه.

قال الصوت: «أظن أنهم أصابوني في معدتي».

تيقّظَ الدكتور بلار بقوة. الأشجار التي أمامه كانت أشجار الحي. وكانت الشمس تسطع على رأسه لأنه لم يتوفر له الوقت ليصل الى الأشجار.

قال الصوت الذي بات يعرف الآن أنه صوت ليون: «سمعتُ الطلقة. كان يجب أن أخرج».

مرة أخرى حاول الدكتور بلار أن يستدير، ولكن لافائدة ــ وتخلّى عن المحاولة.

قال الصوت الذي وراءه: «جُرحكَ خطير؟».

«لاأعتقد. وأنت؟».

قال الصوت: «آه، أنا في أمان الآن».

«أمان؟».

«أمان تام. لم يكن في استطاعتي أن أقتل فأراً».

قال الدكتور بلار: «يجب أن نرسلكَ إلى مستشفى».

قال الصوت: «كنتَ على حق ياإدواردو، أنا لم أُخْلَقْ لأكون قاتلاً».

«أنا أفهم ماحدث؛ يجب أن أتحدث الى بيريز ... وأنت لاعمل لك هنا ياليون. كان يجب أن تنتظر مع الآخرين».

«ظننتُ أنَّك قد تحتاجني».

«لماذا؟ لِمَ؟».

سادَ صمتٌ طويل إلى أن سأل الدكتور بلار بسخفٍ: «أما تزال هنا؟».

أتاه همس من خلفه.

قال الصوت كلمة بدت مثل «أبتِ». لم يكن في موقفها مايدل على أي معنى مهما قلّ.

قال الدكتور بلار: «إبقَ ساكناً، إذا رأوا أياً منّا يتحرك قد يعاودون إطلاق النار. ولاتتكلم.

«أنا آسف ... اعذرني ... ».

همس الدكتور بلار وقد ومضت ذاكرته: «Ego te absovo»[1]. وتعمَّد أن يضحك، ليبيِّن لليون أنه إنما يمزح فقط ـ لقد كانا يمزحان وهما طفلان على الصيغ اللفظية المبهمة التي كان الكهنة يعلمونهم إياها ـ لكنه كان شديد التعب وتحشرج الضحك في حنجرته.

خرج ثلاثة من المظللين من الظل. كانوا في تمويههم كأشجار تمشي. كانوا يحملون بنادقهم الآلية في وضع الإستعداد. تقدم إثنان منهم نحو الكوخ. وتقدم الثالث من الدكتور بلار، الذي كان مختبئاً، حابساً أنفاسه قدر استطاعته.

---

(١) «إنني أحرّرك».

الفصل الخامس

كان في المقبرة عدد غفير من الناس لم يكن تشارلي فورتنوم يعرفهم من قبل. وثمة امرأة ترتدي ثوباً أسود طويلاً عتيق الطراز افترض أنها والدة بلار. كانت تتمسك بشدة بذراع كاهن نحيل كانت عيناه الغامقتان تنظران هنا وهناك، يميناً ويساراً وكأنه يخشى أن يفتقد عضواً هاماً من رعيته. وسمعها تشارلي فورتنوم تعرِّف به مرات عديدة ـ «هذا صديقي الأب غالفاو من ريو»، وكانت سيدتان تمسحان عيونهما باستمرار تقفان بالقرب من القبر. لعلهما استُؤجرتا للمناسبة مثل الحانوتي. لم تتكلم أي منهما مع السينيورة بلار، أو حتى فيما بينهما، ولكن هذا طبعاً كان يمكن أن يكون مسألة أتيكيت مُتقن. بعد حضور القداس في الكاتدرائية تقدَّمت كلٌ بمفردها من تشارلي فورتنوم وعرَّفتا بنفسيهما.

«أنتَ السينيور فورتنوم، القنصل؟ لقد كنتُ صديقة حميمة للدكتور بلار المسكين. وهذا زوجي، سينيور إسكوبار».

«اسمي سينيورة فاليخو. زوجي لم يتمكن من الحضور، لكنني لم أحتمل أن أخذل إدواردو، لذا أحضرتُ معي صديقي، سينيور ديوران. ميغيل، هذا هو السينيور فورتنوم، القنصل البريطاني الذي تعرَّض على يد أولئك الأوغاد...».

أعاد اسم ميغيل على الفور إلى ذهن تشارلي فورتنوم صورة الغواراني القاعد القرفصاء عند معبر باب الكوخ، يرعى بندقيته مبتسماً، ثمَّ فكَّر في كومة الثياب المنقوعة بالمطر التي مرَّ بها بينما كان المظليون يحملونه على نقالة. أثناء مروره تدلَّت إحدى يديه ولمست قطعة من شيء مبلل. بدأ يقول: «هل لي أن أقدم زوجتي...؟» لكن السينيورة فاليخو وصديقها كانا قد ابتعدا لتوهما. ورَفعتْ منديلها إلى جفني عينيها ـ بحيث بدا أشبه بحجاب المرأة ـ

ريثما تحين مقابلتها الاجتماعية التالية. وفكَّر تشارلي فورتنوم في نفسه، على الأقل كلارا لاتتظاهر بالحزن، وهذا نوع من الصدق.

وفكَّر: الجنازة تشبه كثيراً حفلتي كوكتيل دبلوماسيتين حضرهما في بوينس ايريس. كانتا جزءاً من سلسلة أقيمت بمناسبة مغادرة السفير البريطاني. حدث ذلك بعد تعيينه قنصلاً فخرياً حين كان مايزال يحظى بشيء من الإعتبار لأنه كان قد صحب شخصيات مالكة في نزهة بين الأطلال. وكان الناس يرغبون بسماع مايدور من أحاديث بين أفراد العائلة المالكة. هذه المرة أُقيمت الحفلة الثانية، بحضور الضيوف ذاتهم الذين رآهم في الكنيسة، في عراء المقبرة.

قال صوت: «اسمي الدكتور سافيدرا. لعلَّك تتذكر أننا تقابلنا مرة مع الدكتور بلار ـ».

أراد تشارلي فورتنوم أن يجيب قائلاً، طبعاً وكان ذلك في منزل الأم سانشيز. أتذكَّرك جيداً وأنت بصحبة إحدى الفتيات. أنا كنتُ مع ماريا، تلك التي طعنها أحدهم.

قال: «هذه زوجتي»، وانحنى الدكتور سافيدرا بأدب وهو يقبِّل يدها. لابدّ أن وجهها كان مألوفاً لديه، ولو فقط بسبب الوحمة التي تعلو جبينها. وتساءل كم عدد الذين يعلمون أن كلارا كانت عشيقة بلار.

قال الدكتور سافيدرا: «يجب أن أذهب الآن. لقد طُلبَ مني أن أقول بضع كلمات على شرف صديقنا المسكين».

تحركَ بإتجاه القبر، وفي الطريق توقفَ ليصافح ويتبادل بضع كلمات مع الكولونيل بيريز. كان الكولونيل بيريز يرتدي البذلة الرسمية ويحمل قبعته بمنحنى ذراعه. كانت له هيئة أشد الموجودين جدّية. ولعله كان يتساءل عن الأثر الذي سيتركه موت الطبيب على حياته المهنية. أشياء كثيرة، طبعاً، تعتمد على موقف السفارة البريطانية. وقد طار شابٌ يدعى كريتشتن، وجهه جديد على تشارلي فورتنوم، من بوينس أيريس ليمثّل السفير (لكون

السكرتير الأول مصاباً بالأنفلونزا وطريح الفراش)، ووقف بجانب بيريز بالقرب من التابوت. ويمكنك أن تقدِّر الأهمية الاجتماعية لشخصٍ مفجوعٍ من مدى قربه من التابوت، لأنَّ التابوت يمثِّل ضيف الشرف. كانت عائلة إسكوبار تخترق طريقها بإتجاهه، وكانت السينيورة فاليخو تقف قريبة بما يكفي لتلمسه بيدها. وظل تشارلي فورتنوم وعكازٌ يسند ذراعه اليمنى واقفاً خارج محيط الصحبة الأنيقة. وشعر بأن مجرّد وجوده شيء يثير السخرية، فهو أفّاق، ولا يدين إلا لموقعه هناك باعتباره بديلاً خطأً للسفير الأميركي.

وعلى هامش المجموعة أيضاً، ولكن بعيداً عن تشارلي فورتنوم، وقف الدكتور همفريز. الذي بدُورهِ بدا غريباً عن المكان وكان يعرف ذلك. موقعه المناسب هو النادي الإيطالي، وجاره المناسب هو النادل النابوليّ، الذي يخشى أن عينه تصيب بالسوء. وحالما لاحظ وجود همفريز خطا تشارلي فورتنوم خطوةً باتجاهه، لكن همفريز تراجع مسرعاً. وتذكَّر تشارلي فورتنوم أنه كان قد قال للدكتور بلار، في وقت من الماضي، أن همفريز يتجاهله، فهتف بلار قائلاً: «يالكَ من محظوظ». كانت أياماً سعيدة، ومع ذلك كان بلار طوال الوقت يضاجع كلارا وكان طفل بلار ينمو داخلها. لقد أحب كلارا وكانت كلارا رفيقة ورقيقة معه. كل ذلك انتهى. لقد كان يدين بسعادته للدكتور بلار. وألقى نظرة مختلسة الى كلارا. كانت تراقب سافيدرا الذي بدأ يتكلم. بدت مُلولةً وكأنَّ المقصود بالتأبين شخص غريب لايهمها أمره في شيء. قال في نفسه، مسكين بلار، حتى هي خدعته.

قال الدكتور سافيدرا: «كنتَ أكثر من طبيبٍ يداوي أجسامنا»، موجِّهاً كلماته مباشرة إلى التابوت الذي كان ملفَّعاً بالعلم البريطاني استُعيرَ بطلبٍ من تشارلي فورتنوم. «كنتَ صديقاً لكل مريض من مرضاك ـ حتى لأفقرهم حالاً. كلُّنا يعرف كيف كنتَ لاتوفر جهداً في عملك في حي الفقراء دون انتظار لمكافأة ـ يحدوك في ذلك إحساسك بالحب والعدالة. أي قَدَرٍ مأساوي

هذا أن تموتَ أنت، يامَنْ عملتَ جاهداً من أجل المُعدَمين، على يَدِ مَنْ يُسمون أنفسهم بالمدافعين عنهم».

قال تشارلي فورتنوم في نفسه: «ياإلهي الرحيم، أتكون هذه هي القصة التي يريد الكولونيل بيريز أن يُشيعهَا؟».

«لقد وُلِدتْ والدتكَ في باراغواي، وكانت من قبل عَدوتّنا العتيدة، وبفضل الـmachismo التي تليق بأسلافك من جهة أمك الذين وَهَبوا دم قلوبهم للوبيز - دون أن يَتقصَّوا عما إذا كان هدفه خيِّراً أم شريراً - خرجتَ الى حتفك من الكوخ، حيث اجتمع أبطال الفقراء المزعومين أولئك في محاولةٍ أخيرة لإنقاذ حياتهم وحياة صديقك. وقد قُتلتُ دون رحمة بيد كاهن متعصب، لكنك كنتَ الرابح - وعاش صديقك».

نظرَ تشارلي فورتنوم عبر القبر المفتوح الى الكولونيل بيريز. كان رأسه المكشوف محنياً، ويداه مضغوطتين إلى جنبيه، وقدماه في الزاوية العسكرية المضبوطة لوضع الإنتباه. بدا أشبه بتمثالٍ من القرن التاسع عشر يمثِّل حزباً بطولياً بينما واصل الدكتور سافيدرا بتأنيبه ترسيخ - أكان هذا ماتحدثّنا بشأنه معاً؟ - الحكاية الرسمية لموت بلار. مَنْ الذي سيفكِّر في تقصِّي مصداقيتها الآن؟ سَينُشرُ الخطاب حرفياً في صحيفة El litoral ولاشك في أن ملخصاً له سيظهر في الـnacion.

«فيما عدا مُغتاليك وسجينهم كنتُ آخر من رآك حياً ياإدواردو. لقد كانت حماساتك تفوق كثيراً إهتماماتك المهنية، وحبك للأدب هو الذي أغنى صداقتنا. في آخر مرة اجتمعنا فيها طلبتَ مني أن أجلس إلى جوارك - وهذا عكسٌ غريب للدور المعتاد للطبيب والمريض - لنناقشَ موضوع إنشاء نادٍ أنكلو - أرجنتيني ثقافي في هذه المدينة، ودعَوتَني بتواضعك المعهود لأن أكونَ أول رئيسٍ له. ياصديقي، لقد تحدثّتَ في ذاك المساء عن أفضلِ طريقة لتعميق الروابط القائمة بين المُجتَمَعيْن الإنكليزي والأميركي الجنوبي. وما كان أقل

علِمْنَا عندئذ بأنه في غضونِ بضعة أيام ستَهَبُ حياتك من أجل هذا الهدف. لقَد تخلَّيت عن كل شيء ـ عن مستقبلك الطبي، وتقديرك للفن، وقدرتكَ على عقدِ الصداقات، والحب الذي نشأت على أن تكنَّه للأرض التي أقمتَ عليها ـ في محاولةٍ لإنقاذ أولئك الرجال من أبناء بلدك الذين أسيءَ قيادهم. إنني أعدكَ ويدي على جدثكَ بأنَّ النادي الأنكلو ـ أرجتيني الثقافي سيعيش، معمَّداً بدم رجلٍ شجاع».

كانت السينيورة بلار تبكي، وكذا فعلتْ، بزخرفة أكبر، السينيورة فاليخو والسينيورة إسكوبار. قال تشارلي فورتنوم: «أنا مُتعبٌ. حان وقت الذهاب الى البيت».

قالت كلارا: «حاضر ياتشارلي».

وبدءا سيراً متئداً نحو سيارتهما المُستأجَرَة.

لمسَ أحدهم ذراع فورتنوم. إنه الهِرْ غروبر.

قال الهر غروبر: «سينيور فورتنوم أنا سعيد جداً بوجودك هنا... سالماً و... ».

قال تشارلي فورتنوم: «ومعافى تقريباً». وتساءل عن مقدار مايعرفه غروبر.، لقد أراد أن يعود إلى أمان السيارة. قال: «كيف الحال في المحل؟ العمل جيد؟».

«سيكون لديَّ الكثير من الصور الفوتوغرافية لأحمِّضها، للكوخ حيث احتجزوك. الكل ذاهبون لمشاهدته. لاأعتقد أنهم دائماً يصورون الكوخ الصحيح. لاشك في أنَّك أمضيتَ وقتاً قلقاً ياسينيور فورتنوم». وشرح قائلاً: «كانت السينيورة فورتنوم دائماً تشتري نظاراتها الشمسية من محلي. لقد وَصلَتني بعض النماذج الجديدة من بوينس ايريس إذا كان يهمها... ».

«نعم. نعم. حين ننزل إلى البلد. يجب أن تعذرنا، هر غروبر. الشمس حارة جداً وأنا أطلتُ الوقوف».

أخذ كاحله يستحكّه بشكل لايُحتمل وهو في رباطه. قالوا له في المستشفى أن الدكتور بلار قام بعملٍ جيد. وفي غضون بضعة أسابيع سيتمكن من قيادة فخر فورتنوم من جديد. وكان قد ألفى اللاند روفر واقفة في مكانها القديم تحت أشجار الأفوكادو، معطوبةً قليلاً، أحد أضوائها منزوع وجهاز التدفئة ملوّى. وبرَّرت كلارا ذلك بأنّ أحد ضباط البوليس استعارها. فقال وهو يستند إلى السيارة ويضغط بيديه على صفيحة مخدوشة: «سأتقدم بشكوى الى بيريز».

«لا، يجب ألا تفعل ياتشارلي، سيسبب هذا متاعب للرجل المسكين. أنا سمحتُ له بأخذها»، ولم يكن الأمر يستحق أن يُناقَش في أول يوم يعود فيه إلى المنزل.

كانوا قد نقلوه إلى المنزل من المستشفى مباشرة مارّين بمشهدٍ بدا كذكرى بلدٍ غادره إلى الأبد ـ الدرب المؤدي إلى مصنع برغمان لتعليب البرتقال، وخط سكة الحديد المهمل معسكر مهجور كان يخص ذات يوم شخصاً تشيكياً اسمه صعب اللفظ. راح يعدُ البُرك التي مرَّ بها ـ لابد أنَّ هناك أربعاً منها ـ وتساءل كيف يجب أن يقابل كلارا.

لم يكن هناك ترحيب حقيقي خلاف القُبْلَة على الخد. ورفضَ أن يستلقي بحجةِ أنه قد أمضى وقتاً طويلاً جداً وهو نائم عى ظهره. لم يستطع احتمال رؤية السَرير المزدوج الذي لابدّ أن كلارا تقاسمته مراراً كثيرة مع بلار بينما كان هو يشرف على المزرعة (وبسبب وجود الخدم كانا يخشيا أن يبعثرا نظام السرير الذي في غرفة الضيوف). جلس وقدمه مدعومة عالياً على الشرفة بجانب طاولة المشارب. كان قد غاب أقل من أسبوع، لكنه بدا كعامٍ طويل بطيء من الفرقة، طويل بما يكفي ليباعد بين شخصين ـ صبَّ لنفسه معيار ريَّان سفينة من لونغ جون. قال، وهويرفع بصره إلى كلارا ويشرب من المعيار المناسب: «طبعاً أخبروكِ؟».

«أخبروني بماذا ياتشارلي؟».

«بأن الدكتور بلار قد مات».

«نعم. الكولونيل بيريز أتى إلى هنا. هو أخبرني».

«لقد كان الدكتور صديقاً حميماً لك».

«نعم ياتشارلي. هل أنت مرتاح هكذا؟ هل أحضر لكَ وسادة؟». وفكَّر أنه بعد كل مضاجعاتهما وخداعهما من القسوة ألا يحظى بدمعةٍ واحدة. كان للونغ جون طعمٌ غير مألوف، لقد أصبح معتاداً على الويسكي الأرجنتيني كثيراً. وبدأ يشرح لكلارا أنه من الأفضل أن ينام وحده في الأسابيع القليلة القادمة في إحدى غرف الضيوف. قال لها إنَّ الرباط حول كاحله يزعجه وأنْ عليها أنْ تنام هي جيداً ـ بسبب الطفل. قالت له نعم، طبعاً، هي تفهم. سيتم مايريد.

والآن، بينما هو ينتقل على عكازه مبتعداً عن المقبرة بإتجاه سيارة الأجرة، خاطبه صوت قائلاً: «بعد اذنك، سينيور فورتنوم ... ». كان الشاب كويتشتن موظف السفارة. قال: «أتساءل إنْ كان في استطاعتي أن آتي إلى مخيَّمك بعد ظهر هذا اليوم. لقد طلب مني السفير ... هناك أشياء معينة يريدني أن أتحدث حولها معك ... ».

قال تشارلي فورتنوم: «يمكنكَ أن تتناول الغداء معنا»، وأضاف: «يسعدنا أن نستقبلكَ»، مفكراً في أن أي شخص، حتى وإن كان رجلاً من السفارة سيساعد على حمايته من الوحشة التي كان سيضطر لولا ذلك إلى أن يشاركها مع كلارا.

«أخشى ... كنت أود ذلك كثيراً ... لكني وعدت السينيورة بلار ... والأب غالفاو. لو أستطيع أن آتي في حوالي الرابعة. لأنني سأستقل طائرة المساء المتوجهة الى بوينس ايريس».

حين عاد تشارلي فورتنوم إلى المخيم أخبر كلارا أنه لن يتناول الطعام من فرط تعبه، وأنه سينال قسطاً من النوم قبل أن يصل كريتشتن. ووفَّرت له كلارا أسباب الراحة ـ فقد تعلَّمت كيف توفِّر الراحة للرجال بقدر ماتفعله ممرضة في

مستشفى. حاول ألا يظهر أن لمسة يدها أثارته وهي ترتب الوسائد. شعر بجلده يشدّ عندما قبّلته على خده وأراد أن يقول لها أن لاتزعج نفسها بذلك. فالقبلة التي تأتي من امرأة غير قادرة على أن تحب حتى عشيقها لاتساوي شيئاً. وسأل نفسه، ماذنبها؟ . . . إنّ زبوناً في ماخور لن يعلّم امرأة الحب. ولأنّ الخطأ ليس خطأها يجب أن يحرص على الاّ يُظهر لها مشاعره. وقال في نفسه، كان أسهل كثيراً لو أنها أحبّت بلار فعلاً. كان في وسعه أن يتخيّل وبسهولة كيف كان سيكونُ الوضعُ لو أنه وجدها محطّمة الفؤاد، والأسلوب الرقيق الذي كان سيواسيها به. وخطرت له عبارات تَرِدُ في الروايات الرومانسية «حبيبتي، ليس هناك مايستدعي المغفرة»، ولكن بينما هو يتسلّى بالتلاعب بالخيال تذكّر أنها باعت نفسها مقابل نظارة شمسية مبهرجة من محل غروبر . .

تركت الشمس المتسربّة من خلال حصر النوافذ خطوطاً على أرض غرفة الضيوف. كانت إحدى لوحات والده عن الصيد معلقة على الجدار، تمثل صياداً يحمل ثعلباً فوق كلاب الصيد الضارية. نظر الى اللوحة باشمئزاز أشاح بوجهه عنها ـ فلم يكن قد قتل أي شيء في حياته، ولا حتى جرذاً.

كان السريرُ مريحاً تماماً، ولكن مع ذلك لم يكن التابوت ذا الملاءات قاسياً جداً حقاً ـ وهو أفضل من سريره في غرفة الحضانة وهو طفل. ثمة هدوء تام، كان يقطعه أحياناً وقع خطى آتٍ من منطقة المطبخ أو صرير كرسي آتٍ من الشرفة. لم يكن يوجد جهاز راديو ليبث آخر الأخبار، ولاأصوات متشاجرة من غرفة داخلية. واكتشف أن الشعور بالحرية شيء موحش جداً. كان يتمنى أن ينفتح الباب، فيرى الكاهن يتقدم منه بخجل، حاملاً زجاجة من الويسكي الأرجنتيني. لقد أحسّ بأن له صِلَة قرابة غريبة مع ذاك الكاهن.

لم تُقَمْ شعائر في جنازة الكاهن. فقد وري الثرى سريعاً في أرض غير مكرّسة، وشَجَبَ تشارلي فورتنوم ذلك. ولو كان علِمَ بهذا الأمر في حينه

لوقف بجانب القبر وقال بضع كلمات كما فعل الدكتور سافيدرا، مع أنه لم يتذكّر أنه ألقى أي خطاب في حياته: مع ذلك كان سيقول لهم جميعاً «كان أبونا رجلاً صالحاً. أنا أعرف أنَّه لم يقتل بلار». لكنه تكهَّن بأن جمهوره عندئذ لم يكن ليتعدَّى اثنين من حفَّاري القبور وسائق شاحنةٍ تابعة للبوليس. وفكّر: على الأقل سأجدُ أين دفنوه وسأضعُ بعض الأزهار هناك. ثم استغرق في نومٍ عميق من شدة الإرهاق.

***

أيقظته كلارا لأنَّ كريتشتن كان قد وصل. بحثت عن عكازة وساعدته على القيام لإرتداء مبذله، ثم خرج إلى الشرفة. أخفض جسمه الى أسفل ليجلس بجانب طاولة المشارب وقال: «تناول كأساً من الويسكي».

«سأله كريتشتن: «ألا توافقني على أن الوقت مبكّرٌ على ذلك؟».

«الوقت لايكون مبكراً أبداً على تناول كأس».

«حسن، إذن واحدة صغيرة جداً. كنت أقول للسيدة فورتنوم ماأرهبَ الوقت العصيب الذي لابد أنها أمضته»، ووضع كأسه على طاولة صغيرة دون أن يرشِف منها شيئاً.

قال تشارلي فورتنوم: «في صحتك».

«في صحتك، ورفع كريتشتن كأسه مرة أخرى كارهاً. لعلّه كان يأمل في أن يتركها على الطاولة دون أن يشربها حتى تحين ساعة الصلاة «ثمة أمور أرادني السفير أن أناقشها معك ياسيد فورتنوم. طبعاً لاأحتاج إلى أ ن أقول لك كم كنّا جميعاً قلقين جداً جداً».

قال تشارلي فورتنوم: «أنا نفسي كنت قلقاً قليلاً».

«يريدك السفير أن تعلم أننا فعلنا كل مافي مقدورنا ...».

«نعم. نعم. طبعاً».

«حمداً لله أنّ الأمور استقامت».

«ليس كل شيء. الدكتور بلار مات».

«نعم. لم أقصد... ».

«والكاهن أيضاً».

حسن، قد استحقّ مانال. هو قتل بلار».

«آه لا، ليس هو».

«ألم تقرأ تقرير الكولونيل بيريز؟».

«الكولونيل كاذب لعين. المظليون هم الذين قتلوا بلار».

«لقد أُجري بحثٌ بعد الوفاة ياسيد فورتنوم، وتمّ التنقيب عن الرصاصات واحدة في الساق. اثنتان في الرأس. ولم تكن رصاصات تخص الجيش».

«تقصد أن جَرّاح اللواء التاسع هو الذي قام بالتقصّي. يمكنك أن تنقل عني مايلي للسفير ياكريتشتن. أنا كنت موجوداً في الغرفة المجاورة عندما خرج بلار، وسمعت كل ماحدث، بلار خرج في محاولة للتحدُّث إلى بيريز ـ ظنّ أنه قد يتمكّن من إنقاذ حياتنا. ثم اقترب الأب ريفاس مني، وقال أنه وافق على إرجاء موعد الإنذار. ثم سمعنا طلقاً نارياً، فقال: «لقد أطلقوا النار على إدواردو» وهرع إلى الخارج».

قال كريتشتن: «وأطلق عليه coup de grace». (رصاصة الرحمة).

«آه لا، لم يفعل. بل ترك بندقيته حيث كنت أنا».

«مع سجينه؟».

«كانت بعيدة عن متناولي. تجادل مع أكوينو في الغرفة الثانية ـ ومع زوجته. وسمعنا أكوينو يقول: «اقتله أولاً» وسمع جوابه... ».

«نعم؟».

«ضحك. سمعته يضحك. ودهشت لأنه لم يكن من النوع الذي يضحك. قد يصدر عنه أحياناً مايشبه القهقهة الخجلى، وليس مايمكن أن تسمِّيه ضحكة، وكان يقول: «ياأكوينو، بالنسبة الى الكاهن هناك دائماً أولويات». ولسبب لم أدرك كنهه وجدتني أتلو: «أبانا الذي ... ». ولستُ من النوع الذي يصلي. ولم أكد أصل إلى «ملكوتك ... » حتى سمعت طلقة أخرى. لا، هو لم يقتل بلار. إنه حتى لم يصل إليه. لقد حملوني ومروا بي بالقرب من جثتيهم. كان يفصل فيما بينهما مسافة عشرة أقدام. وأعتقد أنه لو كان بيريز موجوداً لفكَّر في تعديل وضعهما ليجعل المسافة صالحة للادِّعاء بحدوث coup de grace. أرجو أن تخبره بهذا».

«طبعاً سأخبره بنظريتك».

«إنها ليست نظرية. المظليون هم الذين ارتكبوا حوادث القتل الثلاث ـ بلار، والكاهن، وأكوينو. كانت كما يسمونها تسديدات موفَّقة».

«لقد أنقذتْ حياتك».

«آه نعم. أو هو سوء تسديد أكوينو. في الحقيقة أنه لم يكن لديه إلا يده اليسرى. لقد اقترب من التابوت الذي كنت أستلقي عليه قبل أن يطلق النار. قال: «لقد أطلقوا النار على ليون». ومن شدة توتره فشل في تثبيت البندقية، لكني لاأعتقد أنه كان سيخطىء لو قام بمحاولة ثانية، حتى بيده اليسرى».

«لماذا لم يحصل بيريز على قصتك؟».

«إنه لم يطلبها. وقد قال بلار ذات مرة أنه كان على بيريز دائماً أن يفكر في مستقبله المهني».

«على أية حال أنا سعيد لأنهم قتلوا أكوينو. لقد كان قاتلاً ـ أو هكذا أراد لنفسه»..

«لقد شاهد صديقه يُقتَلْ. يجب أن تتذكر هذا. لقد مرّا معاً بتجارب كثيرة، وكان هو غاضباً مني، فقد عقدت معه صداقة ومن ثم حاولت أن

أهرب. الحقيقة أنه كان يعتبر نفسه شاعراً. كان يلقي على مسمعي قطعاً صغيرة من قصائده وتظاهرت بأنها تعجبني، على الرغم من أني لم أفهم منها أي شيء. مهما يكن، يسعدني أن المظليين اكتفوا بثلاث ميتات. الاثنان الآخران ـ بابلو ومارتا ـ كانا مجرد فقيرين تورطا فيما جرى».

«كانا أوفر حظاً مما يستحقان. لم يكن ينقصهما هذا التورط».

«ربما كان الحب هو السبب. فالناس يتورطون في الحب ياكريتشتن، عاجلاً أو أجلاً».

«ليس هذا عذراً مقبولاً كثيراً».

«لا، لاأعتقد. ليس في مجال الخدمة الخارجية على أية حال».

نظر كريتشتن في ساعته. وربما ارتاح لأن الساعة المناسبة قد حانت. فرفع كأسه، وقال: «أعتقد أنكَ ستتوقف عن ممارسة نشاطك لفترةٍ من الوقت».

قال تشارلي فورتنوم: «على أيةِ حال ليسَ لديّ الكثير لأنجزه هنا».

«بالضبط»، وشربَ كريتشتن كأساً أخرى.

«لاتقل لي إنَّ السفير يريد تقريراً آخر حول الماتيه؟».

«لا. لا. نريدك فقط أن تتعافى على راحتك. في الحقيقة إن السفير سيوجه إليك رسالة خطّية في نهاية الأسبوع، لكنه طلب مني أولاً أن أتبادل معك كلمة. فبعد كل مامررتُ به تبدو الرسائل الرسمية دائماً ـ يعني، مفرطة في الرسمية. أنت تعرف كيف هي. إنها تُكتب لتستقر في الملفات. وتذهب نسخة سرية إلى لندن. ويجب أن تكون شديد ـ الحذر. وقد يطّلع أحدهم في الوطن على الملفات ذات يوم».

«حول ماذا يجب أن يكون السفير حذراً؟».

«في الواقع منذ عام وحكومة لندن تضغط علينا لنقتصد. أتعلم أنهم خفّضوا نسبة عشرة بالمائة من مخصصاتنا من تسهيلات المنصب الرسمي وبات علينا أن نبرز مذكرات تبيِّن أقل إنفاق؟ ومع ذلك فأعضاء البرلمان

الملاعين أولئك لايكفّون عن المجيء ويتوقعون أن يُدعَون إلى الغداء على الأقل. بعضهم يظن أنه يستحق حتى حفلة كوكتيل. والآن أنت، في الواقعِ، لك صولات وجولات. ولو كنتَ منخرطاً في سلك الخدمة لكنتَ تعدَّيت سن التقاعد منذ وقت طويل. وبشكل ما نسي مكتب الوزارة أمرك ـ إلى أن وقعت عملية الإختطاف. سيكون أكثر أمناً لك ـ أن تبتعد عن خط المواجهة».

«فهمت. هذا هو الأمر إذن. هي ضربة موجَّهة إليَّ ياكريتشتن».

«وكأنك لم تحصل قط على أكثر من تكاليفك».

«كنت أستورد سيارة كل سنتين».

«وهذا أمر آخر ـ فبوصفكَ قنصلاً فخرياً لا يحق لك هذا في الحقيقة».

«الجمارك هنا لايميزون. وكل إنسان يفعل هذا، الباراغوائيون، والبوليفيون، والأوروغوائيون ـ».

«ليس كل إنسان يافورتنوم. نحن في السفارة البريطانية نحاول أن نبقي أيدينا نظيفة».

«ربما لهذا لم تتوصل أبداً إلى فهم أميركا الجنوبية».

قال كريتشتن: «لاأريد أن أحمل فقط أخباراً سيئة. ثمة شيء طلب السفير مني أن أخبرك به ـ بسريّةٍ تامة. فهل أحصل على وعدٍ منك؟».

«طبعاً. وإلى مَنْ سأفشي السر؟»، وقال في نفسه، حتى بلار ليس موجوداً».

«يقترح السفير أن يوصي بكَ لمرتبة الشرف في اللائحة المقررة لرأس السنة الجديدة».

كرّرَ تشارلي فورتنوم غير مصدّق: «مرتبة الشرف».

«كموظف على مستوى الامبراطورية البريطانية».

قال تشارلي فورتنوم: «ولماذا، هذا بحق لطفٌ منه يا كريتشتن. لم أكن أظن أنه يحبني ...».

«لاأظنك ستخبر أحداً، أليس كذلك؟ نظرياً أنت تعرف أن كل هذه الأمور يجب المصادقة عليها من الملكة».

قال تشارلي فورتنوم: «الملكة؟ نعم. أفهم. أرجو ألا يجعلني هذا شديد الفخر بنفسي. فكما تعلم كنت مرشداً لأفراد من العائلة المالكة في إحدى المناسبات ـ في جولة بين الآثار. كانوا أناساً طيبين جداً. قمنا بنزهة كالتي قمت بها مع السفير الأميركي، لكنهم لم يتوقعوا مني أن أشرب الكوكا كولا. إنني أحب تلك العائلة. إنهم يؤدون عملاً رائعاً».

«وأنت لن تخبر أحداً ـ ماعدا زوجتك، طبعاً. يمكنك أن تضع ثقتك فيها».

قال تشارلي فورتنوم: «لاأظنها ستفهم على أي حال».

***

خلال الليل حَلُم بأنه كان يرتقي درباً طويلاً جداً مستقيماً مع الدكتور بلار. على كِلا الجانبين امتدت البحيرات lagunas كألواح معدنية تصبح رمادية أكثر مع كل لحظة من ضوء المساء. كانت فخر فورتنوم معطّلة وكان عليهما أن يصلا إلى المخيم قبل حلول الظلام. وانتابه القلق. أراد أن يركض، لكنه آذى ساقه. قال: «لاأريد أن أترك الملكة تنتظر».

سأله الدكتور بلار: «ماذا تفعل الملكة في المخيم؟».

«ستمنحني وسام مواطن الامبراطورية البريطانية».

ضَحِكَ الدكتور بلار، وقال: «بل وسام البيضة الفاسدة».

استيقظ تشارلي فورتنوم مع إحساسٍ بالأسى، والصور ترتفع عالياً بحركةٍ لولبية كقطعةٍ من شريطٍ دبقٍ لاصق، حتى أن كل ماتذكَّره كان طريقاً طويلة وبلار وهو يضحك.

استلقى على ظهره في سرير غرفة الضيوف الضيق، وشعر بسنِّهِ يجثم ثقيلاً على جسمه كملاءة. وتساءل كم من السنين سيمضيها مستلقياً وحيداً

هكذا ـ يبدو زمناً لن ينتهي. ومرَّ مصباحٌ بالقرب من النافذة. كان يعلم أنَّ من يحمله هو أحد الـcapataz ذاهب إلى عمله، في هذه الحال لابدّ أنَّ الفجر قد انبلج. تحرك ضوء المصباح على طول الجدار وأضاء عكّازه الذي بدا أشبه بحرف أوگي كبير معقوف مرسوم على الجدار، ومن ثم أعتم ومضى. وعرف ما الذي سيضيئه المصباح بالضبط الآن ـ أولاً أشجار الأفوكادو، ثم السقيفات وبعد ذلك أقنية الري، بينما الرجال يتجمّعون من كل حدبٍ وصوب للعمل على هدى الضوء الرمادي المزرقّ.

دلّىَ ساقه السليمة خارج السرير ومدّ يده إلى العكّاز. بعد ذهاب كريتشتن أخبر كلارا بالأنباء السيئة عن التقاعد ـ ورأى أنَّ الأمرَ لم يعنِ لها أي شيء. كان دائماً يبدو في عيني فتاة من منزل الأم سانشيز رجلاً غنياً. ولم يذكر لها أي شيء عن وسام الامبراطورية البريطانية. وكما قال لكريتشتن، لن تفهم، وخشي أن تجعل لامبالاتها الأمر أقل أهمية حتى بالنسبة له. ومع ذلك ودَّلو كان بمقدوره أن يخبرها. أرادَ أن يهدم جدار الصمت الذي كان يتعالى بينهما. وسمع نفسه يقول لها: ستمنحني الملكة وسام شرف»، لأنَّ كلمة «الملكة» سوف تعني بلا شك شيئاً لها. ولطالما حكى لها عن نزهته مع العائلة المالكة بين الأطلال.

تقدّم على عكازه بشكل منحرف كسلطعون في الممر بين الرسوم الرياضية، ثمّ مدّ يده في الظلام ليفتح باب غرفة النوم، لكن الباب لم يكن في مكانه وتحرك إلى الأمام داخل ماشعر عن يقين أنه غرفة خالية. لم يكن هناك حتى أوهى صوت لتنفُّسٍ ليكسرَ الصمت. لعلَّه كان يتجوّل وحيداً بين أطلال أخرى. ولكي يتأكّد مرّر يده على الوسادة أماماً وخلفاً، وأحسَ ببرودة ونظافة سريرٍ لم ينمْ عليه أحد. جلس على حافة السرير وراح يفكّر: لقد رحلتْ. دون إبطاء. مع مَنْ؟ مع الـCapataz ياترى؟ ـ أم مع أحد العمال؟ ولم لا؟ إنهم يشبهونها أكثر منه، وفي وسعها أن تتحدث معهم كما

لاتستطيع أن تحدثه. لقد أمضى سنوات عديدة جداً وحيداً قبل أن يعثر عليها ولاموجب للخوف من السنين القليلة الباقية. وأكَّد لنفسه أنه نجح في هذا حتى ذلك الحين، ويمكنه أن ينجح ثانية. ربّما لن يتجنَّبه همفريز في الطريق بعد أن ظهر إسمه في لائحة الذين سينالون وسام الشرف لرأس السنة الجديدة. سيأكلان الغولاش من جديد في النادي الإيطالي وسيدعو همفريز لزيارته في المخيم، وسيجلسان معاً حول طاولة المشارب، لكنَّ همفريز ليس شرِّيباً. وشعر بوخزة ألم لأنَّ بلار قد مات. إنها بغيابها كأنما تخون بلار بقدر ماتخونه هو. وشعر بشيء من الغضب منها إكراماً لبلار. لاشك بأنه كان بوسعها أن تُخلصْ لفترة من الوقت لذكرى رجل ميت ـ كان الأمر سيبدو أشبه بإرتداء ثوب مدة أسبوع أو أسبوعين».

لم يسمعها وهي تدخل، وأجفل عندما تكلمتْ. قالت: «تشارلي، ماذا تفعل هنا؟».

قال: «أليست غرفتي؟ أين كنت؟».

«خفتُ من البقاء وحدي. ذهبتُ لأنام مع ماريا» (ماريا هي الخادم).

«ممَّ خفتِ؟ من الأشباح؟».

«خفتُ على الطفل. حلمت أني أخنق الطفل».

إذن فهي تهتم بشيء كان يفكر فيه، أشبه بوميض من نور في نهاية الظلام الذي يكتنفه. ليتها لاتكون قادرة على ذلك... ليت لايكون كل ماتفعله خداعاً...

قالت: «كانت لي صديقة في منزل الأم سانشيز خنقت طفلها».

«اجلسي هنا ياكلارا»، وأمسك بيدها وشدَّها برفق لتجلس إلى جانبه.

«حسبتُ أنكَ لاتريد أن أقترب منك». لقد ذكرتْ الحقيقة المحزنة كأنها بديهة لاأهمية لها، كما قد تقول امرأة أخرى: «حسبتُ أنَّكَ تفضِّلني بثوب أحمر».

«ليس لي غيرك ياكلارا» .

«هل أضيء المصباح؟» .

«لا ، سيطلع النهار قريباً . قبل قليل رأيت الـcapataz متوجهاً الى عمله . كيف حال الطفل ياكلارا؟» . كان يعلم أنه لم يكد يذكر الطفل منذ أن عاد إلى المنزل . وشعر كأنه يعود لتعلُّم لغة لم يتكلمها منذ أيام طفولته في بلد آخر .

«أعتقد أنه على مايرام، ولكن أحياناً يكون من الوداعة بحيث ينتابني الخوف» .

قال آلياً ودون تفكير : «يجب أن نحضر لك طبيباً جيداً» . أطلقتْ صوتاً كصوت كلب وطأ أحدهم على مخلبه ، أو شهقة مَنْ تلقّى صدمة ـ أم هل كان ألماً؟ .

«أنا آسف ... لم أقصد ... » . كان الظلام مايزال حالكاً فلم يرها . رفع يده وتلمَّس حتى عثر على وجهها . كانت تبكي : «كلارا ... » .

«أنا آسفة ياتشارلي ، أنا تعبة» .

«أكنتِ تحبينه ُياكلارا؟» .

«لا ... لا ... أنا أحبكَ أنت ياتشارلي» .

قال لها : «لا إثمَ في الحب ياكلارا . إنه يحدث . ولا يهم كثيراً مع مَنْ . إننا نَعْلَق» ، وتذكَّر ماكان قد قاله للشاب كريتشتين ، فأضاف : «ونُختَطَفْ» ، محاولاً أن يلقي نكتة ضعيفة ، «خطأ» .

قالت : «إنه لم يحبني قط . لم أكن بالنسبة له أكثر من فتاة من منزل الأم سانشيز» .

«أنتِ مخطئة» ، وكأنه يلتمس سبباً ، وكان يمكن القول أنه يحاول أن يقرِّب من وجهتي ّنظر اثنين من الشباب» .

«أرادني أن أقتل الطفل».

«تقصدين في حلمك؟».

«لا. لا. كان يرغب بموته. أراد ذلك فعلاً. عندئذ أدركتُ أنه لايمكن أن يحبني»..

«لعله كان قد بدأ ياكلارا. إن بعضنا... بعضنا بطيء التصرُّف... ليس من السهل أن نعشق... ونحن نرتكب الكثير من الأخطاء»، وواصل كلامه لمجرد أن يقول شيئاً: «أنا كرهتُ والدي... ولم أحب زوجتي كثيراً... لكنهما لم يكونا من النوع السيء... هذا فقط أحد أخطائي. بعضنا يتعلم أن يقرأ بسرعة أكبر من غيره... تدْوأنا كنا معاً سيئين في حفظ الأبجدية. وحتى الآن لست أفضل حالاً. كم أخجل حين أفكر في كل الأخطاء التي ربما تحتويها كل تلك الملفات الموجودة في لندن»، وتابع تخبُّطه، مُصدِراً ضجيجاً إنسانياً في الظلام على أمل أن يعيد الطمأنينة إليها.

«كان عندي أخ أحببته ياتشارلي. وبين ليلة وضحاها لم يعد له وجود. استيقظ ليذهب ويشارك في حصاد القصب، لكن أحداً من عمال الحقول لم يره. اختفى فجأة. أحياناً وأنا في منزل السينيورة سانشيز كنت أفكِّر قائلة، لعله يأتي إلى هنا بحثاً عن فتاة وعندئذ يجدني ونرحل معاً».

وأخيراً بدا أن نوعاً من التواصل قد بدأ ينشأبينهما، وحاول جاهداً أن يُبقي الخيط الرفيع سليماً. «ماذا سنسمِّي الطفل ياكلارا؟».

«إنْ كان ولداً ـ أتحب اسم تشارلي؟».

«يكفي تشارلي واحد في العائلة. أعتقد أننا سنسميه إدواردو. في الحقيقة لقد أحببتُ إدواردو بشكلٍ ما. كان لصغرِ سنِّه يصلح أن يكون ابني».

وضع يده بحركةٍ مترددة على كتفها وأحس بجسمها يهتزّ من النشيج. أراد أن يواسيها ولكن لم يعرف كيف يفعل ذلك. قال: «لقد أحبَّك بحق على طريقته ياكلارا. أنا لاأقصد أي شيء مسيء...».

«ليس صحيحاً ياتشارلي».

«ذات مرة سمعته يقول أنَّه يغار منّي».

«أنا لم أحبّه قط ياتشارلي».

كِذبُها لم يعد يعني له أي شيء الآن، واضحٌ تماماً أنه يتناقض مع دموعها. وفي علاقةٍ مثل هذه يكون الكذبُ هو الأفضل. وشعر بإرتياحٍ عظيم. وكأنما، بعد مرور وقتٍ لانهائي من الإنتظار القَلِقَ في غرفة انتظار الموت، جاءه مَنْ يأتيه بأخبارٍ طيبة لم يتوقع قط أن يسمعها. فثمّة مخلوقٍ أحبَّه سيعيش. وأدرك أنها لم تكن في أي وقت مضى أكثر قُرباً منه مما هي الآن.

- انتهى -

القنصل الفخري

إنها رواية محبوكة وحزينة النغمات وكأنها سيمفونية لموزارت.

التمايز

في قرية أرجنتينية خطف الثوار بالخطأ القنصل الفخري شارل فوتنام الذي يبلغ الواحدة والستين من عمره، وهو مدمن على الويسكي ويعاني من وضعيته كقنصل فخري متزوج من كارلا العاهرة السابقة الشابة القادمة من ماخور سينيورا سانشيز. لقد أبدع غراهام غرين بسلاسةِ روايته للأحداث وبالولوج للأوضاع التي نشأت من خلال حادث الاختطاف وتأثيره على الدكتور إدوارد بلار الذي تغلبه عواطفه المتناقضة، لأن بلار كان عشيق كلارا، لكنه يحسد حب فوتنام وحاجته لها، وبكل تردد ينجر وراء الكوميديا التراجيدية.

يستمر التشويق على امتداد الرواية، مما يدفع القارئ لمتابعة القراءة صفحة بعد صفحة ليصل لنهاية الأحداث.

أوبورن واف

في جريدة ستاندال المسائية

إن النثر نشيد رهباني أنيق محكم وغني. إن الشخصيات الثانوية كانت ممثلة بروعة فائقة وسخرية مبدعة، وقد تكون هذه الرواية من أكثر الروايات المتماسكة التي كتبها غراهام بهذه المهنية غير المسبوقة.

الدايلي ميل